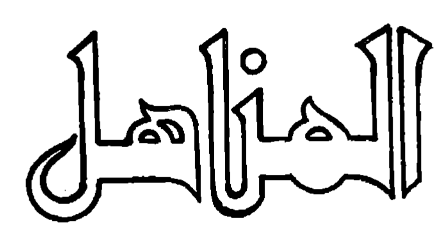
المناهل



12





تصدرها
وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية
الرباط - المغرب

العدد الثاني عشر
السنة الخامسة

شعبان 1398
يوليو 1978

تهنئة "المناهل" بعيد الشباب

يصدر هذا العدد الثاني عشر من مجلة "المناهل"، والمملكة المغربية قاطبة في غمرة من البهجة والإغتباط والمسرات، احتفالا بعيد الشباب المجيد، واعرابا عما يكنه جميع المغاربة من محبة وولاء واعتزاز واكبار لعاهلهم العظيم.

وتغتنم أسرة "المناهل" محررين وكتابا وقراء، فرصة حلول هذه الذكرى العزيزة عليهم، لترفع آيات التهاني والتبريك، إلى قائد المغرب المجدد ومبدع أمجاده ومسيرته، صاحب الجلالة الملك المعظم الحسن الثاني المؤيد المنصور بالله.

واذ ترفع أسرة "المناهل" أسمى عواطف محبتها وولائها وتعلقها المكين بشخص جلالته، تضرع الى الله سبحانه أن يعيد عليه هذا العيد السعيد وعلى أسرته بأعظم المسرات، وأن يطيل عمره، ويقر عينه بولي عهده صاحب السمو الملكي الأمير الجليل سيدي محمد وبصنوه الأمير المحبوب مولاي رشيد، واخواتهما الأميرات الجليلات، وأن يحقق بما وهبه الله من عبقرية وحكمة وتوفيق ما يطمح اليه شعبه من واسع الآمال.

فهرس

صفحة

مكانة أبي تمام

في الشعر العربي وشعرائه

د. عبدالله الطيب

ولد أبو تمام حبيب بن أوس الطائى بالشام فى جاسم ، احدى قراها فى سنة ثمان أو تسع وثمانين أو سنة تسعين أو احدى وتسعين أو اثنتين وتسعين ومائة وتوفى بعد أربعين سنة من مولده فتكون وفاته فيما بين ثمان وعشرين ومائتين واثنتين وثلاثين ومائتين للهجرة . قالوا وكان الفيلسوف الكندي قد تنبأ له بأنه سيموت شابا والخبر معروف وذلك أنه مدح أحمد بن المعتصم بقصيدته السينية : « هل فى وقوفك ساعة من باس » فقال فيها :

اقدام عمر فى سماحة حاتم فى حلم احنف فى ذكاء اياس

فعاب عليه الكندي هذا التشبيه فانتصر بقوله :

لا تنكروا ضربى لـــه من دونه   مثلا شرودا فى الندى والباس
فالله قد ضرب الاقل لنـــوره   مثلا من المشكاة والنبـــراس

فعجب الكندي من ذكائه وتنبأ له بما ذكرنا . وقد كان ابـــو تمام فى شعر العرب معلما . وكان ذا خطر عظيم اثر فى النقـــد ومقاييس الجودة وتطور القصيدة العربية اثرا عظيما .

كان الشعر العربى فى الجاهلية وصدر الاسلام الى عصر بنى أمية بدويا فى شكله وروحه . وكان هذا مذهب العرب اختـــاروه لادائهم الشعري وساروا عليه سيرا متلئبا محكما . وكانوا ، بدوهم مكملين لحضرهم ، وحضرهم مكملين لبدوهم . وحتى بعد تمصير الامصار زمان الخلفاء الراشدين وأيام بنى أميـــة ظلت بداوة العرب مادة لحضارتهم . نعم تضعضعـــت منزلـــة الشاعر عما كانت عليه فى ايام اوج ذروته زمان الجاهلية ، كان شيئا بين الخطيب والممثل ، وفى أخبار جرير والفرزدق وابـــى النجم والعجاج ما يدل على ذلك . مع هذا كان الشاعر لســـان قبيلته وعصبيته . خبر الاخطل والجحاف بن حكيم مثلا ممـــا ينبىء ببعض ذلك .

شهد القرن الثانى ولا سيما بعد استقرار النظام العباسى انفصاما بين البداوة والحضارة على نحو لم يكن فى العـــصـــر الاموي . لم تعد البداوة مادة لقوة الحاضرة واماراتها وخلافتها.

كان علماء اللغة لا يزالون يلتمسون أصل مادة العربية فى البادية. ولكن فصاحتها التى كان يستشهد بها ويعول عليها كان زمانها قد انتهى . لم يكن بشار وجيله مثل جرير وجيله ، لا ولا مثل الجيل الذين تلوهم من أمثال ذي الرمة، ورؤبة والكميت والطرماح، كانوا مرتبطين بالمصر والحضر ، منفصمين كل الانفصام عن البداوة . نعم كانوا فصحاء ، الا انهم لم يكونوا للعروبة وللعربية بمادة ، وبعضهم ربما استشعروا روح ثورة على العلية العربية عبروا عنها بالهجوم الذي عرف فى تاريخ الفكر والمجتمع باسم الشعوبية . وفى شعر أبى نواس بعض التجاوب مع هذا الروح المعادي للعرب مثل قوله :

تبكى على طلل الماضين من أسد   لا در درك قل لى من بنو اسد
ومن تميم ومن قيس ولفهما   ليس الاعاريب عند الله من احد

كانت محاولات عصر المحدثين كلها تعبر عن الاحساس بصعوبة فنية فى ميراث القصيدة الذي صار اليهم من القدماء . معدن هذه الصعوبة الفنية هو بداوة القصيدة فى شكلها وروحها وخلفيتها ، قالوا التمس النابغة من زهير ان يجيز له قوله :

تراك الارض اما مت خفا   وتحيى ان حييت بها ثقيلا

فقال له زهير : اخرج بنا الى البرية فان الشعر بري . قالوا وأجاز البيت كعب بن زهير بقوله :

وذاك بأن حللت العز منها   فتمنع جانبيها لن يزولا

قالوا وكان النعمان ألزم النابغة أن يضيف بيتا الى بيته الاول حتى لا يكون كأنه هجاء .

واول ما راموا به تذليل هذه الصعوبة ان « يحضروا » الشعر ، حاول ذلك بشار وجيله وكانوا يعلمون ان مدح الخلفاء والامراء لابد فيه من التفخيـــم ، فاصطنعـــوا ازدواجيـــــة فى الاسلوب من شواهدها مثلا ميمية بشار التى يقول فيها :

اقـــول لبسام عليـــه سكينـــة   غدا أريحيـــا عاشقا للمكـــارم

وشعره فى الغزل ، وقصائد أبـــى نـــواس فى المـــدح وشعـــره فى المجون ، ومن امثلة ترقيق البداوة قول لبشار :

وصفراء المعاصـــم من معـــد   كان حديثهـــا قطـــع الجمـــان

اذا قامـــت لحاجتـــها تثنـــت   كـــأن عظامها مـــن خيـــزران

من اهم محاولات تذليل صعوبة القصيدة الفنيـــة مـــا صنعه بشار هذا وهو اتجاه سطحـــى ، ومنهـــا محاولتا السيد الحميري وأبى العتاهية ، كلاهما التمس أن يجعـــل الشعـــز شعبيا ، هذا بتشيعه وهذا بزهدياته وايثاره اللين من التعابيـــر . وقد وغق أبو نواس الى قدر كبير من الاجادة فى خمرياته وذلك انه احتفظ فيها بالجزالة القديمة واضاف الى ذلك مذهب العلماء والفلاسفة فى زمانه ، ابو نواس كان حقا اول من اتجه اتجاها تجديديا خطيرا فى القرن الثانى ، وذلك أنه فطن الى ان الروح

البدوي والجزالة والعناصر التى يستمد الشعر العربى منهـا خلفيته يمكن أن يحتفظ بها فى نطاق العلية العربية التى كانـت تمثلها الخلافة على مستوى المنادمة . عيب هذا النـوع من التجديد الذي جاء به أبو نواس أنه كان ضيق النطاق . ثـم لا يخفى ان موضوع الخمر انما كان يتقبل على أنه شىء ادبى محض ، نعنى بذلك انه تقليد لادباء الجاهلية فى الاسـلوب والاوصاف لا فى أصل الاخلاق لحرمة الخمر . شاعر آخـر وفق الى قدر كبير من الاجادة هو مسلم بن الوليد ، وكان أبـو نواس أقوى ملكة فى الشعر منه الا انه أصاب مـن اتساع النطاق بالنسبة الى موضوع القصيدة وأخلاقياتها ما لم يصبه أبو نواس ، وذلك أنه عول على قصيدة المدح وخص بمدحـه سادة عربا وحرص على أسلوب جزل ولكن تعمد ان يرقـق بالصناعة اللفظية . هذه المحاولات التى سبقت أبا تمام لم تحل صعوبة البداوة والجزالة التى وقف أمامها الشعراء مضطربين أيما اضطراب . يضاف الى هذا أن منزلة الشاعر قـد صارت الآن الى درك وقاع بالنسبة الى ما كانت علـيـه حال جرير والفرزدق والجيل الذي تلاهم من الـعـرب . كان الشعراء مسلين للخلفاء والامراء ولكنهم لم يكونوا ذوي الخطر الـذى كان للشعراء أيام بنى أمية ، دور الدعاية كان الآن يقوم به الوزراء والكتاب .

تولى أبو تمام مواجهة الصعوبة التى أخفق أمامها بشار مع فصاحته وعظيم ذكائه وتمكنه من جزالة العرب ، وأخفـق

أمامها أبو نواس مع ملكته الخارقة وذوقه الرفيع ، وأخفق أبو العتاهية والسيد بشعبيتهما وجرأتهما . الذي أصاب بعض النجاح ازاءها كان مسلم بن الوليد ، ولكن نجاحه كان محدودا غير بعيد المدى ، الا أنه لمس فيه جانبين هامين جدا ، الاول أنه تغنى بأمراء عرب وقيم عربية ، مثلا قوله :

الزائديون قوم فى رماحهم
خوفا لمخوف وامن الخائف الوجل

فضمن بذلك لشعره روحا لا شعوبيا ، والثانى أنه عول على قصيدة المدح صريحة فى المدح ، وهى بلا ريب أقوى ركنا وأقدر على البقاء من الاصناف التى انما هى كفروع منها كالغزل ووصف الخمر والملح والمجون والسخف والهزل . الا ان مسلما صنع ما صنع بنوع من تلقائية وغرزية وعدم المام كامل بطبيعة الصعوبة ووجه علاجها ، صنع الذي صنعه كأنه طرف مما كان معاصروه آخذين به من ضروب الابداع والتجديد . أما ابو تمام فقد كان مدركا لطبيعة الصعوبة تمام الادراك أعانه على ذلك ذكاء خارق ونشأة بدوية المعدن انسانية البيئة ، واسعة التجربة ، اذ ولد بالشام وتعلم فى مصر ثم انتجع العراق ، وبذكائه حصل تحصيلا عزيز النظير . تردد الدكتور طه حسين رحمه الله فى قبول خبر تأليفه الحماسة والاختيارات الأخر حين حبسه الثلج بخراسان . ولكنا اذا تذكرنا تحصيله وحفظه عن ظهر قلب أكثر ما اختار لم نستبعد صحة ما رووه لنا . هذا ومع الذكاء والتجربة كان ابو تمام

ذا ملكة فذة وشاعرية واقدة . يزعمون عن البحتري انه قال ما مات حبيب الا بعد ان أصفى ، وليس على ذلك دليل الا عجز البحتري ان صحت هذه الرواية عنه ، ان يتصور أنه فى الامكان ان يخترع ابو تمام زيادة على ما قد اخترع استعظاما لشأنه ، وفزعا من انه لو كان قد طال عمره لقصرت ملكته هو وصناعته عن تتبعه وتقليده كل التقصير .

ادرك أبو تمام ان قصة الشعر العربى هى قصة بداوته وان هذه البداوة قد انتهت مادتها الاصلية التى كانت تغدو مجتمع العرب بشطريه الحضري والاعرابى ، انها فى واقع الدنيا ، قد صارت أمرا متحفيا يقصده تلاميذ الخليل ابن احمد طلبا للمفردات والاوابد ، وادرك ان الحل الصحيح لا يكون بترقيقها لان هذا فيه مخالفة للاصل الذي بنى عليه الشعر وهو أنه بري وحشى . هذه البرية والوحشية لا تلتمس ضربة لازم فى رمال الصحراء ، ولكنها يمكن ان تلتمس فى الفكر والفن او كما قال :

ولو كان يغنى الشعر أفناه ما قرت
حياضك منه فى العصور الذواهب

ولكنه صوب العقول اذا انجلت
سحائب منه أعقبت بسحائب

(قرت أى جمعت) . بداوة العرب التى هى مادة الشعر ومادة العروبة موجودة فى ميراث الادب واللغة والاخبار والعلم

الذي جاء عن العرب ، والشاعر مدون لمآثر العرب ، هذا دوره وواجبه وحتم عليه محتوم ومصير ليس له عنه محيد . الشاعر عليه اذن ان يلتمس البداوة فى نماذج الشعر القديم واخباره ، وأن تكون رسالته الاولى التعبير بصدق وجد فكري شبيه بجد البداوة الشعرية القديمة فى الروح والاصالة . هذا الجد والصدق الفكري سيرتفع به من وهدة الانحطاط التى انهار اليها فى المجون واللين العتاهى ، والرفض وسب الصحابة الذي عند السيد وخمر ابى نواس ولواطه ولواط الخليع وسخف ابن ابى حكيمة وهزل أبى الشمقمق وجفاء شعراء المذاهب الفلسفية والعلماء وهلم جرا . على أن الاصالة القديمة كان لها حمى وسند ومعين من مادة العرب حين كان السلطان سلطان عصبيتهم ، وكان الشاعر القديم يمدح ويثاب ويفخر بنجحه بنو عشيرته وشعبه. وعول أبو تمام على ان يجد لبداوة فكره العلمية الفنية فى أبناء بداوة الفكر مادة وعشيرة . ابناء بداوة الفكر هؤلاء هم الادباء ذوو بداوة الفكر العلمية الفنية كمثله هو او كمثل قريب من مذهبه . باسم هؤلاء جعل أبو تمام ينظم قصيدة المدح كما كان يصنع زهير والنابغة فى الدهر الاول ، وجرير والفرزدق فى زمان بنى أمية . قصيدة المدح ، لا الخمرية ولا الغزلية البشارية الفاجرة ولا الاخرى الفاسقة الداعرة ، ولا الزهدية اللينة ، هى الشعر الذي يبقى ويوجد فيه مخرج التعبير الصادق الصحيح .

من ههنا أصاب حبيب وأخطأ دعبل اذ التمس ان ينقذ الشاعر بالتحدي وهجاء الرؤساء ويطلب حماية لنفسه فى هذا

المسلك بالتشيع ، وقد كشف حقيقة كذبه فى التشيع أبو العلاء فى رسالة الغفران . مع ملكته الجيدة غطن لبعض حل المشكلة انــه الرجعة الى الجزالة والارتفاع بقدر الشاعر . اختلاف دعبل مع مسلم كان فى أساسه فنيا لانه لم يكن يرى صواب ترقيق البداوة وتذليل حواشيها ، ومع ابى تمام كان غيرة واستغرابا لهذه البدعة المذهبية ذات التوحش والتبدي الذي ما عهدته العرب فى بيانهــا اللفظى وليس بمذهبها . نجاح ابى تمام فى هذا المذهب الوحشى الحزن الذي ابتدعه مما قد هاج عليه عداوة دعبل على مستوى فنـــى فكرى وآخر شخصى حاسد حاقد عنيف .

أبناء الفكر ، فكر بداوة الفــن والعلــم ، بــداوة ترفـــــع فوق جهالة محض الشعبية والدهماء ، هم صاروا عشيرة وسندا لابى تمام لانه نطق بلسانهم ، ولم يعول على عصبية من الشيعة كدعبل مثلا ، ولم يتداع الى السخف والمجون. وقف كريما نبيلا ينطق باسم هذه القبيلة الجديدة ، العربية الروح اللاشعوبية الفكر والولاء والمزاج ، التى صار اليها الآن غير قليل من الجاه والسلطان ، ولا سيما أيام الوزيرين الخطيرين محمد بن عبد الملك الزيات ، واحمد بن أبى دؤاد . الى هذين اتجه نظر أبــى تمام والى من كان يعينهما من الكتاب والادباء امثال الحسن بن وهب والحسن بن رجاء ، والى القواد العرب الذين ارتبطــوا بعهد الولاء لبنى العباس ، منذ ايام ابى العباس وأبى جعفــر كآل حميد وأبى سعيد الثغري وأبى دلف العجلى وآل بنى زائدة ويزيد بن مزيد وبنى طوق وغير هؤلاء من رجــالات الدولــة

كالافشين مثلا . ولامر ما زعم أبو عثمان انه التمس الشعر عند العلماء والرواة كالاصمعي فما وجد لديهم الا المعرفة باخباره وغريبه وما اشبه وما وجد ذوق الشعر ومعرفته حقا الا عند الكتاب . ولما صارت لهؤلاء دولة أعانوا بسندهم الادبى وترشيحهم النافع عند الخليفة وكبار دولته ، شاعرهم ، الذي كان الممثل الحقيقى لهم والناطق المبين عن لسان حال سلطان فكرهم وثقافتهم ،أبا تمام . وقد سجل أبو تمام فهمه هو وفهمهم هم لدور الشاعر فى ذلك المجتمع بقوله مثلا :

ولولا خلال سنها الشعر ما نرى بغاة الندى من أين تؤتى المكارم

وبقوله مثلا :

ان القصائد والمساعى لم تزل مثل الجمان اذا أصاب فريدا
هى جوهر نثر فان فصلته بالنظم صار قلائدا وعقودا
من أجل ذلك كانت العرب الالى يدعون هذا سؤددا محدودا
وتند عندهم العلى الاعلى جعلت لها مرر القصيد قيودا

(قوله الالى الاولون ومرر القصيد أي قواه جمع مرة بالكسر اى قوة)

كما سجل حثه واستثارته لهم ليكونوا للشاعر عونا حتى يسترد منزلة الكرامة فى المجتمع التى فقدها منذ أن كان بشار وابناؤه المحدثون باصناف زندقتهم ولينهم ومجونهم ومديحهم

الاجوف جد رحى ابن هانىء ، الاندلسى طاحنة القرون ، مثــلا قــولــه :

أبــا جعفــر ان الجهالة امــهــا
ولود وام العلــم جداء حائــــل
ارى الحشو والدهماء أضحوا كأنهم
شعــوب تلاقــى دوننــا وقبائــل
غدوا وكأن الجهــل يجمعهم بــه
أب وبـــنو الآداب فيهم نواقل

اي غـــربــاء

فــكن هضبة نــأوي اليها وحــرة
يعرد عنــها الاعوجــى المــناقــل
أبــا جعفــر ان الخليفة ان يكــن
لــو اردنــا بحــرا فانــك ساحل

الاعوجــى ، الحصان الجواد ويعرد يهرب والحــرة بالفتـــح أرض فيها حجارة سود والمناقلة من سير الخيل ..

هذا ، وما اخال الجفوة بين ابى تمام وابن ابى دؤاد كان سببها ما ذكروا من وقيعة أبى تمام فى مضر ولعل هذا انمــا كان طرفا من الامر غير كبير الاهمية وسبب الجفوة الحقيقى

ما كان الا اتصال الشاعر بابن الزيات اتصالا بدأ به كأنه من حزبه ، وقبول ابن أبى دؤاد اعتذار أبى تمام آخر الامر أحـل الشاعر محلة الحياد .

جعل أبو تمام قصيدة المدح لسان شعره الجديد وجعل شكلها على نموذج من شكل قصيدة المدح القديمة ، وذلك انه قد فطن الى ان قصيدة المدح القديمة كلا طللها ونسيبها كانا مـع كونهما نابعين من النظر الى بيئة اهل العمود ، اشكالا فنية رمزية ارتضاها القدماء مظهرا للشعر ، ليزعموا له البداوة ويتيحوا له من تتقمص خشونتها مزية الاقدام على خشونـة الصدق والافصاح به عند مواجهة المجتمع . ولم يكن العرب كلهم نازلة عمد ، اذ كان منهم أهل الحضر ونازلة المدر . واذا جاز للشاعر القديم ان يتخذ الطلل والنسيب رمزا ، فان أبا تمـام لم ير بأسا بأن يعود الى ذلك الرمز فيستعمله استعمالا جديدا والى روح جزالة القدماء وخشونة بداوة مظهرها الفنى فيبعث كل ذلك بعثا جديدا بدعوى ان بداوة العلم بلغة العرب وماضى أخبارهم وآثارهم مادة لعالم الفكر والحضارة فى عهد بنـى العباس كما كانت بداوة الصحراء مادة لدولة العرب وعصبيتهم فى زمان بنى أمية .

قال أبو تمام فى قصيدة يـمـدح ابن الزيات فى أبيات نـهـايتهـا :

ان الخليفـة قـد عـزت بـدولتـه
دعائـم الملك فليـعـزز بـك الادب

خذهـا مغربـة فى الارض آنـسـة
بكـل فهـم غريـب حين تـغتـرب

من كل قافية منها اذا اجـتـنيـت
مـن كل ما يشتهيه المدنف الوصـب

والمدنف الوصب هو عاشق النسيب ، جعله أبو تمام ههنا رمزا لمحب الشعر الفحل الجزل ، ولا يخفى انه ضمن معنى القافية تشبيها خفيا لها بغادة النسيب الفاتنة :

الجـد والهـزل فى توشيـع لحمتهـا
والنبل والسخف والاشجان والطـرب

وهذه الاصناف الستة التى ذكر هى أغراض الشـعـر قديمه ومحدثه ، الاشجان والطرب للنسيب والاطـلال والنبـل للمدح والفخر والجد للحكمة وما بمجراها والـهـزل لاوصاف النساء وما أشبه والسخف ما أخذ فيه المحدثون من المجون مثل سنوريات ابى الشمقمق وشناعات ابن ابى حكيمة .

لا يستقـى من حفير الكتب رونقهـا
لكنهـا تبتقـى من بحرها الكتـب

وتأمل استعارة الحفير للكتب والحفير مستقى أهل البدو، وهذا يقوى عندك ما زعمناه آنفا من ان شاعرنا لما وجد البداوة

الصحراوية قد انفصمت عن الحواضر العباسية التمس الوصل الذي لا ينفصم بين البداوة المستفادة من اصالة التراث والحضارة المستفادة من وقائع العصر .

حسيبة فى صميم المدح منصبها
اذ اكثر الشعر ملقى ما له حسب

وكان أبو تمام يعلم انه مجدد وان تجديده حدث فى تأريخ الادب خطير فلم يتردد ان يشير الى ذلك تلميحا او تصريحا مع أدب وتهيب يناسبه فى قصائده التى مدح بها الخليفة مثل قوله :

لقد لبست أمير المؤمنين بها
سمطا نظاماه بيت سار أو مثل

والمخاطب أمير المؤمنين المعتصم بالله ؛ ومثل قوله فى « السيف اصدق » :

فتح الفتوح تعالى ان يحيط به
نظم من الشعر او نثر من الخطب

وفى الرائية « الحق ابلج » فى آخرها يخاطب الخليفة .

سور القرآن الغر فيكم أنزلت
ولكم تصاغ محاسن الاشعار

وأشار الى ذلك فى قوة واعتزاز فى قصائده التى مدح بها من هو دون الخليفة من الولاة والقواد والوزراء ، اذ كان عند نفسه نظيرا لهم فى الاهمية ولعلهم فى قرارة نفوسهم كانوا يرون أن له من مكانة الفضل نحوا من ذلك . تأمل مثلا قوله :

خذهـا مهذبـة القوافـى ربهـا
لسوابـغ النعمـاء غيـر كـنـود

كالطعنـة النجـلاء مـن يد ثائـر
بأخيـه أو كالضربـة الاخـدود

كشقيقـة البـرد المنمنـم وشيـه
فى أرض مهـرة أو بـلاد تزيـد

يعطـى بها البشرى الكريم ويحتبـى
بـردائهـا فى المحفـل المشهـود

بشرى الغنى أبى البنـات تتابعـت
بشـراؤه بالفـارس المولـود

وقولـه :

خذهـا ابنـة الفكر المهذب فى الدجى
والليـل أسـود رقعـة الجلبـاب

بكرا تـورث فى الحيـاة وتغتـدى
فى السلـم وهى كثيرة الاسـلاب

ويزيدها مـر الليـالـــى جـــدة
وتقــادم الايــام حســن شبـــاب

وبكـــر النسيب التى وصفها بقوله :

أطاعها الحسن وانحــط الشبــاب على
قوامها وجرت فى وصفها النســب

ألقت نقابا على الخديــن وانتسبــت
للناظرين بقــد ليــس ينتســب

كانت لنا ملعبا نلهــو بزخرفـــه
وقد ينفس عن جد الفتــى اللعــب

كأنه ما عنى بها الا قصيدته وقوله « نلهو بزخرفه » ممــا يشهد بذلك لان نسيب القصيدة وطللها ما كانا عنده الا وشيــا وزخرفا انتزعه الاوائل من واقع البداوة الوثيقة الارتباط بأهل القرى ، وهو ينتزعه من واقع بداوة العلم والفكر .. وهى الفطرة الاولى التى ينبع منها الصدق والخير والبداوة الحقيقية القدمى الجزلة الاصالة والروح . تأمل قوله :

طلل الجميع لقد عفــوت حميـــدا
وكفــى على رزئى بذاك شهيــدا
أذكرتنا الملك المضلــــل فى الهــوى
والاعشيــين وجــرولا ولبيــــدا

حلـوا بهـا عقد النسيب ونمنمـــوا
مـن وشيهم رجـزا وقصيـــدا

ومحل الاستشهاد هنا قوله « ونمنموا من وشيهم » ــ هذا، وكما كان القدماء يتوصلون بالنسيب الى وصف الطبيعة توصل به هو أيضا الى ذلك ، فوصف المطر والروض والشتاء والربيع . أليس عنترة قد وصف الروضة وهو يصف ثغر عبلة فقال :

وكـأن فـأة تـاجـر بقسيمـــة
سبقت عوارضهـا اليـك من الفم

أو روضـــة أنفـا تضمـــن نبتهـــا
غيث قليل الدمن ليـس بمعلـــم

ثم افتن فى وصف الروضـــة .

من ذلك قصيدة أبى تمام فى وصف الربيع المشهورة التـــى مطلعهـــا :

رقـت حواشى الدهر فهـى تمرمـر
وغـدا الثـرى فى حليه يتكســر

وقد اتكأ عليها أبو عبادة البحتري أيما اتكاء فى كلمته « أتاك الربيع الطلق » وغيرها ، وكان الطائى الاصغر مما يكثر الاتكاء

على الطائى الاكبر رحمهما الله ، هذا ومن ذلك بائيته فى ابـــن الزيات التى جعل مبدأها فى نعت الغيث :

ديمـــة سمحـــة القيـــاد سكــــــوب
مستغيث بها الثـــرى المكـــــروب

لو سعت بقعة لاعظـــام نعمـــــــى
لسعى نحوها المكـــان الجديــــب

كشف الروض رأسه واستنســـر الـــ
محل منها كما استنســـر المريـــب

وقد لاحظ فى نعته الغيث ضجر أهل المدن منه وصور ذلـــك تصويرا حيا دقيقا فى قوله يعتذر لاحد فضلائه بأن المطر منعه من زيارته ومواصلتـــه :

منع الزيـــارة والوصـــال سحائـــــب
شـــم الغـــوارب جأبـــة الاكتـــــاف

أي شديدة الاكتاف وينظر ههنا فى قوله جأبة الى صفـــــات القدماء لحمر الوحش .

ظلمت بنى الحاج الملم وأنصفـــــت
عرض البسيطة أيما انصـــــاف

وأنت بمنفعة البلاد وضرها
أهل المنازل ألسن الوصاف

وعلمت ما يلقى المزور اذا همت
من ممطر ذفر وطين خفاف

وعنى بالممطر ما نسميه الان معطف المطر وكان من الصوف فكان ابتلاله يجعله ذفر الرائحة وكانوا يلبسون الاخفاف فيلصق بها الطين من المطر ، وكل ذلك مما يتأذى به المزور ، فجعل أبو تمام هذا مما يصح الاعتذار به فى ترك الزيارة بل قد أوجب تركها فى مثل تلك الحال :

فجفوتكم وعلمت فى أمثالها
أن الوصول هو القطوع الجافى

للذي يسببه من الاذى . ثم أخذ أبو تمام بسبيل استرسال خيالى يذكرنا فيه بما كان من مذهب أهل البداوة من الفرح بالمطر وانتهاز فرصة مقدم الربيع للنجعة والظعن وما ينشأ عن ذلك من لقاءات النسيب ونواه ، أو كما قال :

فكأننى بالروض قد أجلى لها
عن حلة من وشيه أفواف

وكأننى بالظاعنين وطية
يبكى لها الألاف للألاف

وكــأننـــى بالشـــد قميـــة وسطــه
خضر اللهـــى والوظف والاخفــــاف

الشد قمية من أكرم الابل وكانت الظعائن تخص بأمثالهن . والوظف بضم الواو جمع الوظيف وهو من البعير كالساق مـــن الانسان والطية نية البعد والسفر، والألاف جمع آلف والف . هذا، وأحسب أن بدر شاكر السياب رحمه الله لم يخل من النظـــر والتذكر لقصيد أبى تمام فى المطر فى كلمته المعروفة « أنشودة المطر » التى مطلعها « عيناك غابتا نخيل الخ » اذ أشار فيها الى ما كان من اعتذار بعضهم عن توديعه اذ سافر من العراق وعن عدم عيادته وهو مريض بلندن بالمطر ... « مطر مطر مطر » ... وكان كثير القراءة لشعر أبى تمام فى ما ذكروا ، هذا ، وفى رائية أبى تمام « رقت حواشى الدهر » نجده يذكر ما كان يعنى به أهل الحضر من قصد النزهة فى البوادي زمان الربيـــع :

دنيا معـــاش للـــــورى حتـــــى اذا
جـــاء الربيع فانمـــا هـــى منـــظـــر
أضحت تصـــوغ بطونها لظهـــورهـــا
نـــورا تكـــاد له القلـــوب تنـــــور

ثم يعقب على ذلك بأن هذا الذي يحبونه من طلاقة الربيـــع وبهجته انما كان سببه ذلك الذي كرهوه من مطر الشتاء وطينه، فللشتاء بهذا يد تشكر وفضيلة لا ينبغى ان تنكر

جـــاءت مقدمـــة المصيـــف حمـــيـــدة
ويد الشتـــاء جديـــدة لا تكـــفـــر

كـــم ليلـــة آســـى البـــلاد بنـــفســـه
فيهـــا ويـــوم وبلـــــه متعنجـــــر

لولا الذي ضـــاع الشتـــاء بكفـــــه
قاســـى الربيـــع هشائما لا تثمـــر

وقريـــــب من ذلك قـــولـــه فى الابيات الفائيـــة :

ان الشتـــاء عـــلى شتامـــة وجـــهـــه
لـــهـــو المـــفـــيـــد طلاقـــة المصطاف

كان ابو تمام مقداما علـــى الغريب والاستشهاد بالقديم . من ذلك مثلا اشارته الى خبر ابـــى سمال الاسدى اذ فقد ناقته فى قـــولـــــه :

تخـــذ الفـــرار أخـــا وأيقـــن أنـــــه
صـــري عـــزم مـــن أبـــى سمال

وقوله يذكـــر الاطـــلال :

ان كـــان مسعود ســـقـــى اطلالهـــم
سيـــل الشئـــون فلست مـــن مسعـــود

رحلوا فكـــان بكاي حـــولا بعـــدهـــم
ثـــم ارعويـــت وذاك حكـــم لبـــيـــد

وقـد اضطـرب الشراح فى مسعود هذا من هو والمعنى واضح . والاشارة الى أبيات لبيد لا تخفى . وقلت قصيدة لحبيب تخلو من اشارة الى التاريخ والى السيرة واخبار العرب بعيدة ، أو قريبة كقوله :

لك فى رسول الله أعظم أسـوة   واتمهـا فى سنـة وكتـاب

أعطى المؤلفة القلوب حقوقهـم   كملا ورد أخايذ الاحـزاب

والجعفريـون استقلت ظعنهم   عن حيهم وهم نجـوم كـلاب

حتى اذا اخذ الفراق بقسطـه   منهم وشط بهم عن الاحبـاب

ورأوا بلاد الـلـه قد لفظتهم   اكنافها رجعـوا الى جـواب

وكقوله فى الرائية « الحق ابلج » يذكر أمر الافشين :

فاذا ابن كافرة يسـر بفكـره   وجـدا كوجـد فرزدق بنوار

واذا تذكره بـكـى فـكـأنه   كعب زمان بكـى ابا المغـوار

ويقول فى بائية عموريـة :

مـا ربـع مية معمورا يطيـف بـه
غيلان ابهى ربى من ربعها الخـرب

وقد عيب عليه الاغراب وقلة المبالاة باللفظ متى استقام لـه المعنى مثـل قولـه :

ضاحى المحيا للهجير وللقنا
وسط العجاج تخاله محراثا

وقوله :

كانوا برود زمانهم فتفرقوا
فالآن قد لبس الزمان الصوفا

وقوله :

بسطت اليك بنانة اسروعا
تصف الفراق ومقلة ينبوعا

وانما كان هذا الاقدام وقلة المبالاة جانبا ووجها من طلبه بداوة فكرية جديدة للقصيدة تحمل كالبداوة القديمة جهارة الفحولة وجراءة الصدق وجزالة التعبير ، وتهتدي الى المثل السائر والبيت الفخم والعلاج لكبريات المسائل والارتفاع بالشعر من الاسفاف . قصيدة ابى تمام فى فتح عمورية من روائع المدح ، حتى ابو الطيب فى سيفياته الجياد وغيرهن لم يقل كلمة طنانة رنانة ملء أسماع الزمان مثلها ، وفيها مع الرصانة وجودة السبك زخرفة معان والفاظ ووشى من مستوى فنى رفيع وتصوير فى الذروة من البيان . تأمل مثلا قوله :

وبرزة الوجه قد اعيت رياضتها
كسرى وصدت صدودا عن ابى كرب

من عهـد اسكـنـدر او قبـل ذلـك قـد
شابت نواصى الليالى وهى لم تشـب

بكـر غمـا افترعتهـا كف حادثـة
ولا ترقـت اليها هـمـة الـنـوب

حتى اذا مخض الله السنـيـن لـهـا
مخض البخيلة كانت زبدة الحقـب

وصف شكسبير لكليوبطرة لم يتعد دائرة هذا العنق الخالد الذي خلعه أبو تمام على بكره البرزة التى شبه بها عمورية وقد نطق بلسان دار الاسلام أجمع اذ هنأ الخليفة فقال :

خليفة الـلـه جازى الله سعـيك عـن
جرثومة الديـن والاسلام والحسب

بصـرت بالراحـة الكبرى فلم ترها
تنال الا علـى جسر من التـعـب

ان كان بين صـروف الدهر من رحم
موصـولة او ذمام غير منقضـب

فبيـن أيامـك اللاتـى نصـرت بهـا
وبين أيام بـدر اقـرب النسـب

ابقـت بنى الاصفر المراض كاسمهم
صفـر الوجوه وجلت اوجه العرب

وقد جعل ابو تمام صوت الشعر حكما فى امر جسيم ، وهو ولاية عهد المسلمين ، حين ذكر ترشيح هرون بن المعتصم (الواثق) فى رائية مقتل الافشين :

فاشدد بهارون الخلافة انه   سكن لوحشتها ودار قرار
بفتى بنى العباس والقمر الذي   حفته انجم يعرب ونزار

وقد شفع جده فى مدح الخلافة وتسجيل أحداثها العظام بجد مشابه له فى مدحه كبار القواد والولاة والوزراء ، مثلا قوله لابى دلف :

وقد علم الافشين وهو الذي به   يصان رداء الملك من كل جاذب
بأنك لما استخذل النصر واكتسى   أهابى تسفى فى وجوه التجارب

لاحظ هذه الاستعارة المأخوذة فى أصلها من اوصاف الشعراء لرمال البادية وفى الوقت نفسه من غبار حركة الجيوش وهبواتها :

تجللته بالرأي حتى أريته   به ملء عينيه مكان العواقب

ولم يترك أبو تمام هذا الابداع الذي أبدعه حتى أكده وقرره بقوله :

اليـــك ارحنا عازب الشعر بـــعــدما
تمهــل فى روض المعــانــى العجائب

قوله ارحنا عازب الشعر ، ينظر الى قول النابغة ، «وصدر اراح الليل عازب همــــه » .

ثم هـــو ينظر أيضا الى أصل الاستعارة البدوي فى اعــزاب الابل واراحتها ، ثم يذكرنا بعد بأن هذا الذي أعزب اعــزابـــا وأراحه هو الى أبـــى دلف انما هو الشعر الـــبـــدوي الـــروح والاصالة غير انه انما أعزب الآن ليرتع فى روض المـــعـــانـــى العجيبة وقد رتع وتمهل وأخل واحمض بين علوم العرب ومـــا صار اليها من علوم سائر الامم وآب فى رواحه من بعد بالغريب البديع الجديد . وقد مر بك آنفا استشهادنا بقوله :

ولو كان يفنـــى الشعر افناه ما قرت
حـــيـــاضك فى العصـــور الذواهـــب
ولكنه صوب العقـــول اذا انـــجلـــت
سحائب منـــه اعقبت بســـحـــائـــب

كان ابو تمام يرتحل الى المدوحين يحمل اليهم شعـــره العويص العزيز وقد تنقل من مصر الى الشام الى خراسان الى شتى بلدان فارس والعراق وأرض العرب والحجاز . وذكروا أنه أخمل أكثر من اربعين شاعرا فى زمانه وكان جوادا متخرقا

على « بنى الحاج الملم » من أهل الادب . وقد جنـــى طــــول دأبه عليه . وكأن اهل الفضل من محبيه من رجالات عصره أحسوا ما كان من فرط جهده فارادوا له الجمـــام والراحـــة بولاية بريد الموصل . غير انه لم يطل مكثه فيها اذ خف اليه الحمام وهو فى اول الاربعين ولكل اجل كتاب . وما مات حتى غادر الشعر والشعراء فى منزلة محترمة مرموقة بعين الاعتبار. تلميذه البحتري كان نديما كريم المجلس عند المتوكل والفتح بن خاقان . وطمع عبد الله بن المعتز فى الخلافة ، بويع بها ومـــا ازرى بها حيث سما لينالها مكانه فى الشعر والشعراء ... ولمـا ذكروا أمر تخليفه لمحمد بن جرير المؤرخ المفسر قال أبو جعفر ان ذلك لن يتم ، لا لما كان من شاعرية ابى العباس ولكن لمـا كان من فضله فى زمان كانت الفتنة والشر فيه أقوى عصبيـــة وأشد ساعد بطش ، ولقبل قرن او نحوه ما قال الامام الشافعى رضـــى اللـــه عـــنـــه :

ولولا الشعـــر بالعلمـــاء يزرى لكنت اليـــوم اشعـــر من لبيد

فما كان ليخطر ببال ان شاعرا من المحدثـــين سيسمو الـــى اوج الخلافة وان يك من بنى العباس .

وبعد ابى تمام كان الشعر لاهل الفضل حلية حتى ان ابا الطيب وهو مجهول الاصـــل فيمـــا يظن عاداه علـــى الشعـــر أبو فراس وهو صنو الامير سيف الدولة ممدوحه . وبالشعـــر

ملأ أبو الطيب الدنيا وشغل الناس وان رغم ابن رشيق . وفاخر الشريف أمير المؤمنين فقال :

مهلا امير المؤمنين فاننا في دوحة العلياء لا نتفرق
الا الخلافة ميزتك فانني أنا عاطل منها وانت مطوق

وبالشعر رصد ابو العلاء أهواء عصره فسجلها ونقد المجتمع وأمه الطلاب من كل مكان ، ثم بالشعر تعبد مداح الرسول وسما الابوصيري والبرعى والصرصري ونظراؤهم ، ونظراؤهم قليل ، الى مراقى الصالحين الابرار . قد كان لابى تمام حبيب بن اوس الطائى (صليبة او ادعاء) الفضل الاكبر فى أولية هذا الانجاز العظيم وصدره ... نعم سبقه بعض شعراء الفترة التى قبله الى بعض الاقتراب الى نوع من كبداية الطريق الذي سلكه هو ... أبو نواس فى خمرياته المثقفة الرفيعة الاسلوب نحو « ودار ندامى عطلوها » (ولعلها ليست لها عنده أخت تشبهها) ولكنها كانت شيئا محدود المجال وجانب الفكر فيه كالمستعار من اساليب المتكلمين والفلاسفة وكالمتقرب به اليهم، ليس بالاصيل المؤصل ، بالرغم من ملكته الباهرة فى نغم القريض ... دعبل فى هجائه وسيعياته ، وذلك أيضا كان نطاقا محدودا ... ومسلم بن الولكد فى مدحه الجاد ووشى صناعته ، الا ان ملكته كانت دون ما انبرى له من المقصد الفنى الضخم ، ثم الجناس والطباق اللذان ألح عليهما قد كانا من معدن صناعة الشعر والبيان منذ أقدم عصور العربية ، فى شعر زهير مثلا :

اذا لقحت حرب عوان مضـــرة ضروس تهر الناس أنيابها عطل

وفى شعـــر النابغـــة :

وأقطـــع الخرق بالخرقاء قـــد جعلت
بعد الكلال تشكـــى الأين والسأمـــا

وفى القرآن وانما نزل بأساليب العرب : «وأسلمت مع سليمان » « ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة » « من كأس كان مزاجها كافورا » . ولفطنة العلمـــاء القدماء لكثرة هذا النوع فى بيان العربية وأساليبها دسوا عنى أمريء القيس :

وسن كسنيق سناء وسنمـــا ذعـــرت بمدلاج الهجير نهوض

وما علمنا انهم دسوه الا من قول ابى عمرو بن العلاء وهو حجة انه بيت مسجدي أى صنعه اهل الدرس فى المسجد . وقال الشـــنـــفـــري :

فبتنا كـــأن البيـــت حجر فـــوقـــنـــا
بريحـــانـــة ريـــحت عشـــاء وطلـــت

تأمل الجناس فى « بتنا والبيت » « وريحانة وريحـــت » وكان الشنفري صعلوكا من صعاليك العرب أسود أشعث أغبـــر شـــديـــد الاخشيشـــان .

لقــد كان مكان أبى تمام فى شعر العربية وبين شعرائها مكــان المجدد الباعث . البحتري وأبو الطيب وسائر الشــعراء بعده تلاميذه وبانون على أساسه الرصين المتين . بذلك يصح نعت ابن الاثير له اذ قال انه « رب معان وصيقل الباب واذهــان » . وعمود الشعر الذي زعم أبو الحسن الآمدي أن حبيبا خالفه ، انما قام ، بعد ان كان قد خر على الاحفاض (او عنها) بغضــل مجهود حبيب . وهذا الذي خفــى على الآمدي تنبه له ابــن رشيق فى العمدة ونبه على ما يستفاد منه فى فصله عن المطبــوع والمصنــوع .

ولعمري ، أننا الآن نواجه مشكلة فنية أدبية ذات شبه شديد بالمشكلة التى تصدى لها ابو تمام منذ نحو اثنى عشر قرنا فحلها بعبقريته وجده ودأبه ومعاونة بنى الفكر والادب بجاههم له ، واياهم خاطب بقوله :

اكــابرنــا عطفــا علــينــا فانــنــا
بنــا ظمــأ بــرح وانــتــم مناهــل

مشكله زمان ابى تمام ما قدمنا ذكره مــن ان البــداوة العربية الصحراوية كانت قد انفصمت عن مجتمع حضارة العرب. ومشكله زماننا هذا ان اللغة العربية نفسها وهى الاصل فى معدن البداوة الاول وفطرتها القدمى ، قد جعلت توشــك ان تنفصــم عن مجتمع بنيها كما قد جعل هذا المجتمع فى فتنته بحضارة بنى الاصفر (الذي ليس الآن بالمراض) يريد ان ينفصم عنها . لعل

المخرج من هذه أن يكون وجه التماسه الصحيح فى رجعة سديدة رشيدة تنظر الى ابى تمام وما صنع فى الزمان القديم ، وتحاول ان تنتفع بروح منهجه لتقيم على مشابه من نموذجها أساس بداية نهضة جديدة تعيد على لغة العرب كرامة جزالتها ورصانتها ، فتسخو بها القرائح وتجود الملكات . ذلك لعمري خير من التنكر لاساليبها والزراية على تقاليدها والسخرية بماضى مجدها فى نوع من شعوبية روحية حديثة ومجون فكري حديث .

والله سبحانه وتعالى هو الموفق الى الصواب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

فاس　　　　　　　　　　د. عبد الله الطيب

محمد إقبال

(1877-1938)

رجــــل وذكرى

محمد العربي الخطابي

فى مقام التــوحيــد يشــدو خيالــى
بصدى الحــق مــن رجــال الحــال
انــمــا تــدرك الــقــلوب هــداهــا
بــصــفــاء الاحــوال لا الاقــوال

هذا هو الرجل فى كلمات ... يقدم نفسه للناس كما اراد الله له أن يكون : فى مقام التوحيد ، فى ساحة الحــق ، فى محــراب الصفــاء .

هذا هو محمد اقبال ، الفيلسوف الشاعر المجدد الداعية الى الله ، الذي خدم الاسلام بالفكر والقلم ، بالعلم والعمل ، ووهب نفسه ـــ فى جهاد مستمر ومجاهدة موصولة وصدق فى المخبــر

والمظهر ــ وهب نفسه للامة الاسلامية لتكون جديرة بما وصفها الله به فى قوله عز وجل : « كنتم خير أمة أخرت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » .

ولقد كان اقبال من اولئك الرجال الهداة المهتدين الذين وهبهم الله ، مع العلم والايمان ، بصيرة نافذة ونورا فى القلب يخترق الحجب ، وتتكشف له أسرار المستقبل ، فهو يقول فى ديوانه اوول « أسرار الذات » :

« أنا ذرة والشمس لمحة من لحظاتى ، وهبنى الله طاقة تحول الليل المظلم الى نهار مبصر ، أرى الحوادث المقبلة جلية أمامى ، والحقائق خلف ستار المظاهر تتراءى لعينى ، وفى طيات ذيلى تختبىء الازهار ، جعلنى الله جل وعلا بقدرته شمسا تمحو ظلمة الافكار الخاطئة ، وبرانى لرفع لواء المسلمين ، ولكن قومى بعيدون عن دقائق بيانى ، وعندما يتحررون من قيد العبودية سيدركون مرامى ، وانى لانترقب طليعة الفدائيين الذين هم ظمآى لحديثى .

« فهنيئا لشاعر يولد بعد الموت ويغمض عينيه ليفتح العيون » . نعم هنيئا لاقبال الذي تحدث بنعمة الله عليه وتمثل فى حياته ونضاله قول الله تعالى مخاطبا رسوله ومجتباه : « واذا فرغت فانصب ، والى ربك فارغب » انه نصب فى سبيل الله ، ورغب اليه ، وعمل فى سبيل اعلاء كلمته بعد ان فرغ من تربية نفسه فبلغ من خشية الله مبلغا يصدق عليه قول الله عز وجل : « انما يخشى الله من عباده العلماء » .

لقد ادرك محمد اقبال ، بصفاء فكره ، ونور قلبه ، حقيقة التوحيد واكتشف اسرار الشهادة التى يبدأ بها المؤمن حياته وجهاده ، فرأى فى كل كلمة من كلماتها وحرف من حروفها سر القوة والحرية والتقدم الى الامام .

« لا » النافية فى قول « لا اله الا الله محمد رسول الله » رأى فيها اقبال طاقة محركة تدفع الى العزة والتحرر ، فقال فى أبيات من قصيدة نقلها شعرا الأديب المصري الصاوي على شعلان :

قول « لا » ثورة امام الطغاة	هو عند الاحرار معنى الحياة
ثورة .. من نضالها يصنع المجد	ويبدو تجدد الكائنات
حرف « لا » صيحة تثير العبيدا	ليزولوا ما لم يزيلوا القيودا
ويقيموا فى الدهر عصرا مجيدا	لا ترى فيه سيدا ومسودا
صوت«لا» من دوي صوت الرعود	ليس شكوى ناي ولا لحن عود
لو يضيق الفضاء يوما على الحر	تخطى به نطاق الوجود

نعم ، ان المؤمن الحق يبدأ بالرفض ، رفض الشرك والطاغوت ، رفض الذل والمهانة ، رفض الضعف والتبعية ، وعندئذ يتحرر فلا يتخذ اله من بشر او حجر او هوى . الهه الله وحده ، وسلاحه الثقة فى النفس ، ووسيلته العمل ، وغايته اكتساب الطمأنينة برضاء الله .

لخص المرحوم عبد الوهاب عزام فلسفة اقبال بقوله : « انها فلسفة أمل وعمل وجهاد واقدام ، فهى مدد للامم المجاهدة فى سبيل حريتها وكرامتها » .

وعزام محق فى قوله لان اقبال الشاعر كان هـو اقبال العالم واقبال الداعية المجاهد فى سبيل الله ، وهو فى شعـره الرصين العميق لم يكن يقصد الى اثارة المشاعر واضفاء معنى فلسفى على الحياة بقدر ما كان يرمى الى الـغـوص فى اعماق الاسلام لايقاظ عزائم المسلمين وبعث روح العـزة والكرامـة فى نفوسهم بعد ان هيمن الاستعمار الاجنبى على معظم أنحـاء العالم الاسلامى واصيب أبناؤه بالضعف والتدهور والانشقاق، وقد اكتشف اقبال ، بغزارة علمه ، وسلامة فطرته ، وطهـارة نشأته ، ونبضه الشعري الحى أدواء المسلمين فراح يدعوهم الى العلم والعمل مع الايمان الحق بالله واقتفاء سنة الرسول وسيرته . ولذلك فانه كان يخاطب ابناء أمته الاسلامية من موقع القوة دائما فيقول ، مثلا :

لا تسر واهن الخطى كبغات الطير بين الطلول والجدران
كن نظير الشاهين فى القمم الشماء لا فى مسارب الوديان

ولقد انفق اقبال اعوام حياته فى الدرس والاطلاع علـى حقيقة الاسلام ، وتزود بعلوم الغرب ، ادبا وفلسفة وسياسة وقانونا ، وتعمق روح الاصول والتعاليم الاسلامية فاكسبه ذلك فى حياته بصيرة خاصة اكتشف على ضوئـهـا « ان الاسلام

حقيقة عالمية » كما قال هو نفسه فى محاضرة القاها فى جمع للرابطة الاسلامية سنة 1930 حيث أعلن فكرة الدعوة الى قيام الباكستان . وجاء فى هذه المحاضرة :

« ان الاسلام تتمثل فيه الروح الاخلاقية والفضائل المعنوية على اسلوب خاص، والاخاء الدينى والترابط الاجتماعى والعدالة الثابتة بين شعوب الاسلام لم يوكل أمرها الى مجرد النصح والترغيب وانما هى خطط وقواعد تكفلت برعايتها وايضاحها التشريعات من نصوص هذا الدين الحنيف ، تلك التشريعات الحكيمة التى أقامت صرح الاتحاد بين القلوب ، ومدت ظلال الامن بين الشعوب » .

من موقع القوة هذا خاطعب اقبال جماهير المسلمين ، وأوقد فى نفوسهم شعلة الايمان والعزم والتحرك ، وكان هو جنديا ثابتا بين الصفوف ، واثقا بنفسه معتزا بها ، مؤمنا بقوة الاسلام الذاتية . يقول على لسان الشاهين ، وهو طائر من جنس الصقور :

الارض بستان البلابل للترنم والغناء
والقبة الزرقاء ميدانى الى غير انتهاء

أنا ناسك بين الطيور وخلوتى عرش الهواء
لا يبتنى الشاهين وكرا ان منزله السماء

ولقد آمن اقبال بالانسان معلنا ان « المؤمن يقهر جميع

القوى فى هذا الكون بالعزم والتوكل على الله ، وان الحياة الكريمة تبدأ من حرارة ذكر الله ، وأنه لا سبيل الى الحرية الا بنـقـاء الفكر وخلو القلب من كل دنس وفساد يأتيان من الشرك او من تأثير المستعمر الدخيل » . وقال : « ان هذا العالـم مسـخـر للانسان ، وان للانسان فيه جهادا ، وان لذة الانسان وكماله فى هذا الجهاد ، ومن سخر المحسوسات فقد انشأ عالما من ذرة . ان الجبال والبحار لوح لارباب البصر .

« ان فى هذا الفضاء مائة عالم ، وان شموسا كامنة فى كل ذرة ، فأظهر الاسرار واكتشف الخفايا للانظار، ان هذه النجوم: ثابتها و سيارها ، هذه التى اتخذها القدماء آلهة، ليست الا عبيدا خاضعة لك ، مسخرة لامرك .

« ان فكر الانسان يسبح فى العالم ليسخر قواه ، ويتصرف فيه كل تصرف ، فاركب الهواء ، واصدع الجبال ، واستخـرج اللؤلؤ من البحار » .

انه يخاطب الانسان الذي يدفعه ايمانه الى العمل والتحرك ، ويحثه على التفكير والتدبر ليكتشف اسرار الذات والطـبيـعة ويسخرهما للخير والتقدم والحرية فيعرف الله حق المعرفة ويقدر نفسه ويدرك مقامه بين مخلوقات الله ، وبذلك يعمر الارض التى استخلف فيها فيملاها عدلا واحسانا .

لقد حلق اقبال الشاعر فى اجواء الشوق والجذب والمحبة ، كما فعل كبار الصوفية من امثال جلال الدين الرومى الذي كان

بالغ التأثير فى شعر اقبال ونزعته الروحية ، الا ا نشاعرنا العظيم نهج سبيل النضال وايقاظ العزائم النائمة متأثرا بثقافته العصرية الحية ومعارفه الشرعية الواسعة ، وهو بذلك استطاع ان يستجلى حقيقة الاسلام القائمة على التوفيق بين المادة والروح . وهـو يقول :

« ان الاسلام يقرر ان الانسان وحدة كاملة دون فصل فى الاحكام والمصائر بين المادة والروح ، فالـقـربات التعبديـه والمصالح الدنيوية ومساجد العبادة ومناصب الرياسة وميادين العمل فى المادة والروح انما هى اجزاء متعددة لكل واحد .. فالمادة التى ترقى بها تعاليم الاسلام وتنظمها ليست سوى شكل مـن أشكال الروح ومظهر آخر لها فى حدود الزمان وقيود المكان .

« فلتكن قوة المادة الى جانب قوة الـروح متساندتيـن على تحقيق ما نصبو اليه من القيم العليا ، بل عليكم أن تجعلوا المادة خادمة للروح لان المادة ظلمة وكثرة وفناء ، والروح نور ووحدة وبقـاء » .

وفى هذا تسفيه لاحلام الماديين الملحدين الذين ينكـرون وجود قوة تدبر أمور الكون بحكمة تتنزه عن العبث .

ان اقبال ، الذي تلقى تعليما عصريا واسعا ومنوعا فى المعهد الاسكتلندي بمسقط رأسه سيالكوت ، وفى كلية الحكومة بلاهور وفى اعظم الكليات الجامعية الانجليزية والالمانية لم يأخـذ مـا تلقاه من علوم وفلسفة وآداب أخذ الغر المقلد الامعة ، بـل محص كل ما تعلمه على ضوء تعاليم الاسلام المتغلغلة فى نفسه

ونظر فى ذلك نظرة الذكى الفاحص الذي يقارن بين العقائد والمبادىء والنظريات ليصل الى الحقيقة . وقد اعانه عقله الكبير وفكره المتزن وتدبره الدائم لكتاب الله وسنة نبيه ، وثقافته الفلسفية الواسعة ، واحتكاكه بمعارف الغرب ، أعانه كل ذلك على ان يعمق فهمه للاسلام وان يتزعم دعوة تجديد الفكر الإسلامى ومناهج النظر فيه .

وقد انتقد اقبال فى الثقافة الغربية صدورها عن فكر عقلانى ومادي ضيق الا انه دعا المسلمين الى أن يأخذوا بمناهج الغرب وأن يسعوا الى التقدم فى ميادين العلوم والآداب على غرار الامم الاوروبية على ان يحولوا النمط المادي للثقافة الى صورة تتسم بالانسانية وبالنظرة الروحية .

ويضم كتابه القيم « اعادة بناء الفكر الاسلامى » او «تجديد الفكر الاسلامى» طائفة من آرائه فى شؤون العلم والدين والوحي والعقائد وحرية النفس الانسانية وخلودها وروح الثقافة الاسلامية .

وقد أعلن اقبال فى مقدمة كتابه هذا أن « الاسلام يعنى بالعمل اكثر ما يعنى بالفكرة » وقال : « ان علينا ان نراقب باستمرار تقدم الفكر الانسانى على أن نقوم منه مقام الناقد المستقل ، لانه لا نهاية للتفكير الفلسفى ..»

ولذلك اعلن اقبال أن يقظة المسلمين تقتضى منهم أن ينظروا ، بعقل مستقل ، فى الفكر الاوروبى وما بلغه من نتائج

ليتمكنوا من اعادة النظر فى المذاهب الدينية الاسلامية ، وبنائها بناء جديدا ان لم يكن من هذا بد .

ويرى اقبال ان القرآن يسوى بين نواحى الادراك الانسانى كلها فى الاستمداد منها لمعرفة الحقيقة النهائية ، وان الادراك الدينى يقبل تمحيصا مشابها للتمحيص الذي تعالج به انواع المعرفة الاخرى . وهو يرى أن أبرز عناصر تصور الله تعالى فى القرآن ، من وجهة فكرية خالصة ، هى : الخلق والعلم والقدرة والبقاء . فالله هو المبدع الدائم يخلق ويبدع فى كل وقت وحين . والحياة نفسها ليست الا ابداعا . والحقيقة العليا ذات ، ومن هذه الذات العليا تتجلى الذوات الاخرى بالخلق فحسب ، والعالم فى كل اجزائه ، من الحركة الآلية فيما نسميه الذرة المادية الى حركة التفكير الارادية فى الانسان ، ليس الا تجليا من الذات العليا ، وكل ذرة لها حركة الهية فهى ذات مهما انحطت مكانتها فى الوجود

والصلاة فى نظر اقبال وسيلة الى تنوير روحى تعرف به الذات الانسانية انها موصولة بحياة اوسع وكون افسح . وكل طلب للمعرفة هو فى حقيقته صلاة . فالباحث فى العلم الطبيعى كالصوفى فى صلاته . وتزيد الصلاة قربا من مقصودها بالاجتماع. ومن وحدة الذات الكبرى التى تخلق كل الذوات وتمدها تنشأ وحدة النوع الانسانى . وصلاة الجماعة فى الاسلام اعراب عن التطلع الى تحقيق الوحدة الانسانية برفع الحجب بين الانسان والانسان .

وقد حمل اقبال على الجبرية المهلكة التى عمت فى عصور الخنوع والتواكل مع ان الاسلام أكد حرية الذات .

ويرى اقبال ان الادراك الباطنى فى مفهوم القرآن ينبوع واحد من ينابيع المعرفة الانسانية . والطبيعة والتاريخ ينبوعان آخران ، والثقافة الانسانية تبلغ اوجها بالاستقاء من هذه الينابيع الثلاثة .

وعن النبوة قال اقبال بأنها بلغت فى الاسلام اوج كمالها بختم الرسالة ، فكان لا بد لكمال الوجدان الانسانـــى ان يوكل الى نفسه . والقرآن دعا الى استعمال العقل واعتبار التجربة . والثقافة الاسلامية تؤكد تصور عالم متحرك وسنن مستمرة ، وهذا من اعظم خصائصها . وتقوم تعاليم القرآن على أن الامم والجماعات تحاسب على أعمالها فى هذه الحياة . وهذه التعاليـــم تستند الى اصلين : الاول وحدة المنشأ الانسانـــى والثانـــى قوة الشعور بأن الزمان حقيقى وأن الحياة تسير فيه سيرا مستمرا .

والعالم فى تصور الاسلام حركة دائبة . والاسلام ينكـــر أواصر النسب والعرق ، ويعترف بالاواصر الروحية ويقرر ان حياة الانسان روحية فى كنهها ، وأن التوحيد هو اصل الوحدة الانسانية ، والجماعة القائمة على التوحيد يجب أن تجتمع فيها صفتان : الدوام والتغير . وأنه لا مكان فيها للانقطاع او التجمد. ويقـــول اقبـــال :

« والحركة فى الجماعة الاسلامية تتحقق بالاجـــتـــهاد ، ويؤسفنا ان هذه القاعدة التى تهب الحياة للامة لم تعـــمـــل فى

المسلمين عملها . وان من أقوى أسباب ضعف المسلمين اهمال هذه القاعدة أي ابطال الاجتهاد » .

والاجماع عند اقبال من أعظم القواعد الشرعية لكنه اذا كان قد استأثر باهتمام المسلمين بحثا وجدلا فهو لم يتعد التفكير الى العمــل .

ويقول اقبال : «ان الدين فى اعلى صوره ليس احكاما جامدة ولا كهنوتية ، ولا اذكارا ، وانه لا يتأتى الا بالدين تهيئة الانسان المعاصر لحمل العبء الثقيل الذى يحمله اياه تقدم الــعلــوم فى عصرنا . والدين وحده يرد الى الانسان الايمان والثقة اللذين يتيحان له اكتساب شخصية فى الدنيا والاحتفاظ بها فى الآخرة ... والدين والعلم ينتهيان الى غاية واحدة ، بل الدين اكثر من العلم اهتماما ببلوغ الحقيقة الكبرى (*)

لقــد خلف اقبال ثروة من الدواوين الشعرية يبلغ عددها تسعة على ما اعلم ، فضلا عن محاضراته المجموعة فى الكــتاب الذي صدر بالانجليزية بعنوان : « تجديد الفكر الاسلامى » ، كما نشرت عن اقبال عشرات الدراســات معظــمــها بالاردية والفــارسية والانجليزية الا ان المراجع العربية عنه قليلة أعرف منها « محمد اقبال : سيرته وفلسفته وشعره » للمرحوم عبــد الوهاب عزام ، وكتاب « فلسفة اقبال والثقافة الاسلاميــة فى الهند والباكستان » لمحمد حسن الاعظمى وكتاب «ايوان اقبال»،

---

* اعتمدت فى هذا التلخيص لفكر اقبال كتاب الدكتور محمد عبد الوهاب عزام : « محمد اقبال : سيرته وفلسفته وشعره » .

مختارات من شعره للصاوي على شعلان كما خصص له الدكتور محمد البهى الخولى فصلا هاما فى كتابه « الـفكـر الاسلامى الحديث » . وقد اتحفنى السيد سفير الباكستان فى الرباط بمطبوعات باللغة الانجليزية * تتناول جوانب من حياة هـذا المفكر الاسلامى العظيم ، وقد اعتمدت فى حديثى هذا على الكتب التى ذكرتها — وما أقلها — ؟ ولذلك فاننى لم اتمكن الا من تقديم فكرة موجزة جدا عن هذا الرجل الفذ الذي يستحق ان يكرس له الباحثون العرب جهودهم فيترجمـوا آثـاره الى العربيـة ويعرفوا بفكره وفلسفته وجهاده ، لا سيما والعالم الاسلامى فى عصرنا هذا محتاج الى مرشدين من صنف هذا الرجل الذي ينظر بنور الله ويجمع بين العلم والعمل ، ويزاوج بين القـول والفعل ، وكانت حياته كلها جهادا صادقا ، وفكرا نيرا ، وقلبا كبيرا ممتلئا بحب الانسان مع غيرة على تقدم المسلمين وتحررهم على أساس العودة الى منابع الاسلام الصافية الخالية مـن أسانة البدع والمثبطات ، والافادة من المناهج العلمية لتجديـد الفكر الاسلامى واعادة بنائه بما يحقق العزة والقوة والحريـة للمسلميـن .

فلتكـن ذكـرى محمد اقبـال حافـزا لابـنـائنـا على التعرف على حقيقة الاسلام التى تؤاخى بين المادة والروح وتقيم الامور بين الناس على اساس العدل والاحسان والتـعـاون ،

---

* أخص من هذه المطبوعات بالذكر الكتاب الذي أصدرته بالانجليزية اللجنة الوطنية للاحتفال بالـذكـرى المئـوية للفيلسوف ، وهو يتناول حياته وفكره وآثاره .

وتحثهم على العمل والنضال فى سبيل حياة أفضل قوامها التوحيد والوحدة وغايتها بلوغ الكمال الروحـــى والمادي .

لقد كان محمد اقبال ، رحمه الله ، من أعلامنا المستنيرين القائمين بالحق ، العاملين بصدق وايمان ، بذل اكبر الجهد فى سبيل نشر الثقافة الاسلامية، ونبه ابناء أمته الى أخطار التفرقة والشقاق وحثهم على الاتحاد والتآلف ، وعلمهم « ان العمـــل مقتضى الفطرة وفيه قوة الحياة » « وان هدف الانسان الدينى والخلقـــى هو اثبات ذاته لا نفيها » .

وكان صوفيا بقلبه ، مجددا بفكره وعقله ، وثيق الصلـــة بالكتاب والسنة ، انطبع اثرهما فى فوائده منذ الصغر اذ كـــان يداوم على قراءة القرآن مطلع كل فجر حتى قال له ابوه ذات يوم ــ وكان تقيا ورعا ــ « اقرأ القرآن كأنه نزل عليك » ثم انه تأثر باستاذه ورائده شمس الاسلام مير حسن ، ولازم اســـتاذه ومترجم شعره المستشرق الانجليزي توماس ارنولد ، صاحب كتاب « الدعوة الاسلامية » وكان من محبى المسلمين وحضارتهم الـــزاهـــرة .

ولقد كان اقبال يخشى ان يتأثر المسلمون ببعض اتجاهات الغرب وما فيها من بذور المادية الملحدة التى هى اعظم خطر على الانسانية فى عصرنا . وما كان أبعد نظره فى ذلك .

وصفه استاذنا المرحوم أمين الخولى بهذا القول الجامع : « كان اقبال متدينا فى الحياة ، ومفلسفا للحياة ، ومتفننـــا من الحياة ، ومتصوفا مع الحياة ، وهو فى الحق نفحة من حيويـــة

الاسلام الزاخرة ، ولمحة من انسانيته الباهـرة ، وسنا مـن روحانيته السامية فى واقعيته العاملة »

وقال الزعيم الباكستانـى محمد على جناح فى رثائه :

« اذا امد الله فى عمري حتى ارى للمسلمين دولة قائمة فى الهند فخيرت بين الرئاسة العليا فى هذه الدولة المسلمة وبيـن كتاب اقبال ما ترددت فى اختيار الثانية » .

وقبل ان اختم هذا الحديث عن محمد اقبال اود ان اقدم هذه النفحة من شعره فى قصيدة « نداء الغيب » وهى دعـوة موجهة للمسلمين فى كل مكان ، ولا سيما فى عصرنا هذا . يقول اقبال رحمه الله :

مع لمحات الصبح أقبل الصدى من جانب العرش الامين
أيهـا المـؤمـن كـيـف ضـاع جـوهـر ادراكـك ؟

لم لا تنشق صدور النجوم من عزمـك وانـت جديـر
بـخـلافـة الـظـاهـر والـبـاطـن ؟

أتصبـح الشـعلـة نهـبـا للـحطـب والـقـش ؟
لـم لا ارى الشمس والقـمـر فى حكـمـك ؟ وأنـت

مـؤمـن كـيـف لا تـفـزع الافـلاك من نـظـراتك
الثـاقـبـة ؟ أنـت تنظـر بالعيـن لا بالبصـيـرة

ان العيــن التى لا تكون الروح مــصــدر ابــصــارها
لا يــجــديــهــا الــنــظــر شــيــئــا

ضميرك كان مــرآة التــجلــى فــتــحــرر وايــقــظ
الــحــيــويــة فى ذاتــــك

الرباط محمد العربــى الخطابى

البرتغال

بصمات تاريخ مشترك

د. عباس الجراري

عاش المغرب والبرتغال فترة من التاريخ المشترك دامت زهاء احد عشر قرنا امتدت من آخر القرن الاول الهجري الى اواخر الثانى عشر (اول الثامن — آخر الثامن عشر الميلادي) .

وقد سار هذا التاريخ فى اتجاهين مضادين انطلق احدهما من الجنوب الى الشمال مع الفتح الاسلامى للاندلس ، متمثلا فى وجود حضاري وثقافى كيف شبه الجزيرة الايبيرية بملامح متفردة لم تفقد تميزها على توالى الازمنة والعصور . وانطلق الثانى فى اعقاب الاول ، وفى شبه رد فعل له ، ينحو خطا معاكسا تمثله الحملات البرتغالية التى كانت توجه باستمرار لاحتلال بعض شواطىء المغرب ومدنه الساحلية .

**

وليس من شك فى ان الوجود العربى الاسلامى فى اسبانيا كان ذا اثر ابرز واعمق منه فى البرتغال ، واكثر تجليا وامتدادا فى الزمن كذلك ، الى حد انه يكفى ان تذكر مدن كقرطبة واشبيلية وغرناطة لكى يلخص هذا الوجود فى ابهى ظواهره وانصع مظاهره .

وليس من شك كذلك فى ان هذه حقيقة قد جعلت الكثيرين — علــى الصعيد العام وليس على الصعيد العلمي — يتوهمون ان التأثير الاسلامى كان متقلصا فى غرب شبه الجزيرة الايبرية وغير ذي ايجاب . ومع ذلك فان التاريخ شاهد حق ومعالمه ثابتة واضحة ينتهى اليها ويستعيد ما تحمل من ذكريات كل من وقف عليها واستنطقها ، فضلا عمن يقرأ عنها فى صحائفه ووثائقه . ولا اخفى انى استرجعت الكثير من ذلك فى عقلى ووجدانى اثناء الزيارة التى قمت بها للبرتغال والتى ساعود اليها فى آخر هذا الحديث .

واذا كان البرتغال معروفا فى العهد الاسلامى باسم الغرب او باسم كور او مدن واقعة فيه كأكشونبة ، فانه بدءا من اواخر القرن الثانى عشر الميلادي وفى عهد الفونس السادس ، اصبح يعرف باسمه الحالى الذي كان من قبل يطلق على مدينة بورطو PORTO الحالية . ولهذا لا نستغرب اذا وجدنا الحميري فى روضه الذي جمع سنة 866 هـ يستعمل هذا الاسم ، وذلــك حين تحدث عن قلمرية فذكر انها بالاندلس من بلاد برتقال .

وتعتبر شلب SILVES اولى المدن التى فتح المسلمون فى البرتغال حيثتم فتحها على يد موسى بن نصير ، واصبحت منذ عهده المبكر تحظى بأهمية قصوى باعتبارها مركزا حيويا فى المنطقة الغربية من الاندلس . ثم لم تلبث ان شهدت ازدهارا حين كان المعتمد بن عباد واليا عليها من قبل ابيه المعتضــد .

وقد اشتهر من اهل هذه المدينة الشاعر الكاتب احمد بن عبد الله بن حربون الذي كانت له مساجلات مع الثائر احمد بن قسى فى اواخر العهــد المرابطى ، والشاعر الوزير ابو بكر بن عمار الذي بلغت علاقته مع المعتمد حدا جعلت ابن عباد يخيره فى ولاية يتولاها فاختار شلب ، وفيها يقول يقول وقد انبعثت فى نفسه ذكريات صباه :

الا حى اوطانى بشلب ابا بكـر وسلهن هل عهد الوصال كما ادري

وسلم على قصر الشراجيب عن فتى له أبدا شوق الى ذلك القصـر

واليها ينسب كذلك الخطيب الاديب محمد بن ابراهيم بن غالب العامري المتوفى سنة 532 ، وكان أمر أن تكتب على قبره هذه الابيات :

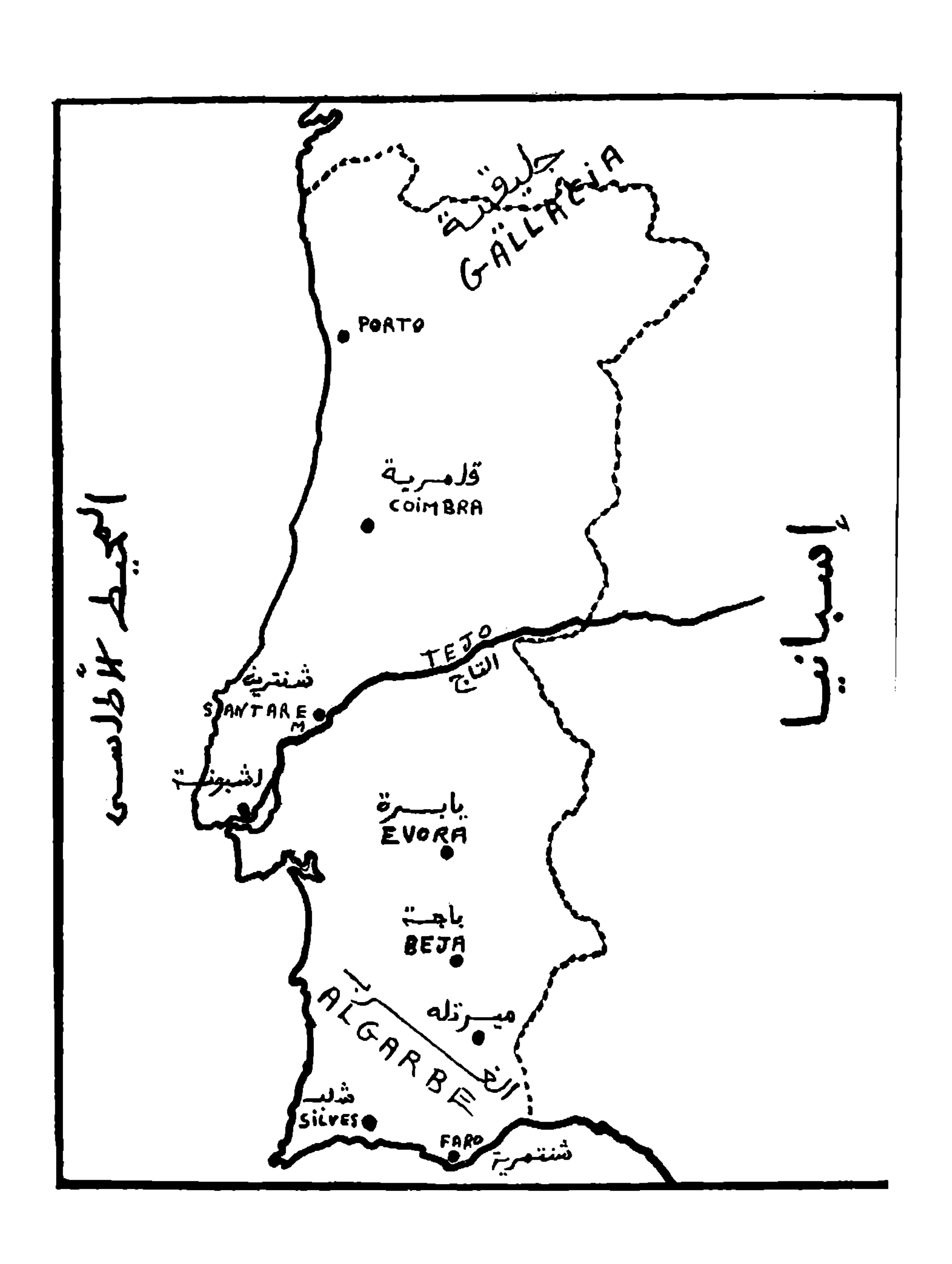
لئن نفذ القـدر السـابـق بموتـى كمـا حكـم الخالق
فقـد مـات والدنـا آدم ومـات محمـد الصـادق

ومات الملـوك وأشياعهـم ولـم يبـق من جمعـهم ناطـق

فقـل للذي سـره مصـرعـى تـأهـب فانـك بـى لاحـق

وتحدث الحميري عن أهل شلب فوصفهم بأنهم نبلاء وفصحاء يقولون الشعر . وذكر ياقوت أنه ليس بالاندلس بعد اشبيلية مثل شلب ، وانه قل أن ترى من أهلها من لا يقول شعرا ولا يعانى الادب ، ولو مررت بالفلاح خلف فدانه وسألته عن الشعر قرض من ساعته ما اقترحت عليه وأي معنى طلبت منـه .

وعن بعض مظاهر العناية بالادب فى هذه المدينة تحدث الشاعر المغربى محمد بن حبوس الذي هاجر اليها فى آخر الدولة المرابطية ، فقال : ((دخلت مدينة شلب من بلاد الاندلس ، ولى يوم دخلتها ثلاثة أيام لم أطعم فيها شيئا، فسألت عمن يقصد اليه فيها ، فدلنى بعض أهلها على رجل يعرف بابن الملح فعمدت الى بعض الوراقين فسألته سحاءة ودواة فأعطانيهما ، فكتبت أبياتا أمتدحه بها وقصدت داره ، فاذا هو فى الدهليز ، فسلمت عليه فرحب بى ورد على أحسن رد ، وتلقانى أحسن لقاء ، وقال : أحسبك غريبا ! قلت نعم . فقال لى : من اي طبقات الناس أنت ؟ فأخبرته أنى من أهل الادب من الشعراء ، ثم انشدته الابيات التى قلت ، فوقعت منه أحسن موقع ، فأدخلنى الى منزله وقدم الى الطعام وجعل يحدثنى ، فما رأيت أحسن محاضرة منه. فلما آن الانصراف خرج ثم عاد ومعه عبدان يحملان صندوقا حتى وضعه بين يدي ففتحه فاخرج منه سبعمائة دينار مرابطية فدفعها الى وقال : هذه لك . ثم دفع الى صرة فيها اربعون مثقالا ، وقال : هذه من عندي . فتعجبت مـن



المحيط الأطلسي
اسبانيا
جليقية
GALLAEIA
PORTO
قلمرية
COIMBRA
TEJO
التاج
شنترين
SANTAREM
لشبونة
يابرة
EVORA
باجة
BEJA
ميرتلة
ALGARBE
الغرب
شلب
SILVES
FARO
شنتمرية

كلامه واشكل على جدا . وسألته : من اين كانت هذه لى ؟ فقال لـــــى : سأحدثك ، انى أوقفت أرضا من جملة مالى للشعراء غلتها فى كل سنة مائة دينار ، ومنذ سبع سنين لم يأتنى أحد لتوالى الفتن التى دهمت البلاد فاجتمع هذا المال حتى سيق لك ، وأما هذه فمن حر مالى ، يعنى الاربعين دينارا . فدخلت عليه جائعا فقيرا وخرجت عنه شبعان غنيا » (1) .

وغير بعيد من شلب تقع مدينة شنتمرية التى كان يطلق عليها كذلـــك أكشونبة ، وهى معروفة اليوم باسم فارو FARO ، وكانت مشهورة بالعنب والتين . واليها ينتسب أبو الحجاج يوسف بن الاعلم الشنتمري . وذكر الحميري من عجائبها عينا تنفجر بماء كثير ينظر الناس ذلك عيانـــا ، فـــاذا قـــربـــوا منهـــا ووقفوا عليـــهـــا انقـــطـــع جـــريـــانـــها فلا تنبـــض بقطرة ، واذا تباعدوا عنها عادت الى حالها . وذكـــر منهـــا كذلك ظهور صبى فى منتصف المائة الخامسة عمره نحو خمسة أعوام بلـــغ مبلغ الرجال وأشعر . وعند ياقوت أن فيها سواري فضة لم ير الراؤون مثلها لا يحزم الانسان بذراعه واحدة منها مع طول مفرط . ولابن السيد البطليوسى أبيات يتحدث فيها عن هذه المدينة ، هى قوله :

تنكرت الدنيا لنـــا بعـــد بعدكـــــم وحفت بنا من معضل الخطب الوان

اناخـــت بنـــا فى أرض شنتمريـــــة هواجس ظن خان والظـــن خـــوان

رحلنا سوام الحمد عنها لغيرهـــــا فلا ماؤها صدى ولا النبت سعـــدان

وفى شمال منطقة الغرب تقع ميرتلة MERTOLA التى كان الثائر احمد ابن قسى قد اتخذها قاعدة لدعوته ، والتى ينسب اليها الاديب الشاعر محمد بن عبد الله بن عمر ابن مندلة المتوفى سنة 533 هـ . كما تقع قريبا منها باجة BEJA التى ينتسب لها القاضى ابو الوليد الباجى المتوفـــى سنة 474 هـ ، وكانت قد ظهرت فيها على العهد الاموي — وفى شلب كذلك — دعوة للعباسيين متمثلة فى ثورة رئيس الجند بها العلاء بن مغيث اليحصبى

1) المعجب للمراكشى ص 214 — 215 (ط. الاستقامة — القاهرة)

الذي اتخذ السواد شعارا اظهره فى لباسه ورايته . وكانت تعتبر يابـــرة EVORA من اهم مدن هذه المنطقة، وكان عليها عمر المتوكل بن الافطس الذي عاش فى بلاطه الشاعر عبد المجيد بن عبدون ، وهو ينسب الى هذه المدينة كما ينسب اليها الاديب اللغوي خلف بن فتح بن نادر اليابري المتوفى سنة 439 هـ ، والمحدث الراوية ابو بكر عبد الله بن طلحة اليابري المتوفى بمكة سنة 523 هـ ، والشيخ ابو عبد الله محمد اليابري المتوفى بالربـــاط اوائل القرن الثامن الهجري ، وقبره معروف بمدفن لعلو ، وعليه قبة كتبت عليها ابيات منهـــا :

هـــذه القبـــة ضـــاءت بهجـــة　　　وتجلـــت بســـرور الناظـــريـــن

كتـــب السعـــد علـــى أبوابهـــا　　　ادخلوهـــا بســـلام آمنـــيـــن

وهو شيخ ابى العباس أحمد بن عاشر الانصاري صاحـــب الضريح المشهـــور بسلا ، وكان تلمذ عليه فى مدرسته بشـــالة . وقد وهم المرحوم الشيخ السايح فى كتابه «سوق المهر» حين نسب للشيخ اليابوري القصيدة الـــتـــى اولـــهـــا :

غريب بارض الغرب فرق قلبـــه　　　فآوت سلا فرقا ويابرة غرقـــا

فى حين انها لابن الوكيل يمدح بها على بن القاسم بن محمد بن عشرة احد قضاة سلا .

وهل يستطيع القلم أن يسجل هذه الملامح الخاطفة دون أن يقف لحظة عند شنترين SANTAREM بلد ابى الحسن على بن بسام الشنترينـــى صاحب كتاب الذخيرة ، وكان قد ذكر فى مقدمته انه غادرها ، حيث قـــال : « وعلم الله تعالى أن هذا الكتاب لم يصدر الا من صدر مكلوم الاحناء وفكر خامد الذكاء بين دهر متلون تلون الحرباء لانتباذ كان من شنترين قاصيـــة الغرب مفلول الغرب مروع السرب بعد أن استنفذ الطريف والتلاد واتى على الظاهر والباطن النفاد بتواتر طوائف الروم علينا فى عقر ذلك الاقليم » (2)

2) ق 1 م 1 ص 8 .

ويمر بشنترين نهر التاج TEJO الذي ياتي من اعماق الاندلس عبر طليطلة ليصب في المحيط . وقد ارتبط هذا النهر بالاسطورة الواردة في كثير من كتب التاريخ وفي أشعار الرومانسيرو والتي تروى متصلة بالفتح الاسلامي للاندلس . ومجملها ان يوليان حاكم سبتة أرسل ابنته كافا الى بلاط ملك القوط رودريك في طليطلة لتنشا نشاة النبلاء ، وكانت عادتها ان تستحم في التاج، وما زال يطلق على مكان بهذا النهر حتى اليوم حمام الكافا. ورآها الملك من نافذة قصره تستحم ذات يوم ، وكانت جميلة فاعجبته وأحبها حبا شديدا ، ولم يملك نفسه حتى استكرهها وافتضها كما يقول المقري في النفح. وحين علم يوليان ثارت ثائرته واقسم ليزيلن ملكه بمساعدة المسلمين عليه ، ولكنه فكر في استرجاع ابنته قبل ذلك ، فشد الرحلة الى طليطلة حيث بالغ رودريك في اكرامه ، وأفهم الملك ان ام كافا في النزع الاخير وانها لا تريد أن تموت قبل رؤية ابنتها . وحاول رودريك ان يقنعه ببقائها ، ولكنه أصر ، وان لم يظهر اي أثر لما في نفسه ، حتى استطاع ان يصحبها معه الى سبتة . وتقول الاسطورة ان الملك ودعهما بحرارة واغدق عليهما الهدايا بعد أن أخذ عهدا من كافا بكتمان السر . وتقول بعد هذا انه طلب من يوليان وهو يودعه اذا حضر مرة ثانية ان ياتيه بنوع من الشذانقات ، وهي صقور كان يحبها كثيرا . فاجابه يوليان : « أيها الملك وحق المسيح لئن بقيت لادخلن عليك شذانقات ما دخل عليك مثلها قط » عرض له بالذي اضمره من السعي في ادخال العرب عليه ، كما يقول صاحب النفح (3) .

وعند مصب التاج تقع العاصمة لشبونة أو اشبونة ، وكانت تعرف قديما باسم قودية كما عند الحميري الذي ذكر من ابوابها باب الخوخة وباب البحر وباب الحمة وباب المقبرة ، كما ذكر ان قبالتها على ضفة البحر حصنا يعرف بحصن المعدن ، يسمى بذلك لان البحر عند هيجانه يقذف بالذهب التبر هناك ، فاذا كان الشتاء قصد الى هذا الحصن أهل تلك البلاد فيخدمون المعدن الذي به الى انقضاء الشتاء ، وهو من عجائب الارض . وفي المصادر البرتغالية ان المسلمين هم الذين اعطوا هذه المدينة اسمها الحالي لشبونة ،

3) ج 1 ص 236 ط السعادة تحقيق محي الدين عبد الحميد .

وينطقه البرتغاليون لشبوه LISBOA واليها ينتسب ابو اسحاق ابراهيم ابن هرون المصمودي المتوفى سنة 360 ، ويعرف بالزاهـــد الاشبونـــي واصله من المغرب .

وعند صاحب الروض المعطار كما عند الادريسى من قبل ان من هـــذه المدينة كان خروج المغرورين الذين ركبوا بحر الظلمات (المحيط الاطلسى) ليعرفوا ما فيه واين انتهاؤه ويرجح ان يكونوا وصلوا الى العالم الجديد ، لاسيما وان رحلتهم فى الذهاب استغرقت شهرا بالضبط .

وتتمثل لشبونة الاسلامية حاليا فى حى الفاما AL FAMA الذي كانت الطبقة الارستقراطية حتى عهد قريب تتخذ مساكنها فيه ، وما زالت موجودة فيه بعض الدور التى يرجع تاريخها الى عصر المسلمين . وهو يتميز بأزقته الضيقة الملتوية وواجهات بيوته المزخرفة بالزليج ، وموسيقى الفـــادو FADO تنبعث ليلا من دروبه .

وعلمت من مصادر مسؤولة فى لشبونة أن الحكومة البرتغالية اذنت ببناء مسجد فى العاصمة ، وتبرعت لذلك بقطعة ارض. كما علمت ان القائمين على تنفيذ المشروع وافقوا على ان يكون بناؤه على الطراز المغربى . ولاشك انه سيصبح رمزا للصلات الطيبة التى تربط البرتغال بالمغرب خاصة ، والعالم الاسلامى عامة ، فضلا عن انه سيمكن المسلمين البرتغاليين من اداء فروضهم الدينية ، وقد ذكر لى أحد المسؤولين أن عددهم فى العاصمـــة وحدها يصل الى ستة آلاف .

وسواء فى لشبونة او غيرها من المدن البرتغالية التى عاشت حضـــارة الاسلام وثقافته ، فان ملامح الفن الاسلامى تبدو جلية فى اكثر من مظهر ، ولاسيما فى القصور التى كان يقيم بها الولاة والحكام كفيـــرا FEIRA والكوباثا ALCOBAÇA وشام CHAM أما فى مجال الادب والغناء فان الشعر البرتغالى كان حتى القرن السادس عشر ما زال يسير على ايقاعات الشعر العربى ، بل لقد كانت الاغانى الجليقية البرتغالية تنسج على منوال الزجل. وكان يوجد شعراء جوالون متاثرون بهذا النمط الشعري وبالغناء الاندلسى ينظمون ويلحنون ويؤدون ، امثال ايكامونيـــس سويلـــو EGA MONIS COELHO وكونثابو هرمنجز GONÇABO HERMINGUES

بل لقد كان الملك دون دينيز D. DINIZ (1279–1325م) نفسه فى طليعة هؤلاء التروبادور ، ويعتبر باعث النهضة فى البرتغال حيث انشا سنة 1290 اول جامعة برتغالية فى كويمبرا ، وجمع حوله العلماء العرب ، وكانت لـــه عناية كبيرة بترجمة العلوم الاسلامية .

***

واذا كان الوجود العربى الاسلامى قد امتد فى اسبانيا الى آخر القرن الخامس عشر الميلادي ، وبالضبط الى سنة 897 هـ – 1492 م حيث كان تسليم غرناطة ، فان هذا الوجود كان قد انتهى فى البرتغال قبل هذا التاريخ بنحو قرنين ونيف ، لتبدا على اثره محاولات البحث عن كيان برتغالى مستقل ومستقر ومتسع الرقعة والنفوذ .

ومن ثم تاسست عام 1385 م دولة افيس على يد الملك جان الاول الذي سيبدا فى عهده رد الفعل ، متمثلا فى توجيه الحملات لاحتلال بعض المدن المغربية الساحلية ، مستغلا فى ذلك الاوضاع المنهارة التى كـــان يجتازها المغرب ، والتى كانت فى جملتها ناتجة عن الصراع الدائر يومئذ بين أبى سعيد عثمان المرينى واخيه المولى يعقوب .

وهكذا قاد الملك البرتغالى بنفسه حملة بحرية عظيمة سنـــة 1415 احتل بها مدينة سبتة التى كانت تحت قيادة صالح بن صالح . كما وجـــه خلفه دون دوارت D. DURATE حملة لاحتلال طنجةسنة1437قادها الاميران الاخوان دون هنريك ودون فرناندو ، اولهما عن طريق البر والثانى عن طريق البحر . ولكن القوات المغربية استطاعت ان تهزم هذه الحملة وتطوق الجيش البرتغالى وتجبره على التفاوض بشان الهدنة والصلح . واشترط المغرب – وكان على راسه يومئذ عبد الحق المرينـــى – ان ينسحـــــب البرتغاليون من سبتة واخذ تعهدا بذلك ، وزاد فرهن لديه دون فرناندو ، ولكن البرتغال لم يف بتعهده ، وبقى هذا الامير فى الاعتقال بفاس الى ان توفى سنة 1443 .

ولم يكن للبرتغال ان يسكت عن هذا الموقف ، لاسيما وهو يطمع في مزيد من المراكز يحتلها بالمغرب ، فوجه خلف دوارت الملك ((الفونس الخامس الملقب بالافريقي)) حملة بحرية قادها بنفسه عام 1438 في اتجاه القصر الصغير وأتيح له احتلاله دون أن تجدي محاولات الاسترجاع التى جربها السلطان عبد الحق .

واذا كان احتلال هذا الميناء الصغير قد تم لالفونس دون مقاومة تذكر، فان طنجة ظلت مستعصية عليه ، على الرغم من الحملات الثلاث التى وجهها ما بين 1463 و 1464 والتى قاد احداها بنفسه . وقد ظل الملك البرتغالي يتربص الفرصة لتحقيق حلمه الى ان تهيأت له خلال الفترة التى كان فيها الصراع محتدما بين محمد الشيخ الوطاسى والشريف مولاي محمد ابن على . وحتى لا يهزم مرة ثانية قرر أن يوجه الحملة أولا الى أصيلة التى احتلها سنة 1471 واسر فيها بعض أفراد أسرة محمد الشيخ ، مما اضطر هذا الاخير الى عقد معاهدة هدنة تسلم البرتغال بمقتضاها مدينة العرائش ، وتمكن في نفس السنة — بحكم بند في هذه المعاهدة يسمح بتوجيه الحملات الى المدن الاخرى — من احتلال مدينة طنجة التى دخلها الملك الفونس دخولا رسميا وهو في طريق العودة الى بلاده .

كذلك حاول البرتغال مستفيدا من الاوضاع المغربية المضطربة أن يربط علاقات سلمية مع قواد بعض المدن الساحلية الجنوبية كآسفى في عصر الفونس ، وأزمور في عهد ولده جان الثانى عام 1486 ، وسلسلة من المراكز الاخرى بعد ذلك في عهد خلفه ايمانويل الاول الذي وجه سنة 1515 حملة فاشلة — رغم عظمتها — نحو المعمورة عند مصب نهر سبو ثم نحو انفا .

ولم يلبث البرتغال في عهد جان الثالث أن تعرض لازمة اقتصادية اثرت على سياسته الخارجية وحدت من مطامعه التوسعية ، لاسيما وولاته في المناطق التى يحتلها — وخاصة في المغرب — كانوا لا ينسقون فيما بينهم ، ولا يضبطون الامور مع الدولة المركزية بما يجعلها تتخذ المواقف المناسبة ، فضلا عن أنهم كانوا دائما يواجهون القوى الوطنية التى كانت تحول بينهم وبين التسرب الى الداخل ، كما تحول دون استقرارهم في

المراكز التى يحتلون . هذا وغيره سيضطر البرتغال الى التخلى عن اكادير وآسفى وأزمور سنة 1541، والى الانسحاب من القصر واصيلا عام 1550

ولعل عنصر المقاومة كان أكثر من اي عامل آخر معجلا بهذه الاحداث التى ستنهى عهد الاحتلال ، على الرغم من أن المغرب أقرب الى البرتغال من اية نقطة أخرى كان يحتلها ، كالبرازيل الذي استمر وجوده فيه حتى اوائل القرن التاسع عشر ، او كالراس الاخضر وماكاو ، وما اليها مـن الاقاليم البعيدة عن مركز الدولـة .

ومع ذلك فان حلم الغزو الصليبى ظل يراود حكام البرتغال الـى أن جسمه الملك دون سبستيان الذي استغل الخلاف بين محمد المتوكـل السعدي وعمه عبد الملك ، فحالف الاول على التمكن مـن الملـك ، وزج بنفسه وجيشه فى معركة وادي المخازن المعروفة كذلك بمعركة القصر الكبير ومعركة الملوك الثلاثة (آخر جمادى الاولى 986 هـ موافق 4 غشت 1578 م) وهى المعركة التى قتل فيها سبستيان وحليفه ، كما مات فيها عبد الملك ليخلفه أحمد المنصور .

وقد كان لانتصار المغرب فى هذه الوقعة أثر متعدد الابعاد ، فهو قد رفع رأس المغرب عاليا بين دول المنطقة ، وخاصة فى أوروبا التى بـدأت تتقرب اليه وتخطب وده ، وهو قد وضع حدا للنفوذ البرتغالى فى الشواطىء المغربية ، ثم هو قد أثر على الوجود البرتغالى وامتداده فى مناطق أخرى وهو بعد هذا قد قضى على دولة أفيس البرتغالية ، خاصة وأنه لم يكن لدون سبستيان وريث من صلبه للعرش . فوقع البرتغال بذلك فى التبعية للحكم الاسبانى ولم يتحرر منه الا سنة 1640 مستغلا دخول هذا الحكم فى حرب مع فرنسـا .

وربما كانت البريجة (الجديدة) هى آخر نقط الاحتلال البرتغالى فى المغرب ، حيث تم استرجاعها سنة 1182 هـ (موافق 1768) على يـد السلطان سيدي محمد بن عبد الله ، واضطر البرتغاليون الى مغـادرة المدينة دون أن يأخذوا معهم اي شىء سوى الثياب التى على ظهورهم . وحين لم يطب لهم فى بلدهم المقام ، هاجروا الى البرازيل ، وفيه انشأوا

مدينة اطلقوا عليها مازاكان الثانية حفاظا على ذكرى مدينة الجديدة المغربية .

وابتداء من هذا التاريخ سنرى البرتغال يحاول التقرب للمغرب وكسب وده بارسال مبعوثين وهدايا . وتتجلى العلاقات بين البلدين في هذه المرحلة من خلال المعاهدة المعقودة بين سيدي محمد بن عبد الله ودون جوزي الاول ، وكذلك من خلال الرسالة التى اعتمد فيها السلطان المذكور احد سفرائه لدا جوزي الاول ، وساعود الى الوثيقتين فى آخر هذا الحديث .

**

مهما يكن واقع هذا التاريخ المشترك بين المغرب والبرتغال ، ومهما تكن ايجابياته وسلبياته ، فان الذي لاشك فيه ان الصفحة الاولى منه تصور مدا حضاريا وثقافيا صاحب امتداد دولة العروبة والاسلام فى شبه الجزيرة الايبرية ، انطلاقا من المغرب الذي امده واحتضنه وقواه ، وان الصفحة الثانية جاءت كرد فعل حركته الرغبة فى استغلال الشواطىء المغربية والانطلاق منها فى توسع امبراطوري ، وغذته المعاهدة التى تنازلت الدولة الاسبانية بمقتضاها للبرتغال عن التحرك فى هذه الشواطىء ومن ثم لم يعط هذا الرد نتائج فى الاقتصاد والفكر او غيرهما من مجالات الثقافة والحضارة .

ومع ذلك ، ومع تقلص حجم التاثير المتبادل بين المغرب والبرتغال ، بالقياس الى ما كان بينه وبين بقية بلاد الاندلس ، فان هذا التاريخ حري بان يحظى بعناية من شانها ان تكشف بالبحث والدرس مختلف ملامحه وخباياه ومن شانها كذلك ان تؤكد روابط الحاضر وتعزز صلاته ، ومن شانها بعد هذا أن تفتح الآفاق لعلاقات مستقبلية وفق ما تقتضيه المرحلة الجديدة وما تطرح من معطيات .

وان فى المعلومات التى تقدمها لنا المكتبة الاندلسية ومصادر التاريخ المغربى ، وفى الجهود التى بذل بعض المؤرخين فى التنقيب عن الوثائق

ودراسة جوانب من هذه الفترة ، خير قاعدة للانطلاق فى مضمار البحث . ومن الانصاف ان نذكر هنا باسماء ابرز العلماء الذين عنوا بهذه المرحلة منذ القرن الثامن عشر حتى اليوم ، وأن نستعرض اهم ما قدموا مــن انتاج يتصل بعضه بتعليم العربية ودراسة علاقتها بالبرتغالية ، وهم فى الغالب من العاملين فى مؤسسات علمية تحتضن مثل هذه الابحـــاث ، كمراكز الوثائق والمستندات وشعب الدراسات العربية والاسلاميــة فى الاديرة والكليات :

— الاب دور باتستا DOR BAPTISTA

الف كتابا فى تعليم العربية للبرتغاليين (ط. لشبونة 1774)

— الاب جان دي سوسة J. DE SOUSA

الــف :

1 — معجم الالفاظ البرتغالية المقتبسة من العربية (ط. لشبونة 1789) .

2 — الوثائق العربية الخاصة بالتاريخ البرتغالى (ط. لشبونة 1790) .

3 — كتابا فى النحو العربى (ط. لشبونة 1795) .

— الاب جوزي دي صانطو مورا J. DE SANTO MORRA

نشر مع الترجمة الى البرتغالية :

1 — القرطاس لابن ابى ابى زرع (ط 1828)

2 — رحلة ابن بطوطة (ط 1840 — 1855)

— انطونيو باياو ANTONIO BAIAO ، وكان مديرا لمركز وثائــق طوري دي طومبو الذي سنتحدث عنه فيما بعد

نشر وثائق تاريخية متعلقة بالمغرب ، وصل بها الــى 1514 (ط. كويمبرا 1925) .

— دافيد لوبز D. LOPES ت 1942 ، وكان مدرسا للتاريخ واللغة العربية في كلية الاداب بجامعة لشبونة ، وعضوا فى المجمع العلمى العربى بدمشق .

خلف آثارا كثيرة ، اهمهـا :

1 — العجمية البرتغالية (ط 1897) ، وهى نصوص تمثل كتابات برتغالية بحروف عربيـة .

2 — اسماء الاماكن العربية فى البرتغال (ط باريز 1902)

3 — العرب فى البرتغال (المجلة الاسبانية 1902) .

4 — كتابات عربية متعلقة بالبرتغال : نصا وترجمة (ط لشبونة 1911) .

5 — حوادث اصيلا ، اعتمادا على نصوص الوثائق الموجودة بمكتبة القصر الجمهوري بطوري دي طومبو . وهى فى مجلدين احدهما من سنة 1508 الى 1525 والثانى من 1525 الى 1535 (ط لشبونة 1915)

6 — البرتغاليون فى المغرب (مجلة التاريخ الحديث 1939)

7 — مساهمته فى منشورات الشعبة التاريخية للمغرب ، وسنعود اليها .

— كوريـا CORREIA المتوفى سنة 1944 .

الف كتابا عن ازمور (ط لشبونة 1923)

— جوزي كارسيا دو منكس J. GARCIA DOMINGUES

نشر كتابات كثيرة تتعلق بالمغرب والعرب ، اهمها :

التاريخ البرتغالى العربى (ط 1945) .

— أبرو فيجانـي ABREU FIGANIER

نشر كتابات متعددة عن العرب فى الموسوعة البرتغالية البرازيلية ، والف دراسة عن النقود العربية وأخرى عن سانتاكروز (أكادير)

— جوزي بدرو ماشادو J.P. MACHADO
كانت له اهتمامات باللغة العربية والتاثير العربى فى البرتغــال ، ونشر بحثا عن الدراسات العربية فى هذه البلاد (منوعات لوبز ط. السنغـــال 1945) .

— انطونيو مانويل دياس A.M. DIAS
يعمل أستاذا فى معهد اللغات الافريقية الشرقية ، الف عدة كتابات حول اللغة العربية منشورة فى مجلات مختلفة ، وكتب تاريخا لمدينة الجديدة خلال عهد فيليب (ط لشبونة 1963) .

ومن الانصاف كذلك أن نشيد فى هذا المجال بمنشــورات الشعبــة التاريخية للمغرب ، معربين عن الاسف الشديد لتوقفها ، ونخص منهــا بالذكـــر :

1 — المصادر غير المنشورة لتاريخ المغرب : خمسة أجزاء منها خاصة بالبرتغال اسهم فى اخراجها جماعة من الباحثين نذكر من بينهم :

دوكاستري H. DE CATRIES
بيير دو سنيفال P. DE CENIVAL
روبيــر ريكارد R. RICARD
دافيــد لوبــز D. LOPES

2 — سانتاكروز (أكادير) من خلال نصوص برتغالية مترجمة الى الفرنسية ومعلق عليها من طرف دو سنيفال (باريز 1934)

3 — مكانة مازاكان (الجديدة) فى أوائل القرن السابع عشر : ترجمة وتعليق لروبير ريكارد (باريز 1932) .

4 — مازاكان (الجديدة) والمغرب فى عهد مولاي زيدان (1608 — 1627) لروبير ريكارد (باريز 1956) .

***

فى هذا الاطار العلمى ، وبايفاد من وزارة الدولة فى الشؤون الثقافية قمت برحلة الى لشبونة ، قصد زيارة المكتبة الوطنية البرتغالية ، والاطلاع على ما فيها من وثائق ومستندات تتعلق بالمغرب . وقد استغرقت هـذه الرحلة اسبوعا دام من عاشر ابريل 1978 الى السابع عشر منه ، زرت خـلالـه :

1 — المكتبة الوطنية البرتغالية للوثائق والمستندات بلشبونة

2 — مكتبات أخرى فى لشبونة أمكن الوصول اليها وفحص وثائقها ، وان لم تكن مقررة فى البرنامج ، وهـى :

- مكتبـة اكاديمية العلوم
- مكتبـة الجمعية الجغرافية
- مكتبـة اجودا
- مكتبة القصر الجمهوري (مركز وثائق طوري دي طومبو)
- مكتبة الوثائق التاريخية لما وراء البحار

كما تعرفت بطريق غير مباشر الى ما تضمه مكتبات اخرى لم تتح لي زيارتها بسبب ضيق الوقت ووجودها فى مدن بعيدة عن لشبونة ، وهي:

1 — مكتبـة ايـورا (يابرة)

2 — مكتبة كوينبرا (قلمريـة)

وتحتوي كل واحدة من هذه المكتبات على عدد هائل من الوثائـق المتعلقة بالمغرب والمكتوبة باللغة البرتغالية . وهـى فى جملتها مرتبة فى صناديق وملفات ضخمة أو مجموعة فى رزم لم تفرز بعد ، واهمها :
1 — وثائق مكتبة ما وراء البحار ، وهى تمثل مراسيم ومراسلات متبادلة بين البرتغال وعماله وممثليه فى الشواطىء المغربية التى كان يحتلها او يستغلها ، وقد صنفت فى خمس مجموعات :

الاولى مسجلة تحت رقم 473 وتمثل الفترة ما بين 1692 و 1693
الثانية مسجلة تحت رقم 522 وتمثل الفترة ما بين 1756 و 1771
الثالثة مسجلة تحت رقم 977 وتمثل الفترة ما بين 1770 و 1796
الرابعة مسجلة تحت رقم 978 وتمثل الفترة ما بين 1797 و 1817
الخامسة مسجلة تحت رقم 1257 وتتصل بسنة 1778 .

2 ــ وثائق مكتبة كويمبرا ، وقد عنى ببعضها ، حيث نشرت منها فى سفر خاص مجموعة تتعلق بالمغرب فى الفترة المتراوحة ما بين 1488 و 1514 ، وهو مطبوع ضمن منشورات الجامعة فى كويمبرا عام 1925 بعناية انطونيو باياو الذي سلفت الاشارة اليه .

3 ــ وثائق المكتبة الوطنية ، وتضم مجموعة من الرسائل والمعاهدات المتصلة بالعلاقات المغربية البرتغالية ، وهى مسجلة ومرتبة تحت عنوان : المغرب

4 ــ وثائق مكتبة القصر الجمهوري ، وعليها بالدرجة الاولى ، ثم على وثائق بعض المكتبات البرتغالية الاخرى ، كان اعتماد مخرجي الاجزاء الخاصة بالبرتغال من منشورات الشعبة التاريخية للمغرب ، واعتماد غيرهم من الباحثين الذين سبق الحديث عنهم وعن أعمالهم. أما الوثائق والمستندات المكتوبة باللغة العربية فجد قليلة ، وبعض المكتبات المذكورة خالية منها او تكاد ، كالمكتبة الوطنية . اما مكتبات أخرى فهى لم تفرزها بعد كما هو الشأن بالنسبة لمكتبة ما وراء البحار ، لكثرة ما تحتويه من وثائق ، ولتراكم هذه الوثائق فى غير ترتيب دقيق ، الا ما كان من وضعها فى ملفات او صناديق ، اذ من المحتمل أن توجد بعض المستندات العربية فى الصناديق الاربعين التى تضم كثيرا من الوثائق المتعلقة بالشمال الافريقى ، وان استبعد مدير المكتبة ذلك ، مرجحا أن تكون كلها مكتوبة باللغة البرتغالية . وما كان ممكنا التأكد من ذلك ، نظرا لعدد هذه الوثائق الهائل ، وللوضعية التى توجد عليها ، ولضيق الوقت . وتعتز المكتبة المذكورة برسالة تضعها مع ترجمتها البرتغالية فى واجهة زجاجية بقاعة المطالعة ، موجهة من السلطان سيدي محمد بن عبد الله الى ملك البرتغال دون جوزي ، يعتمد فيها لديه سفيره القائد عمر الداودي الذي حمل

معه هدية قيمة للملك المذكور ، وهى مؤرخة فى العشرين من جمادي الاولى سنة ثمان وثمانين ومائة والف الموافق لآخر يوليو عام اربعة وسبعين وسبعمائة والف ، وننشر صورتها ضمن هذا الحديث كـنـمـوذج .

وتعتبر مكتبة القصر الجمهوري (مركز وثائق طوري دي طومبو) أهم المكتبات التى تضم وثائق عربية ، وتتوافر منها على مجموعتين :

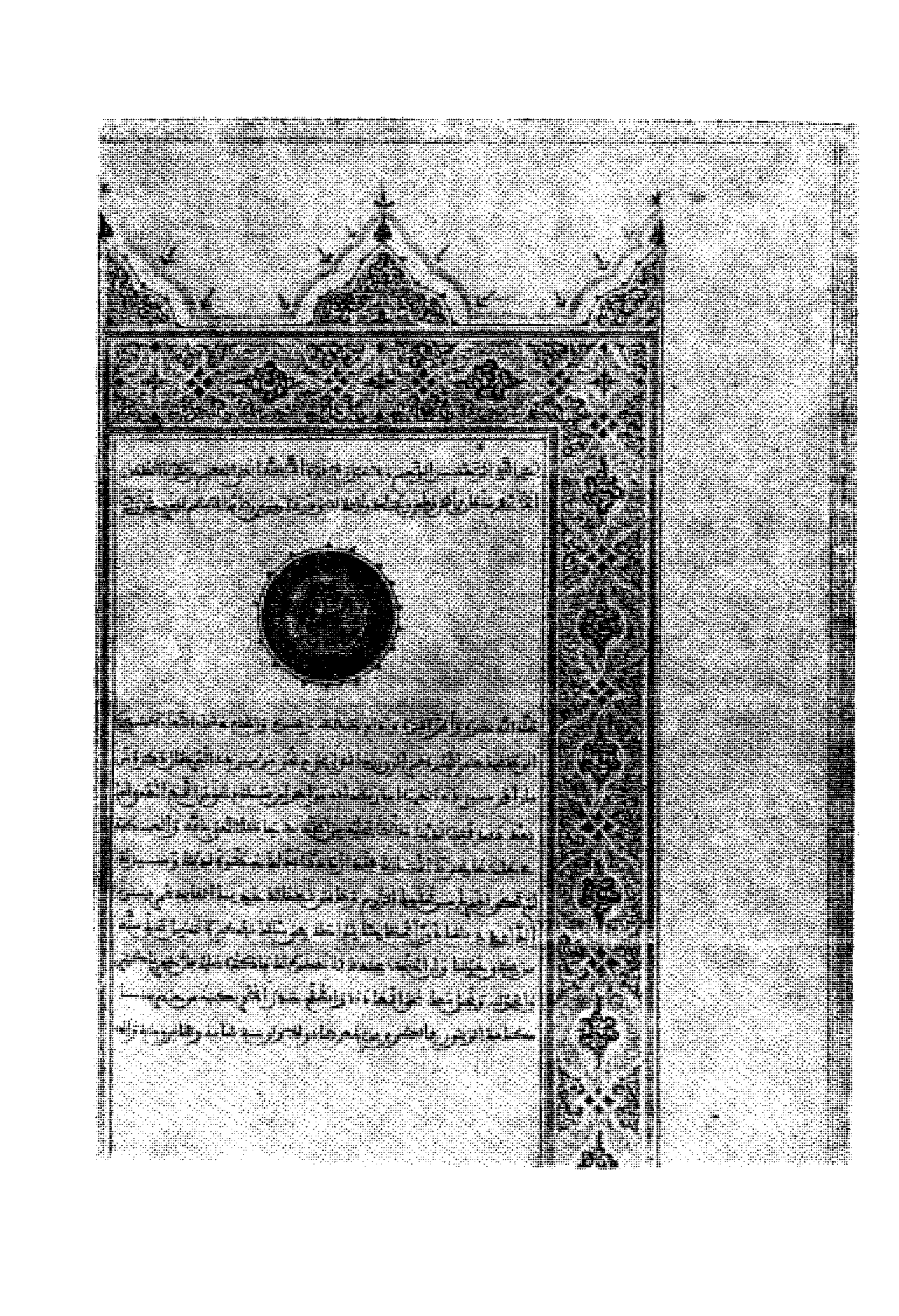
الاولى تحتوي خمسا وتسعين وثيقة تتصل بالشـرق العربـى الاسلامي ، وهي مكتوبة بالعربية والفرنسية .

الثانية تحتوي سبعا وستين وثيقة تمثل رسائل موجهة الى البرتغال خلال العهد السعدي فى أنغالب ، بعضها من احمد الاعرج ، ومعظمـها مـن شخصيات مغربية كانت تراسل ملوك البرتغال وحكامه فى شأن قضايـا ومشاكل عاشها المغرب فى بعض مدنه الساحلية خلال الوجود البرتغالى بها . وهى فى أغلبها مكتوبة بخطوط مغربية عادية وبعضها رديء .

كذلك توجد فى هذه المكتبة وداخل صندوق خاص بمكتب المدير نسخة من معاهدة الصلح المعقودة بين السلطان سيدي محمد بن عبد الله ودون جوزي الاول ملك البرتغال ، مع ترجمتها ، وتضم اثنين وعشرين شرطا ، وهى مكتوبة بخط مغربى عادى ومؤرخة فى اثنانى عشر من رمضان عام 1187 الموافق حادي عشر يناير سنة اربع وسبعين وسبعمائة والف . وقد اوردها المرحوم ابن زيدان فى الاتحاف (ج 3 ص 290—297) نقلا عن درة السلوك للمولى عبد السلام نجل سيدي محمد بن عبد الله .

***

وقد انتهيت من هذه الزيارة الاستطلاعية القصيرة الى ان الوثائق والمستندات المكتوبة باللغة العربية غير كثيرة وذات أهمية محدودة، فى حين أن الوثائق والمستندات المكتوبة باللغة البرتغالية تبدو جد هامة لتأريخها لكل فترات الوجود البرتغالـى فى شواطىء المغرب ، وان كانت فى بعضها منشورة فى كتب او مجلات او مجموعات قديمة يصعب الوصول اليها ،



وقد سبقت الاشارة الى نماذج منها . ولعله يكون مفيدا — ان لم يكن ضروريا — ايفاد باحث لتتبع الوثائق العربية فى جميع المكتبات البرتغالية ودراستها ، على الا تقل فترة ايفاده عن شهرين ، وكذلك ايفاد باحث — او اكثر — لدراسة المستندات المكتوبة بالبرتغالية ، مستفيدا مما نـشره الدارسون السابقون ، وخاصة من مجموعة وثائق تاريخ المـغـرب فى أجزائها الخاصة بالبرتغال ، على أن يكون هذا البـاحـث عارفا باللغة البرتغالية ، وعلى الا تقل مدة ايفاده عن سنتين . وان لم يكن ممكنا ارسال دارسين ، ينظر فى امكان تصوير جميع الوثائق المغربية الموجودة فى المكتبات البرتغالية ، سواء ما كان منها بالعربية او البرتغالية .

وفى اعتقادي أن من شأن مثل هذا العمل العلمى أن يفتح الآفاق واسعة للتعاون فى مختلف المجالات الثقافية والاقتصادية والسياسيـة ، انطلاقا من روح الجوار الطيب الذي يسود العلاقات بين المغرب والبرتغال، وانطلاقا كذلك من تاريخهما المشترك الطويل ، وفى تطلع لتنمية عناصره الايجابية وتوظيفها فى خدمة قضايا الحاضر والمستقبل لما فيه صالح البلدين والمـنـطـقـة

وارى واجبا على فى ختام هذا الحديث أن انوه بالمساعدة التى قدمها لى المسؤولون عن شؤون الثقافة فى البرتغال ، وفى طليعتهم مدير التراث الثقافـى ونائبه وقيمو المكتبات المذكورة ، وأن انوه كذلك بالتسهيلات التى قدمها الى سعادة سفير المغرب بالبرتغال السيد الطيب بن بوعزة ومساعده مستشار السفارة الاستاذ محمد قشطيليو ، وان انوه قبـل هذا وبعد بمبادرة معالي وزير الدولة فى الشؤون الثقافية الاستاذ العالـم الحاج محمد آبا حنينى الذى يرجع اليه فضل تنظيم هذه الزيارة .

الـربـاط — د. عباس الجراري

نحن والتراث والمعاصرة

د. تمام حسان

لكل مجتمع ذاكرة قومية تجعل الجيل الحاضر منها مرتبطا بالاجيال الماضية . ويختلف مجتمع عن مجتمع آخر في هذا المجال . فمن المجتمعات من لا يرجع بوعيه بماضيه الى اكثر من ثلاثة اجيال او اربعة ، فاذا ذكر جيلا سابقا من هذه الاجيال احاطه بضباب الخرافة والهويل ، ولم يصل بمعلوماته عنه الى شيء أكثر من روايات شفوية يتلقاها صغار هذا المجتمع من الكبار . ومن الامثلة على ذلك ما أحاط بأخبار الجاهليين من غموض بالنسبة للمسلمين في صدر الاسلام ، ثم ما يعرفه كل واحد منا من جهله بالتاريخ البعيد لاسرته اذ لا يكاد يذكر حتى اسماء أجداده الابعدين . ذلك بأن أخبار الجاهليين من جهة واخبار أسرة كل واحد منا من جهة أخرى لم تقيد ولم تضبط بالكتابة أو النقش او نبق منها أطلال تدل عليها . ولكن المجتمعات التي تعرف الكتابة والتسجيل والنقش على البناء وتبني للخلود تطول ذاكرتها وتتوغل في الماضي ، حتى يعرف الجيل الحاضر من هذا المجتمع معرفة مضبوطة او قريبة من الضبط ما حدث منذ آلاف السنين . ولقد كان من نتائج التسجيل أن جعلنا الجاحظ نذكر رجلا يدعى ابا ربوبة كان يقف بالكرخ وينهق فلا يبقى

حمار بالكرخ الا نهق لنهيقه . ولا شك ان نهيق ابى ربوبة ليس من الخطر بحيث يستحق التخليد ، ولكن تسجيل الجاحظ لهذا النهيق ادخله ذاكرة الامة العربية . وفى الوقت نفسه ضاعت أخبار كثير من الملوك والممالك والاحداث العظيمه لانها لم تجد من يسجلها ، من ذلك مثلا اخبار دول أسلامية قامت فى غرب افريقيا جنوب الصحراء ، واخبار دولة الفونـــج فى السودان ، بل ضاع الكثير من أخبار العهد المملوكـــى فى مصر . ومغزى كل ذلك ان ذاكرة الامة تقوى بالتدوين وتضعف بالاقتصار على المشافهة .

ولكل امة استمرار فى التاريخ وامتداد فى الحاضـــر . واذا كـــان الامتداد فى الحاضر تضمنه المعاصرة ، وتحققه الروابط القائمة بـــيـــن افراد الامة فى وقت ما ، فان الاستمرار فى التاريخ لا يتحقق الا باعتزاز الجيل الحاضر بالتركة التي خلفتها الاجيال السالفة من هذه الامة،والالتزام بها باعتبارها من عناصر تكوين شخصية الامة ، ان لم نقل أهم هذه العناصر على الاطلاق . ان هذه التركة هي التي تربطنا بالسلف ، وعن طريقها نعرف كيف كانوا يفكرون وينفعلون ، وكيف كانوا يألمون ويأملون ، وكيف كانوا يحيون ويتصرفون . فاذا عرفنا عنهم ذلك نزعت بنا نوازع الانتماء والهوية الى الاخذ عنهم والاقتداء بهم ، فاعتنقنا دينهم وتكلمنا لغتهم واستمتعنـــا بأدبهم وتمثلنا بمواقفهم واتخذنا قراراتنا فى ضوء قراراتهم ، وهكذا نصبح واياهم أمة واحدة مستمرة فى التاريخ منذ ان كتب لهم تاريخ . وهل ننسى مثلا أن حرب رمضان تيمنت بغزوة بدر ، أو أن قرارا المسيرة الخضراء اتخذ فى ضوء فتح الحديبية الذي تم بدون حرب ؟ ام هل ننسى ان كـــل واحد منا اذا اختلطت عليه أمور دينه فلم يجد نصا يستعين به رجع الى افعال النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ؟ أم ننسى ان فقيه مالـــك مثلا كان يستوحى عمل أهل المدينة لانهم اولى أن يحافظوا على استمرار العمل كما كان يعمل النبى واصحابه ؟ كل ذلك من قبيل ارتباط الخلـــف بالسلف ، وهو ارتباط لو لم يكن لضاعت شخصية الامة ولم يعد لها ما يميزها عن غيرها ، ولسهل على أية أمة أخرى ذات تـــراث واستمـــرار تاريخى أن تستقطب اليها هذه الامة . وهيهات أن تستقطبنا امة أخرى طالما بقى لنـــا تـــراث .

واول ما يقوم به كيان التراث هو اللغة والدين الاسلامى . فأما اللغة فهى وعاء تجارب الاجيال المتعاقبة ، فهى التى تروي هذه التجارب تاريخا ، وتسجلها أدبا ، وتنقل الى الخلف نشاط السلف فى حقول العلم والفن والسياسة والحرب الخ . وهكذا تصبح اللغة وسيلة ربط بين الاجيال ، فيستطيع الكاتبون من جيلنا هذا ان يتحدثوا بواسطة ما يدونونه بها الى أجيال مقبلة قد يفصل بيننا وبينها آلاف السنين. فاذا قرأت الاجيال المقبلة ما كتبنا كان لهذه القراءة اثر فى التوحيد بين نظرتهم الى الحياة ونظرتنا اليها ، فحدث الاستمرار المنشود الذي لا تقوم شخصية الامة الا به . واذا كانت اللغة وعاء تجارب الامة ، فان الدين هو خلاصة ضمير الامة ، لانه يكيف سلوكها وأفكارها ومعتقداتها وآداب حياتها اليومية ، ويربي فيها المثل العليا ، ويحدد لها بالاوامر والنواهي سبيل سعادتها واطمئنانها النفسي . وهو بالاختصار الذي يعين على الربط بالاعتقاد بين أجيال أمة واحدة ، ويجعل من السلف قدوة للخلف . وهذه النقطة الاخيرة (اي الاقتداء) هامة جدا فى خلق الاستمرار المطلوب .

ومع هذا لم يختلف المثقفون العرب على شيء قدر ما اختلفوا فى موقفهم من هذا التراث الذي تركه أسلافنا من العرب والمسلمين لغة ودينا وعادات وتقاليد ونظرة الى الحياة وأفكارا اخرى موروثة تربط بيننا وبين هؤلاء السلف من أمتنا . والسبب الاكبر فى هذا الاختلاف اننا قد انتهينا بنظمنا التعليمية الى ازدواجية غير محمودة فصلت فى التعليم بين التراث وبين العلوم العصرية ، فجعلت للتراث معاهد خاصة تعزف عن الاخذ بالجديد ، وجعلت للجديد معاهد خاصة تنظر من عل الى القديم . وهكذا تخرج مثقفون فى معاهد التراث وهم يرون الخلاص فى العودة الى هذا التراث وترك ما استحدثته الحضارة من علم ، وتخرج مثقفون فى معاهد العلم الحديث فرأوا بأعينهم وسمعوا بآذانهم كيف أصبح الانسان بالعلم قاب قوسين من السيطرة على الطبيعة ، وكيف أصبح العلم هو المصدر الوحيد فى عالمنا المعاصر للقوة والتفوق ، وقد جهل هؤلاء ما فى التراث من كنوز وما للتراث من قيمة بالنسبة الى استمرار شخصية هذه الامة . وهكذا كان جهل كل من الفريقين بما عند الآخر سببا للخلاف بين الفريقين

حول قضية التراث والمعاصرة ، وهكذا كان الجهل دائما سبب التعصب والخلاف .

لقد ادت ظروف تاريخية معروفة الى وقوف العرب حيث كانوا فى مستواهم الحضاري فى القرن الخامس عشر الميلادي . فلم يكد القرن السادس عشر يهل حتى اجتاحت جيوش العثمانيين حواضر العرب فقضت على ما كان لهم من استقلال سياسى ، وحملت الى القسطنطينية من استطاعت حملهم من العلماء والصناع المهرة وكتب التراث محاولة بكل هذا أن تحول مركز الثقل الثقافى والعلمى الى عاصمة الخلافة الجديدة . وهكذا تدهورت الثقافة العربية ولم يبق من معاهد العلم الا حلقات المساجد وكتاتيب تحفيظ القرآن الكريم .

وكان المد المسيحى قد اكمل ازاحة الاندلسيين عن ديارهم وبدأ يحاول الاستيلاء على ثغور المغرب الاقصى . وهكذا كان على العرب أن يقفوا من الحضارة حيث كانوا فى وقت كانت أوربا فيه تعيش فترة الاحياء المجيدة . وتقدمت الحضارة الغربية والعلوم ، وتجمدت اقدام العرب على عتبات القرن السادس عشر لا يستطيعون تجاوزها ، وتوالى تقدم أوربا حتى اصبح التراث العربى محتويات متحف ملىء بالكنوز العظيمة ، ولكنها كنوز للذكرى لا للاستعمال . وبعد البون بين التراث العربى والعلم الاوربى حتى لم يعد للعرب أمل فى الاستقلال بفكرهم المتوارث . وحين بدأ العرب نهضتهم الفكرية الحاضرة فى القرن التاسع عشر لم يكن أمامهم من بد أن يقيموا هذا التعليم المزدوج فجعلوا للثقافة رافدين أحدهما تراثى للمحافظة على الاصالة والثانى معاصر للمشاركة فى احداث زماننا هذا . ومن هنا جاء التعصب والخلاف .

ولو أن كلا من الفريقين من ابناء الامة الواحدة حاول أن يتعرف على ما فى يد الآخر لكان من الممكن لهما أن يصلا معا الى فهم مشترك للكيفية التى يتم بها بناء المستقبل . ولكن اصحاب التراث قعد بهم الشك فى نوايا الغربيين عن محاولة الاخذ والتلقى ، لانهم عرفوا الغرب من خلال ما يقوله طائفة من المستشرقين الطاعنين على الاسلام والمنتقصين للمجتمع الاسلامى . وهؤلاء المستشرقون ولا شك يسعون بالاستشراق الى

الوصـــول الى احـــدى غايتين : غايـــة التبشير بالمسيحيـــة ، وغـــايـــة الاستعمار . ومن هنا جاءت كتاباتهم مسمومة حـــاقـــدة تنادي بالثارات القديمة ، فكان اصحاب التراث الذين عرفوا الغرب من خــــلال هؤلاء معذورين فى اساءة الظن بكل ما هو غربـــى . وفى الوقت نفسه نجـــد اصحاب العلوم الحديثة قد وقف بهم الجهل بالتراث وذخائره دون التقـــرب منه ، وكما تكون العادة دائما حاولوا عند المواجهة والمناظرة أن يهونـــوا من شأن التراث اما بالطعن فى قيمته من حيث هو منطلق ممكن للاحياء ، واما بالسخرية من حملة التراث الذين يقيمون فى متحف هم سدنته وهـــم رواده وزائروه . ولقد اعانه معلى هذا الانتقاص والطعن والسخرية ان المستعمر فى كل بلاد العرب والمسلمين كان يكيد للتـــراث لانه يعـــرف ان التراث هو اهم مقومات الامة ، وان الامة لن تكف عن المقاومة ما دام فى يدهـــا التراث .

ففى مصر مثلا فرض المستعمر التركى لغته على دواوين الحكومة وعلى الجيش ، وشجع على استعمالها فى الحياة العامة . وحين غـــزا الانجليز مصر فى نهاية القرن الماضـــى فرضوا لغتهم على الادارة ايضا وعلى التعليم ، ثم ذهبوا يكيدون للعربية بالدعوة الى استعمال الدارجة ، وضيقوا على معلم اللغة العربية فى الرزق بالمقارنة بمدرسى لغتهم ومعلمى المواد الاخرى فى المدارس . واغروا اصحاب الفكاهة من بين المغنـــين والمسرحيين بالسخرية منهذا المعلم والحط من شأنه فى حملةما نزال نشهد لها ذيولا فى اغـــان مثل :

ابـــجـــد هـــوز حطى كلمن شكل الاستـــاذ بقى منسجم

بل ان هذه الموجة اغرت بركوبها كبار الشعراء . فحافظ ابراهيـــم الذي مجد اللغة العربية برائعته : « رجعت لنفسى فاتهمـــت حصاتـــى » هو نفسه الذي داعب الدكتور محجوب ثابت بقوله وقد صحبه الى بساتين بركات :

يرغى ويزيـــد بالقافات تحبسهـــا تصـــف المدافع فى افق البساتيـــن
من كل قـــاف كأن اللـــه صورهـــا من مارج النـــار تصوير الشياطين

ولقد كانت دعوة الانجليز الى طرح العربية واستعمال اللهجة المصرية الدارجة دعوة منظمة شارك فيها رجال مسئولون من الانجليز من امثال « ويلكوكس » . وكانت حجتهم فى ذلك ان اللغة العربية لا تصلح للنشاط العلمى الحديث ، وكأن الدارجة أغنى فى هذا المجال من الفصحى. وما زال بعض دعاة هذه الجريمة يتهامسون بها الى وقتنا الحاضر .

وكذلك كان المستعمر يسعى الى اضعاف السلطة الدينية على النفوس . وكما كان بعض كيده للعربية حطا من قيمة معلم العربية فى المدارس كان كيده للدين بواسطة التشكيك فى نزاهة رجال الازهر ، اذ اغرى بهم الساخرين أيضا يزعمون ان الازهري يفتى بتحريم النملة ويبلع الجمل . ونشروا كتبا للمستشرقين تطعن على الاسلام ونبى الاسلام والسلف الصالح من أبناء هذه الامة ، وتختار مواقف خاصة يحاول أصحابها النفاذ منها الى ما يريدون ككون زوجات النبى أكثر عددا مما أباح القرآن للمسلم العادي ، وكقصة الافك ، وندوة يوم السقيفة الخ . ثم جاءوا بالمبشرين ، ومعهم الاموال الطائلة والمدارس والمستشفيات يحاولون اغراء الضعفاء باعتناق المسيحية بدعوى حرية الفرد فى التدين ، فلم يستطيعوا أن يغروا احدا باتباعهم . ولو كان المصريون فى ذلك الوقت واعين بكنوز التراث العربى فى حقول أخرى غير اللغة والدين كالطب العربى والكيمياء والرياضيات وغيرها من فروع التراث لنالت هذه الحقول أيضا نصيبها من الطعن والانتقاص ، ولكن المستعمر حين رأى الناس فى غفلة عن هذه الكنوز لم يحاول الكيد لها عندهم لان فى الكيد لها تنبيها على وجودها ، ودعوة الى النظر فيها والعودة اليها .

نعود الآن الى اختلاف مثقفينا حول الطريقة التى ينبغى لنا أن نسلكها فى صياغة مستقبلنا الثقافى ، لنحاول أن ندلى فى هذا الخلاف برأي . وأول ما نلاحظه فى هذا الصدد ان التراث الذي توقف عن النمو فى مطلع القرن السادس عشر فيه جانبان ينبغى ان نفرق بينهما فى مجال البعث الثقافى : الجانب الاول يتمثل فى العلوم التى اخذها العرب عن اليونان ثم طوروها واضافوا اليها ، والجانب الثانى يتمثل فى الدراسات الدينية واللغوية. فأما الجانب الاول فحسبنا أن الحضارة المعاصرة بما تشتمل

عليه من علم وتكنولوجيا لم تعد حضارة اوربا ولا حضارة امريكا فقط ، وانما اصبحت بفضل وسائل الاتصال والتبادل الحديثة بين الامم حضارة عالمية . فلقد شاركت فيها اليابان والصين والهند والعرب وغير هؤلاء من الشعوب وتوحدت انماط هذه الحضارة وهذا العلم وأفكارهما ومناهجهما فى مختلف بقاع العالم . فالدول كلها أعضاء فى المنظمات الدولية ، ملتـــزم بالمواثيق الدولية ، يحضر المؤتمرات العلمية والثقافية ويضيف الى تجارب الآخرين وينتفع بما فى أيدي الآخرين من النتائج . الناس جميعا يتكلمون عـــن حقوق الانسان ، ويحتفلون بيوم المرأة ، ويشاركون فى برنامج الطفولة ، ويستعملون وسائل الاعلام والترفيه الحديثة ، ويمهدون الطرق ويركبون السيارات والطيارات ، واتسع بينهم مجال التبادل الثقافى والعلمى الى غير حد فأصبح الرسامون يعرضون انتاجهم فى بلاد اجنبية بل ان الآثار القديمة ذاتها اصبحت تنتقل بين بلد وبلد حتى لقد اصبح المواطن اليـــوم مواطنا عالميا بفكره وان كان ولاؤه العاطفـــى والسياسى لبلده .

والدليل على ان هذه الحضارة عالمية بكل علومها وفنونـــها ان مظاهرها المعاصرة لا تنتمى الى بلد واحد ولا الى قارة بعينها . وحسبنا ان نعرف ان الترانزستور ابداع يابانى ، وان عـــلاج الابر تراث صينـــــى وان اليوجا هندية وان الكاراتيه يأتينا من الشرق الاقصـــى وان العـــرب شاركوا فى برنامج الفضاء الامريكى وكانوا أول من استخدم الاليكتـــرون فى الحرب وأول من أغرق مدمرة بقذيفة من قارب صغير وأول من استرد وحدة ترابه الوطني بمسيرة سلمية ، وأول من بادر بالسلم وهو ظافـــر فذهب الى عدوه فى عقر داره داعيا للسلام . ولكن الحضارة على الرغـــم من طابعها العالمى تتخذ مذاقا وطنيا فى كل بلد على حدة ، ومن هنا نجد الامم حتى مع تشابه تراثها (كأمم شمال الاطلنطى مثلا) تتمايز اتجاهاتها فى نطاق الحضارة الواحدة حتى ان الاوربيين ليصرحون احيانا بالشكوى من زحف الحضارة الامريكية عليهم ، ويعيبونها مغتاظين فيسمونها حضارة الكوكا كولا او حضارة الجاز او الشوينكوم .

وهكذا نجد انفسنا فى هذا الجانب العلمى من الحضارة مشاركين ولكن ليس على مستوى المشاركة الحقيقية التامة بل على مستوى المشاركة بالاستهلاك فى الغالب . ويبقى علينا ان نحقق امرين :

اولا : ان نشارك فى الحضارة مشاركة المنتج لنستحق الانتساب الى تاريخنا المجيد .

ثانيا : ان تحمل مشاركتنا طابعنا القومى على نحو ما ذكرنا من امـــر الترانزستور وعلاج الابر .

فكيف نصل الى هاتين الغايتين النبيلتين ؟ وهل يمكن ان نصل الى الغاية الثانية منهما فنضيف الى الحضارة المعاصرة عطاء علميا عربيا متميزا اذا لم يكن منبع هذا العطاء هو التراث ؟ وهل يمكن أن نحقـــق الشخصية العربية الحضارية بالاعتماد على الحضارة العالمية وحدها دون التراث العـــربـــى ؟

هذه الاسئلة هى موضوع هذا المقال ، والاجابة عليها فيما يبدو لم تعد بعيدة عن توقع القارىء ، اذ يتضح من سياق الحديث اننى افضل أن أمـــزج بين التراث والمعاصرة لبناء المستقبل . فكيف يتم هـــذا المزج ؟ شرط هذا المزج اولا أن نعرف القديم والحديث فى الوقت نفسه ، وعلـــى مستوى الفرد الواحد . وتتطلب هذه المعرفة أن نلغـــى هـــذا الازدواج فى مؤسساتنا التعليمية فى مراحلها الاولى التى قبل الجامعة ، فيشتمل برنامج التعليم على القديم والحديث جنبا الى جنب . فاذا انتهى الطالب من المرحلة الثانوية فالتحق باحدى كليات الجامعة بقى له شىء مما تعلمه من قبـــــل يحول بينه وبين انتقاص القديم او الشك فى الحديث ، وهكذا يقضى على التحامل الذي يتولد عن الجهل . وهذه خطوة اولى تسبق المزج بين القديم والحديـــث .

وعندما يتسع فهمنا ليشمل الترا ثبنوعيه السابقين : (العلـــوم المنقولة عن الامم الاخرى والدراسات العربية والاسلامية الخالصـــة) . يصبح المزج بين الامرين ايسر مما نراه الآن ، لان مـــعـــرفتنا بالتراث ستكشف لنا فيه عن العناصر الصالحة للتطوير والعناصر الاخرى التـــى تجاوزتها الاحداث فلا تصلح للتطوير . ولن يكون المزج الا بالعودة الى مـــا صلح من التراث للتطوير ، وبقراءة معان جديدة فى هذا القسم من التراث. وسنرى ان تراثنا حافل بالعناصر الصالحة للتطوير لانها لا تتنافى مـــع الحقائق العلمية الحديثة وان بدت فى ظاهرها أو فى تفسيراتها السابقـــة

بعيدة عن العقلية المعاصرة . دعنا اذن نقرأ معانــي جديدة في تراثنــا تجعله اقرب الى الفهم المعاصر ، وسأحاول في هذا المجال ان اضرب عددا من الامثلة لهذه القراءة ، فلعل ذلك يوضح ما اقصده بها . وسأجعل الامثلة المختارة من الحقل الذي أحسن القول فيه : حقل اللغة . واليــك أيها القارىء العزيز بعض هذه الامثلة :

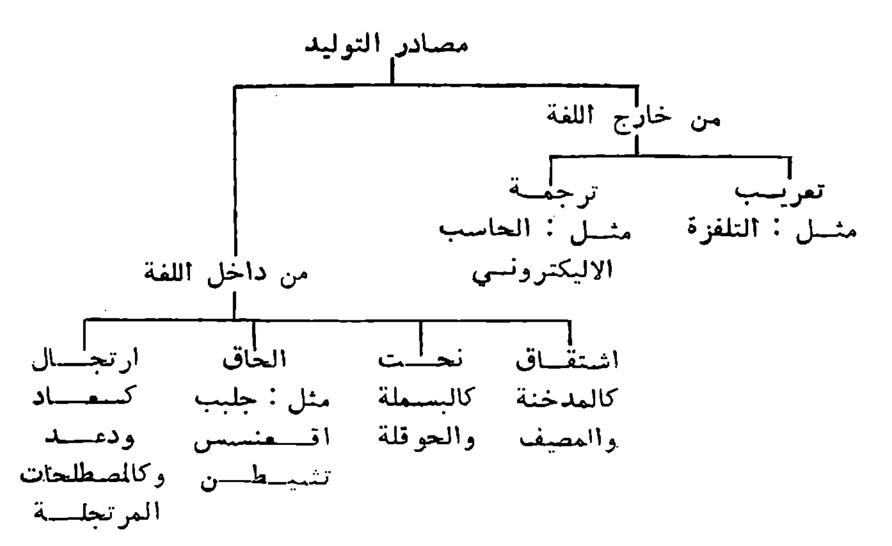
ا ــ قال المحدثون من النحاة أن النحو العربي نضج حتى احترق، فلم يترك الاول للاخر شيئا في مجال النحو . ولكن القــراءة الجديـــدة لكتب التراث في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة مكنتنــي من اقامة هيكل جديد للنحو العربــي ضمنته كتابــي : اللغة العربية معناها ومبناها ، قسمت فيها الكلم تقسيما جديدا ، وأبطلت نظرية العامل وأحللت محلها فكرة تضافر القرائن ، وأدخلت الى النحو العربــي فكرة الترخص في القرينة عند أمن اللبس ، ودرست الزمن النحوي العربــي وبلغت بعــدد الازمنة ستة عشر زمنا ، ونظمت عددا من القواعد الفرعية في سلك واحد تحت عنوان : « الموقعيات) . فمن شاء فليطلع على ذلك في مصدره .

ب ــ يروي ابن جني في الخصائص عن أبــي علــي الفــارســي قوله : « لو شاء شاعر او ساجع او متسع أن يبنــي بالحاق اللام اسما وفعلا وصفة لجاز له ، ولكان ذلك من كلام العرب . وذلك نحــو قولك : خرجج أكرم من دخلل وضربب زيدا عمرا ، ومررت برجل ضربب وكرمم ، ونحو ذلك » . والذي يلفت الانتباه هنا هو ما يردده من الفاظ مثل :

« متسع » ــ « الحاق » ــ « لكان من كلام العرب » .

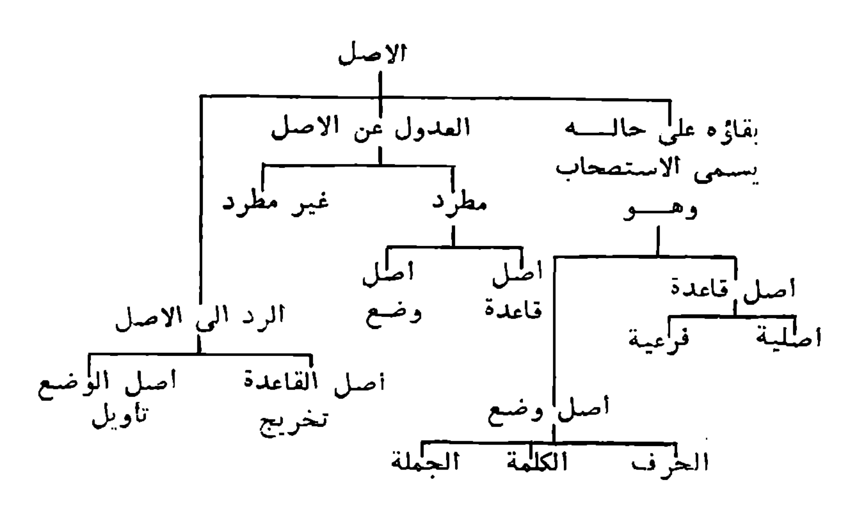
فأما اللفظ الاول فيدخل تحته كل من يتصدى لصياغة الجديد من المصطلحات والفاظ الحضارة في وقتنا الحاضر ، توسيعا للعربية وتنمية لمعجمها وزيادة في كفاءتها وقدرتها على استيعاب الجديد مــن الافكــار والمسميات . ويصدق « الاتساع » على اعمال المجامع اللغوية وهيئات التعريب والمعنيين باللغة من الاساتذة فرادى وجماعات ، لان كل هؤلاء يحاولون أن يصوغوا الفاظا ومصطلحات جديدة . وأما اللفــظ الثانــي « الحاق » فهو من الوسائل التى تستعملها هذه الهيئات لصياغة المفردات

المطلوبة . وهذه الوسيلة واحدة من عدة وسائل يمكن استعمالها فى هذا المجال كما يبدو من البيان التالى لتوليد الكلمات الجديدة .



والجديد فى ذلك أن الفارسى يشير فى هذا النص الى منجم من مناجم اللغة العربية يشتمل على كميات هائلة من الركاز لمن شاء أن يستخرجه، ولم يكن العرب فى يوم من ايام تاريخهم الطويل اشد حاجة مما هم اليوم الى ان يقرأوا فى عبارة الفارسى هذه معنى جديدا . فلقد درج طلاب العربية على قراءة هذا النص والتندر بما مثل به من كلمات مثل « ضربب» و « كرمم » و « خرجج » ، ولم يكد الكثيرون منهم يعقدون الصلة بينه وبين حاجاتنا المعاصرة الى ابتكار الكلمات لاغناء اللغة . بل ان المحافظين من طلاب اللغة يقرأون هذا بشىء من التوجس الورع خشية منهم أن يكون هذا بابا خلفيا يتسلل منه العابثون باللغة . ولقد اوحى لى هذا النص بالفكرة التى اوردتها فى كتابى الذي ذكرته سابقا (ص 151—154) اقترح بها طريقة جديدة للتوليد فى حقل المصطلحات العلمية .

جـ ـ يتخوف الكثيرون من المشتغلين بالدراسات اللغوية الحديثة فى وقتنا الحاضر من عقد صلة بين بعض الافكار الاساسية فى هذه المواد وبين شبيهاتها فى تراثنا العربـــى ، ولعل السبب فى ذلك يعود الى انهم اما ان يحسنوا الجانب الحديث دون الجانب العربى او العكس . والواقع ان الدراسات اللغوية العربية ما تزال تعانـــى من عناية الناس بمسائلها المفردة مع التغاضى عن أصولها العامة . فلو اننا تعمقنا هذه الاصول وفهمنا المقصود ببعض المصطلحات التى نرددها كثيرا ولكنها لا تثير لدينا الفضول لكان ذلك اجدى للغة ودراستها . وتلك مصطلحات مـــثـــل : الاصل ـــ اصل القاعدة ـــ اصل الوضع ـــ القاعدة الاصلية ـــ القاعدة الفرعية ـــ التخريج ـــ التأويل ـــ المعاقبة ـــ المختص وغير المختص ـــ الطرد ـــ الشبه ـــ المدخولات ، الخ ... فهذه المصطلحا تـلها ما يشابهها فى الدراسات اللغوية الحديثة وقد وسعت هذه الدراسات من تلك الافكار، وأدخلت عليها تطبيقات جديدة وصلت بها الى أعماق لم تكن من قبل . فمن واجب الدارس العربى أن يقيم الصلة المطلوبة بين هذه الافكار القديمة وما يشابهها فى الحديث ، ليلقى بذلك اضواء جديدة على لغتنا العربية . وعلى سبيل المثال نستطيع أن نقول ان المدرسة الامريكية التوزيعية تقوم فى أساسها على افكـــار المدخولات ، والمعاقبة ،والمختص وغير المختص ، لانها جميعا افكار توزيعية تشرح ما الذي يدخل على ماذا وما الذي يعاقب كذا وما الذي يختص بكذا. كما ان فكرة الاصل واصل القاعدة والوضع والقاعدة الاصلية والفرعيـــة تماثل ما لدى التحويليين من التجريدات مثل « الجملة النواة) وقواعد التفريع وقواعد التحويل والقاعدة المقامية وغير المقامية وكذلك المعاقبة والتأويل ، وما الى ذلك ، وقد شرحت المقصود بجل هذه المصطلحات فى مقالى المنشور بالعدد السابع من « المناهل » ولست أجد مانعا يحول دون شرح ذلك من وجهة نظر النحو العربـــى بالشكل الآتى :



وانما يكون القياس على الاستصحاب والمطرد المعدول به عـــن الاصل ، اما التعليل فيكون فقط فى المطرد المعدول به عن أصله ولا يكون هذا التعليل مع الاستصحاب لان ما جاء على اصله لا يسأل عن علته . أما غير المطرد فهو الشاذ الذي لا يقاس عليه وأما الرد الى الاصـــل فيسمى تخريجا اذا كان الاصل قاعدة ويسمى تأويلا اذا كان الاصل وضعا.

د ــ تأتينا نظريات من الغرب وفى تراثنا ما يحمل اوجه الشبه بها ، فنفرح بالجديد ونهمل النظر فى القديم ، ومن حق تراثنا علينا وحقنا على أنفسنا ان ننفض الغبار عن هذا التراث ونكشف الغطاء عن العناصر الايجابية منه فنبنى عليها ونجعلها منطلق نهضتنا العلمية المرجوة . انا من المعجبين بالنتائج العظيمة التى وصل اليها اللغوي الامريكي تشومسكـــى واعتقد ان نظريته التحويلية قد وضعت الدراسات النفسية لاول مرة فى موضـــع المستفيد من دراسات اللغة ، وذلك بما شرحت من أمر السليقة اللغوية واكتساب اللغة . ولكننى أعتز أيضا بما للعلامة عبد القاهر الجرجانـــى من تنظير فيما يتصل بما سماه « النظم » ، واعتقد أن فكر عبد القاهـــر يستحق منا تعميق النظر فيه لنرى ما اذا كان يستحق أن يقام عليه صـــرح نظرية حديثة . ذلك بأن النظم عند عبد القاهر ليس عنصرا نحويا كما يرى تشومسكـــى مصدر التوليد فى منهجه ، بل هو عنصر دلالى ، لان النظـــم

عنده نظم المعاني فى النفس ، والبناء اختيار المباني لهـذه المعانـــي ، والترتيب وضع هذه المبانـــى بحسب ما تستحق من مواقعها فى الجملـــة تقديما وتأخيرا ، والتعليق اقامة العلاقات السياقية بينها . ومن هذه الافكار الاربع يصور الجرجانى انتاج الكلام تصويرا ما ولكن العيب الاساســـى فى عرض الجرجانـــى لهذه الافكار انه لا يحاول أن يقيم منها بناء نظريـــا متكاملا ومن ثم اصبح فهمه موضع اختلاف بين قرائه ، ولكن المزاوجـــة بين هذه الافكار فى موقع كل منها من الاخرى وبين الدراسات الحديثة ليست امرا عسيرا ، وقد تؤدي هذه المزاوجة على يدي المفكر المدرب الى بنـــاء نظرية عربية تشرح السليقة واكتساب اللغة . ولست اقصد بالطبع ان عبد القاهر او غيره من علماء السلف قد سبقوا الى التفكير فى تحليل السليقة اللغوية ، لان عمل عبد القاهر كان متصلا ببيان نواحـــى الاعجـــاز فى القرآن وشرح فكرة « الكلام النفسى » بفكرة النظم (وهو نظم المعانـــى فى النفس) . وكل ما اريد ان اشير اليه هنا أن هذا العمل نفسه من عبـــد القاهر يمكن ان تقرأ فيه معان جديدة .

هـ ــ حتى الجانب اللغوي فى تفسير بعض الالفاظ القرآنية ربما احتمل قراءة جديدة . فلقد فهم البعض من لفظى « طه » و « يس » اللذين فتحت بهما السورتان انهما من اسماء النبى صلى الله عليه وسلم لان الخطاب بعدهما مباشرة موجه الى النبى صلى الله عليه وسلم . ولكـــن الاوضح فيهما انهما حروف ركبت تركيب غيرها من فواتـــح السور ، وأن الاولى مركبة من حرفى الطاء والهاء والثانية من الياء والسين . ومن ذلك ايضا ما رآه بعض المفسرين من أن « الكوثر » نهر فى الجنة ، وقد اوحـــى ذلك الى البعض ان يقول:

واعـــذب الانهـــار نهر الكوثر ونيـــل مصر ثـــم باقى الانهر

ولكن الاوضح ان هذا اللفظ ليس اسما لنهر فى الجنة ولا فى غيرها وانما هو صيغة « فوعل » من مادة « كثر » والمعنى والله اعلـــم : انـــا أعطيناك الكثيـــر .

. تلك لمحة قصيرة لقضايا التراث والمعاصرة ، احببت أن اقدمها مع بعض الامثلة لما ينبغي لنا أن نصنعه براثنا حتى نستعين به فى اقامــــة نهضتنا المقبلة . ولعل فى هذه الامثلة ما يغري بعض مثقفينا من خصوم التراث ان يحاولوا قراءته بروح جديدة قوامها الانصاف ان لم يكن العطف والحب . ولئن فعلوا مخلصين لوجدوا طريقهم أقل صعوبة مما يتصورون، ولافادوا واستفادوا ، لان ما فى ايديهم من العلم الحديث انما هو أحــد العنصرين اللذين ندعو الى المزج بينهما لاقامة صرح المستقبل مع المحافظة على الشخصية العربية الاسلامية . هذا هو التحدي ، وذلك هو الطريق الصعب ولكنه الطريق الوحيد أمام أمة تريد الحياة . وهل لنا طريــق غير هذا التحدي ؟

الربـــاط **د : تمام حسان**

المجتمع التقليدي بفاس في مواجهة تحديات العصر

عبد الكريم غلاب

الف ومئتان من السنين تزيد قليلا مرت على تأسيس مدينة فاس . والمدن التى تجاوزت هذا العمر الطويل من حياتها لا شك أن لها ما تحكيه عن تاريخها ، خاصة اذا كانت قد عاشت هذا التاريخ مؤثرة فيه متأثرة به . وما من شك فى أن فاس لم تعش بعيدة عن الاحداث ، واحداث المغــرب عموما والهامة منها على الاخص ، بل عاشت فى قلب الاحداث فى غير حياد ، تصنع التاريخ وتؤثر فى الانسان وتدفع به الى أن يبنى ويسير منطلقا مــن المدينة التى صمدت لعوادي الزمان هذا التاريخ الطويل .

والحياة المتحركة التى عاشتها فاس معتمدة على نفسها فى خلــق التقاليد والاعراف والنظم وانماط الحياة من جهة ، متقبلة ما يفد عليها من تقاليد وأعراف وانماط حياة من جهة أخرى ، وخاصة ما وفد عليها مــن مدينتين كان لهما اثر فى الحضارة العربية الاسلامية شرقيها وغربيها هما القيروان فى تونس وقرطبة فى الاندلس ، هذه الحياة المتحركة هى التــى جعلت مجتمع فاس مجتمعا متميزا فى التاريخ له تراثه وتقاليده وآثاره .

وعراقة هذا التراث وهذه التقاليد واستمدادها من تاريخ المدينــة السياســى والاقتصادي والاجتماعــى هو الذي جعل هذا التراث يخلد

حتى العصر الحاضر . ولا يمكن أن نغفل عن سبب هام آخر اثر فى بقاء هذا التراث الاجتماعى الهام وهو السبب الجغرافى . فقد وقعت فاس فى وسط المغرب وتصلها بأطراف المغرب الشمالية والجنوبية (ومنها الى الصحراء والسودان) والشرقية والغربية طرق كانت هى سبل الاتصال بين اطراف المغرب ، وسبل الاتصال بين المغرب والعالم الخارجى فى قلب افريقيا وفى شمالها ، ، وسبل الاتصال مع الاندلس عن طريق شمال المغرب . وهناك عامل ثالث أعطى لفاس امتيازا مهما وأثر فى نشأة مجتمعها المتميز هو جامع القرويين الذي أنشىء بعد نصف قرن من نشأة المدينة تقريبا ، وصاحب تاريخها الحافل متعهدا الحياة العلمية والثقافية والاجتماعية فى المدينة المتحركة .

وعامل رابع اثر فى حياة المدينة هى انها تقوم فى وسط منطقة زراعية خصبة تنتج الحبوب والزيتون والاخشاب . وترتوي من المياه المتدفقة فى الانهار والعيون المنحدرة الى هذه الناحية والى المدينة نفسها من الاطلس المتوسط . وهى المدينة الوحيدة فى المنطقة التى يفد اليها الفلاحون من شمالها عن طريق باب الجيسة ومن شرقها عن طريق باب الفتوح ومن غربها عن طريق باب المحروق . وكلهم يأتى بثمرات جهوده السنوية واليومية من حبوب وزيتون وخضر وفواكه ليتاجر ويقايض لقاء ما تصنعه فاس وما تصدره لهذه المنطقة الواسعة من صناعات ومنتجات وخدمات ومأكولات وادوات فلاحية .

هذه العوامل الاربعة هى التى اوجدت من مدينة فاس مجتمعا متكاملا يطبعه النشاط الفكري والفنى الى جانب النشاط الصناعى والتجاري والعمرانى .

ففى الميدان الفكري سهر جامع القرويين على تكوين المجتمع العلمى للمدينة العتيقة . وكان جامع القرويين جامعة بالمعنى الكامل للجامعة ، والمحيط الذي يتحرك فيه اشعاع ثقافى . لم تقتصر الدروس على جامع القرويين التى كان يشرف عليها مجموعة من العلماء الكبار فى كل فنون المعرفة التى تتصل بالدين والدنيا ، بالمعرفة النظرية والتجريبية ، وانما

كانت الدروس ممتدة فى كل احياء المدينة حتى الاحياء الفقيرة والمتطرفة . فلا يكاد يوجد حى لا يؤمه الطلبة والعلماء ليلقوا ويتلقوا دروسهم فى صباح ومساء . وكانت دروس ما بين العشاءين فى معظم المساجد تعوض على الذين فاتهم ركب التعلم والذين يظلون يومهم فى نشاطهم الاقتصادي فيستفيدون ويرفعون من مستوى حياتهم الفكرية .

وبذلك كان مجتمع فاس مجتمعا علميا ثقافيا حافلا بالمدارس ، وحافلا بالنوادي العلمية التى تمثلها الدروس الليلية التى تلقى فى جامع القرويين وفى المساجد المنبثة هنا وهناك .

وفى الميدان الفنى تكون فى مدينة فاس مجتمع متكامل ايضا . يظهر فى انماط الدور والمنازل والقصور والمدارس التى لم تكن منازل للسكنى اى مدارس لسكنى الطلبة ودراستهم فحسب ، ولكنها الى جانب ذلك تمثل الفنون المغربية الاصيلة فى الهندسة المعمارية المتوازية ذات الطابع الخاص بغرفها وقاعاتها وعرصاتها . وفى فن الحفر على الخشب والجبس والتزويق والتزليج والتذهيب وفى وضع نافورات المياه وسقاياتها .

وفى الميدان الصناعى تكون المجتمع المتكامل ايضا . ويبدو ذلك فى الصناعات المختلفة التى نشأت ونمت وازدهرت فى مدينة فاس . منها الصناعات الضرورية للحياة ولتحويل المأكولات والمستهلكات عموما . وقد استغلت هذه الصناعات مركز المدينة ومياهها والانهار المتدفقة فى شكل شلالات لانشاء المطاحن مثلا التى تدور بقوة الماء ، ومنها صناعات الدباغة والاحذية وكل المنتجات الجلدية وصناعات تحويل الحرير وصباغته والصناعات التطريزية وصناعات تحويل القطع المعدنية والنحاسية وصناعات الحلى الذهبى والفضى ، وصناعة الثياب من الصوف والقطن والحرير المزركش ، وغيرها من الصناعات التى تشغل معظم اليد العاملة وتمكن المدينة من الاكتفاء الذاتى ، فلا تكاد تستورد ، حتى من مدن اخرى، الا بعض المواد الاولية ، الضرورية التى تفتقد فى المدينة او فى احوازها .

وفى الميدان التجاري تكون المجتمع المتكامل . فقد تبعت التجارة الصناعة وازدهرت فى المدينة اسواق مختصة ما تزال تحمل أسماء هذه

الصناعات ، فمن سوق الحايك الى سوق السباط الى المشاطين والقطانين وسوق النقرة . وهكذا كانت الصناعة تتكامل مع التجارة والفلاحة المزدهرة فى النواحى القريبة من فاس فى ايجاد مجتمع اقتصادي معتمد على نفسه بحيث لا يحتاج سكان المدينة الى الخارج — اي الى الاقاليم الاخرى — ليكتمل نشاطهم الاقتصادي .

ولكنهم مع ذلك نشطوا تجاريا فامتدت تجارتهم الى السودان والسينغال ومالى الحالية من قلب افريقيا ، كما امتدت الى أطراف أروبا وشرقا الى شمال افريقيا . دفع بهم الى هذا النشاط عاملان اثنان :

اولهما : الموقع الجغرافى للمدينة التى وقعت كما قلنا على الطرق الرئيسية من الشمال الى الجنوب ومن الغرب الى الشرق ، فكانت هذه الطرق تسهل المواصلات وتمد العنصر النشيط فى المدينة بوسائل الاتصال مع الخارج : خارج المدينة وخارج القطر كله .

وثانيهما : الانتاج الصناعى الذي كان يزيد عن حاجة المدينة نفسها ، والذي كان يستهوي الزبناء فيسد حاجتهم الى الثياب الصوفية والقطنية والحريرية والى الصناعات الجلدية من السرج الى الاحذية والحقائب التى يحملها الرجال (الشكارة) .

ولعل وفرة الصناعات والعاملين اللذين ذكرناهما اوجدا من سكان فاس عنصرا نشيطا متحركا مهاجرا فى سبيل الكسب والتجارة . وحيثما كانت التجارة والكسب تجد الفاسيين الذين كانوا يرتادون المدن الشهيرة فى افريقيا حتى ضفاف النيجر ، ويجتازون الصحراء فى طريقهم الى الحج ، وكان حجا وحاجة كما يقول المثل المشهور ، ولا شك انه يدل على معناه ، فقد كان الحج وسيلة أيضا للتجارة . وما تزال بعض الاسواق المهمة فى المدن الكبرى التى تقع فى طريق الحج — كمدينة الاسكندرية — تحمل اسم سوق المغاربة . وقد اثروا فى مدن مهمة فى الجزائر مثلا حتى كانت تلمسان بنت فاس كما يقال . وتجارتهم امتدت شمالا حتى اطراف أروبا عن طريق سبتة ومليلية .

ولم يكن النشاط الاقتصادي او الفكري وحده يطبع الحياة فى مدينة فاس . وانما كان أيضا النشاط الفني . ويكفي أن نذكر مثلين اثنين:أولهما يتمثل فى فن الموسيقى والانشاد . فقد كانت فاس وما تزال من المراكز الاساسية للموسيقى المغربية الاندلسية . ويؤكد الاستاذ محمد الفاسي، وهو حجة فى الموضوع ، انها موسيقى مغربية يطبعها الطابع المغربى فى لغتها والحانها وادائها ، واذا كانت بعض الالحان قد انتقلت مع ما انتقل الى المغرب من مظاهر الحضارة الاندلسية ، فان المغرب قد أعطى لهذه الموسيقى اكثر مما اخذ ، فأصبحت مغربية اللغة واللحن والتوقيع والانشاد. مهما يكن فان فاس احتفظت بكثير من اسرار الموسيقى المغربية هذه ، ودخلت فى حياتها العادية وربما اليومية فكانت مجتمعاتها البورجوازية والعلمية تخصص فترة من يومها لهذه الموسيقى . العلماء — وهم رجال الدين — كانوا يعتبرونها فنا رفيعا يمارسونه ويستمعون اليه ويشاركون احيانا فى أدائه ويحضرون مجالسه . البيوتات الرفيعة كانت تتخذ من الموسيقى فنا منزليا . وكثيرا ما كان الاغنياء يعلمون سرياتهم واماءهم الموسيقى المغربية على نحو ما كان الامر فى عهد العباسيين حتى ان السرية التى تتقن الموسيقى الاندلسية يرتفع ثمنها ، ولم تكن خادمة بالمعنى الذي عرف به الخدم فى فاس والمغرب جميعه . وانما كانت سرية مفضلة يأتى تفضيلها من الفن الذي تتقنه . ومن السريات يتكون داخل المنزل أو القصر جوق من الموسيقيات تحيى لسيد القصر وللعائلة جميعها ليالى فنية ويصحب السيد فى تنقلاته وخاصة فى أيام الربيع حينما تقضي العائلة فترة مهمة من هذا الفصل فى البادية .

وموسيقى الملحون ضرب من الفن الذي ازدهر فى فاس وطبع حياتها الفنية بطابع فنى شعري موسيقى ولم يكن فنا ترفيهيا فحسب، ولكنه كان يطبع الحياة فى فاس وله عشاقه وشعراؤه وحفاظه . ولم يكن فنا شعبيا فحسب تختص به الطبقة الشعبية كما يتبادر الى الذهن ، ولكنه كان فن الطبقة المتوسطة والرفيعة . كثير من العلماء كانوا يساهمون فى نظم الملحون . بل ان الملك عبد الحفيظ كان ينظم هذا اللون من الشعر وله ديوان من الشعر الملحون ، وطبعا كان مولعا بسماعه وتشجيعه .

يضاف الى ذلك نوع من الموسيقى الشعبية التى تشبه الانشـــاد . وتمتاز بها النساء اللائى تنشدنها فى سطوح المنازل وعندما تجتمعن فى الافراح أو النزهات خارج المدينة وتسمى بالعروبـــى . وتجلى فى انشادها السيدات اللائى يتمتعن بأصوات جميلة . وكثيرا ما كان هذا الغناء ينشد مع حركات الارجوحة . وهو غناء ذو طابع فنى اذا كان لا يصحب بعزف من آلات موسيقية فهو يردد كلمات أو أصواتا وحروفا ذات نغم معين يستعيض بها عن العزف ويقوم على أساس انشاد وشعر قصصى غنائى غزلى . وقد جمع منه الاستاذ محمد الفاســى مجموعة طيبة مع مقدمة تحليلية لاسم هذا الفن « العروبى » وطريقة انشاده .

هذا النوع من الغناء الموسيقى مظهر من مظاهر مساهمة الفن فى استكمال ضروب الحياة التقليدية فى العائلة الفاسية . العائلة التى لم تعش وسط الفنون الحديثة من مسرح وسينما وحفلات موسيقية مسرحية خارج المنزل لم تكن تتخلى عن الحياة ، بل كانت تجلب هذه الفنون الى داخل المنزل . فكان الجوق العائلى من السريات على الاخص ، وكان الغناء فى أوقات المرح والنزهة بين النساء فى العروبـــى ، وكانت الحياة خارج المنزل كذلك مطعمة بفنون الموسيقى المغربية الاندلسية وموسيقى الملحون، بكل ما يتصل بهذه الموسيقى من فنون الانشاد والشعر .

ولا يمكن أن نذكر الموسيقى دون أن نذكر جانبا آخر منهـــا هــــو الانشاد الذي يقوم به المسمعون . ومن المعروف ان فاس — كغيرها من مدن المغرب التاريخية — احتضنت هذا الفن فكان المنشدون الذين يرتلون أشعار المدح فى النبى الكريم محمد صلى الله عليه وســـلـــم ، وأشعار التصوف والعشق الالهى . وينشد هذا الشعر فى حلقات الذكر وفى الحفلات التى لها طابع دينـــى ، وحتى فى الحفلات العادية التى يستـــعيـــض فيها المحتفلون بالمسمعين عن الموسيقيين . والمسمعون لا يقتصرون على الشعر الدينى فى انشادهم ، ولكنهم كذلك يؤدون الحانا وطبائع من الموسيقـــى الاندلسية المغربية بدون آلات موسيقية .

ومن فنون التعبير التى ازدهرت فى فاس فن النحت والنقش والترليج والتزويق والتطريز على الخشب والجبس وبقطع الزليج الملونة وعلـــى

الثياب . فهذا الفن جميعه عاش داخل الدور والقصور والمساجد والاضرحة. ولم يجد المواطنون اى تناقض بين مركز العبادة — المسجد او الضريح — وبين التعبير بهذه الفنون الجميلة . بل انها تعتبر نوعا من التقرب الى الله. فكثيرا ما كان المحسن او المتبرع يخص تبرعه بتزيين مسجد أو ضريح بالنقوش الخشبية والجبسية والزليج الملون . اما فى الدور والقصور فقد كان نوعا من التعويض بالفن عن الطبيعة التى حرمت منها المدينة فى دروبها وأزقتها الضيقة . ولذلك كثيرا ما كنت تجد تناقضا كبيرا بين خارج المنزل وداخله . خارج المنزل تجد الاسوار المكتئبة والازقة الضيقة المظلمة ، والتى لا يعنى حتى بنظافتها ، بينما تنفتح بوابة الدار على بدائع الفن التى يتقنها المهرة من الصناع ، سواء فى عرصة الدار وساحتها او فى الغرف والبيوت .

ومن المؤكد ان الفن هنا لم يكن للفن وحده ، وانما كان للحياة كذلك. فاذا كانت العائلة — وخاصة النساء — تعيش معظم أيامها داخل المنزل ، فمن الطبيعى أن يكون فى هذا المنزل ما يرفه عن ساكنيه وساكناته ويعوضهن عن الطبيعة الجميلة التى قلما يتاح لهن زيارتها الا فى فصل الربيع ، ولبعض العائلات المترفة التى تملك أرضا أو عزيبا فى البادية .

وتشارك النساء فى ابداع جانب من هذا الفن الرائع حينما تطرزن بأيديهن بعض اثاث البيت . وغالبا ما كانت الفرش تغطى بملاءات مطرزة وكذلك مسانيد ومخدات الفرش . والتطريز بالحرير فى فاس كان فنا رفيعا دقيقا يعتبر من أجمل ما تبدعه يد الصناع . وكانت الفتيات تتعلمن فى سن مبكرة فن التطريز وتبدأن فى تطريز ملاءات ومخدات ومسانيد جهازهن حتى اذا حان وقت زفافهن كن — بمساعدة امهاتهن — قد صنعن بايديهن هذا الجزء الفنى الهام منه . ولم يكن المهم منه فقط هو جهاز العروس ولكن كان المهم كذلك صناعة التطريز التي تظل هي صناعة المرأة بعد أن تتزوج .

هذا المجتمع المتكامل اقتصاديا وفكريا وفنيا كان يوجد فى بيئة جغرافية متكاملة وشبه مقفلة . فالمدينة تكاد تكون فريدة بين المدن ، بنيت على جانبى واد عميق يعتبر مسيلا جارفا وليس نهرا ، هو وادي بوخرارب الوادي الجاري بماء لا يصلح للاستعمال . واذا كان المولى ادريس قد تنكب

المجرى النهري لوادي فاس او وادي الزيتون فقد قصد بذلك أن يبعد بالمدينة عن ممكنات الغزو ، وأن يوفر لها امكانية الدفاع من جهة ، كما قصد أن يوفر لها امكانية الورد من العيون الكثيرة المتفجرة في كل ركن من اركان المدينة . وهي وسيلة دفاعية كذلك ، لان المهاجمين قد يستطيعون السيطرة على الانهار ، ولكنهم لا يستطيعون السيطرة على العيون المتفجرة داخل المدينة . وقد استعملت العيون دائما كمصدر رئيسي ، وربما وحيد ، لاستعمال سكان المدينة . ولم يكن هؤلاء السكان يحتاجون الى مصادر اخرى للماء الصالح للشرب وحتى الدور التى لم تكن بها عيون او مجرى من عين كانت تستفيد من جيرانها ، وبالاخص الماء الصالح للاستهلاك المباشر .

المهم أن المدينة كانت مجتمعا شبه مقفل — رغم أنها منفتحة على الاقاليم الشمالية والجنوبية . والشرقية والغربية وعلى أروبا وافريقيا — ، فقد أحيطت بأبواب من شرقها وجنوبها وغربها وشمالها . وهي منافذ في النهار ، ولكنها تقفل مع المغيب فتعزل المدينة عن العالم . ولو تأخرت بأحد سكانها مسيرته لما تمكن من اقتحام المدينة او الوصول الى منزله .

ثم ان المنازل المتلاصقة المتداخلة والاسواق التى يختص كل حي تقريبا بواحدة منها ، تزيد السكان اقترابا بعضهم من بعض ، حتى أن المدينة تكاد تصبح حيا وحيدا ، والحي أو الدرب يكاد يكون منزلا مشتركا. هذا الطابع العمراني ساهم في تكوين مجتمع المدينة الذي يتعارف اعضاؤه ويتعاونون ويتصاهرون فيصبح المجتمع وكأنه عائلة واحدة كبيرة العدد ، ولكنها متقاربة متصلة الاعضاء متعاونة في شؤون الحياة على قدر ما يكون التعاون بين سكان مدينة كانت في بعض فترات تاريخها من أكبر مدن المغرب ، وخاصة في الفترات التى كان من حظها أن تكون العاصمة السياسية الى جانب زعامتها العلمية والاجتماعية والاقتصادية .

ورغم أنها مدينة مقفلة الا انها لم تكن مجتمعا مقفلا . فكثير من سكانها يفدون من خارج المدينة بسبب العلم او العمل ، ولا يكاد يمر جيل حتى يصبحوا من سكانها الاصلاء . ذلك لان المجتمع لم يكن يرفض الغريب

عنه وهو الذي يسمح لابنائه ان يكونوا غرباء بسبب الهجرة التى امتدت حتى قلب افريقيا وشمالها كما قلنا . والمهم فى هذا ان المدينة لم تكن تفقد طابعها المتميز بسبب الهجرة اليها ، وانما كانت تهضم المهاجرين . كما تفعل سائر المدن والاقطار التى تتمتع بشخصية قوية وبخصائص متميزة ، فتعطيهم من طابعها العام وتأخذ من نشاطهم العلمي او الاقتصادي ، لا تضيق بهم ولا يضيقون بها ، وانما تستفيد ويستفيدون من عملية المزج والانصهار .

وقد تكونت من هذا المجتمع المتفتح على العلم والصناعة والتجارة والفنون المختلفة والهجرة منه واليه طبقات اجتماعية من السكان : فيه طبقة الصناع التى يمكن ان نقسمها كذلك الى طبقة عمال الصناعة وارباب العمل . ولكن الملاحظة الاساسية أن هاتين الطبقتين مثلا لا تنتميان الى الطبقة بالمعنى الحديث للطبقية . فارباب العمل لا يمتازون براس المال — فقد يكون راس المال ضئيلا تافها — ولكنهم يمتازون بمهارة العمل . ولذلك فصاحب العمل يسمى « معلما » اي انه يعلم طبقة العمال . راسماله الاساسى الحقيقى هو العمل وليس المال . وهو يعمل بيده ، فهو من جهة عامل ويزيد أنه يعلم عماله ، الذين ينقسمون الى صناع ومجرد عمال . فالصانع هو فوق العامل ودون مرتبة المعلم فى مهارة العمل . ولذلك فالعمل يوحد بينهم ، ولا يكاد راس المال يفرق بينهم الا قليلا .

الطبقية اذن لا تأخذ معناها الرأسمالى وانما هو التمييز فى مهارة العمل .

طبقة اخرى هى طبقة التجار . وهذه كانت متميزة بعض الشيء . فالتجار الكبار اي تجار الجملة يعيشون حياة مترفة على نحو ما كان الترف فى المدينة العاملة وعلى قدر ما كانت التجارة تحقق لهم من ترف فى الاوقات التى تزدهر فيها . وتقاربها او تفوقها أحيانا طبقة الفلاحين الذين يملكون اراضى فى ضواحى المدينة القريبة منها والبعيدة . فهؤلاء أيضا كانوا يعيشون فى نوع من الترف ويكونون طبقة راسمالية محدودة .

وتأتى طبقة العلماء — وهم مع الطلبة يكونون مجتمع المثقفين — وهؤلاء لا يكونون طبقة راسمالية بطبيعة الحال فقد يكونون من أفقر سكان

المدينة لان مجانية العلم تعممهم . فهم لا يتقاضون الا أجورا رمزية من الاوقاف . ويستعينون على حياتهم بالامامة وخطبة الجمعة والعدالة وأحيانا بالتجارة أو الصناعة أو نسخ الكتب والاتجار فيها ، وكلها باستثناء العدالة لم تكن تدر مالا يساعدهم على الحياة . ولكن العلماء كانوا طبقة ممتازة فى مكانتها الاجتماعية لا يضيرها الفقر ولا العمل البسيط الذي تقوم به فهى طبقة محترمة اجتماعيا وفكريا .

من دراسة هذه الطبقات جميعها يمكن أن نقول ان مجتمع المدينة كان متقاربا طبقيا . ولذلك لم يكن هناك صراع طبقى، وانما هناك شعور بالتعاون وحب فيه . ولم تكن هناك احياء متميزة ، للاغنياء حيهم وللفقراء أحياؤهم على نحو ما نرى فى المدن الحديثة ، وانما كان الغني يجاور الفقير، والتاجر يجاور الصانع والعامل .

وقد نشأت ولا شك طبقة بورجوازية متوسطة ، تظهر بورجوازيتها فى نوعية العمل الذي كانت تقوم به وهو التجارة او الفلاحة فى غالب الاحيان ، كما تظهر فى المنزل الذي تسكنه ، والذي يتميز من داخله لا من خارجه . كما أشرنا من قبل ، ونوعية الحياة التى تحياها والثروة التى تملكها . ولكن هذه الطبقة غير متميزة عن المجتمع التقليدي فى فاس ، بل هى جزء منه ، لا تنفصل عن الطبقات الاخرى تساهم معها فى حياة المدينة وتشارك فى هموم الناس ، وتشعر بالمسؤولية من خلال المشاكل التى تتعرض لها المدينة .

ومن ثم يتكون مرة أخرى المجتمع المتكامل حتى فى المظهر الطبقى الذي حاولنا تحليله .

ويمكن أن نأتى بمثالين على هذا التكامل فى طبقات المجتمع الفاسى. ويتعلقان معا بقضايا المجتمع الذي تعيشه المدينة وسكانها ، ومساهمة سائر طبقاته فى القضية المشتركة :

اولهما : يظهر فى الاحتفال بالمواسم أو ذكريات رجال المدينة . وخاصة موسم مولاي ادريس وسيدي على بوغالب . المدينة جميعها تشارك فى الموسم ، بكل طبقاتها : صناع ومعلمين وعمال ، تجار وفلاحين وعلماء ،

رغم أن رجال الصناعة الوطنية او التقليدية يعتبرون هم القائمين علـــى موسم مولاي ادريس مثلا ، والحلاقين يعتبرون هم القائمين علـــى موسم سيدي على بوغالب . ولكن سكان المدينة كلها يحتفلـــون بالموســـمين والمواسم الاخرى لرجال المدينة وضواحيها . ونفس الشيء يحـــدث فى موسم سلطان الطلبة الذي يعتبر مبدئيا موسما للطلبة ، ولكن المدينة كلها تساهم فيه باعتباره احتفالا بالربيع كـــذلـــك .

وثانى المثالين : نجده فى اجماع سائر طبقات السكان ، أغنيائهم وفقرائهم ، تجارهم وصناعهم فى الحركة الوطنية التى انطلقت قبيـــل الحماية على يد المثقفين والعلماء الذين وضعوا شروط البيعة للملك عبد الحفيظ ، واشترطوا عليه فيها ان يقاوم نذر الاحتلال وان يطرد الاجانب من أطراف البلاد التى كانوا قد بداوا فى احتلالها فى شرق البـــلاد وبعض شواطئها الاطلسية ، ثم طالبوه بوضع دستور للبلاد وتقدموا له مشروع الدستور سنة 1908 . ثم تجلت هذه الظاهرة الاجتماعية فى الثورة التـــى شنها سكان المدينة وشارك فيها ممثلون من مختلف الطبـــقـــات عند الاحتلال ، تلك الثورة التى تعرف بمذبحة فاس والتى قام بـــهـــا رجال الصناعة على الاخص ، ولكن شاركت فيها بشكل أو بآخر سائر الطبقات فى المدينة . وتجلت هذه المشاركة بصورة أكثر وضوحا فى حوداث الاحتجاج على الظهير البربري سنة 1930 وفى حوادث المطالبة بالاستقلال سنة 1944 . فقد ساهمت المدينة جميعها فى هذه الحوادث ولم تتخلف طبقة عن أخرى سواء فى العمل الذي كان ــ الى حد ما ــ سلـــميـــا وهو قراءة اللطيف جماعيا فى المساجد . وكان يعتبر تحديا للادارة الفرنسية لانه تعبير جماعى دينى عن الاحتجاج على الظهير البربري. او فى تقديم عرائض الاحتجاج للادارة الفرنسية او فى المظاهرات فى الشوارع مما أدى الى اعتقال العديد من مختلف طبقات المدينة كثير منهم كانوا ينتمون الى الطبقة البورجوازيـــة المتوسطة او الى طبقة الاغنياء او العلماء او الطلبة من أبناء الطبقـــة المتوسطة . وعنـــد الاستشهاد قدمت المدينة ضحايا مـــن ابنائها مـــن مختـــلـــف الطبـــقـــات .

المهم من هذه الملاحظات ان الطبقية لم تكن تـــعنـــى فى المجتمع التقليدي بفاس المعنى الحديث للطبقية . ومن ثم لم يكن هناك صراع بـــين

الطبقات المختلفة ، ولا امتياز بل كانت هناك وحدة للمجتمع التقليدي لا يؤثر فيها غنى غنى او علم عالم او مهارة صانع معلم .

***

هذا هو المجتمع التقليدي الذي ورثته فاس الحديثة .

ويمكن ان نقول ان الحداثة او العصرية بدأت تغزو فاس مع الحماية كما بدأت تغزو سائر انحاء المغرب . ولكن اختلف هذا الغزو — او اختلفت الاستجابة للغزو — فى فاس عنها فى سائر انحاء المغرب . كان من السهل ان ينجح الغزو فى مدينة كالدار البيضاء مثلا التى انتقلت من قرية صغيرة الى اكبر مدينة فى المغرب ، وبذلك تعتبر مدينة جديدة باعتبار ان جذورها فى التاريخ غير عميقة ، وكان من السهل ان ينجح فى الرباط التى تحولت من مدينة محافظة مساهمة باعتدال فى الحياة العامة الى عاصمة المغرب الادارية ، فأثرت الادارة فى تغيير كيانها الى حد ما ، ولكنه لم يكن من السهل أن ينجح فى مدينة كفاس التى ظلت محافظة على مركزها التقليدي . وابتعدت عنها الادارة كما ابتعد عنها التنظيم الاقتصادي الجديد الذي اختار الدار البيضاء كعاصمة له .

وزاد فى صعوبة هذا الغزو ، او فى الاستجابة له ، أن الحكام الجدد ، حكام الحماية ، نقلوا العاصمة من مدينة فاس ، لاسباب لا محل لمناقشتها الآن ، الى مدينة الرباط . ومن ثم ابتعدت المدينة عن العلاقة المباشرة بالتغييرات التى خططت الحماية لادخالها بالمغرب . وبقيت المدينة تعيش حياتها التقليدية فى نوع من الاكتفاء الذاتي . والتغييرات التى بدأت رويدا رويدا تدخل على المدينة لم تكن تربط فاس بمدينة كبرى كالدار البيضاء مثلا ، وانما كانت مكتفية بنفسها فى حدود ما يسمح به الاكتفاء الذاتي .

ويمكن أن نقول كذلك أن هذا الغزو كان له مظهر اقتصادي منذ اليوم الاول ، فرغم أن المغرب كان يستورد مثلا بعض منتجات اروبا قبل الحماية كبعض الثياب مثلا ، الا ان تمكن الاستعمار السياسي والعسكري

من البلاد فتح باب الاستعمار الاقتصادي فأصبح المغرب جميعه يستورد منتجات اوربية وفرنسية بالذات . وبدأ هذا يؤثر على الوضع الاقتصادي صناعى وتجاري فى فاس . واذا كانت الصناعة قد تأثرت بعض الشىء نتيجة الاستيراد فانها استفادت من التصدير الذي انفتحت بعض أبوابه فكانت المنتجات الجلدية — وخاصة البلغة — تجد طريقها السهل نحو المستعمرات الفرنسية فى افريقيا ، والمنتجات الجلدية الاخرى والنحاسية تجد طريقها الى اوربا وفرنسا بالاخص ، مما أعطى للصناعة التقليدية نفسا جديدا يحميها من الذبول والفناء .

واستمر هذا الغزو فى مظاهره الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.. يسير ببطء حتى الحرب العالمية الثانية ويمكن القول بأنها كانت البداية الواضحة لتحديات العصر التى تواجهها فاس بكل مجتمعها التقليدي .

الحرب العالمية اثرت اثرا كبيرا فى ربط فاس بالدار البيضاء . فقد هاجر عدد كبير من سكان فاس الى المدينة الاقتصادية استجابة للنمو والتطور التجاري والصناعى فيها . ولكنهم مع ذلك ظلوا مرتبطين بمدينتهم الاصلية عن طريق العائلة وعن طريق الحنين الى المدينة التى عاشوا فيها جزء من شبابهم ونشاطهم . وفى الدار البيضاء عرفوا نوعا من التمرد على التقاليد التى عاشوا عليها فى مدينتهم ، فبدأ الرجال يغيرون — مثلا — من ملابسهم وبدأت النساء كذلك تغيرن من ملابسهن الى درجة السفور ، ولكن على استحياء . وبداوا يغيرون من شكل منازلهم فحل المغنى (الفيلا) محل الدار الكبيرة . وبداوا يغيرون من عاداتهم فلم تعد العائلة تضم الجد والاب والاولاد مع نسائهم واولادهم فى منزل واحد . وغيروا من وسائل تنقلهم فلم يعودوا يسيرون على ارجلهم أو يركبون البغال كلما شق عليهم السير او هدفوا الى مكان بعيد ، وانما حلت الحافلة والسيارة الخاصة محلها فى تنقلاتهم . وكل ذلك كان له اثره على تفكير الفاسيين وعقليتهم .

ولم تستأثر مدينة الدار البيضاء بهذا التغير الذي كان شبه مفاجىء بالنسبة لحياة الفاسيين ، وانما نقلوا هذا التغيير الى المدينة القديمة بكل محاسنه ومباذله . فلم يلبث سكانها أن تمردوا على الاسوار ، وانتشرت

المدينة شرقا وغربا ، وبدأ السكان يداعبون اطرافها في باب الخوخة وباب فتوح والمدينة الجديدة بنفس العقلية التى انتقلت اليهم من الدار البيضاء . وبداوا هم ايضا يغيرون من ملابسهم وعاداتهم وتقاليدهم المنزلية والحياتية على العموم .

والحرب الثانية اثرت على المدينة من الناحية الاقتصادية تأثيرا مزدوجا . انتعش اقتصادها بصفة محدودة بعد أزمة الحرب . ولكن هذا الانتعاش اصاب فئة محدودة من الذين مدوا عملهم التجاري الى خارج المدينة والذين استطاعوا ان يفتحوا بعض الآفاق الجديدة . . ولكن نهاية الحرب اثرت على الطبقة التى تعمل فى الصناعة تأثيرا خطيرا . فقد انتهى الرواج المحدود الذي عرفته هذه الطبقة نتيجة انعدام السورارادات اثناء الحرب ، واصبحت الصناعة والصناع مهددين بالافلاس نتيجة انفتاح الابواب للصناعات الحديثة : الثياب والاحذية والصناعات المعدنية والنحاسية .

وكان استقلال المغرب فرصة اخرى للتطور الحياتي فى المدينة العتيقة . فمما لا شك فيه أن الاستقلال أنعش الحياة الاقتصادية فى المغرب، واصابت فاس حظها من هذا الانتعاش ، ولو ان الانتعاش كما هو واضح اصاب فئة محدودة من سكانها ، الفئة التى استفادت — وعرفت كيف تستفيد — من الحرية التى مكنت المواطنين المغاربة من اقتحام بعض القطاعات التى كانت حكرا على الاجانب . وهذا الانتعاش الاقتصادي أثر بصورة واضحة على الحياة فى المدينة فهب سكان داخل السور الى ما وراء السور . وتوزعت العائلات الى اقسام صغيرة . وبدأت الحاجة تفرض نوع الحياة فحلت الشقة محل الدار ، وبدأت فاس تشهد بناء العمارات التى تتوفر على عدة شقق تسكنها عائلات مختلفة بدلا من الدار الكبيرة التى تسكنها مختلف فروع العائلة الواحدة . والشقة تفرض نوعا من الحياة يختلف عن الحياة التقليدية التى عرفتها المدينة طوال حياتها .

تغير وجه المدينة ، فى قسمها الجديد ، عن وجهها فى قسمها القديم ، واصبحت فاس تكون مدينتين مختلفتين فى الشكل وفى البناء وفى نوع الحياة.

ولا شك ان هذا التغير يؤثر فى العقلية التى يعيش بها السكان فى المدينة ، ولا شك أن ذلك يخلق نوعا من التنافس أو نوعا من التطلع لدى سكان المدينة القديمة ، فمن لم يستطع منهم أن ينتقل الى الدار البيضاء او الى الرباط ، ان كان من طبقة الموظفين ، سعى لان ينتقل الى المدينة الجديدة ان كان دخله المادي يساعده على ذلك .

وهكذا بدأ نوع من التحول على مجتمع المدينة نتيجة هذا التحول للسكان ، وبالطبع لم تهجر المدينة القديمة ، وانما فتحت أبوابها ، على عادتها دائما ، للمهاجرين الذين يفدون من البادية . ومن المؤسف ان مستواهم المادي ، وربما الحضاري لا يساعدهم على الاحتفاظ بشكل الدور فى المدينة القديمة أو على تطوير المتهدم منها الى دور جديدة بالطابع المغربى الفاسى القديم . فبدات الدور القديمة تقسم الى غرف ومنازل بحسب العائلات الكثيرة التى تسكنها . واذا كان هذا ليس غريبا على المدينة ، فقد كان الجيران يسكنون احدى هذه الدور الصغيرة التى تكون الغالبية فى كل درب وحى ، وكانوا يفصلون الغرف بساتر عادي من ازار ونحوه . وقد تضم الدار عددا من الجيران بحسب الغرف التى تتكون منها ، ولكن الدور الكبيرة الآن تشوه بشكل يفصلها عن طابعها المغربى الفاسى .

هذا التحول فى المدينة وفى عقلية السكان وفى مستواهم الاقتصادي والاجتماعى قد يؤثر على الوحدة الطبقية التى عرفتها المدينة فى سابق عهودها . خاصة وان الفروق الاجتماعية ظهرت بوضوح بين سكان المدينة القديمة التى احتفظت فيما يظهر بسكانها الفقراء من الصناع والمتعلمين ، وسكان المدينة الجديدة التى تسكنها طبقة الموسرين من كبار التجار والموظفين وكبار الفلاحين ثم الدواوير التى تحيط بالمدينة من الدكارات والمقطع والجنانات وصهريج كناوة وحى الاستقلال التى يتكون سكانها فى الغالب من العمال والفقراء والعاطلين .

معنى هذا ان هناك تحولا مهما فى المجتمع الفاسى . المجتمع المتكامل المتعاون أصبح مجتمعا انفصاليا يسير فى طريق الصراع والتدابر . قد يكون هذا نتيجة حتمية للتطور الاقتصادي . فلا يمكن أن تشذ مدينة كفاس عن سائر

المجتمع المغربي ، بل عن المجتمعات الاخرى التى تتحول من المجتمع المنقفل الى المجتمع المتفتح ، ومن المجتمع الفلاحى او التجاري البسيط الى المجتمع الصناعى الذي يبدو فيه الفرق واضحا بين صاحب العمل والعامل . وحينما دخلت الصناعة العصرية المدينة لا بد ان تتحدى المجتمع التقليدي فتخرجه عن مسيرته الرتيبة البطيئة الى مسيرة منفعلة يطبعها التنافس والحدة والصراع ، ويفرق بين طبقاتها المسكن والحى ونوع الحياة ، بمقدار ما يفرق الدخل وطبيعة العمل .

مهما يكن فان مجتمعا جديدا يولد فى فاس يختلف تماما عن المجتمع الذي كان فيه الجار يعرف جاره ويحبه ويتعاون معه ويعيره منزله فى فرح او ترح ويصبحه ويمسيه . المجتمع الجديد لا يختلف عن المجتمع الجديد فى اية مدينة عصرية . يسكن الجيران مثلا فى عمارة واحدة سنوات ذوات العدد فلا يكاد أحدهم يعرف الآخر ، ولا يكادان يتبادلان كلمة تحية فأحرى أن يتعاونا أو يتبادلا المنفعة ، ومن ثم يحل التنافس الحاد محل المحبة الاخوية .

وهذا أحد التحديات الكبرى التى تواجه المجتمع التقليدي فى فاس .

هذا التحدي يؤدي الى تحد آخر لكثير من مظاهر الحضارة المعمارية والفنية التى عرفتها فاس وأشرنا اليها فيما سبق. مثلا : الشقة لا تحتمل الفن المعماري الفاسي . فهى عبارة عن علبة للنوم تقضي فيها العائلة ليلتها ، ولكنها لا تحتمل لتقضي فيها يومها . ومن ثم فالشقة للنوم لا للحياة . ولا يمكن أن يزدهر فيها الفن المعماري ولا فنون النقش والتزويق والتزليج . وليس فيها الساحة الكبيرة التى قد تغنى العائلة عن الشارع ولا نافورات المياه من خصص وسقايات . ثم هى لا تساعد على نوع الفرش الذي كان مزدهرا فى فاس بكل ما يطبعه من ترف ومن فن التطريز فى الملاءات ولا على تعليق الستائر التى كانت فى الغالب مطرزة هى الاخرى بطريقة فنية .

والشقة لا تساعد على اقامة الحفلات التى تصدح فيها الموسيقى المغربية الاندلسية او الملحون . فهذه الموسيقى كانت تتفق مع سعة صحن

الدار الذي يوزع الاصوات وأنغام الآلات الموسيقية . واذا كان اصحاب الشقق الصغيرة الآن يستعيرون منازل كبيرة لاقامة حفلاتهم ، فان هذه المرحلة الانتقالية ستمر ، وسينتهي الامر بغلبة حضارة الشقة على حضارة الدار بكل ما يحمله هذا التحدي الحضاري من القضاء على كل مظاهر الحضارة القديمة : الفنية منها والمعمارية والموسيقية ، وعلى مجتمع العائلة التى كانت تتعايش مهما امتدت فروعها فى الدار الكبيرة ، بل على مجتمع العائلة الصغيرة. فان الشقة توحى بترك المنزل فى الوقت الثالث الى السينما او النادي حينما تتكون النوادي ، وقد كانت الدار الكبيرة توفر اجتماع العائلة بأطفالها وشبابها فتقوم مقام النادي . أما حضارة الشقة فانها توحى للزوجين وللشباب بمغادرة المنزل ويبقى الاطفال الذين تضطرهم ظروف العمل للمدرسة وحيدين فى الشقة فلا تتاح لهم الفرصة للاجتماع بالعائلة الا نادرا .

وهذا من التحديات الكبيرة التى تواجه المجتمع التقليدي الفاسي .

ولا شك ان هذا التحدي سيبلغ مداه مع الزمن حتى يؤدي الى اندثار الفن المعماري القديم وقد يؤدي الى اندثار المدينة التى تتحلق حول جامع القرويين وضريح مولاي ادريس بعد ان تهاجر الى المدينة الجديدة واطراف المدينة الاخرى .

لا أحد يستطيع أن يجزم بأن المدينة القديمة ستجدد نفسها مع الزمن . فالفن المعماري القديم لا أظنه يستطيع أن يصمد لفن الاسمنت وعلب النوم . والدار الكبيرة قد تختفى مع الزمن لتصبح مجموعة منازل صغيرة اذا ما سمحت ادارة الفنون الجميلة بتحويل الدور الى شقق . وقد ينتهى الامر الى خراب المدينة القديمة ، بكل ما يتبعها من وسائل الحياة التى تنتجها الصناعة التقليدية من أدوات جلدية ونحاسية . وطريقة الحياة التى تطبعها جلسة شرب الشاي مثلا او الجلوس على مائدة الاكل المستديرة التى تتحلق حولها العائلة ، قد تتحول الى طريقة الشاي الذى يحضر فى المطبخ ويقدم فى كؤوس منفردة . والمجتمع البورجوازي المتوسط الذي تطبعه كثير من التقاليد العتيقة قد يختفى ليخلفه مجتمع بورجوازي

كبير او اقطاعـــى . والى جانبه المجتمع البروليتاري المكافح فى سبيل لقمة الخبز ، ولا شىء غير لقمة الخبز . وقد بدأ هذا يتجلى فى حـياة فاس . والبواكير الاولى تؤكد النهاية المحتومـــة .

هناك تحد آخر يهاجم المدينة العتيقة هو التصميم الذي وضع للمدينة بتغطية وادي بوخرارب ودخول السيارة الى قلب المدينة ، هذا التخطيط ، رغم اهميته الصحية ، سيغير معالم المدينة ، قد يصلها ــ عن طريق المواصلات السريعة ــ بالمدينة الجديدة وبالاحياء التى نشأت فى اطرافها ، ولكنه سيقضـــى على جزء من طابعها .وقد يجعلها من بين المدن التى تبحث عن نظافة البيئة من التلوث الناتج عن احتراق النفط ، ولكن المشكل ليس هذا ، وانما هو التغير الذي يحدث فى المجتمع التقليدي الذي ستقتحمه الآلة الكهربائية البترولية ، وهى عادة تتبع السيارة . ومن المنتظر ــ مثلا ــ ان تتحول الرحى الحجرية التقليدية التى كانت تغذي مدينة فاس جميعها الى رحى آلية تدور بمحرك كهربى بعد ان يختفى النهر الذي كان يحركها بالقوة المائية الدافعة . ومن المنتظر ان تختفـــى صناعة الحياكة فى الدراز التى كان يدير المنول فيها المعلم او الصانع بحركة قدمه ويدفع المكوك او النزق بقوة يديه الى آلة حديثة يحركها محرك كهربى ، ومن المنتظر أن تختفى صناعة الادوات النحاسية والمعدنية التى كان العامل فيها يبذل كل خبرته الفنية فى تفصيلها ونقشها بيديه لتحل محلها صناعة آلية تحل فيها الآلة محل اليد ، والصناعة الآلية محل الصناعة التقليدية . ومن المنتظـــر كذلك أن تختفى دار الدبغ ليحل محلها معمل حديث لدباغة الجلود كما لعله قد بدأ بالفعل . وهكذا يمكـــن ان تساهم السيارة التـــي وصلـــت الى حى الرصيف ، وقد تصل غدا الى بين المدن ، فى اختفاء المجتمع التقليدي الفاسى ليحل محله مجتمع آخر ، مجتمع الآلة التى تدار بالكهربـــاء او البـــتـــرول .

ومن شأن هذه الصناعة التى تختصر الوقت ، وربما التكاليـــف أيضا ، أن تقضـــى على الصناعات الفنية الجميلة المتقنة التى عرفـــت بها فاس فى عهودها الزاهرة . والتحول فى الصناعة يحول العقلية فيحـــل الاحتفال للمنفعة محل الاحتفال للفن ، وتحل السرعة محل البطء والمتعة

بالزمن ، وينصرف العامل فى الزليج أو النقش على الجبس او الخشب أو القطعة النحاسية والمعدنية مثلا ، الى العمل فى الآلة الاسرع انتاجا والاكثر مردودا .

وحينما تتغير العقلية بنظرتها الى العمل الاسرع والاكثر مردودا يفتقد الانسان حاسة الفن فى عمله ، وحاسة التأمل والرغبة فى الابداع . الآلة تحول الانسان من مبدع الى منتج او مساعد الآلة التى تنتج ، وتفقد العامل تلك العلاقة الممتازة بين الانسان والزمن . الآلة لا تسمح للعامل بالتأمل لانها تفقده الصلة بينه كمبدع وبين انتاجه الذي لا يكاد يراه بعينيه احيانا اذ ان القطعة المنتجة تدور فى الآلة لتطرح بعيدا عنه ، وقد كان تعامله كصانع مبدع مع القطعة ينحتها ويتأملها ويفكر فى عمله وينافس نفسه فى ابداعه ، فأصبح تعامله مع الآلة لا مع الانتاج المبدع . ان الالة تفقد الانسان هذه الحاسة . وبذلك يصبح جزء من الآلة كمسمار فى دولاب، لا يبدع ولا يترك له الزمن الكافى لتأمل ابداعه ، ولكنه يعمل ليلحق دوران الآلة التى تحركها طاقة أخرى غير الانسان . ومن ثم ينتقل الى عالم آخر يحس فيه بالاغتراب عن العالم الذي عاش فيه مبدعا متأملا باحثا عن المزيد من الابداع الفني والحضاري .

وهذا هو التحدي الكبير الذي يهدد المجتمع فى العمق الحضاري الذي كانت مدينة فاس احدى معالمه المنتجة والمستهلكة والمتمتعة بقيمه الفنية والحضارية .

سؤالان يطرحان نفسيهما بحدة :

اولهما : هل من الضروري ان نحافظ على هذه القيم الحضارية، وهى فى جملتها فنية تقليدية لا تسير مع تطور العصر ، ولا تستجيب لحاجة الحضارة الحديثة ، وقد تجعل من المدينة متحفا صالحا للزيارة لا للحياة المتحركة النشيطة ؟ هل نبحث من وراء الحياة عن الخبز : عن التطور الاقتصادي والتنمية الحياتية ؛ ام نبحث عن الفن وعن الفن التقليدي بصفة خاصة ؟

تختلف نظرة الباحثين الاجتماعيين فى الاجابة عن هذا السؤال باختلاف ثقافتهم ومثلهم فى الحياة وممارستهم اليومية . فما من شك فى اننا سنجد من بين هؤلاء الباحثين من يبادر بالاعلان صراحة بأننا يجب ان نساير العصر ، والا نجعل من هذه التحديات بالنسبة لمدينة فاس تحديا عنيفا وعميقا ، لان الحياة تتطلب ان نسير مع تيارها فى مواجهة التيار .

ومدينة فاس لا ينبغــى ان تظل متحفا للتاريخ الا اذا اريــد لهــا ان تتخلى عن رسالتها التاريخية ، بل يجب أن تتطور كسائر المدن المغربية الاخرى . واذا لم تتطور فهى بين امرين : اما أن تندثر ، واما ان يجرفها تيار التطور بالرغم عنها . ومن الاحسن لها ان تبحث عن سبيل للتطور ، بعد أن أريد لها أن تعزل وتنعزل ، فسلب منها دورها الاقتصــادي والاداري وبدأ يسلب منها دورها العلمى لولا الجامعة الحديثة التى انشئت فيها . ولذلك يجب أن تتخلى عن المثل الحضارية القديمة لانها لا تساعــد على أكل الخبز ، وان ساعدت على ارضاء النزعات الفنية والاحســاس بالجمال بتعبيراته القديمة .

مثل هذا الجواب يصدر عن الباحثين العمليين المتطلعين الى المنفعة السائرين فى طريق الانغمار مع المعاصرة والحداثة . ومثل هؤلاء كثيرون من سكان فاس وأبنائها الذين يطمحون الى « الافضل » كما يتصورون بفلسفتهم هذا « الافضل » .

ويذكرنــى موقفهم هذا بقصة طريفة شاهدتها بنفسى ذات يوم . فقد دعيت لحضور افتتاح فندق هيلتون بباريس ، وكان من جملة برنامج حفلات الافتتاح زيارة متحف اللوفر . وذهبت الوفود جميعها للمتحــف العالمى الكبير ، وكان على رأس هذه الوفود السيد هيلتون نفسه — وهو الذي عمت شهرته آفاق العالم بمقدار شهرة سلســلــة الفنادق المنتشرة فى مختلف انحاء الدنيا التى تتعامل مع الغرب — وجدنــا فى بوابة المتحف احدى الرائدات العالمات بخبايا المتحف وآثاره الفنية الفريدة فى العالم . وبدأت جولتنا بالاطلاع على بعض التماثيل المنصوبة فى البوابة الكبيرة ، ولم تكد الرائدة تبدأ فى شرحها العلمى لتطور فنون النحت على

مر العصور حتى لاحظنا جميعا ان السيد هيلتون يتسلل بشكل ملحوظ من بيننا ويقفل راجعا من حيث اتى تاركا الرائدة التى كانت توجه عنايتها الى المثري الكبير القادم من العالم الجديد فى دهشة مروعة ، لعلها دهشة الخيبة من الاهمال الذي واجهها به السيد هيلتون . أما هو فلعله آثر ان يصرف وقته فى التفكير فى فندق جديد ينشئه فى احدى العواصم الكبرى بدلا من ان يصرف ساعات من عمره فى الحياة مع الاحجار والتماثيل .

بمثل هذه العقلية يواجه هؤلاء الباحثون التحديات التى تواجه مدينة فاس التى تعتبر جميعا متحفا كبيرا لم يلتقط آثاره من هنا وهناك ، وانما وجدت هذه الآثار وابدعت بيد ابناء فاس وفى المدينة نفسها فى قصورها ومدارسها ومساجدها وبناءاتها واسواقها وطبيعتها وموقعها الجغرافى وتاريخها الحافل .

وفى مواجهة هؤلاء الباحثين ذوي النزعة المنفعية نجد باحثين آخرين يؤكدون أن الحياة ليست بحثا عن الخبز والزبد فحسب ، ولكنها معايشة للتاريخ والحضارة وتمتع بالقيم الانسانية التى ساهم الانسان فى ابداعها بمواهبه وعلمه ونشاطه بمقدار ما ساهمت الطبيعة والتاريخ والموقع الجغرافى . واذا كان المبدعون قد انفقوا حياتهم فى تقديم فاس التاريخ لفاس الحاضر ، فليس من مهمة المعاصرين أن يساهموا فى وأد هذا التاريخ والقضاء على كل هذه الفنون والتقاليد لان جذواها المنفعى يقل عن جذوى حضارة السيارة والطائرة والمعمل الهربى ، بل ان مهمتهم الاولى هى تنمية هذه الحضارة بكل تقاليدها وقيمها الفنية والعمرانية .

لهذا فرسالتنا فى المحافظة على آثار فاس وتقاليدها رسالة علمية حضارية لا تقل عن دراستنا للتاريخ والآثار والفنون الجميلة والحضارات العتيقة ، بل انها رسالة أهم لانها أحياء لكل هذه القيم بالعمل لا بالدراسة وبالمعايشة لا بالبحث النظري .

ويمثل هذه النظرية العميقة لقيم الحياة رجل آخر من رجال الاعمال الامريكيين ومن كبار الاغنياء هو مستر فوربيس الذي يصدر مجلة

باسمه فى امريكا وفى كثير من عواصم العالم تمثل رجال الاعمال وتساهم فى التنمية الصناعية والاقتصادية . ولكنه رغم ثرائه الفاحش يعيش حياة مزدوجة مع الفنون والآثار الجميلة . وبلغ به حبه لجمال الطبيعة وابداعات الانسان ان اشترى قصر المندوب فى طنجة وجعل منه متحفا صغيرا يمثل هواياته الفنية جمع فيه كثيرا من الآثار التى اقتناها فى رحلاته حول العالم . ومن حين لآخر يفر من جحيم حياة المنفعة ويركب طائرته الخاصة الى طنجة ليقضى أياما فى متحفه الجميل بين آثار حضارة العالم القديم .

وما من شك فى أن فاس هبة من هبات تاريخ المغرب الذي صنعه شعبنا . ونحن جديرون الا نتنكر لهذه الهبة ، بل جديرون أن نعايشها وننميها ونحياها فى كل ابعادها الحضارية .

على أن هذه الحضارة ليست تاريخا ميتا عديم الجدوى . ذلك أن عبقرية الانسان المغربى مزجت بين الفن والمنفعة . فلم يمت سكان فاس جوعا وهم يصنعون بقطع الزليج مثلا اروع لوحات الفن فى تناسق قطعها والوانها وصورها . وانما كان الفن يحيى مع المنفعة المادية . وكان كل انتاجهم مطبوعا بطابع الفن للحياة لا الفن للفن .

والسؤال الثانى الذي يفرض نفسه يمكن ان يلقيه المتفائلون المتشبثون بالقيم الحضارية لفاس الراغبون فى مواجهة تحديات العصر . ويقول السؤال : كيف تواجه فاس التحديات التى تريد ان تعزلها او تجعل منها مدينة متنكرة لكل قيمها سائرة فى طريق العصرنة المستجيبة لكل التحديات التى وصفنا ؟

ونعتقد ان مهمة الانقاذ تقع على المغرب كله بحكومته وشعبه . ففاس لم تكن ولن تكون لنفسها ، وانما هى مدينة المغرب ، بل مدينة الحضارة الاسلامية العربية ، ان لم نقل انها مدينة الحضارة الانسانية . وبهذا المفهوم يتحمل العالم الاسلامى والعربى مسؤولية المحافظة على تراث فاس ، وتتحمل الهيآت الدولية الثقافية مسؤولية هذه المحافظة .

ولذلك لا غرابة اذا رأينا منظمة اليونيسكو تهتم بآثار فاس وتسعى للمحافظة عليها .

وفى هذا الاطار يمكن ان نقترح ما يأتى :

— الاهتمام بالمدينة كمدينة والمحافظة على تراثها من الانهيار والتهدم.

— منع تقسيم الدور الكبيرة القديمة وترميم المتهدم منها .

— احياء الفنون الجميلة ، وفى مقدمتها التعبير بالنقش على الخشب والجبس والتعبير بالصباغة فى النقوش الجميلة عن طريق الدراسات والمعاهد حتى لا تبقى هذه الفنون معتبرة من الصناعة التقليدية .

— الاحتفاظ بالفن المعماري لفاس باعتباره يمثل حضارة قائمة بذاتها؟

— انشاء كرسى جامعى للحضارة والآثار بفاس فى جامعة محمد بن عبد الله .

— التوعية الثقافية بالفنون والآثار والحضارة بفاس على صعيد المغرب كله ثم من خلال المنظمات الدولية التى تهتم بالمحافظة على الآثار والفنون والصناعات الفنية كمنظمة اليونيسكو والمنظمة العربية للعلوم والفنون التابعة للجامعة العربية .

حول هذه الخطوط العريضة لانقاذ الحضارة التى ساهمت بها فاس فى حضارة المغرب، نرجو ان ينبثق الوعى بالمسؤولية وخاصة عند المثقفين الذين لا يكتفون باجترار التاريخ والتحدث عن الماضي العريق ، بل يهمهم أن يبنوا مستقبل حضارتنا على أساس من الماضى حتى تستمر السلسلة الحضارية للمغرب بطابعها الفريد وخصوصياتها المتميزة.

الربـاط **عبد الكريم غلاب**

كتاب الإحاطة
لابن الخطيب

نشر : محمد عبد الله عنان
تعليق : محمد ابن تاويت

ان قلنا ان اهم مؤلفات ابن الخطيب ، كتاب الاحاطة هذا ، فلن نبعد كثيرا عن الصواب ، فهو الكتاب الذي لم يعط غرناطة ورجالها حقها من التسجيل الذي يخصها ، بل اعطى الى جانب ذلك كثيرا من الحقوق لباقي الاندلسيين وعديد من المغاربة الافريقيين وعلى قدر ما كانت للاحاطة من شهرة بين رجال التراجم على اختلافها واختلافهم ، بقدر ما طوحت بهذا الكتاب عوادي الزمان ، واصبح حديثا بين الدارسين والبحاث ، وخصوصا في القرنين الأخيرين ، فهذا يبشر بأن الكتاب ما زال حيا يرزق ، وآخر يقول ، انه قضى نحبه ، وما بايدي الناس انما هو اختصاره .

والاستاذ عنان تعلق بالدراسات الاندلسية ، وزاده شغفا بها اتصاله بالدراسات التى قدمتها اللغة الالمانية ، التي يحسنها الى جانب غيرها من اللغات ، وكان على رأس هذه الدراسات ، كتاب تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ليوسف اشباخ Gechichte spanies und portugals, zur zeit der Herrchat der almoraviden und Almohaden
فقد ترجمه عن اصله الالماني

أي تاريخ اسبانيا والبرتغال على عهد سيادة المرابطين والموحدين .

وكانت ترجمته لهذا الكتاب منذ اربعين سنة ، ونشرت له بالقاهرة منذ ثمان وثلاثين سنة ، ضمن منشورات بيت المغرب بالقاهرة . اننا نظن أن هذه الترجمة فتحت للاستاذ عنان نوافذ بل آفاقا واسعة ، استفاد من النظر اليها ومنها فيما قام به من دراسات أندلسية ومغربية ، وجره هذا الى تحقيق كتاب الاحاطة ، وهو أول تحقيق له للمخطوطات . ومن يعاني شدائد هذه المخطوطات ، فانه يدرك خطر هذه المحاولة ، التى حاولهـا استاذنا فى نشر كتاب الاحاطة خاصة ، الذي نعتقد ان السابقين عانوا منه بلاء الا يكن بمثل هذا البلاء الذي عاناه المحقق ، فانه بلاء على كل حال ، لم يسلم منهحتىالمقري ، الذي هو الآن مفتاحنا الوحيد لمغلق الاحاطة .

لقد سبق للاستاذ عنان أن نشر الجزء الاول من الكتاب ، منـذ عشرين سنة ، وقامت الاقلام تخط على رؤوسها ما تخط حول هذا النشر ، وقال المنصفون ، وسمعناهم يقولون : أن التحقيق فن أوحده له رجاله ، وكانوا بقولتهم يحفظون ما للاستاذ عنان فى هذه الدراسات الاندلسيـة ، ويعتذرون فيما حصل له من خطأ أو غلط فى ذلك النشر . ولم يسكت الاستاذ عنان ، بل جرد قلمه للدفاع ورد الهجوم وكاني به فى قرارة نفسه ، أذعن الى بعض ما قيل ، فوجدناه بعد ما يزيد على عشر سنوات ، يعود الى نشر هذا الجزء ، ويعتبر سابقه لاغيا ، فوفق فى هذه المرة بعض التوفيق ، ولكنه ليس توفيقا كله ، بل ما زال فيه ما يقال ، فى هذا الجزء وفى الجزء الذيتلاه، ثم الجزء الثالث الذي نشر قريبا والغالب أن ذلك سيكون فيما سينشره بعد ، ، وهو الجزء الرابع والاخير الذي اعده الاستاذ للنشـر ، حفظه الله واعانه على عمله الدائب الذي لا يمل ليل نهار .

ان ما يعانيه الاستاذ عنان فى قراءة المخطوطات لا يقو عليه الاشداء من معاصرينا ، ويشهد الله اننى ليضيق صدري حينما يرينـى صفحة من صفحات مخطوطه ، وهو مكب عليه فى صبر ، مركز عليه بصره ، مسلط عليه فهمه وادراكه . وان لم يكن للاستاذ عنان الا اخراج هذا المخطوط من

قبور الخطوط ، وهى مجللة بالتحريف والتصحيف ، لكفاه ما يحتسب فى ذلك ، ولوجب علينا شكره والتنويه بعمله .

تحقيق كتب ابن الخطيب ، وعلى رأسها كتاب الاحاطة ، يستوجب منا ما كان عليه ابن الخطيب من ثقافات هى البحر لا ساحل له .لهذا كان على المحقق أن يكون على علم ، بالفقه والحديث وبالميقات واحكام النجوم وبالطب والفلسفات القديمة والاصول وعلوم الحديث ، بلـــه الدراســـات اللغوية من نحو وتصريف وبلاغة وعروض وقوافـــى وقراءات واصطلاحاتها وما الى هذا ، مما نجده معثرا لاستاذنا فى تحقيقه احيانا .

وبعد هذه الفذلكة التى نهدف بها اقامة الحجة على ما يكتنف هذا التحقيق من صعوبات جلى عديدة والتماس العذر لاستاذنا بعد أن نشكره من صميم قلوبنا ، نتناول الجزء الاول ببعض ملاحظاتنا ، التى نركزها على بعض التحريفـــات والتصحيفات بما فى مستطاعنا ، ففى المقدمة بالصفحة 26 ورد من قصيدة لابن الخطيب بيت هكذا :

كففنا بك الايام مـــن غلوائها وقد رأينا منها التعسف والكبر

ولا شك أن « رأينا » لا يستقيم بها الوزن ، وأنها مصححة عـــن « رابنا » والتعسف بها فاعل ، وليس مفعولا لرأينا .

وفى الصفحـــة 80 ما يلـــي :

« فرفعت بكل هضبة معلما ، وبنت بكل هضبة مسجدا ،،، وعمر بكر خالدا ، ومصباح بدا فارق سهدا »

فتكرار كلمة «هضبة» هنا، مما ينبو عنه الاسلوب الجميل، ولعل احدهما « ربوة » فأسلوب ابن الخطيب ، يربا ان يقع فيه هذا التكرار وعمر بكر خالدا ، لا يبدو وجه له ، ويبقى ما بعد ، وفيه ضبط السهد بضم، فسكون ، على غموض كذلك .

وفى الصفحة 84 ورد ((فهى الحسنى التى عدمت الدام)) والصواب ((الحسناء)) اشارة الى قول الشاعر : وهو الاعشى :

ألا قالت بثينى اذ راتنى   وقد لا تعدم الحسناء ذاما

وفى الصفحة التالية جاء ببيتان هكذا :

أحبك يا مغنى الجلال بواجب   واقطع فى أوصافك الغر أوقات

تقسم منك الترب قومى وجيرتى   ففى الظهر احياء وفى البطن أموات

فكلمة ((واجب ((مصحفة عن ((واحف)) بالحاء والياء ، وكلمات أوقات وأحياء وأموات ، كلها مضافة الى ياء المتكلم الساقطة ، وفى التالية لهذه ورد ((فلم ادع واحدة الا استنجدتها ، ولا حاشية الا احتشدتها ، فكلمة ((واحدة)) غريبة هنا ولا تمهيد لها . وفى الصفحة 91 علق على قول ابن الخطيب أن البيرة تدعى قسطيلية ، بانه رأي ابن الخطيب ، ولكنه مذكور للرازي بان لكورتها من المدن مدينة قسطيلية وفى الصفحة 92 ورد ((كسلت عن طمس معالمه أكف الردى)) فلا شك ان كلمة ((كسلت)) مصحفة عن ((كلت)) وبها يستوي الكلام هناك ، وفيها مكتوبا عن بعض المحاريب ((بنيت لله أمر ببنائها الامير)) ، ففى هذا كلمة ((بنية)) تصحفت ببنيت كما رأينا ، والبنية فعلية بمعنى مفعولة من البناء ، وقد أطلقت على الكعبة لذلك بالنسبة لابراهيم الذي رفع القواعد من البيت واسماعيل ، أو تكون بنية ((فعلة)) بالضم او الكسر ، ما يبنى من البنية . وفى آخر الصفحة ، ورد ((ولم تزل الايام تخيف ساكنها ، والعفاء يتبوأ مساكنها ، والفتن الاسلامية تجوس أماكنها)) ، فكلمة الايام قلقة فى محلها ، وكلمة ((الاسلامية)) لا يبدو وجه للوصف بها هنا .

وفى الصفحة 96 ورد فى وصف غرناطة ((طيبة البحار وركاب لجهاد البحر)) ، طيبة البحار لا يبدو لنا مع ما بعده .

وفى الصفحة 97 ورد عند ذكر ان ابن غانية ، كان يقول فى مرض موته : الاندلس درقة وغرناطة قبضتها ، فى التعليق انه قتل بالمعركة .

وفى الصفحة 98 جاء ذكر ما بجبل شلير « وبه الجنطيانا ...» وهو عقير رفيع » فكلمة « عقير » غير مفهومة هنا .

وفى الصفحة 101 ورد تعليقا على القصبة ، انه استعمال اندلسى ذائع ، والواقع انه عرف قديما بالشرق ، ومنه « نيسابور » لان «فى» قصبة وسابور اسم ملك .

وفى الصفحة 104 ، وهو يذكر سكنى الشاميين بالاندلس نجد ما يلى :

« الا من كان قد نزل منهم لاول قدومه فى الفتوح، على عنائهم موضعا رضيا ، فانه لم يرتحل عنه ، وسكن به مع البلديين ، فاذا كان العطاء أو حضر الغزو ولحق بجنده ، فهم الذين كانوا سموا الشادة حينئذ » .

يبدو أن كلمة «عنائهم» مصحفة عن « غنائهم » بالغين ، ثم ان الواو التى تقدمت « ولحق » لا محل لها من الجملة ، وأخيرا فان « الشادة » لعلها « الشاذة » بالذال المعجمة .

وفى الصفحة 110 جاء « ثم أقلع وقد ارتفع طعمه عن المدينة » وواضح ان « طمعه » قد تصفحت بذلك المذكور .

وفى الصفحة 122 « فاضطرب بها محلته » ولعله « فضرب بها محلته »

وفى الصفحة 115 « فيصير سورها ...» كأنه من دون سياج كثيفة ، تلوح نجوم الشرفات خضراية » فوصف سياج بكثيفة ثم خضرايه لم يستبن لنا فيهما صواب .

وفى الصفحة 117 ورد فى ابيات ليوسف بن سعيد بن حسان ، بيت هكذا :

اغرناطة العليا باللـــه خبري   اللهائـــم الباكـــى اليك طريق

ولا يستقيم البيت الا بمد العليا بالهمزة ، مضافة اليها غرناطة .

وفى الصفحة 120 « تفمى على العد امواجه ‹‹‹ والى هذه يشير‹‹ ابو القاسم بن ابى العافية ‹‹‹ عروس الشعراء ‹‹‹ ابا اسحاق » .

نرى أن « تفمى » مصحف عن « تعمى » بالعين ، وان وصف ابى اسحاق الساحلى بعروس فيه ما فيه ، لان العروس يوصف به المؤنث .

وفى الصفحة التالية ، ورد للمذكور ، بيت من قصيدته هكذا :

كانت قـــصـــارا ثم طلن فيها   تـــأنى على المقصور والممدود

والقصيدة من الكامل ، والشطرة الاولى لا يستقيم وزنها ، ثم كلمة « تانـــى » لعلها « تاتـــى » بتاءين .

وفى الصفحة التالية لهذه ورد بيت هكذا :

اذا كان عين الدمع عينا حقيقة   فانسانها ما نحن فيـــه ولادع

فلم نفهم معنى « ولادع » فلعلها مصحفة ، ثم ياتـــى بيت فى نهاية الصفحة كتب هكذا :

وعرج على الاوزان ان كنت ذا هـــــــــوى فان رباه مرتع للجآذر

والبيت من ناحية الوزن ، ينتهى مصراعه الاول ، عند نهاية « هوى » فليس مدورا ، كمارسمفى الصفحة .

وفى الصفحة 134 وهو يتكلم عن السن الغرناطيين ، ورد « يتخللها غرب » وصوابها ، « يتخللها اعراب »

وفى الصفحة 136 ، وهو يذكر زي الجند ((وزيهم فى القــديم ،،،
وحفا البيضات ،،، والبيت للمطية)) فلا شك ان بهذا تصحيفين لم نهتــد
الى تصحيحهما .

وفى الصفحة 152 ، ورد بيتان لاحمد ابن اضحى ضمن اخرى هكذا :

يؤكد ما يدلى به من مثابة   خلوص ابيه عبد الفارس الجند

فالمصراع الاخير مختل وزنا ومعنى ، والبيت الثانى هكذا :

راى اسدا وردا يخف الى الوغى   ورايته أربى على الاسد الورد

وضبط ((رايته)) فعلا ماضيا مسندا الى المتكلم ، ولا يســتقيــم
بذلك وزن .

وفى الصفحة 154 يصف القاضــى ابن فركون ، بأنه ((يسترسل
فى اطلاق عنان النادرة الحارة ... وجد ذلك من يحمل عليها سببا للغرض
منه ((علق على ((سببا)) بأن الملكية فيها ((سبيلا)) وهو الصواب الذي
يجب اثباته ، اما الفرض فمصحف من الغض

وفى الصفحة 156 ورد بيت من الطويل هكذا :

ولم تصبر عينى تــود مولما   ولازمها طول اعتلالك تسهيــد

والشطرة الاولى مختلة وزنا سقيمة معنى ، وكذلك الواردة فى الملكية،
كما نص عليها هكذا ((ولم تصبر عينى توالى مؤلما)) .

وفى الصفحة 159 ورد بيت هكذا :

جراح الخد دمع عيني ولكن   عجب ان يجرح ابن معين

فيبدو ان « جراح » التى لا يستقيم لها وزن ، محرفة عن « جرح » فعل ماض، والشطرة الثانية لا يستقيم وزنها الا بتشديد « يجرح » .

وفى الصفحة 160 وردت شطرة من لامية آمـــريء القيس (عـــم صباحا أيها الطلل البالى) هكذا : «صبا وشمأل فى منازل قفال » ، وضبطت شمأل ، مع أنها لا يستقيم بها وزن هكذا ، بل بشمال ، بفتح وعدم همز ، وفيها «يعمن به من كان فى العصر الخالى» وصوابه كما هو معروف «وهل يعمن من »» وقد علق على « يعمن » التي ضبطها شكلا بسكون العين وكسر الميم وسكون النون بقوله « عمن بالمكان أي أقام به » .

وفى الصفحة 162 شكل « عكرمة » بفتح العين والراء ، والصواب كسرها ، كما هو معلوم .

وفى الصفحة 167 جاء ان « امراة تخاصم ميارا ، اوصلها من بعض المدن ،،، فقال الشيخ للمراة : أتعرفين هذا الميار » وهو تصحيف عيارا ، والعيار ، ولا معنـــى لميار .

وفى صفحة 177 وردت ابيات هكذا :

قد عكفنا على الكتابة حينـــا   وجاءت خطة القضاء تليها

فلا يستقيم المصراع الثانى ، كما لا يستقيم بما فى اللكيـــة « ثم جاءت » ،وجاء بيت يثلث هذا ، كالآتى :

نسبة بدلت ولم تتغير مـــثـــــل ما يزعم المهندس فيها

مع ان المصراع الاول ينتهى بفعل « تتغير » ولا تدوير فى البيت ، واخيـــرا بيـــت هـــكـــذا :

بايعونا مودة هى عندي   كالمرآة بيعها بالخداع

وعجز البيت لا يستقيم وزنه هكذا ولا يضح معناه ، ونص فى التعليق على مخطوطتين ، فى احداهما ، كالمرات ، وفى الاخرى كالمارات وهـذه صحيحة لولا تاؤها التى حقها أن تكون مضبوطة هكذا « كالماراة » .

وفى الصفحة التالية « وكانت مواهب عبد المومن له جزلة » والصواب « وكانت مواهب بنى عبد المومن »» بدليل « واعطياتهم مترافهة كثيرة » اللهم الا ان يكون النص منقولا عن مؤرخ موحدي كابن صاحب الصلاة ، حيث كانوا يعبرون بضمير الجمع عن الخليفة ،،،

وفى الصفحة 185 ورد بيت هكذا :

وقالوا فقير وهم عندي جلالة   نعم صدقوا انى اليك فقير

فضمير الانفصال لجمع الغائب لا يستقيم به الوزن ولا المعنى ، ولا شك انه محرف عن « هى » أي القولة المستفادة من قالوا ، أو « هو » اي قولهم ، والاليق بجلالة الاولى ، ثم ورد بيتان هكذا :

ارض العدو بظاهـر متصنع   ان كنت مضطرا الى استرضائه

كم من فتى ألقى بوجـه باسم   وجوانحى تتقد مـن بغضائه

فافتتح البيت الاول بفعل أمر من الرضـى موضوعة همزة الالـف تحته .. وهو لا يستقيـم ، وصوابه « أرضى » مضارعا مسنـدا الـى المتكلم ، لينساق مع البيت الثانى الذي لا يستقيم وزنه بفعل « تتقـد » فى عـجـزه .

وفى الصفحة 187 ورد بيت ابن الخطيب :

ابيتـم دعوتـى آما لبـاو   وتابى لومه مثل الطريقة

مصحفا « لبأو » بشاو ، ولا معنى لشاو هنا ، ويذكر الاستاذ انـــه اعتمد على النفح فى تصويب الابيات ، ومع هذا وقع ذلك .

وفى الصفحة 190ورد بيت هكذا :

مـــالى وللتسآل لا ام لى   ان سالت من يعزل او من يلى

والبيت لا يستقيم فى عجزه بسألت بعد ان، اللهم الا تكون الهمزة سهلت فيه فعومل معاملة الاجوف ، فلا توضع الهمزة حينئذ على الفـــه.

وفى الصفحة 203 ورد ما يلى « وامتحن مرات لجر أحركة القلقلة الذي لا يملك عنانه » ، فالكلام لا يستقيم معناه ولا مبناه ، وعلق عليه بأنه هكذا فى المخطوطات .

وفى الصفحة 204 جاء فى اولها « فرماه بترمية بيضاء تخلقها ، مثيرة عجب ، مرة » ، وهو كسابقه لم أهتدلوجه الصواب فيه .

وفى الصفحة 216 جاء بيت هكذا :

وما صوته الا سلام مردد عليـــه وعن بشر بقربك اليوم يفتر

اولا ، صدر البيت ينتهـــى عند « مردد » فلا تدوير فيه ، ثانيا ، زيادة « اليوم » وهى من المنكية ، كما بالتعليق ، ينكسر بها البيت .

وفى الصفحة التالية ورد قول ابن سعيد لحفصة عن الامير الموحدي « ،،، وانا اقدر ان اشتري لك من المعرض اسود خيرا منه ،،، فجعـــل السيد يترصد له المهالك » ، فجاء اولا اسود منونا على الالف ، وحـــرف ثانيا فعل يترصد بيتوسد .

وفى الصفحة 221 ورد « فيراعه اليوم ، المـــشـــار اليه بالظرف والاتقان ، والحوار والاسراح » ولا شك ان الكلمتين الاخيرتين مصحفتان

وفى الصفحة 224 ورد بيت فى قصيدة لابن صفوان هكذا :

لولاك ما خفيت عليك آياتها والجو من انوارهـــا ملان

والبيت ينكسر وزنه بآياتها جمع آية ، والصواب فيه « أياتها » ، وهى نور الشمس وحسنها .

ثم بيت آخر هكذا :

واخضع لعزهم ولذلهم يلح منهـــم عليك تعطف وحنان

ولا يستقيم الوزن فى صدر البيت ، وقد علق على « ولذلهم » بانه فى « ك » ولذ بهم ، وهو تحريف ... كذا ، والتحريف ما اثبته .

بل صدر البيت يستقيم مبنى معنى به ، والميم فى ضميري الغائبين مـــضـــمـــومـــة

وفى الصفحة 229 ورد مطلع قصيدة للمذكور ، يعارض بها قصيدة ابن سينا الشهيرة فى النفس ، هكذا :

اهلا بمسراك المحب الموضع ، وعلق على « المحب » بانه فى المخطوطتين « المخب » ، وهذا هو الصواب ولا معنى للمحب .

ثم اورد له بيتا آخر، وهو :

لمعناك فى الافهام سر مكتم عليه نفوس العارفين تحوم

فضبط مكتم بسكون الكاف وفتح التاء ، مع انه بفتحها وتشديد التاء وضبط ((تحوم)) بفتح التاء وضم الحاء ، مع انه بضمها وتشديد الواو .

وفي الصفحة 230 ورد بيت هكذا :

الا في الهوى بالذل ترعى الوسائل   ودمعي ان انادي مجيبوسائل

فعجز البيت لا يستقيم على ما هو عليه ، ولعلــه : ودمعي ان نادى مجيب وسائل .

وفيها كذلك بيت هكذا :

سقى زمن الرضى هام من السحب   ولله العود من اثوابه القشب

فكلمة ((زمن)) لا تستقيم الا بمد بعد الميم هكذا ((زمان)) .

وفيها آخر ، هــكــذا :

ان الجمال آخره اللام فعج   في رسمه واندب على اطلاله

فصدر البيت لا يستقيم وزنه .

وفي الصفحة التالية جاء بيت هكذا :

عاملت اسبابي لديك فقطعتها   والقطع في الاسباب ليس يجوز

وصوابه : ((عاملت اسبابي لديك بقطعها)) والا فان البيت لا يتزن، ولا يستقيم سياقه ، بعاملت ،،، فقطعتها .

ثـم آخر هكذا :

ظاهره يريك سر من راى وانت من اعراضه فى اسف

وصوابه « آسفى » موريا بالمدينة المغربية ، التى قابلها بالمدينة المشرقية « سر من رأى » .

ثـم آخـر ، هكذا :

ولا رشوة يدلى القبول رشادها فينسخ بالسير المريح عسير

وصوابه : رشاءها .

وفى الصفحة التالية لهذه ، ورد ما يلى :

ولكن تقدم الاعادي الى الردى نشاط يعود القلب منه سرور

وصوابه : ولكن تقديم .

وآخـر :

وامن ينام المرء فى برد ظله ولا حية للحقد نم تثـور

وصوابه : ثم ، بالثاء المفتوحة ، لا بالنون .

وفى الصفحة 236 جاء بيت هكذا :

يا هل ترى الظرف من يومنا قلد جيد الافق طوق العقيق

وصوابه : اظرف .

ثم ثلث هذا البيت بيت آخر هكذا :

والشمس لا تشرب خمر النــدى   فى الروض الا بكاس الشقيق

وصوابه : بكؤوس ، والا فان الوزن لا يستقيم ، كسابقه وزنا ومعنى.

ثــم بيت آخر هكذا :

وخد الروض خفره اصيل   وجفن النهر كحل بالــظــلام

وصوابه : حمره ، بتشديد الميم من الحمرة ، لا الخفر بالتخفيف ، فانه لا يستقيم به وزن ولا معنــى .

وفى الصفحة التالية ، جاء بيت هكذا :

اذا اصبح الطل به ليلة   وجال فيه الغصن مثل الخيال

وصوابه : اذ

وفى الصفحة التالية لهذه ، ورد :

« ما بلغه من عنه من قوله ، وواضح ان وجود « من » الاولى ، انما هى من عمل المصفف بالطباعة .

ولكــن بيتين ، وردا هكذا :

يقول اخو الفضول وقــد رآنا   عن الايمان يلغنــا الحجــون

اتشكو شهر الصــوم هــلا   حمــاه منكــم عقــل وديــن

وفى الصفحة بعدها ، بيتان آخران هكذا :

فنحن على صفوح الدهر ندعو　　　وابليس يــقــول لنا آميــن
ايا شهر الصيام اليــك عنــــا　　　ففيـــك آكفـــر مــا نكـــون

وصواب الابيات الاربعة ، هكذا :

اتنتهكـــون شهر الصوم هــلا　　　على الايمان يغلبنـــا الحجون
يحى على الصبوح الدهر ندعو　　　وأبليـــس يقول لنـــا آميــن
اليك فغيك اكفر مـــا نكـــون

وهكذا تكون « اليك » قد كررت للتأكيد ، وبدونها لا يستقيم الوزن، ومن الغريب أن نجد فى التعليق ، على « صفوح » فى البيت قبله ما يلى : هكذا وردت فى « ج » والملكية ، وفى « ك » الصفوح بالتعريف ، وهـــو لا يستقيم مع وزن الشعر

وفى الصفحة 244 ، ورد بيت هكذا :

دهى الفؤاد فلا لسان ناطق　　　عند الوداع طابع متراق

فعجز البيت لا يستقيم وزنا ولا معنـــى ، وقد ورد فى التعليق على « طائع » انه فى الكتبية « ولا يد » وهذا الذي ذكره كذلك ويستقيم به الوزن، ويصح به التقابل مع « فلا لسان » الا ان « متراق » لا تنسجـــم مـــع « ولا يد » من حيث التانيث والتذكير .

وفى الصفحة التالية ، ورد بيت هكذا :

يا صاحبى وقد مضى حكم النوى روحا على بمشيمـــة العشاق

ولا يستقيم الوزن بمشيمة ، بل بشيمة ، ثم ان الرواية « الاشفاق » وليست العشاق خصوصا ان هذه قد تقدمت فى البيت الاول فتكـــون بهذا عيب الايطاء وقد اثبت التعليق آن « ما فى الملكية بشيمة » .

وفيها آخر هكذا :

اوما ما تكتب اليه مع الصبا فالذكر كتبـــى والرفاق رفاق

وعلق على المصراع الاول بانه فى الديوان والكتيبة « اومى بتسليم اليه مع الصبا »

فكان عليه ان يثبت هذا ، ويتنكب عن غيره ، لانه لا معنى ولا يستقيـــم به وزن ، فينص عليه فى التعليق بدل غيره .

ثم بيت آخر هكذا :

ان غاب عن عينى فمثـــواه الحشى فسراه بين القلب والاحداق

ويبدو ان الفاء وقعت موقع الواو فى « فسراه » كما اثبت فى طبعـــة الكتيبة ، وعلق عليه بأن فى « ج » فسراه .

وفى الصفحة التالية ورد بيت هكذا :

وقفت والركب قد زمت ركائبه وللنفوس مع النوى تقطيع

وعلق على « الكرب » بانه فى « ك » البين وأراه انا الاليق بالاثبات، ثم علق على « النوى » بانه فى « ج » والايام ، والاولى ارجح مع أن الوزن لا يستقيم بالنوى الذي رجحه ، وأن استقام مع « الايام » ففيه اضطراب ونفور ، وقد اثبت فى الكتيبة « الانفاس » ، وهو الصواب .

وفى الصفحة التالية لهذه ورد :

وهتكت استار الوقار ولم ابل   للباقلاء تلحظ بطـــرف اشوس

فعجز البيت لا يستقيم لا وزنا ولا معنـــى ، ولعله من ناحية الوزن، يستقيم هكذا : بلحظ طرف اشوس ، وفيه ما فيه مع ذلك .

ثم جـــاء بعــده :

مالى وصهباء الدنان مطارحا   سجع القيان مكاشفا وجه المس

فلعله : المســـى (من اساء مسهلا) .

وبعده بأبيات ، جاء بيت هكذا :

سفهت فى العشاق يوما ان اكن   ذاك الذي يدعى الفصيح الاخرس

وعلق على ((يدعـــى)) بأنه هكذا فى ((ت)) والملكيـــة ، ووردت فى المخطوطين ((يدع)) وهذا الذي ذكره اخيرا هو الصواب ، ويبقى بعد ذلك التصويب للكلمة الاخيرة ((بالاخرس)) مجرورا بحرف الجار ، مع تسهيل الهمزة لاستقامة الوزن ، ويتضح بذلك المعنـــى .

وبعد بيت يرد آخر هكذا :

هل تبصر الاشجار والاطيار والازهار تلك الخافضات الاروس

وتـــدويـــر البيت هكذا :

هل تبصر الاشجار والاطيار والـــازهار تلك الخافضات الاروس

وبعد ابيات ياتى آخر هكذا :

وسما بساط الارض فمـــده ودحا بسيط الارض اوثر مجلس

وصدر البيت لا يستقيم وزنا ولا معنى ، وقد علق عليه بأنه فى الديوان:

رفع السماء سقفـــا يـــروق رواؤه

وهذا هو الصواب ، ان اسقطنا الهمزة من « السماء » لان الوزن لا يستقيم مع وجودها .

وفى الصفحة التالية لهذه ، ورد بيت هكذا :

بالمصطفـــى المهدى الينا رحمة مرمى الرجا ومسكـــة المتيئس

ولا يستقيم الشطر الثانى الا بمد « الرجا » بالهمزة آخره .

وبعد أبيات ياتى آخر هكذا :

فاذا تراجعت الطيور وزايلت اغصانها بأن المطيع من المسى

ولا شك أن وضع الهمزة على ألف « بان » مما تطوع به المصفف ،

والا فلا وزن يستقيم معها ولا معنـــى يتم بها .

وأخيرا يأتـــى تصحيف آخر فى هذا البيت :

كل يفوه بقوله والحق لا يخفى على نظر اللبيب الاكيس

فقد صحف المصفف ، ولا شك ، كلمة اللبيب ، فجعلها «اللبيت» بالتاء اخيرا بدل الباء .

وفى الصفحة 239 ورد بيت هكذا :

وشى بها من وجهها وحليها بدر الدجى وكـــواكب الجوزاء

وصوابه : فــوشــى بــهــا .

وبعد أبيات أتى آخر هكذا :

ارسلت ليل شعرها من عقص   من محيى رمى البــدور بنقص

وصوابــه : عقاص ، والا فان وزن الشطرة لا يستقيم بعقص

وفى الصفحة التالية لهذه ، ورد بيت هكذا :

ضاق صدري بضيق حجلك واستوقف طرفى حيران ذلك الوقف .

وكان من حق التدوير ، ان يقف عند الواو ، من « استوقف » ثم يبتدىء العجز بالقاف منها ، ومع هذا فلا يستقيم وزنه على ما هو عليه .

واخيرا يأتى بيت آخر مختل هكذا :

وما ابتسمت شنايــا أم اقاح   ويكنفها شفاه ام شقيــق

وقد شكل « ابتسمت » بالاستناد الى تاء الخطاب ، ولا يستقيم على كــل حــال .

ثم تلى صفحة اخرى فيها بيت ضبط فيه « صقيل » مصفرا ، وغمد ، بضم الغين ، ولا شك ان هذا من قبيل المصفف ، ولعل منه ضبط حلى بضم الحاء وفتح اللام فى البيت الذي تقدمه بآخر .

وسمــا فى الغصون حلى بنان   اصبحت من سلافة الطل رعشا

وقد افتتحت الابيات بهذا البيت ، الذي لا يستقيم عجــزه فى مبناه ومعناه ، كما نــرى :

ارسل الجو ماء ورد رذاذا   وسمع الحزن والدمايث رشا

وفى الصفحة الاخرى بعد ، يأتـــى بيت هكذا :

وأشرف من علياء بهو تحف   شماســـى زجاج وشيها متناسب

فكلمة ((شماســـى)) لا يستقيم بها وزن ، خصوصا وقد شددت يـــاؤهـــا .

وفيهـــا هـــذا البيـــت :

دعونـــا الخطيب أبا البركا   ت لاكل طعام الوزير الاحل

فربما كان ((الاحل)) بالحاء محرفا عن الاجل ، بالجيم ، والا فيكون الوصف للـــطـــعـــام .

وفي الصفحة 260 وردت العبارة ((وكان قد ولع ببيت شعر صيره هجيراه أوقات لعبه بالشطرنج)) فتصحفت هجيراه ((بهجراه)) .

وفى الصفحة 265 ، سقط من الكلام ما نضعه بين قوسين ((واقترن بذلك تقديم ابنه (أبى) يعقوب ،،، وحصر من بها (من) النصارى ثم تصحفت ((بروا وراشوا)) برؤا وراشوا .

وفى الصفحة 267 ورد من رسالة ابى جعفر ابن عطية ((تالله لو احاطت بـــى (كل ساقطة) ،،، وقلت ان الله لم يوح الى (بدل فى) الفلك الى نوح ، وبريت لقرار (بدل قدار) ،،، وقبضت قبضة من الطير ، من اثر الرسول (من الطير) لم ترد كما قال فى (ك) و (ج) وهو الصواب فكان عليه ، أن يأتى بها ، مقتبسة من القرآن الكريم .

وفى الصفحة التالية ،ورد منها : وناولت من قرع سن الخمسين (بدل الحسين) ثم جاء بيت منضما الى قصيدة ليس منها هكذا :

فعفوا امير المومنين فمـــن لنا   بحمل قلــوب هدها الخفقان

عطفا علينا امير المومنين فقد   بان العزاء لفرط البث والحزن

الى آخر القصيدة المكسورة النون رويا ، بينما البيت الاول مضموم نونا ، وهو مذيلة به رسالة كان قد وجهها الى الخليفة مستعطفا .

ثم جاء من القصيدة بيت هكذا :

فالثوب يطهر بعد الغسل من دون   والطرف ينهض بعد الركض من وسن

وصوابه : فى سنن .

ثــم جــاء آخر هــكــذا :

ونحن من بعض من أحيت مكارمكم   تلك الحياتين من نفس ومن بدن

وصوابــه : كلتــا .

وفى الصفحة التالية لهذه ، ورد من رسالته التى اكتسب بها مكانته : كتابنا هذا من ماسة بعدما تروح (بدل تجدد من) ؛؛؛ فتح بمسرى (بــدل بهر ، وسقط قبله ((ونصره تعالى المعهود القديم))) ؛؛؛ جمع اشتات الطلب والادب (بدل الارب) ... فلا تطين الالسن كنه (بدل لكنه) وصفه ادراكــا (وقد وردت الفقرة قبل الاخيرة ، وعلق على كنه بأنها فى ((ك)) الا لكنه ، وهو تحريف، والتحريف ليس الا فى زيادة الا ، وبعدم هذه يكون الصواب ما فى هذه النسخة ، وليس تحريفا ، ثم سقطت تعالى من قوله ، واملى لهم الله تعالى ليزدادوا اثما ، وبعده ((واشتغل على رغمه (بــدل زعمه) بــالــصــيــام)) .

وفى أول الصفحة التالية لهذه ، ورد ((يبشر (بــدل بشــر بالبنــاء للمجهول) بذلك والنوائب لا تنوبه)) ؛؛؛ وراوا ما خطته الاسنة فى أعضائه

(سقطت بعدها ((واضلاعه)) ونفذ فيه من أمـــر الله ما لم يقـــدروا على استرجاعه ،، باقراض آمالهم (بدل آجالهم) ، واذاقته موتا ذعافا (بدل زعافا) ورام البقاء فى ثجه (بدل ثبجه) ،،، والوى ذقته (بدل ذقنه) غرقه ،،، طعنا وخزبا (بدل ضربا) ،،، حتى سقت (بدل انبسطت ،،، وحكت حمرتها على زرق (بدل زرقته) حمرة الشفق على زرق (بدل زرقة) السماء .

فهذا النص النثري ضرب الرقم القياســـى فى التصحيف والتحريف، وهو فى رسالته متداول ، لا يكلف المحقق عناء فى الرجوع اليه سالما ، ولكن الاستاذ يوقعه الاعتداد — أحيانا — فيما لا تحمد عقباه .

وفى التالية بعد ورد ((الى منازلة مــن بها (سقطــت ((مــن))) النصارى ،،،)) وقد تقدم مثله فى الصفحة 265 .

وفى الصفحة 273 جاء فى قصيدة ، بيتان هكذا :

وليل به فى ستور الغصون كخود نرنم فوق الحجال

وأسحاره كيــف راقــت وصـــــح النسيم بها فى آعتدال

وصـــوابـــه :

وبلبه فى ستــور الغصـــون كخود تــرنم فــوق الحجال

واسحاره كيف رقت شـــذى وصح النسيم بها فى اعتدال

وفى الصفحة التالية ، ورد بيت ، شكل فيه ((البلى)) بكسر الباء وتخفيف الياء وشكل ((ميت)) بتشديد الياء وفتح التاء وهو :

اما للبلى آية عيسوية فينشر ميت الانس بعد انبتاته

وواضح فى مبناه ومعناه ، أن البلى بفتح الباء وتشديد الياء ، وأن ميت بياء ساكنة مخففة وتاء مضمومة نائب فاعل ينشر .

ثم جاء بيت من أبيات هكذا :

أشكو له ما لقيت من حرق   فيمشــى لاهيا اذا أشكــو

فتكسر عجز البيت بأوله « فيمشى » وقــد علــق المحقق عليــه بأنه ورد فى المخطوطين محرفا ، والتصويب من الملكية ، مع أنه لا تصويب به الا اذا غفلنا عن الوزن ، وأغضينا عن لغة الشعر الأنيقة فى غزلها ، خاصة ، والصواب فيها « فينثنــى » لاهيا اذا أشكو .

ثم جاء ثانــى بيتين هكــذا :

فى نصف الاستذكار أعطيته وغض العين ارضاه

وصوابه : فى نصف (الاستذكار) اعطيته (ملخص العين) فأرضاه ولا تدوير فى البيت كما نرى ، وفى هذا وعدمه نجد الخطأ يتعرض له بعض الابيات ، كما نجد فى الصفحة التالية ، من بيتين وردآ هكذا :

يــا قبــر صبح حــل فيك   بهجتــى اســنــى الامان

كــــم بيــن مقبور بــفــــاس وقــابــر بــالقــيــروان

فصدر الاول كان ينتهى عند الياء من « فيك » وصدر الثانى كان ينتهــى عند الالف من « فاس » .

وفى الصفحة التالية للسالفة ، ورد بيت من قصيدة الكريانــي ، هــكــذا :

ألطقت حمــل صدورهــم   للبيــن خطــب لا يطــاق

وصوابه : البيــن ، وآن كان الخطب هنا سهلا .

ثم جاء فيها آخر هكذا :

عمدا راوا قتل العميد فكان عيشــك فى اتفاق

وصوابــه : نــفــاق .

وفى الصفحة بعد هذه ، ورد بيت ضمن أخرى هكذا :

كان اللقاء فكان حظى ناظري وسط الفراق فصار حظى مسمع

وصوابه : وسطا الفراق فصار حظى مسمعــى .

وبـــعـــده :

فابعث خيالك تهده نار الحشى ان كان يجهل من مقامى موضع

ففيه شكل « تهده » بضم التاء ، وصوابها الفتح ، ثم انتهى البيت بكلمة « موضع » كذا ، وصوابها « موضعى » بالاضافة لياء التكلم كالسابق.

وفى الصفحة 278 وردت هذه الجملة : « فلم يحر بشىء الا ركض فيه » وصوابها « فلم يجر » بالجيم ، والاحسن كون شىء فاعلا ، كما ذكر فى «ج» .

وفى الصفحة التالية ، ورد بيت هكذا أول قصيدة لابن أبى عزفة اللخمى، احمد بن عبد الله :

ملكت رقــى بالجمال فاجمل وحكمت قلبى بجورك فاعدل

وشكل « ملكت » بفتح الميم واللام مخففة ، وصوابها بضــم الميــم وتشديد اللام المكسورة ، وسقطت بعد « وحكمت » « فى » وبدونها لا يتزن البيت سوى هذا ، فقد اثبت الاسم بأنه بن عرفة ، وعلق عليه بأنه فى «ك» ابن ابى عرفة، مع انه لا هكذا ولا هكذاك ، بل ابن أبى عزفة ، بالزاي .

وفى الصفحة التالية لهذه ، ورد من القصيدة أبيات هكذا :

ان قيل أنت البدر فالفضل الذي — لك بالكمال ونقصه لم يجهل

عيناك نازلتا القلوب فكلها — اما جريح او مصاب المقتل

خلسا له من طيب عرفك نفحة — تجيء بها دماء عليلها المتعلل

او حالت الاحوال فاستبدلت بى — فان حبى فيك لم يستبدل

لاقيت بعدك ما لو ان اقله — لاقى الثرى لاذاب صم الجندل

وحملت فى حبك ما لو حملت — شم الجبال أخفه لم تحمل

ففى البيت الاول شكل « ونقصه » بكسر الصاد ، والصواب ضمها، وفى البيت تصحفت « نازلتا » بنازلنا ، وفى الثالث نون « خلسا » مع انه فعل مسند لضمير التثنية ، ثم أن عجز البيت لا يستقيم وزنه على ما هو عليه ، كما أن معناه لا يتضح بذلك ، وقد علق على « تجيء » بأنه فى « ت » ضحا بها ، وهذا أيضا لا يستقيم به وزن ولا يتبين به معنى ، ولعل « تجيء » محرفة عن « تحيى » ثم ان « بها » واغلة فيه ، فيكون الشطر هكذا : تحيي دماء عليها المتعلل » والدماء بفتح الدال .

وفى البيت الرابع وجدنا عجزه ايضا لا يستقيم وزنا ، وقد علق عليه بأنه فى « ك » و « ج » فاني بحبي لم أستبدل . وسواء هذا وذاك ، فان الوزن لا يستقيم ، ولعله هكذا : « غيري فحبى فيك لم يستبدل » أو « انى بحبى فيك لم استبدل »

وفى البيت الخامس ، لا بد من تسهيل همزة « أن » حتى يستقيم الوزن بذلك ، والا فلا استقامة له مع الهمزة المذكورة .

وفى البيت السادس ، لا بد من زيادة ياء المتكلم بعد الباء من «حبك» الوارد فيه ، هكذا : « وحملت فى حبيك ما لو حملت » ، والا فان الوزن يتكسر بدون تلك الياء .

ونسترسل مع القصيدة ، فنجد منها فى الصفحة بعدها ، بيتا هكذا :

ونصول شيب قد الم بلمتى   وخضاب ابى شيبة لم تنصل

فلا يستقيم البيت على عجزه كما هو ، وقد حاولنا اقامته تخمينا واستعانة بتراجم اربعة من رجال الحديث ، أبى شيبة وابناء ابى شيبة ، ولا شك ان العزفى المحدث يوري بأحدهم ، فلم نفلح فى هذه الاقامة المرجوة ، وزدنا عليهم شيبة بن ربيعة الجاهلى وشيبة بن عثمان الصحابى فكنا فى ذلك نخبط خبط عشواء ، ولعل هذا التصحيف وجد قديما ، وانه مما جعل المقرى يكتفى بأبيات عشرة من اول القصيدة ، ويذكر أنها طويلة ، كما فى ازهار الرياض له ، ولصنيعه هذا نظائر ظهرت لنا فيه وفى نفح طيبه .

ومن اواخر الابيات فى القصيدة ، نجد بالصفحة التالية هذا البيت :

ويلقن الحجج العيى تحرجا   من رامح عند اللجاج واعزل

وقد سقطت احدى الجيمين من الحجج ، فتحرفت الى « الحج » وانكسر بها الوزن ، واختل بها المعنى الذي اراده لعدل ابن الحكيم .

ومن هذه الابيات :

واذا نحى بالعدل فصل قضية   لم تحظ فصلا من اطالة مفصل

فلعل « تحظ » مصحف عن « تخط » ويبقى الكلام بعد هذا فيه ما فيه.

وهذه ابيات اخرى له ، جاء فى نفس الصفحة هكذا :

واستبدلت بوحوشها من انس بيض الوجوه كواعب اتراب

ولقد وقفت بــهــا ارقرق عبرة حتى اشتكى طول الوقوف صحاب
يبكى لطول بكاى فى عرصاتهــا صحبى ورجعت الحنين ركــاب

فالبيت الاول لا يستقيم وزنه على ما هو عليه ، اذ صدر البيت ينتهى عند الياء من ((بيض)) ولعل ((الوجوه)) تحرفت عن ((للوجوه)) وتبقى ((صحاب)) فى نهاية البيت الثانى ، يجب ان تضاف الى ياء المتكلم ، كما يجب ذلك فى ((ركاب)) بنهاية البيت بعده .

وتنتهى الصفحة ببيت هكذا :

كأنما الخال مصباح بوجنتــه هبت عواصــف أنــفــاسى فعطف

فان الكلمة الاخيرة فى البيت لا يستقيم بها وزن ولا معنى .

وفى الصفحة التالية ، ورد بيت هكذا :

انسنى البدر منك حين بدا لانه لو ظــهــرت لاحتجبا

وقد شكلت النون الاولى بالسكون والسين بالفتح ، ولا نفهم بهــا معنى ولا ندرك لها مبنــى .

ثــم جــاء بيت آخر ، هكذا :

هجــركــم مالــى عليــه جلد فاعيدوا الى الرضى او فعــدوا

وعجز البيت لا يستقيم وبعدما شدد الدال من الكلمة الاخيرة ، ازداد تعقيدا وانبهاما ، ولعله هكذا : فاعيدوا لى الرضى او فعدوا .

ثم جاء بيتان هكذا :

ويوم كساه الدجى دكن ثيابه وهبت نسيم الروض وهو عليل
ولاحت بأفلاك الافق كواكــب لهاا فى البدور الطالعات افول

وعلق على « الدجى » بانه من المخطوطين « الدجن » ولا ندري كيف بتنكب عن هذا ، وهو الصواب دون غيره ، اما « هبت » في اول المصراع الثاني ، فلا شك ان تاء التانيث وغلت عليه ، وانه « هب » بدونها ، خصوصا والضمير عائد على فاعله بالتذكير .

وصدر البيت الثاني لا يستقيم وزنه مع « الافق » الذي علق عليه بانه ورد في المخطوطين محرفا بالافك ، وكلاهما يتبرا منه مكانه وكنهه .

وفي الصفحة 293 جاء من قصيدة :

وصحبه الاولى نالوا مراى	يرجع عنه الصرف وهو الحسير
وبعد فانفسهم جوهر	للارواح منه ما للاثير
لكن اذا لم يكن بد فعن	جهد اوفيك بتبر يسير
بنى لا يخدعنك هذي الدنا	فانها والله شيء حقير

البيت الاول ، نجد فيه ، « مراى » ولا يستقيم الوزن به ، وفي عجزه تحرف « الطرف » بالصرف .

ولعل البيت هكذا :

وصحبه الاول نالوا مري	يرجع عنه الطرف وهو حسير

اما البيت الثاني فلا يستقيم له وزن ، ولا يطمأن فيه الى معنى .

وفي البيت الثالث ، تحرف « نزر » بتبر ، وهو واضح في المصراع الثاني ، اما الاول فيجب حذف النون من « يكن » ليستقيم الوزن .

وفي البيت الرابع ، تكسر البيت بالمضارع مؤكدا ، وعلق عليه بانه في « ك » يخدعك ، وهذا هو الصواب ، فكان من حقه ان يثبت ، وربما كان الفعل « تخدعك » لينسجم مع «هذي الدنيا » وما بعدها .

وفي الصفحة التالية ، ورد بيت هكذا :

وها هو اليوم على عدة	مبرمه للشر وما من عذير

فلعل عجز البيت هكذا : « مبرمة للشر ما من عذير » او « مبرمة الشر وما من عذير » .

وفى الصفحة التى تلى السابقة ، ورد بيت هكذا :

ما لى بباب غير بابك موقف لا ولا لى عن فنائك مصرف

وعلق على « لا » او المصراع الثانى بأنه فى « ك » كلا ، وهذا هو الصواب ، وبه يتزن البيت ، فكان من حقه اثباته لذلك ، والنص على غيره.

وفى التالية ورد بيت هكذا :

على مثله خضابة الدهر فاجع تفيض نفوس لا تفيض المدامع

وهو مطلع قصيدة فى الرثاء ، ولم نتمكن من صحة المصراع الاول .

ثم جاء من مطلع اخرى :

ايساعد رائده الامل ام يسمع سائله الطلل
يا صاح فديتك ما فعلت ذا من الاحباب وما فعلوا

فلا شك ان الاول تحرفت اوله « يسعد » بيساعد ، وفى الثانى جعل « فعلت » مسندا الى تاء الخطاب ، مع ان التاء للتأنيث ، ويبقى بعد ذلك « ذا ما » لم نهتد الى وجه الصحة فيه .

ثم جاء بيت هكذا :

عبرة تفيض حزنا وشكلا وشجون تعم بعضا وكلا
وصوابه : عبرات .

وفى الصفحة 297 ورد فى التعريف بابن همشك ، انه ((خدم بعض الموحدين فى الصيد)) فهذه العبارة غامضة ، خصوصا أن الموحدين فى تلك الحقبة لم يكن لهم ظهور بالاندلس ، حتى يخدموا ، وأخيرا اتصل المذكور بعبد المومن ، ولغموض العبارة ، تركها الاستاذ فى الجزء الاول من كتابه القيم ((عصر المرابطين والموحدين فى الاندلس)) فقد نقل فى التعريف به ما جاء فى الاحاطة الا هذه العبارة .

وفى الصفحة 305 ورد ((فصرفهما الى الاندلس ، باشرت اركابهـــا البحر ،،، وبرز السلطان ،،، فسعيا اليه ،،،))

فكلمة ((اركابهما)) تحرفت بأركابها ، ثم وضع التنوين على ((فسعيا)) وهو واضح فى كونه فعلا مسندا الى ضمير التثنية .

وفى الصفحة 311 ورد أن ((يوسف يعقوب بن عبد المومن)) وواضح انه سقط قبل عبد المومن ((ابى يعقوب يوسف بن)) .

وفى الصفحة 313 ورد بيت ضمن ابيات هكذا :

لقد كان لي مال وأهل فقدتهم فهانا لا مال لدي أهل ولا أهل

وحق العجز ان يكون هكذا : فها أنا لا مال لدي ولا اهل ، وبذلـــك يكون قد سقط الالف من ((أنا)) وزيدت ((أهل)) الاولى ولا محل لها .

وفى الصفحة 315 ورد ((رتمت بيعته بافريقية ،،، غير مراخ ،، بريئا من التشمت فى جميع أمره ... فزعموا أن خالصته أبا الحسن)) .

فتصحت ((وتمت)) برتمت ، وشكل ((مراخ)) بفتح الميم بدل ضمها، وتحرفت كلمة ((التثبت)) بالتشمت ، ثم ((خاصته)) بخالصته

وفى الصفحة التالية ، جاء ((فظهر منه فى نكاية العدو وســـهولـــة وغناء)) فلعل ((سهولة)) محرفة عن شجاعة ، وان كان بينهما بعـــد .

وفى الصفحة 319 وردت ابيات من منظومة ابن الخطيب فى سير الملوك ، هكذا :

ثم تولى ابنه المستنصر	وهو الذي علياه لا تنحصر
اصاب ملكا رئيسا أوطانه	وافق عزا ساميا سلطانه
حتى اذا أدركه شرك الردى	وانتخب النادي عليه والندا
قام ابنه الواثق بالتديير	ثم مضى فى زمن يسير
واضطربت على الدعى الاحوا	ل والحق لا يغلبه المحال

والبيت الاول لا يستقيم الا بجعل همزة « ابنه » همزة قطع ، لا وصل ، كما هى فى اختيار اللغة .

والبيت الثانى لعله ، اصاب ملكا راسيا اركانه ، ونص فى التعليق انه فى « ك » رايسا .

وفى البيت شكل « شرك » بفتح الراء ، ولا يستقيم الوزن الا بسكونها

وفى الرابع تصحف التدبير بالديير .

والبيت الخامس ينتهى صدره باللام من « الاحوال » فلا تدوير فى البيت ، وشكل « المحال » بكسر الميم ، وصوابها الضم .

وفى الصفحة 323 ورد « يسمع ذي القحة ويصم عن ذوي المسالة والصواب « ذوي القحة » .

وفى الصفحة 339 جاء « ومن شعره فى النسب » وصوابه «النسيب» كما هو فى ذلك الشعر .

وفى الصفحة 340 ورد من قصيدة بيت هكذا :

ما زال يشرب من ماء القلوب فلم أبصرته ذابلا يشكو من اليبس

وصوابـــه : فــلـــو .

ثم جاء بيت حرك فيه السحر ، كالمعتاد ، ولكن الوزن يقتضيه ساكن الـــحـــاء كـــمـــا نـــرى :

وليلة جئتها سحرا أجوس بها شبا العوالى وخيس الاخنف الشرس

وفى الصفحة 345 ورد متصلا بالصفة التالية « واتعب خلق الله من راد حـــمـــده » .

وصوابه « من زاد همه » وهو صدر بيت من قصيدة للمتنبى فى كافور اما تمام البيت فهو « وقصر عما تشتهى النفس وجده » .

وفى الصفحة 348 ورد بيت هكذا :

فلا غرو ان جاءنـــى سابقا الى الانس خل يحث الكميت

وصوابه : بحث الكميت ، بالاضافة الى الكميت ، بدليل « فى كل بـــيـــت » فى البيت قبله .

ثم جاء بيت آخر هكـــذا :

اقول وحمراء غرناطة تشوق النفوس وتسبى المـــهـــج

وواضح أن صدر البيت ينتهـــى عند «غرناطة»

وبعده :

الا ليت شعري بطول السرى ارتنا الوجى واشتكت العـــرع

ولا يستقيم الوزن فى عجز البيت هكذا ، ولعله ارتنا الوجى واشتكت بالـــعـــرج .

وفى الصفحة التالية ورد بيتان هكذا :

ولقد اقـــول وعنبر ذاك الفتـــى يلقى الفوارس فى العجاج الاكور
يا عاثرين لدى الجلاد لعا فقــد بسقت لكم ريح الجــلاد بعنبـــر

وظاهر فى العجاج الاكور ، انه الاكبر ، تصحف بذلك .

ثم جاء فى التى تلى هذه هكذا :

وان افراط بكـــائـــى لم يرع منى عـــريكـــة

ولا محل للواو هنا .

وفى الصفحة 355 ورد بيتان هكذا :

فنيت عن الانصـــاف منى لاننى كمـــا قلت لكـــم من فراقكم قاض
فمن سمعنا او من بعينك اننـــى بكل الذي ترضاه يا سيدي راض

فالبيتان كما نرى مختلا الوزن غامضا المعنـــى على العموم ، وان كان ثانيهما يمكن قبوله وزنا ، ويبقى على غموض المعنـــى واعـــتـــياص التصحيـــح .

وفى الصفحة 363 ورد بيتان هكذا :

خلصت كما خلــص الزبرقان   وقد محق النور عنــه السرا

وفى الســيـــق والـــرار   فى هـــذا سر وفى ذا اســرار

فهنا انضاف الى اختلال الوزن العروضى ، خصوصا فى الثانــى ، اختلال القافية ، وان كان هذا يسهل تلافيه ، برجوع الراء الساقطة مــن السرار . والغالب ان صدر البيت الثانى كان هكذا :

وفى السين والراء فى (اومن) ينقصه ما يتم بــه مقدار أربعــة او خمسة حروف ، ويبقى الاخير معضلا فى تقويمه .

وفى الصفحة 366 وردت أبيات ضمن اخرى هكذا :

جــزيــرة انــدلس حســرة   لا غالب من حقــود الزمــان

ويبكى الايام ويبكى اليتامــى   ويحكى الحمام ذوات الشجن

وكانت رباطــا لاهــل التقى   فعادب مناطــا لاهــل الوثن

فالاول يختل وزن عجزه ، وانثانــى تحرفت فيه الايامى ، بالايام ، والثالث ((فعادت)) بعادب ، وهذا من عمل المصفف لا شك .

ثم ياتى بيتان هكذا :

ثمانون عاما مع ست عمرت وليتنى   ارقت دموعى بالبكاء علــى ذنــب

وزك الذي تدريــه مــن شــيمــة   تعلق بالمظلوم من شــدة الكــرب

فصدر الاول انكسر بزيادة ((عاما)) فيه ، وصدر الثاني بنقص كلمة من عروضه ، ولا باس بوضوح المعنى فيهما ، والغالب آن ذنب كان مضافا الى ياء المتكلم في الضرب ، اذ لا مبرر لتنكير الذنب هنا .

وفي الصفحة 381 ورد ((واولاد بعدوة المغرب)) محرفة ((اولا)) بأولاد.

وفي الصفحة 383 علق المحقق ، على قول ابن الخطيب ، ان ابن الهنشة الذي جرت له وعليه هزيمة الارك والعقاب ، بأن الهنشة اي الفونسو ، وهو الفونسو الثاني ملك قشتالة ، هو الذي هزم في معركة الارك ،،، اما معركة العقاب ، فقد وهم ابن الخطيب بايرادها على هذا النحو ، والحقيقة أنها هي المعركة التي هزم فيها الموحدون ،،، أمام الجيوش النصرانية المتحدة بقيادة ((ألفونسو الثامن)) فيجعل هناك ملكين ، يدعيان بالفونسو ، الا ان صاحب الارك ، كان ثانيا ، وصاحب العقاب كان ثامنا ، مع انه واحد هزم في الارك ، فأقسم أن لا يهدأ له بال ، حتى يثأر لنفسه ، فكان ذلك في موقعة العقاب المشؤومة ، التي محا فيها الفونسو وصمة الهزيمة السابقة له وهو المعروف بالفونسو النبيل ، وكونه ثالثا او ثانيا أو ثامنا ، ذلك يقع الاختلاف به حسب ما يطرأ على المملكة من ضم ولايات او اقاليم كانت ملوكها تحمل هذا الاسم ، فانضمت الى تلك المملكة ، كما نجد في اسبانيا والبرتغال ، وانجلترا ، بعد انضمام أوسكة الى بريطانيا . أما كون الهنشة هو الفونسو ، فذلك ما لا غرابة فيه ، حيث أن الفاء اولا استبدلت هاء في القشتالية ، وبقيت على حالها بالبرتغالية كما في الحديد والتين والمالية بالاسبانية الآن ، وصارت هذه الهاء آولا لا ينطق بها ، بل ينطق بالحركة التي كانت لها .

وفي الصفحة 387 جاء ((والبقاء الخلص لله وحده)) ، فلعل كلمة ((الخلص)) مصحفة عن ((الخالد)) أو ((والخلود)) مع الواو هكذاك .

وفي الصفحة 394 وردت ابيات ضمن اخرى هكذا :

لله ما قد طواه الموت من شرف   وسر مجد بهذا اللحد مدفون
مجاهد نال من فضل الشهادة ما   يجنى عليه بأجر غير ممنون
قصي كعثمان فى الشهر الحرام ضحى   وفاة مستشهد فى الدار مطعون
يسقى بها عين تسليم وقاتله   مردد بين زقوم وغسلين

لقد شكل في الاول ((مدفون)) بالضم ، وتصحف فى الثانى ((يجزي)) بيجنى ، وفى الثالث ((قضى)) بقصى ، وفى الرابع ((تسنيم)) بتسليم .

وفى الصفحة 396 وردت ابيات من قصيدة هكذا :

شهيد سعيد صبحته شهادة   تبوأ منها فى الخلود التنعم
فمن شام منها اليوم برق تبسم   ففى الغد تلقاه بوجه جهنم
ولو انها ترعى أمام هداية لاعفت   عليا من حسام ابن ملجم

فلعل الاول : خلود التنعم .

والثانـي : بوجه تجهم

والثالث :

ولو انها ترعى امام هداية   لاعفت عليا من حسام ابن ملجم

وفى الصفحة 408 ورد :

سلام والمام ووسمىمزنة   على الجدث الثانى الذي لا ازوره

وصوابه : على الجدث النائى .

ثــم بيتــان هكذا :

ايها المـــلـــك المفـــدى لعمـــري نعى المجد ناعيك يوم قمنا فنحنا
كما تقارعت والخطـــوب الى ان غادرتك الخطوب فى الترب وهنا

فصدر البيت الاول لا يستقيم ، وكذلك عجزه الا بحذف ((ناعيك)) وبنـــاء ((نعى)) للمجهول ، هكذا : ((نعى المجد يوم قمنا فنحنا)) أو يكون البيت :

ايهـــا الملـــك قد لعمري نعى المجد نواعيك يوم قمن فنحنا

وربما كان صدر الاول : ايها المالك المفدى لعمري ، ثم ينتهى بمـــا ذكرنا اولا . ولكن ضعفه هو في كونهم قاموا فناحوا ، وهذا مـــن صفات النساء ، وبذلك يكون المرجح هو الاستظهار الثانى ، ويبعد ايضا استعمال ((المالك)) للملك ، وقد انصرف عنه عرفا .

وفى الصفحة 410 ورد : ((وما اجتمع الداآن الا ليقتتلا ((ولعله)) وما اجتمع الدآآن الا ليقتلا)) وعلق عليه ، بأنه في أخـــرى ((اجمـــع)) و ((ليلتقيا)) .

وفى الصفحة التالية ورد فى حق المامون الموحد ((واشتغل بمـــا يشتغل به الملوك من تفخيم البناء ، كبنيان رياض السيد الذي على ضفـــة الوادي بمالقة ، المعروف باسمه ، لله ورسوله)) فلا ندري مناسبة هذا الاخير لبناء رياض السيد ، الا أن يكون البناء لعموم الشعب ، كمـــا هو معروف فى العواصم ، وبذلك يكون السيد ، محرفا عن السبيل ، وتكون التسمية ((رياض السبيل)) مثل ((جنان السبيل)) بفاس مثلا . ويلاحظ أن الرياض هنا كما هو فى المغرب ، معناه الروض ، وهو استعمـــال ايضا فى الاسبانية ، بهذا الوصف العمومى Jardines

وفى الصفحة 414 ((كتب الى الاقطار عن نفسه ، ولم يكمل انشاءه بكتابة رسالة بديعة)) ولعل الصواب ((ولم يكل انشاءه لكتابه (او لكاتب) رسالة .

وفى الصفحة التالية ورد « اتظهرون العناد تخريصا ، بل تصريحا وتلويحا ، ونظن ان لا يجمع لكم شتا ، ولا يدنى منكم نزوحا » والصواب فيه : « وتظنون انكم اذا تفرقتم لا نجمع لكم شتاتا ، ولا ندني منكم نزوحا» كما في البيان المغرب ، الذي احال عليه ابن الخطيب وعلى المغرب .

وفى الصفحة 416 بيت ضمن ابيات معروفة ، هكذا :

اهل الحرابة والفساد من الورى يعزون فى التشبيه بذكار

وصوابه : للدكار وكلمة الدكار عامية معروفة فى صلاح شجر التين بالطريقة التى ذكر فى البيت التالـــى :

ثم جاء فى ذكر ابناء المامون : « ومان » (وهو مصحف عن عثمان) ، كما ورد فى بناته « ابنة العزيز » والصواب امة العزيز » .

وفى الصفحة التالية ، ورد فى كتابه « ابو زكريا الفازازي » وانما هو ابو زيد ، ثم جاء « قاعد السير » وانما هو « فاغذ » بالغين والدال المعجمين ثم ورد ايضا «وجرى ذكر المامون والمهدي واوليتهم فى الزجر المتضمن ذكر بالمسلمة فلعله « ذكرنا للملوك » ويعنى به رقم الحلل فى نظم الدول ، وقد تردد ذكره ، بنظم الملوك ، وقطع السلك ، ويستبعد أن يكون التصحيف ناشئا عن « ذكرنا لمسلمة » وان كان اقرب .

وفى الصفحة 425 ورد بيت هكذا :

فقــم نجـــدده عـــهــدا يطــيـــب شكــر وسكــر

وصوابه : بطيب شكر وسكر لان باقى الابيات مكسورة الراء ، ثم انه كذلك يحتاج الى متعلق به .

وفى الصفحة التالية ورد من قول نزهون للمخزومى الاعمى « واي خير افضل للمرأة ؟ » والكلام مبتور لا يتم الا بقولها « مثل ما ذكرت ؟ » وتصفحت من كلامها « يعلم » ببلم ، وكلمة « ذبحة » بدعة ... بكل شىء مدور

ثم جاء بيت هكذا : لذلك أمسيت صبا .

وصوابه : لذاك .

كما ورد من قوله فيها : «قواصد نزهون تارك غيرها » والصــواب « توارك » وهو من قول المتنبى فى كافور : قواصد كافور توارك غيــره .

وفى الصفحة 431 ورد بيتان هكذا :

ان فرط الدرس يا امى سحق　　　وهذا هو المشهور فى الناس

فخذ من الدرس شيئا تافهــا　　　خطا وبالفهم يحيى كل الناس

وهما مكسران فى وزنهما مبهمان فى تركيبهما ، ولا نحاول اقامة مصراع منهما على وزن حتى يخونه الآخر ، والمخاطب بهما امرأة مما يزيد فى طينهما بــلــة .

وفى الصفحة 443 ورد « ودابر اليوم طلول قد تغيرت اشكالها » والصواب « وداره اليوم ،،، »

وفى الصفحة 450 ورد « وعمل التراس ونسج الدروع » ولعلــه « آلــتــروس » .

وفى الصفحة 452 ورد « فراش جولا عهدا بالروع » وعلق عليه بانه فى المخطوطين والملكية « فراس حوالا عهدا بالروع » ونعتقــد (قال) أن التصويب يؤدي معنى يستقيم من السياق .

ونحن قد عجزنا عن الاستفادة من هذا التصويب ، عـجـزنا عن الاستفادة من غيره ، فلا ادري كيف ادى معنـى استقام مع السياق ؟

وفى الصفحة 457 ورد فى تبكيت باديس للجرجانـى « الم يعد اميرك الجاهل » والصواب « الم تعد اميرك » يعنى بكونه سيظفر به .

وفى الصفحة 463 ورد « وارتورا زلالا » والصواب « وارتووا » .

وفى الصفحة 473 ورد من قصيدة ابن عتيق فى مالك ابن المرحل :

متهـم بذوي الخنـا متزمع   متهازل بذوي التقى متضاحك

وصوابه : متهمم .

وبعـده :

ما ضرفا من مـعـد اللـه   لو اسلمته نواجذ وضواحـك

قد عم اهل الارض بلعنـه   فلا عنية فى السمـاء ملائك

فهذان البيتان بلغا الغاية فى السقم ، والقصيدة على اشتهارها بين الناس لا نعرف لها مصدرا آخر لنعود اليه بتمامها ، وانما يذكر منها ابيات، ليس منها البيتان كما فى كتاب « جذوة الاقتباس » لابن القاضى ، حيث ورد منهـا سبعـة ابيات

وفى الصفحة التالية ورد بيت هكذا فى نفس الهجو :

او ما ترى من حافديك تشابها   ابن يضاجـع جده ويناسك

ولا شك ان « يناسك » محرفة عن كلمة اخرى على وزنها وحروفها الا فى حرف السين ويناسب ما قبله فى المعنى .

وفى الصفحة التالية لهذه انه كتب عليها « رقاص معجل الى ما ملك ابن المرحل » وصوابه « آلى مالك » وفيها « فعوق سهام » وصوابها « فوق » .

وفى الصفحة 481 ورد بيت هكذا :

نلــت الوصال بعد البعاد فكانــى ملكــت كل العباد

فصدر البيت كما نرى على ما به لا يستقيم وزنا ، ولعل « فيها » او نحوها سقط بعد « نلت » .

وفى الصفحة التالية ورد بيت هكذا :

وكان جبارا بعيــد الهمة لم يرع من آل بها او ذمة

والصواب : من ال ، كما فى الآية « لا يرقبون فيكم الا ولا ذمة »

وفى الصفحة 186 ورد فى وصف حباسة بن ماكسن بالشجاعــة « يصافح البيوت بصفحته » والصواب « السيوف » .

وفى الصفحة 490 ورد بيت هكذا :

ومن بيــن الظبا مهات انس سبت لبى وقد سلبت فؤادى

وصوابه : الظباء مهاة .

ثم جاء بيتان هكذا :

اذا سدلــت ذوائبها عليهــا رايت البدر فى جنح السوادي

كان الصبح مات له شقيــق فمن حزن تسربل فى الحدادي

ولا شك ان الياء بعد السواد والحداد ، انما هى مــن عمــل التصفيف الطباعـــى .

وفى الصفحة التالية ، ورد بيتان هكذا :

يـــا ربة الحسن بل يا ربة الكرم غضى جفونك عما خطـــه القلم
تصفحيه بلحـــظ الود منعـــمـــة لا تحفلى بقبيح الـــخـــط والكلم

ولا شك ان ((القلم)) محرف عن ((قلمى)) ثم ورد بيت :

رعى الله ليلا لم يرع بذمم رعانا ووارانا بحوز مؤمل

وصوابه : بحور (بالراء وتحرف بحوز قبل بالصفحة) .

ثم ورد بيت آخر هكذا :

وغرد قمري على الدوح وانثنى قضيب من ريحان من فوق جدول

وواضح فى تقويم البيت انه كذآ : الريحان .

وفى الصفحة التالية ورد بيت هكذا :

فلا تحبين الظن الذي انت اهله فما هو فى كل المواطن بالرشد

والصواب ، فلا تحسن الظن .

وفى نفس الصفحة ورد بيت ضمن ابيات مقيدة القافية هكذا :

لا يظهـــر البشـــر فى دجاهـــا كلا ولا يبصـــر الخفـــر

(فشكلت الراء بالضم وحقها السكون)

ثم جاء من ابيات أخرى هذه :

لا حـكـم الا لآمــر نـاه	لــه مــن ذنبــه معــتــذر
لــه محيــا بــه حيــاتــى	أعــيــذ مــداه بالســور
سعــده لم امــل الــيــه الا	اطــــرافــا لــــه خــبــر
عدمت صبحى فاسود عشــ	ـقــى وانعس الفكر والنظر
ان لم تلــح يــا نعــيــم رو	حــى فكيــف لا تفسد الفكر

فلعل ((ذنبه)) وقع موقع الذنب فى الاول ، وفى البيت الثانى لا ندرك لمداه موقعا فيه ، والثالث ينتهــى صدره عند ((اليه)) والرابــع عنــد ((عشقى)) والخامس عند ((روحــى)) .

ثــم هــذان :

اي شغل عن الحبيــب يعوق	يا صاحبا قد آن منه الشروق
بحياة الرضى يطيب صبــوح	عرفا ان جــفــوتنا او غبوق

ففى الاول يبدو أن ((يا)) لا محل لها او اول المصراع الثانى ويبقى بعد ذلك قلقا بقد ، وفى الثاني لا نرى ((لعرفا)) وجها ، معنى ومبنى .

وفى الصفحة 495 ورد بيت ضمن اخرى هكذا :

وكيف تخاف من الحليم مراجيا   خف من نصيحك ذي السفاهة شوما

فالمصراع الاول لا يستقيم فى وزنه ولا يتضح فى معناه ، وقد علق عليه بانه فى نص آخره ((فكما تروم من الحليم مراحما)) .

وهذا هو الصواب ، فكان الواجب اثباته ، والتنبيه على فساد غيره.

ونستمر مع القصيدة فنجد منها فى التالى :

واذا منيـــت بقربه فاخفض لـــه جناح الذل واخضع ظاعنا ومقيما

واذا بذلت فلا تبذر ان ذا التبـــ ذيـــــر يومئـــذ أخـــوه رجيـــما

فالبيت الاول لا يستقيم الا بالاستغناء عن ((له)) واحلال ((جنا)) محله من كلمة ((جناح)) فيكون البيت مدورا بذلك والثانى يدور عند التـــاء من التبذير)) يكون الساكن منها فى حيز العروض والمتحرك بداية للعجز ، ويبقى ((رجيما)) غريبا فى موطنه ، وقد علق على ((يومئذ آخوه)) بأنـــه فى ((ك)) مثل ((أخيه)) ومع هذا ، فلا يستقيم الا بفعل ((كان)) هـــكـــذا : ((تبذير مثل اخيه كان رجيما)) اقتباسا من قوله تعالى ((ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين)) .

ثم ورد بيت هكذا :

خطت بفودك ابيضا فى أسود بالعكس من معهود خط مهـــرق

والصواب : ((خط المهرق)) .

ثم شكلت ((الدجنة)) فى البيت الآتى ، بالفتح ففتح ، وصوابها الضم فالضـــم فالفتح مع التشديد ، والبت :

كالفجر يرسل فى الدجنة خيطه ويجر ثوب ضيائـــه بالمشرق

وفى البيت التالى ، جاء من نفس القصيدة ، بيت هكذا :

هو ليس ذاك ولا الذي انكرته فكن خائفا ما خفن منه واتـــق

فعجز البيت لا يستقيم على ما هو عليه فى الوزن ، ولعله كان :

منـــه فخـــف ما خفن منه واتق

ثم جاء من اخرى :

وما يكسب العز الا الغنى   غنى النفس فاتخـــذه شعارا

والوزن لا يستقيم فى عجز البيت الا بتأكيد الفعل « فاتخذنه » بمخففة، هـــكـــذا : فاتخذنه

ثم جاء آخر هكذا :

فدهر غيرك لا تنظـــري   فيالم قلبك منه انـــكـــســـارا

فأول البيت لا ندرك له معنى ولا نجد له وزنا مع « غيرك » .

وفى الصفحة التالية ورد بيت هكذا :

ان اراك الزمان وجها عبوسا   فستلقاه من بعد ذلك طلقا

والوزن لا يتأتى فى المصراع الثانـــى ، وقد علق علـــى « فستلقاه » بأنه فى المخطوطين « فستلقى » وهذا هو الصواب ، فكان الواجب آثباته .

وفى الصفحة بعدها ، كتب بيت هكذا :

كأنما السوسن الذي افتتحـــــــت منه كمائمه المبيضة اللون

مع أن صدر البيت ينتهى عند نهاية « افتتحت » ولا تدوير فى البيت .
ثم جاء ثانى بيتين هكذا :

اقاعدا بالحكم عليها أم لهـــا   فى تقـــادم الدهر حـــجـــة

فهذا البناء للبيت ما آنزل به من سلطان ، ولا شك أن اختلالا وقـــع فى صدره ، أما عجزه فهو « أم لها فى تقادم الدهر حجة » .

وفى نهاية الصفحة سقطت الياء من نهاية بيت فيها ، هكذا :

فمن ام غير الله اشرك عاجلا   وفارقه ايمانه وهو لا يدر

وفى الصفحة 502 ورد ((فلم يكن الا كلا (شددت اللام والصواب تخفيفها) ولا ،،، اخوها الخصى (بكسر الخاء والصواب فتحها) ،،،

فقلت يا بني اللكيعة ، (سقطت ((أن)) او ((لو)) جئتم ببازي ، بماذا كنت اجازى) ؟

وفى الصفحة 513 ورد بيتان هكذا :

ولله سر فى العباد مغيب   يشهد بخافيه القضاء المقدر
فحث المطا ليس النعيم منغص   ولا العيش فى دار الخلود مكدر

فعجز البيت الاول لا يستقيم وزنا ، والصدر من الثانى لا يستقيم اعرابا ، ولعله كان : ((فحث المطا فلا النعيم منغص)) .

وفى الصفحة 522 ورد بيت هكذا :

يا شقيقى وافى الصباح بوجهه   ستر الليل نوره وبهاؤه

شددت ياء ((يا شقيقى)) والصواب تسكينها مخففة ، وزيدت الهاء بوجهه ، والصواب تركها ، فلا اضافة اليها كضمير .

وفى الصفحة التالية ، ورد بيتان هكذا : (والحديث عن بقرة اخذت منه) .

تعنفنى امى علـــى ان رثيتها وان اتبعتها الـــدم من عيـــن
لها الفضل عندي ارضـعتنـــى وبالرغم ما بلغتنى وامى حولين

فعجز الاول لا يستقيم ، على انه ينتهى بما صوابه « الدمـــوع مـــن العين او « دموعى من عينى » . أما البيت الثانى ، فيبدو أن كلمة سقطت من عروضه ، « كحقبة » ، مثلا وان الواو قبل « امى » مقحمة ، فيكـــون العجز ، هكذا :

وبالرغم ما بلغتنـــى ام حولين ، والخطاب للام المضافة الى الياء التى لم تذكر ، على احدى اللغات فى المنادى الى ياء المتكلم ، كما فى الالفيـــة : واجعل منادى صح آن يضف ليا كعبد عبدي عبد عبد اعبديا .

وفى الصفحة 528 صحفت « العضرفوط » بالعصرفوط ، وعلق عليها بانها فى « ك » والملكية « العضربوط » والغالب أن فاءها بدت باء ؟

وفى الصفحة 533 جاء بيت ابن سهل المعروف :

انى له من دمى المسفوك معتذر اقول حملته من سفكه تعبا

بفتح الهمزة من « انى » والصواب كسرها وكسر النون ، التى جاءت أيضا مفتوحة ، كأنها فهمت بمعنى كيف .

ثم جاء فى النثر « ونال قصبتها ، ورمـــاها بالنفـــط » والصـــواب « ونازل قصبتها » .

وفى الصفحة 546 ورد بيت هكذا :

ما بالها لم تتعطـــف على صاحب لها ما زال مستعطفا

وعجز البيت لا يستقيم وزنا ، ولعله : صاحبها ما زال مستعطفا .

ثم جاء من نفس القصيدة :

يرهف سيفـــى فى الورى متسلطا   ويتقى عزمى اذا ما ارهفا

ولعله كان : يرهب ««« مصلتـــا ««« اذا ارهفا (بدون « ما » بعد اذا كما اثبتنا) .

وفى الصفحة 548 ورد بيت هكذا :

مات أبو زيد فـــواحـــســـرتا   ان لم يكن من جمـــعـــة

ولعله : آن لم يكن قد مات من جمعة .

وفى الصفحة 550 ورد « القرشى المنبور بابن فركون » وعلـــق على « المنبور » بأنه فى المخطوطين « المنبوز » وهو تحريف مع ان التحريف ما اثبته ، والصحيح ما اعتبره تحريفا ، وهو من قوله تعالى « ولا تنابـــزوا بالالقاب » .

وفى الصفحة 555 ورد بيت شكل فيه « الرضى » بفتح الراء وضم الياء مشددة ، والصواب كسر الراء وفتح الضاد ، والبيت هو :

محمـــد الرضـــى سليل محمد   امام الندى نجل الامام محمـــد

وفى الصفحة التالية ، ورد بيت هكذا ، من نفس القصيدة :

وكل الورى من كان او هو كائن   صريع الردى ان يكن فكان قد

ولا شك ان « لم » سقطت بعد «« ان » فى عجز البيت :
صريـــع الردى ان لم يكن فكأن قد

وفى الصفحة 558 ورد بيت هكذا :

واذا سال السلم منا اللعيـــــــن فلم يحظ الا بخفى حنين

فكلمة « اذ » تحرفت اول البيت ، باذا ، كما راينا .

وفى الصفحة 561 ورد « يجر الشوك والشجر ... فاشرقت العدو بريقه» والصواب « والحجر » أو المدر بدل الشجر ، وجعل العدو مفعولا ، لا فاعلا

وفى الصفحة التالية ، سقطت الميم من « عجم » فى البيت الآتى :

وشخصك مهما لاح للخلق اذعنت لهيبته عجم الورى والاعارب

كما سقطت « من » قبل منجد فى البيت الآتى :

هل من معينى فى الورى او منجدي من منهم فى الارض او من منجد

كما ورد فى وصف بعض النصريين « اشبه بالشيوخ منه بالملوك ، فى احمال اللفظ ، والاغضاء عن الجفوة ، والنداء بالكنيـــة » ، فكلمـــة « اللفظ » هكذا غير واضحة ، ولا منسجمة مع السجعات بعدها .

هذه ملاحظة على الجزء الاول ، الذي اغضينا فـيـــه عن الحركات والسكنات ، الا ما ذكر بالمناسبة لغيره ، وهو أقل من القليل ، وغرضنـــا الاستفادة منها لا النعى على استاذنا المحقق ، الذي سنعود اليه فى الجزء الثانى ثم الثالث ، بملاحظاتنا ، والشكر له على ما يعانيه فى نشر هذا التراث، الذى تهييه غيره .

(يتبـــع)

تطــوان محمد بن تاويت

القوام العسكري في الحضارة المغربية

عبد العزيز بنعبد الله

تأسس الجيش الملكي او القوات المسلحة الملكية فى 14 مايه 1965 على يد صاحب السمو الملكى ولى العهد الامير الحسن بن جلالة المرحوم محمد الخامس ، وهو الذي أشرف حفظه الله على تنظيم الجيش وتجهيزه حتى أصبح فى طليعة الجيوش المنظمة فى العالم الثالث ، وقد تولى رياسة اركان الحرب العامة للجيش فى حياة والده واصبح بعد أن اعتلى اريكة العرش القائد الاعلى لهذا الجيش الذي يسهر نصره الله بنفسه على استكمال مقوماته طبقا لاحدث الاساليب العسكرية مبرهنا بذلك عن كفاءة واقتدار نادرين، ولا يكتفى جيشنا بالعمل ليل نهار على حفظ كيان الوطن ووحدته بل يتخذ المبادرات فى الميدان الاجتماعى وفى شتى المجالات الوطنية بتوجيه قائده الموفق جلالة الحسن الثانى .

يضم الجيش الملكى المغربى حسب احصاءات عام 1977 حوالى 80 الف رجل بينما تضم القوات شبه العسكرية نحو 30 الف آخرين .

ولدى القوات البرية التي تضم 55 الف جندي مائة دبابة سوفياتية من طراز فى 54 و 50 دبابة من طراز ام 8 أكس 30 دبابة طراز ام اكس 13 و 50 دبابة امريكية من طراز ام 48 ، وقد طلب المغرب الحصول على مائة دبابة اخرى من هذا النوع الاخير .

والقواب الجوية التى تضم 5 آلاف رجل تملك 60 طائرة حربية من طراز فوجا ماجيستر ونورثروب راف 5 ، وقد طلب المغرب منذ عامين الى فرنسا تزويده بـ 50 طائرة اعتراضية من طراز ميراج ف1.

ويبلغ عدد قوات البحرية الملكية 3 آلاف رجل من بينهم 500 من مشاة الاسطول يعملون على ظهر فرقاطة و 5 زوارق وسفينتى حراسة .

وقد قام الجيش المغربى فى يوليو 1977 بتعزيز كبير لقواته فى منطقة الساقية الحمراء على مشارف الصحراء المغربية وموريطانيا ومنطقة تندوف .

ان الجيش المغربي الذي هو مظهر من مظاهر حضارتنا وقوام جوهرى لسيادتنا قد اعترته أطوار شتى فقد كان فى اوائل العصر الاسلامى جيشا غير نظامى يتكون فى معظمه من المتطوعين او من اولئك الذين تعبئهم السلطة الد قائمة لغرض معين .

الجيش الادريسي :

وبعد التفاف معظم قبائل البربر حول المولى ادريس من زواغة وزناتة وسدراتة وغياثة ونفزة ومكناسة وغمارة ومطفرة ومغيلة وبني يفرن ومغراوة — ظهرت اول نواة لجيش مغربي قبلى شبه موحد تحت قيادة الفاتح العربى الذي اخترق به تامسنا الى الاطلس الكبير الى السوس الاقصى ، وما لبث هذا الجيش البربري أن تعزز بخمسمائة فارس وردوا على المولى ادريس الثانى من افريقية والاندلس ينتمون للقيسية والازد والخزرج (1) .

(1) (زهرة الآس ص 13) .

الجيش المرابطي :

وفى عهد المرابطين ظهر جيش نظامى جديد درب على الحياة العسكرية وانقطع لها حيث ادرج يوسف عام 454 هـ/1062 م فى جيشه الاغزاز والرماة فكمل له فى جيشه أزيد من مائة الف فارس من صنهاجة وجزولة والمصامدة والاغزاز (2) .

ولم يكد ابن تاشفين يستقل بالامر عن ابى بكر بن عمر الكدالي حتى رتب جيوشه فى فرق اربع جعل على كل منها قائدا من بين القواد الاربعة وهم سير بن ابى بكر اللمتونى ومحمد بن تميم الكدالى وعمر بن سليمان المسوفى ومدرك التلكانى وعدد جنود الفرقة خمسة آلاف واحتفظ هو بقيادة نصف المجموع وهو عشرون ألفا (3) ، غير ان هذا العدد من الجنود النظاميين لم يكن شيئا يذكر بجانب أجناد القبائل التي يستنفرها الامير للجهاد عند الاقتضاء ، وقد تمكن الامير يوسف بن تاشفين من توحيد الاندلس واسترجاع حصونها وقلاعها من يد الجلالقة ووحد المغرب بفضل استبسال جيوشه المظفرة من الصحراء الى الجزائر الى قشتالة حيث ترك حامية قوامها ثلاثة آلاف من البربر بالاضافة الى آلاف أخرى استعرضها فى حصن لورقة فى جوازه الاول (4) كما استعرض حفيده تاشفين الجيش المرابطى فى تلمسان قاعدة المغرب الاوسط عام 538 هـ/ 1143 م (5) ولم يكن لهؤلاء الجنود على ما يلوح ديوان خاص لتسجيلهم حيث تحدث عبد الواحد المراكشي (6) عن كتابة ديوان الجيش فى عهد الموحدين والظاهر أن المرابطين كانوا كالفاطميين اول امرهم يحشدون بغير ديوان ويكتفون باخطار رؤساء القبائل لاستنفار من يليهم ، وكان داود بن عائشة من قواد يوسف بن تاشفين على رأس الجيش المرابطي بالاندلس فى الجواز الاول (7)

---

(2) (الانيس ج 2 ص 41) .
(3) (تاريخ المغرب ـ عبد العزيز بنعبد الله ج 1 ص 102)
(4) (المعجب ص 77)
(5) (الحلل الموشية ص 108)
(6) (المعجب ص 162)
(7) التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري فى غرناطة (نشر ليفي بروفنصال عام 1955) (فى ص 86 و 117)

وفي وقعة الارك عام 590 هـ / 1193 م كان قائد الجيش هو أبـو يحيى بن ابى حفص ، كبير وزراء المنصور سار فى قبيل هنتاتة ، وقـد استشهد فسمى بنوه ببنى الشهيد وبين يديه القائد ابن صناديد فى جيش الاندلس وجرمون بن رياح فى قبائل العرب ومنديل بن عبد الرحمن المغراوي على مغراوة ومحيو بن ابى بكر بن حمامة المرينـي على بنى مرين وجابر ابن يوسف العبد الوادي على قبائل بنى عبد الواد والعباس بن عطيـة التوجيني على قبائل بني توجين وتلجين بن علي على هسكورة والمصامدة ومحمد بن منغفاد على غمارة والفقيه الصالح ابى خزر يخلف بن خزر الاوربي على المتطوعـة (8) .

الجيش الموحدي :

وامتدت رقعة المغرب فى عهد عبد المؤمن بن على الموحدي الـى طرابلس فكان على المملكة أن تعد جيشا عتيدا لاقتلاع جذور الاستعمار النورمندي من افريقية خاصة بفضل اسطوله الذي أصبح أول اسطول فى البحر المتوسط (9) على ان هذا الاسطول كان مثار رعب الصليبيين فى فلسطين حيث أمد يعقوب المنصور صلاح الدين الايوبي بمائة وثمانين قطعة حربية حسب ابن خلدون الذي يؤكد ان « هذا دليل على اختصاص ملوك المغرب يومئذ بالاساطيل الجهادية وعدم عناية الدول بمصر والشام لهـذا العهـد بهـا » .

وقد دخلت العناصر الهلالية العربية فى الجيش الموحدي الذي اتسم بطابع جديد ضاعف قوته وكتل صفوفه بالاضافة الى مرتزقة مسيحيين يدل وجودهم علـى روح التسامح التى كانت تذكى ملوك المغرب ولكن أجل ما كان يلفت النظر فى هذا الجيش الفتى علاوة على نظامه واستماتته هو الاشعاع الروحى بين صفوفه فقد ذكر المؤرخ ميليه Millet أن فى كـل فيلـق مـن الفيالـق الموحديـة كانـت الصلـوات

---

(8) الاستقصـا ج 1 ص 177

(9) (اندري جوليان ـ تاريخ افريقيا الشمالية) .

(10) فى كتابه حول الموحدين (ص 124) .

تقام بانتظام ولم يكن ذلك من قبيل التزمت البارد ولكنه كان ينم عن ادراك صادق لمعنوية هذه الشعوب التى لم تكن تصل بينها سوى رابطة الدين فكانت كل قبيلة وكل فخذة تعمل تحت امرة قادتها الطبيعيين اللهم الا فيلق العبيد ، وقد وصف (ميليه) زحف عبد المومن فى افريقية على راس مائة الف مجاهد ملاحظا انه لم يسبق لحملة أن سارت تحت قيادة اجدى واحسن فكنت ترى هذه الجماهير تخترق حقول الزرع دون ان تدوس سنابلها وفى كل مرحلة كان الجيش يصطف بكامله وراء امام واحد لاقامة الصلاة » (ص 80).

وقد نظم فى مراكش أيام عبد المومن بن علي تدريب ثلاثة آلاف طالب بالاضافة الى العلوم التقليدية — على ركوب الخيل والسباحة والرماية والتجديف فى البحيرة المؤسسة لهذه الغاية وقد استنفر عبد المومن بعد ذلك الف جندي من كل قبيلة استقر معظمهم بالعدوة واندرج كذلك فى الجيش اغزاز واكراد نزحوا من الشرق فتقبلهم الموحدون لمزاياهم العسكرية ولبث هذا الجيش فى نمو مطرد حتى بلغت مقاتلته فى عهد الناصر ستمائة الف ما بين رجالة وفرسان ينتمون للمغرب وافريقية هبوا كلهم لانقاذ الاندلس (11) ، وقد رابط فى بطاح سلا 380.000 فارس و 100.000 راجل من جيش عبد المومن من عين غبولة الى عين خميس (12) .

وفى عام 624 هـ / 1226 م دخل المامون ادريس بن المنصور أمير اشبيلية الى مراكش بخمسة عشر الف فارس مسيحى سمح لهم ببناء كنيسة فى مراكش .

اما مرتبات العسكر فأعلى « طبقات الجند المقربين الى السلطات ستون مثقالا للواحد فى كل شهر وهم قليلون واما المعظم من الجند من غير المقربين فأعلى طبقاتهم من يكون له فى الشهر ثلاثون مثقالا وادناهم ستة مثاقيل فى الشهر » (13) .

---

(11) (الذخيرة السنية ص 41) .
(12) (الانيس المطرب ج 2 ص 167) .
(13) (ابن فضل الله العمري ـ الباب الثالث عشر من المسالك ورقة 110 ب) .

الجيش المريني :

وقد شمل الجند المريني الذي اتسم بالقوة وتوفر على نفس العتاد بل أشد — قبائل زناتة وقبائل العرب المستقرة بالمغرب فكان من العرب الفرسان ومن الاندلسيين حملة الاقواس ومن المرتزقة النبالون والرماة وفي هذا العهد بدأ استعمال العتاد الناري حيث حاصر أبو يوسف المريني سجلماسة عام 872 هـ/1467 م (حسب ابن خلدون) بالمجانيق (14)، ومع ذلك فقد كان ابن عباد قد استعمل السهام والمطارد والرعادات عام 481 هـ / 1088 خلال الجواز الثاني لابن تاشفين الى الاندلس (15) .

وهنالك عادات عسكرية بدأ استعمالها منذ عهد المرينيين كنشر رايات العدو منكسة في أعلى منار القرويين ومنار جامع الكتبيين بعد انتصار الجيش المغربي في الاندلس في عهد أبي يوسف المريني (16) .

وقد ورد في رحلة ابى عنان المسماة « فيض العباب... » لابراهيم ابن عبد الله المعروف بابن الحاج وصف لفرق الجيش وتركيبه وشاراته وموسيقاه .

الجيش السعدي

في عام 917 هـ / 1511 م كون الشريف محمد القائم جيشا للجهاد ضد البرتغاليين في أكادير بعد أن أحدث صندوقا للحرب جمع فيه نائبة اهل سوس السنوية فكانت أول كوكبة من خمسمائة فارس ارتفعت الى ثلاثة آلاف (17) مع عدد من المشاة من قبيلة ايجزولين . أما خلال الحرب فان الاستنفار العام في قبائل الجبل يتم بتضامن « اللف » (وهو اتحاد قبائل او فخذات للحفاظ على التوازن السياسي الاقليمي ، وبذلك انضم سكان حاحة بالطرف الاطلنطيكي للاطلس الكبير الى برابرة ايجزولين في

---

(14) وأكد ذلك صاحب « الذخيرة السنية » (ص 158) .
(15) (الحلل الموشية ص 55) .
(16) (الذخيرة ص 174) .
(17) كما أكد ذلك ليون الافريقي (وصف افريقيا طبعة Epaulard 1956 ص 92) .

الاطلس الصغير بحكم اتفاق « اللف » (المسمى الصف بالجزائر) وقد تعزز هذا الجيش بعرب القبائل وفى عام 940 هـ / 1533 م اتجه السلطان الى تكوين مدفعية نظرا لاهمية الاسلحة النارية التى ابرزها اخفاق الجيش فى حصار أكادير بالطريقة التقليدية وكان هنالك ايضا جيش آخر بمراكش معظمه من العرب وقد حاول السعديون دعم هذا النظام العسكري بجهاز اقتبسوه من آل عثمان الى عام 984 هـ / 1576 م ولكن الطابع السائد فى هذه الفترة كان عربيا لان عبد الله الغالب لم يعد يعول على الاتراك الذين قتلوا والده ومنذ عهد السلطان عبد الملك أصبح الجيش والمجتمع مدفوعين للاتسام بالطابع التركـي ولكن الشعب المغربى كان يعتز بعاداته واعرافه فاقتصر السلطان على اعادة تنظيم الجيش مع استعمال الالقاب والدرجات والمصطلحات التركية نفسها وبلغ العسكر فى هذا العهد(18)63.500 رجل منهم 15.000 من سوس ووادي درعة والصحراء و 25.000 فى مملكة مراكش و 20.000 فى مملكة فاس (من بينهم 5.000 من الحرس السلطانى) و 3.500 من الرماة البرابرة والاعلاج وقد أكد هذا العدد (60.000 تقريبا) الراهب الاسبانى طوريس .

Diogo de Torres, Relation de l'origine et succès des Chérifs, trad par Charles de Valois duc d'Angoulème, Paris, 1636 (P. 226)

وكانت بعض القبائل تعفى من « النائبة » مقابل اداء الخدمة العسكرية وقد ضخم عبد الله الغالب لمواجهة هجوم الاتراك فيالق جيشه من بينهم 11.600 على اهبة الحرب تضم 6.000 فارس عربى و 5.000 رام من برابرة ايلان وحراطين درعة مع 600 من الرماة الاوربيين الاعلاج(19) وكان حرسه الخاص يبلغ وحده 3.100 جندي وكانت « الادالات » اي الحاميات منبثة فى ثلاثين قصبة ومؤلفة عام 968هـ/ 1560 م من ثمانية عشر الف رجل ومعنى ذلك ان الجيش كله لم يكن يزيد على ثلاثين الف جندي وكانت الخيالة الثقيلة مؤلفة من عرب معقل (الرحامنة والاوداية وأولاد دليم الخ) نقلهم محمد الشيخ من موريطانيا

---

(18) حسب مارمول - (ترجمة نيكولا - باريس 1667 ص 484) .
(19) (مارمول ج 2 ص 181) .

بدرقهم اللمطى أما الرماة فكانوا ينتقلون على الخيل ويحاربون على الاقدام ولكن الثلاثة آلاف والمائة جندي فى الحرس السلطانى كانوا مجهزين ببندقية من عيار اكبر يحملون معهم دائما خمسين رصاصة ورطلين من البارود وكانت كتائب الجيش موزعة بين برابرة ايلان وأتراك واعلاج وحراطين درعة واندلسيين وزنوج سينغاليين بل عناصر جزائرية من قبائل زواوة منذ عام 970 هـ / 1562 م وكان برابرة الجبل من الحرس السلطانى يشكلون حاميات فاس ومراكش وتارودانت بينما انحصر الرماة المجهزون بالسلاح الناري فى العلوج الاوربيين والاتراك وسكان الحواضر وورد فى وثائق انجليزية أن أعداد جيش المنصور السعدي كانت تتراوح بين 20 و 30 الفا من بينها 9.500 مرابطة فى الثكنات من أعلاج واندلسيين وزواوة الجزائر الذين بلغ عددهم وحدهم الفا وخمسمائة رجل .

وتقول مصادر انجليزية بان عدد الخيالة بلغ فى عهد المنصور نسبة ثلاثة فرسان للراجل الواحد وهذا مخالف لما عرف فى التنظيم العسكري السعدي .

وفى عام 969 هـ/ 1561 م كان فى الجيش السلطانى مهندس علج ايطالى مختص فى بناء وحصار القلاع .

كما صنعت آلات للحصار عامى 936 هـ / 1529 م و 948 هـ / 1541 م تحت مراقبة اختصاصيين أتراك ويتبين من ذلك أن الجيش السعدي كان عصري الجهاز يستجيب لآخر التطورات العسكرية فى اوربا وتركيا وفى ضمنها مصلحة للصحة حيث كان فى عسكر المتوكل مائة من الجراحين والحجامين وكانت الكتيبة الصحية تتوفر على عدد من « خيام مصحات » ، ونقالات الجرحى (20) .

وهكذا يتبين ان نظام الجيش كان عربيا فى عهد محمد المهدي وولده الغالب وابنه المتوكل ولما ولى المعتصم اقتبس النظام التركى فكره الناس ذلك وقوفا مع العوائد فعمد المنصور الى التوفيق بين سيرتى العرب والعجم فاصطفى من هؤلاء موالى رباهم منه مصطفى باي ومعناه

(20) (هسبريس - تمسودا - 1972 م . 13) .

قائد القوات ويختص به قائد الاصباحية وكان برسم حراسة الباب العالى ومنهم الباشا محمود وهو صاحب خزائن الدار بيده مفاتيح بيوت الاموال ومنهم القائد علوج قائد جيش العلوج والباشا جؤذر فاتح السودان وهو قائد جيش الاندلس وكا نلهم جيش عظيم رماة وعمار قائد جيش السوس وتليهم طائفة أخرى منها بختيار وبغا ثم ان جيش العجم من الاتــراك والعلوج قسمه الى أقسام منها البياك والسلاق وبلبدروش والشنشرية والقبيجية والشواش (21) .

ومما يدل على اهمية الجيش السعدي أن احدى محلات مولاي محمد كانت تحتوي على أكثر من مائة وخمسين نفضا (أي مدفعا) اهدى منها مولاي عبد المالك عشرين الى الاتراك وما ينيف على مائـــة مـــن الجرائحيين والحجامين مع ادوات التشريح واردية الكتان للرباطات .

فبهذا النظام استطاع المغرب الانتصار على البرتغال فى معركـــة (وادي المخازن) التي لم يرفع البرتغاليون الراس بعدها طوال عدة عقود من السنين كما استطاع المغرب تأمين البلاد حيث ألزم شيوخ « المداشر » ورؤساء القبائل بأداء ضمانة ما يضيع في مقاطعاتهم فانتشر الامن « من باب تازة الى أقصى سوس » (22) .

العهــد العلــوي

وفى العهـــد العلوي بدأ نظام جديد انقسمت بموجبه المملكـــة الى ثلاث مقاطعات عسكرية هى تافيلالت ومراكش وفاس واصبحت هـــذه المقاطعة الاخيرة مركز قيادة الجيش المغربـــى بعد مكنـــاس فى العهـــد الاسماعيلى .

وكان عشرات الآلاف من المتطوعين يتواردون من شرق البـــلاد وجنوبها للانخراط فى الجيش الاسماعيلي العتيد الذي تكونت نواته الاولى من شراقة (المغرب الشرقي) والاوداية (من الجنوب) وأحواز الربـــاط

(21) (الاستقصـــــا ج 3 ص 83) .
(22) (الذخيـــــرة ص 66) .

والشراردة والعبيد المرابطين بمكناس وقد انضمت الى هذه العناصر القارة فلول من سوس وعبدة والمنابهة والرحامنة واولاد احمر .

وكان الى جانب هؤلاء العسكر المرابطين فى القصبات فيالق من المخازنية لحراسة السلطان ودعم حركات الباشوات حيث كان عمال المدن يشرفون على الجنود والحاميات المرابطة فى منطقة نفوذهم ويظهر أن المغرب قسم آنذاك الى سبع نواح يزيد عددها وينقص ناب ناحية فاس وحدها من الخيالة ثلاثة آلاف من شراقة وألفان اثنان من الاوداية واربعة آلاف وخمسمائة (من شراردة) وكلهم تابعون لقائد المشور على أن جميع الرجال الاصحاء المنتمين لمختلف القبائل والحواضر كانوا خاضعين لقانون التجنيد العام اما لتكوين جيش الرديف واما لتشكيل فيالق تعبأ عند الحاجة لمواجهة القلاقل فى وجهة من الوجهات وفى مجموع هذه النواحي اقام المولى اسماعيل بالنقط الاستراتيجية معاقل (قصابى) ترابط فيها حاميات يتراوح جنودها بين اربعمائة وثلاثة آلاف وتمدها القبائل المجاورة بالميرة والمؤن وقد احصى من هذه الحصون ستة وسبعون غربى البلاد وشماي الاطلس على الخصوص وكان القائد فى كل قصبة هو المسؤول عن سلامة منطقة حراسته .

وقد ورث العلويون بقايا الجيش المرينى المؤلف من عرب جشم والخلط وسفيان وكذلك بنى معقل الذين ادرجهم السعديون فى الجيش بالحوز لمدافعة قبائل بنى هلال .

ومنذ أوائل السعديين وزع الجيش بصورة ركزت المعاقلة فى الاطلس واهل عبدة فى أسفل وادى تنسيفت وزعير فى اعلى وادي أم الربيع وبنى حسن فى ناحية صفرو وقد اضاف المولى اسماعيل الى عناصر أهل سوس (من بنى جرار واولاد مطاع واولاد زرارة والشبانات) قبائل عربية أخرى من معقل استقدمها من الواحات وخاصة منها أخواله من قبيلة مفافرة ، وقد عزز سيدي محمد بن عبد الله الجيش الصحراوي لمدافعة العبيد فاستنفر من الواحات الجبابرة والمعاركة واولاد بن أحمر من الرتب والتكنة وذوي بلال ومجاط الذين

رابطوا حول فاس وكذلك عبدة واحمر وعبدة المنابهة وحربيل انما كانت تمد الجيش بجند قلائل يتقاضون أجرة كمجرد مخازنية (23) .

ولم يكن هناك ديوان عام للجيش عدا ما يخص العبيد واهل سوس الذين كانوا يمثلون العنصر النظامي فى الجيش فكانت أسماؤهم وحيثياتهم تقيد فى سجلات خاصة وكان المولى اسماعيل اول الامر يستمد جنده من القبائل حتى اطلعه (عمر عليلش) على دفتر فيه أسماء العبيد الذين كانوا فى جيش المنصور السعدي وكانوا منتشرين فى مراكش واحوازها وقبائل (الدير) فجمعمنهم ثلاثة آلاف وهذا يدلعلى ان السعديين كان لهم (ديوان عسكري) وقد جمع عليلش هذا بأمر من قاضي القضاة محمد العياشي نحو سبعين الفا من العبيد الحقها بمشرع الرملة والحق بباب السلطان نحو عشرة آلاف من الذكور وعشرين الفا من الاناث وما زال بعض هذه الدفاتر محفوظا فى الخزانة الزيدانية التى نقلت الى المكتبة الملكية بالرباط ، وتوجد دفاتر اخرى تحتوي على لوائح جنود القبائل وكان فى كل قبيلة بجانب السجل الجبائى سجل خاص بالخدمة العسكرية يحرر فى نسختين وقد أشار الناصري الى أن قضية تجنيد العبيد مفصلة فى الكناش الكبير الاسماعيلي (24) ، ومن بينهم أهل الديوان المجلوبون من القبائل العديدة (25) .

وقد استعمل المولى اسماعيل المدافع والمهارس والمجانيق وسائر آلات الحصار والكور والقنابل وجند فى تادلا وحدها خمسة وعشرين الفا من الرماة (26) . وقد غنم عند فتح جبال فازار عشرة آلاف من الخيل بالاضافة الى ثلاثين الف بندقية .

وعند فتح العرائش وضع جنود المولى اسماعيل الالغام تحت خندق سور المدينة فنفطت عند ايقاد النار واقتحم الجند المدينة حيث غنموا مائة وثمانين مدفعا وقد استعمل الجند المفرقعات فى الحصار لتحرير مدن

(23) (الاستقصا ج 4 ص 206) .
(24) (ج 4 ص 42) .
(25) (جنى الازهار ونور البهار فى تاريخ الجيش النظامي من عبيد البخاري المنظم فى العهد الاسماعيلي) لابن زيدان .
(26) (الاستقصا ج 4 ص 38) .

الشمال وكانوا يصنعونها بأنفسهم كما استعملوا أساليب راقية في الهجوم(27)
كل ذلك بالاضافة الى الجهاز التقليدي للدفاع ، ففي عام 1116 هـ/1704م
الزم المولى اسماعيل كل عتبة من أهل فاس بأداء « عظم سرج » ولم يعف
من ذلـــك احـــدا .

وقد حررهم السلطان من جميع الكلف عام 1130 هـ/ 1717 م.

وكانت القبائل المغربية التي تسهر على سلامة الحجاج المغاربة
في طريقهم الى الحجاز تعفى من الجندية (28) .

وكانت جملة عساكر الثغور أيام سيدي محمد بن عبد الله 16.500
ويتقاضون مثقالا للواحد كل شهر وفي عام 1200 عجل السلطان براتب
خمس عشرة سنة أي نحو ثلاثة ملايين وأمر أن يجعل في كل مرســى
من مراسي المغرب بيت مال وعند تمام ثلاثة أشهر يفتح بيت المال ويعطى
لعسكر ذلك الثغر ثلاثون أوقية للرأس (29) .

ولما توجه السلطان سيدي محمد بن عبد الله الى الرباط أمــر
بقطع الاجنة التي بأكدال وانزل العبيد وبنى لهم الدور والمساجد والحمامات
والمدارس والسوق وزاد عليهم 2.500 شخص من القبائل كتبهم في الديوان
وسماهم (الوداية) مقابلة لعبيد مكناسة ووداياته (30) .

وكان الديوان العسكري يتدخل في الشؤون السياسية من ذلك أن
أهل الديوان من (مشرع الرملة) كتبوا الى المولى عبد الله ينكرون عليه
قتله للمسلمين دون موجب (31) .

---

(27) (طنجـــة وناحيتهـــا ج 7 ص 83) .
(28) (دراسة حول حفظ الصحة والطب بالمغرب ـ للدكتور رينو ـ ص 51 ـ الجزائر 1902)
(29) (الاستقصـــــا ج 4 ص 117) .
(30) (الجـــــيش ج 1 ص 149) .
(31) (الاستقصا ج 4 ص 63) . وانظر (في ص 67) تدخل الديوان في خلع السلاطين وتوليتهم وانسياق العلماء معه والجيش السليماني كان مكونا من عرب الغرب وبرابرة زمـــور وكـروان وآيت ادراسن .

وقد تحدث (كودار) (32) عن الروح العسكرية لدى الجيش المغربي، فقال : « ان هذا الجيش تذكيه كثير من العوامل التى تخلق الجندي المثالى وهي العقيدة الدينية وحب الاستقلال وأرض الوطن .

وكانت قبائل الجيش آنذاك موزعة على بعض المناطق هكذا :

الثلثان من سكان الصويرة من الجيش والنصف من سكان آسفي ، ومعظم سكان الدار البيضاء ومجموع سكان تمارة التى كانت تعتبر جالية عسكرية .

وقد عين السلطان لكل قبيلة رئيسا عسكريا مكلفا بتنظيم الرجال المتوفرين وتوزيع البنادق والرصاص الخ . والواقع ان كل مغربي كان يملك بندقية وخنجرا اللهم الا اذا كان فقيرا مدقعا (33) .

وقد بلغ طابور المشاة خلال حرب تطوان خمسة وعشرين الفا وكان طابور القبيلة يبلغ أحيانا ثلاثة آلاف رجل قد يقل عددهم حسب أهمية القبيلة حيث يجند فرد من كل عائلة وربما تزايد عدد أفراد الطابورفى القبيلة الكبرى فأصبح عبارة عن آلاي أو فيلق ، أما الطابور العادي وهو المحتوي على خمسمائة جندي فانه كان تابعا لقائد الرحى الذي لم يكن شبيها بالكولونيل كما يظن البعض ولكن مجرد قائد معسكر وكان لقائد الرحى خليفة يساعده وهو اشبه بالليوتنان كولونيل وكل رحى تنقسم الى سرايا من مائة رجل تحت امرة قائد المائة (قبطان) والمائة تتوزع بدورها الى جماعات يتركب كل لفيف منها من اثنى عشر شخصا عليهم مقدم (نقيب عسكري = سوز وفيسيى) ، على أن الخيالة قد بلغ عددهم نحو عشرة آلاف كانوا يعبأون ويوزعون بنفس الطريقة فكان الطابور من الفرسان اشبه بكوكبة من ستمائة فارس وفى عهد السلم لم تكن الخيالة تعدو كتيبة من فرسان الدرك او الحرس الموزعين على مختلف المراكز العسكرية .

وكان جند الجيش النظامى أيام السلطان محمد بن عبد الرحمن يراسهم ضابط مصرى .

---

(32) (وصف وتاريخ المغرب ج 1 ص 151) .

(33) (وصف وتاريخ المغرب ـ كودار ج 1 ص 141) .

وكانت قبائل الجيش مسجلة يتقاضى اولادها المجندون ثلاثين أوقية في الشهر للفارس وخمس عشرة أوقية للمشاة وثلاثون أوقية تعادل سبعة فرنكات ونصف فرنك بسعر ذلك العصر) مع الاعفاء من الضرائب وعدم تفويت املاكهم .

وقد اعتاد الجنود المغاربة فى المعارك الكبرى ان يصطفوا فى شكل هلال فى مقدمته الخيالة وفى قلبه الرماة والمشاة (34) .

الا ان هذا الجيش العتيد بدأ يتهلهل آخر أيام المولى عبد الرحمن.

وقد وصفه الناصري (35) فأبرز مظاهـــر النقـــص والفوضـــى وعدم الانضبـــاط ضاربـــا مثـــلا بجيش المولـــى العبـــاس الـــذي حارب الاسبان فى وقعة تطاوين عام 1276 هـ / 1859 م وقارن ذلك بنفس المنهج الذي سلكه الجنود فى (وقعة ظيان) ووقعة (الشراردة) فى عهد المولى سليمان ثم فى تلمسان فى عهد المولى عبد الرحمن وفى (وقعة ايتسلى) مـــع المولى محمد بن المولى عبد الرحمن .

وفى العهد الحسنى واجه الجيش المغربى تحديات من نوع جديد فتأسست فرقة مدربة من الطبجية (اي المدفعية) كان لها عشرون بطارية من نوع (كروب) و «شنايدر» أو نوع رشاشات «ماكسيم» وأصبح المشاة يستخدمون البنادق من طراز (شاشبو) او «مارتينى هانري» المصنوعة بفاس على نسق خمس فى اليوم ، اما الفارس فانه كان يستعمل الحراب والرماح والمسدسات والسيوف والخناجر والمكاحل وهى البندقيات وكان الحسن الاول يحضر تدريب الجند كل يوم اثنين ويستعرض الجيش كل يـــوم أربعـــاء (36) .

وقد عمل السلطان من اجل تجهيز القبائل بالعتاد العسكري وتمكينها من الدفاع عن حوزة البلاد بجدوى — الى تكديس مختلف الاسلحة بفاس ودافع بين ممثلى الدول فأسند الى ضابط انجليزي قيادة احد الفيالق والى بعثة من الخبراء الفرنسييـــن التدريـــب العسكري للجنـــود وانـــاط

(34) (وصف وتاريخ المغرب ــ كودار ج 1 ص 153) .
(35) فى الاستقصـــا (ج 4 ص 219) .
(36) « سوردون » (فرنسا فى افريقيا الشمالية ص 201) .

بضباط ايطاليين ادارة مصنع الاسلحة بفاس وكلف مهندسا المانيا ببناء برج بالرباط .

وفى عهد المولى عبد العزيز أصبح الفرسان يجندون خاصة من قبائل عبدة والاودابة (او الودابة) وشراقة وعبيد البخاري والشراردة والرحامنة والمنابهة وحربيل وكان المولى عبد العزيز يستعرض الجند بنفسه كوالده فى المصلى بفاس .

وكانت القيادة العليا للجيش ترجع دائما الى السلطان الذي يتولى مهامها بنفسه وقد لوحظ ذلك منذ عهد الادارسة ثم فى ايام المرابطين حيث نبه عبد الله بن ياسين الامير ابا بكر بن عمر اللمتوني الى أن مهمة الامير ليست فى القتال وانما تنحصر فى الاشراف والتوجيه .

ولم يكن العلاف هو وزير الحربية بكل معنى الكلمة وانما كان صلة وصل بين الملك والجيش يسهر على تموين الجند طبقا لمقررات السلطان ، كما ينفذ الاوامر الملكية فيما يخص تعيين الضباط والقادة وكان العلاف يمسك سجلا للعسكر يقدمه للسلطان يوميا مذيلا بامضاء الصدر الاعظم حيث تسطر لائحة الجند مع التغييرات الطارئة ولكن رئيس أركان الحرب الفعلى كان هو قائد المشور يليه قائد المحلة اي الفيلق الذي يرابط موقتا فى ناحية مضطربة وهو اشبه بجنرال يشرف على قواد الرحى وقواد المائة والمقدمين وشرطيي المعسكرات ورجال الامن الذين يسيرون فى ركاب الجيش ، اما قائد العسكر فهو كناية عن قائد جيش او فيلق يقوم عمليا بدور الامين العسكرى او ضابط التموين تحت امرة كبير المحلة ، أما التدريب العسكري فقد اتخذ عدة اطوار اولها الاسلوب المتبع فى تدريب العبيد بتوزيع اولادهم منذ العهد الاسماعيلى على الحرف ثم على الجندية من ركوب الخيل وسوقها فى الميدان وممارسة الكر والفر والمطاعنة والمراماة خلال سنوات يندرج هؤلاء العبيد بعدها فى سلك الجيش ويكتبون فى (ديوان العسكر) وقد بلغ عدد من مارس هذا التدريب مائة وخمسين الفا منهم ثمانون الفا موزعة على قلاع المغرب وخمسة وعشرون الفا فى مكناس لحرس السلطان وسبعون ألفا بمشرع الرمل وذلك بالاضافة الى حماة السواحل الذين ساعدوا على تحرير طنجة والعرائش وأصيلة والمعمورة .

وقد نهج المغرب فى التدريب العسكري مناهج مختلفة منها التركي والانجليزي والفرنسي لا سيما بفاس والرباط وطنجة ، واوفد بعثات عسكرية الى الخارج لتتدرب فى الفيالق الهندسية بأوربا وبالاخص فى (مونبليي) Montpellier على حفر الخنادق والتلغيم والنسف وكان الجيش يمارس التمارين ويقوم بالمناورات العسكرية أربعة أيام فى الاسبوع اما فى أرباض المدينة كفاس او داخل القلاع كما فى طنجة .

قـــواد الجيـــش :

يعد قواد الجيش المغربي بالمآت وقد استعرضناهم بمناسبة التحدث عن كل واحد منهم فى مكانه (الموسوعة المغربية للاعلام الحضارية والبشرية) ومن هؤلاء : ابن تيفوت محمد ، قائد الرماة بالاندلس فى عهد يعقوب المنصور الموحدي .

وعندما عاد أبو حسون من تركيا حيث لجأ حوالى 956 هـ / 1549 م بعد دخول السعديين الى فاس — نقل معه اليكشارية اي الجيش الجديد وشيخهم آنذاك هو الكاهية صالح باي وذلك عام 961 هـ / 1553 م.

وكان فى جيش المنصور مسيحيون قائدهم (جوهر جيفار) أجرته 25 شيلين يوميا معه مهندس من أكبر مهندسي أوربا هو القبطان (سميت) اجرته 12 شيلين يوميا والجندي 12 بنس (37) .

وقواد الجيش المغربى فى معركة وادي المخازن هم :

ابو على القتوري والحسين العلج الجنوي ومحمد ابو طيبة وعلى بن موسى واخوه احمد بن موسى (38) .

ابن شقرا ، قائد الجيش الاندلسى فى فاس الخاضعة لمحمد المتوكل المسلوخ ، وقد انضم الى عبد المالك حيث دخل ابو مروان هذا الى فاس علم 983 هـ / 1576 م.

---

(37) (دو كاستر) السعديون ، انجلترا 372 (رحلة 1609) .
(38) (الاستقصـــا ج 3 ص 39) .

احمد بن الحداد العمري المعقلي قائد جيش المنصور السعـــدي ، صحب القائد محمد بن بركة الى تيكورارين وتوات وباقي قــرى ومداشر ارض الصحراء الشرقية حيث قطع العسكر سبعين مرحلة لفتح الصحراء عام 990 هـ / 1582 م.

وقد قاد الفيلق السعدي في توات عام 992 هـ / 1584 م (39) .

القائد السعدي احمد بن المنصور العلج هو الذي حرر المامـــون الذي اعتقله ابوه المنصور عند ثورته عليه فالتحم الاخوة الثلاثة وهـــم المامون وزيدان وابو فارس

ابن بجة قائد جيش المنصور السعدي في سكسيوة .

جيش الاندلس : قائده ايام احمد السعدي هو ابن فرج سعيـــد الدغـــالـــي .

ومشيخة الغزاة هي قيادة الجيش بالاندلس وكان على راسها عـــام 727 هـ / 1327 م القائد يحيى بن عمر بن رحو التلمسانـــي المرينـــي .

مصطفى باشا قائد جيش مراكش في عهد المولى زيدان وقد انهزم عندما حاصر عبد الله بن المامون بن المنصور الحاضرة عام 1016 هـ / 1607 م.

احمد بن حدو قائد تطوان تولى قيادة المجاهدين الذين حرروا المهدية عام 1092 هـ / 1681 م بعد وفاة اخيه عمر بن حدو وقد تقسم القيادة مع القائد علي بن عبد الله الريفي (40) .

احمد العرائشـــي بن ابى يعزى قائد مكناس عام 1112 هـ / 1700 م (41) .

---

(39) (الاستقصـــا ج 3 ص 47) .
(40) (الاستقصـــا ج 4 ص 30) .
(41) مخطوط في خزانة محمد المنونـــي) .

ابن مبارك احمد صاحب الطابع وقائد الجيش عام 1223 هـ/ 1808 م (42) .

محمد بن خدة أحد قواد شراقة عام 1211 هـ / 1796 م (43) .

وقان قائد خيل الجيش البخاري عام 1237 هـ / 1821 م في عهد المولى سليمان هو الحاج ابراهيم بن رزوق (44) .

قائد الجيش السوسي بقصبة مراكش يوم مات المولى عبد الرحمن ابن هشام عام 1276 هـ/1859 م هو ابراهيم بن سعيد الجراوي ، (45) .

محمد بن عبد الكريم الشرقي ، قائد جيش السلطان محمد بن عبد الرحمن وسفيره الى باريس عام 1282 هـ / 1865 م (46) .

احمد بن ابراهيم السوسي شيخ الرماة في عصره له مجموعة في الرماية ورد فيها أسماء المكاحل اي البندقيات الرومية وفضلها على الاهلية وذكر انواع أبوري وتاسدا واملوح وادوان وظهر السطح وجوهر الدار ومجدام وأعسال. وللناس قصائد في الملحون لتفضيل بعضها على بعض ومنها الزناد والانواع المكناسية والفاسية أفضل (47) .

الجيش المغربي (فتاوي العلماء في ضرورة اعادة تنظيمه بعد هزيمة حرب تطوان 1276 هـ / 1860) (48) .

---

(42) (الاستقصا ج 4 ص 142) .
(43) (الاستقصا ج 4 ص 137) .
(44) (الاستقصا ج 4 ص 163) .
(45) (الاستقصا ج 4 ص 221) .
(46) (الاستقصا ج 4 ص 229) .
(47) محمد المختار السوسي - (من خلال جزولة ج 2 ص 32) . الجيش : السلاح والكسوة - (الجيش العرمرم ج 1 ص 172) (الاستقصا ج 4 ص 117 - الاتحاف لابن زيدان ج 3 ص 262) .
(48) (تاريخ تطوان ج 5 ص 340) (الاستقصا ج 4 ص 222) (الجيش العرمرم ج 2 ص 79).

... استعراض الجيش : بأمر تاشفين المرابطي في تلمسان عام 548 هـ / 1143 م (الحلل الموشية ص 108 ـــ وابن تاشفين فى جصن لرقة «المعجب» ص 77) .

وقد استعرض المنصور الموحدي الجيش قرب (قلعة رباح) جنوبي قشتالة وذلك خلال جوازه الثاني عام 591 هـ / 1194 م الى الاندلس ومنه نزل (حصن الارك) مكان الوقعة المشهورة (49) .

واستعرض يعقوب بن عبد الحق المرينـــي (685 هـ / 1286 م) حشوده العربية التي كانت تتكون من سفيان والخلط وذوي حسان والشبانات ورياح والهبط عام 670 هـ / 1271 م في طريقه الى تلمسان حيث التحم فى (ايسلي) مع يغمراسن أمير بني عبد الواد وهدم وجدة (50).

كما اتخذ ابو الحسن المرينـــي (برج الذهب) لاستعراض الجيوش فى الساحة العمومية بفاس الجديد (51) .

وقد استعرض اهل فاس جيشهم الحر فى (باب الفتوح) عام 1075 هـ/ 1664 م لمواجهة المولى الرشيد وكان جيش فاس هذا مكونا من سكان الحوز من الحياينة والبهاليل واهل صفرو اكتتبوا لشراء خيلـــه وعتاده واسهمت كل دار ببندقية (52) .

وفى عهد المولى عبد الله كان مكان عرض الجيش بفاس هو (راس الماء) وقد عرض القائد حمدون الروســـي رماة فـــاس بهذا المـــكان عام 1142 هـ / 1729 م (53) .

وفى عام 1156 هـ / 1743 م استعرض المولى عبد الله جيشه قبل التحامه على وادي لكوس قرب القصر الكبير مع فيالق اخيه المستضيء

---

(49) (تاريخ المغرب ـ عبد العزيز بنعبد الله ج 1 ص 123) .
(50) (تاريخ المغرب ـ عبد العزيز بنعبد الله ج 1 ص 136) .
(51) (تاريخ المغرب) للمؤلف ج 1 ص 157 .
(52) (تاريخ المغرب ـ عبد العزيز بنعبد الله ج 2 ص 6) .
(53) (الاستقصـــا ج 4 ص 63) .

وكانت ارحية هذا الجيش موحدة العناصر تتألف من رماة العبيد واهــل فاس وفرق الخيالة من الاودايا وزرارة وأهل سوس .

وفى يوم الاربعاء من كل أسبوع كان السلطان يأخذ (جريدة اسماء الجند) ويقف وزير الحرب بجانب السلطان وبيده جريدة اخرى ويقف كل قائد رحى أمام فصيلته المركبة من ألف جندي ويقوم قائد المشور يعرض كل فصيلة على حدة ويبحث السلطان عن كل متغيب وعن سبب تخلفه وقد لاحظ (مويت) ان المولى اسماعيل كان أيضا يستعرض الجنود بنفسه مشاة ثم فرسانا كما كان يدفع رواتب جنده بيده لكل فرد وذلك الى الدولة الحفيظيــــــة (54) .

تلك فذلكة موجزة عن الجيش المغربـــى العتيد فى مختلف اطوار التاريخ سنعقبها بدراسة حول الاسطول المغربى منذ الـــعهـــد المرابطى وتطوره فى العهد الموحدي كأول أسطول فى البحر الابيض المتوسط.

الربـــاط **عبد العزيز بنعبد الله**

---

(54) (العز والصولـــة لابن زيـدان ج 1 ص 55) .

قصة

من منهما..؟

عبد المجيد ابن جلون

جلست سيدة أمريكية فى الشقة رقم 12 فى احدى العمارات الواقعة بمدينة الرباط تتحدث الى نفسها :

« زوجى قابع فى مقعده الوثير فى حجرة الجلوس بالمنزل يقرأ مجلة الهندسة فى اهتمام ، وان مما اصبح يسرنى منذ زمن بعيدا ان يستمتع زوجى بالحياة كما يفهمها ، ولذلك فانه حينما ارتسمت على محياه ابتسامة ارتسمت مثلها على محياي أنا أيضا، وان كنت لا اتخيل أن فى الابحاث الهندسية ما يبعث على الابتسام وتغمرنى ابتسامة بسعادة لا استطيع التعبير عنها ، فان فى التعبير عن الشعور فى بعض الاحيان ما يحرم من لذة معاناته... أنا مرتاحة للارتياح الذي يرتسم على وجه زوجى ، وكفى .

ويرتفع صوت جارتى فى الشقة الملاصقة كما اعتاد ان يرتفع كلما نهرت اولادها ، ولست اتبين ما تقول ، ولكن من

الواضح انها تتحدث اليهم بالفرنسية ... وان كان لا يهمنى أن تتحدث اليهم بالفرنسية بالرغم مما فى ذلك من غرابة ... ولكـــن لست ادري لماذا يبعثنى سماع صوتها الى استعراض حياتـــى أنا ... حياتى أنا لماذا ؟ ولست أعرف شيئا كبيرا عن حياتها ، ولكننى أعرف بحكم الجوار اننا نمثل نموذجين لانــســانـــيــن مختلفيـــن ..

ترعرعت فى مدينة بوستن بالولايات المتـــحـــدة وبدت لى الحياة غريبة منذ طفولتـــى المبكرة ، لا ادري على وجه اليقين لماذا ؟ الى ان قطعت مرحلة التعليم الثانوي يوم آخذت غـــرابة الحياة تتحول الى ضلال فكري وعمى روحى سرعان ما اصبحت بعدهما ابحث لروحـــى عن منفذ للنجاة فى معترك الصـــراع الذي وجدت نفسى فريسة له ... فحيثما اتجهـــت ببـــصـــرى واجهنى الصراع ... تستعمل فيه اللغة أحـــيـــانا ، وأحيانـــا اللكمات ... وأحيانا الاسلحة الفتاكة ،،، العقول تتصارع ،،، الاجيال تتصارع ، الازياء والاشكال ،،، الشبان والشيوخ ،،، الاطفال والشبان ،،، البيض والملونون ،، النساء والرجال ،،، الآراء تتصارع فى كل مكان وفى كـل ميدان ، فى المدينة وفى القطر، بل فى العالم كله ، بعيدا على الجانب الآخر من الكرة الارضية فى فيتنام ،،، فى حرب اختلطت فيها انغام المجد الوطنى بانفجارات قنابل النابالم المتوحشة .

وسافرت بعد ذلك الى الدول الاسكندنافية ثم الى باريس حيث درست الفلسفة ، وفى باريس التقيت بابراهيم وتعارفنـــا

وتوثقت بيننا اواصر الصداقة واصبحت أشعر بأننى اقترب من النجاة كلما اقتربت اليه والى حديثه والى عقله والى نظرتــه الى الحياة ، على نحو لم أشعر بمثله فى اقترابى من اى انسان ، كما اصبحت اشعر كلما ازددت فهما لابراهيم منذ نحو سبعة أعوام خلت .

كنا نتحدث فى اول الامر بالفرنسية ، أنا وهــذا الشخص القابع أمامى الآن فى مقعده الوثير بقاعة الجلوس يقرأ «مجلة الهندسة» فى اهتمام ... وقد هدانـــى ذات يوم الى ان هنـــاك أشياء لا يمكن التعبير عنها بغير اللغة العربية لان اللغات ليست اداة للتفكير فقط ولكنها تمثل عقلية خاصة ، وفلسفـــة خاصـــة وخيالا خاصا ، فكلمة « الروح » العربية لا يمكن أن تترجم الى أية لغة اخرى الا بافراغها من معناها الاسلامى ... ودعك مـــن كلمة « الروح » فقد تكون لها فلسفتها ، وخذ مـــثـــلا كلمـــة « الجوار » انها تحفل فى هذه اللغة بمعان لا تحفل بها فى أيـــة لغة أخرى لانها تذكر بقول الرسول « ما زال الله يوصى بالجـــار حتى ظننت انه سيورثه » ومن هناك الى كلمات عربية أخرى لها تاريخ وتقاليد ، ولا شك ان الامر صحيح بالنسبة للغات اخرى. ولهذا فان فهم القرآن فهما صادقا لا يمكن ان يتم بغير اللغـــة العربية وفهم شاعر مثل شكسبير فهما صادقا لا يمكن ان يتم بغير اللغة الانجليزية .

وعن طريق هذا البحث اللغوي بدأت أتعلم اللغة العربية وأقترب من الاسلام اقترابى من ابراهـــيـــم من قبل ، الى أن

أتقنت اللغة العربية واعتنقت الاسلام ، وتزوجت من ابراهيم ، وبذلك شعرت بأننى ولجت عالم النجاة ذاته ...

وعالم النجاة هذا متكامل فيه أناس آخرون يجب التفاهم معهم بنفس الالفاظ ونفس المعانـــى ، ذلك انه لا تفاهم بين أناس يجهل بعضهم لغة بعض ... كما لا يمكن ان يقوم تـــفـــاهم بين أناس يتحدثون لغة واحدة ولكن بمعانـــى مختلفة .

وسافرت مع ابراهيم الى الولايات المتحدة لاتمام دراساته الهندسية العليا وفى خلال ذلك بدأت أشعر بأننى أجنبيـــة ... حتى اذا ما عدنا الى المغرب وأقمت فى منزل أسرة زوجي مدة سنتين قبل ان ننتقل الى هذا المنزل ، بدأت أشعر بأننى لم أعرف من الدنيا غير المغرب ، ومن التقاليد غير التقاليد المغربية .

وأسمع فى الشقة المجاورة جلبة وصياحا يتبادل باللغـــة الفرنسية ، فأذكر كلمة الجوار باللغة العربية مرة اخرى وحديث زوجى عنها فابتسم ... انه جوار بلغة أخرى ،،، انه ليس جوارا لا بالالفاظ ولا بالمعانى ولا بالتقاليد ... وأذكـــر اننـــى رأيت فى شوارع مدينة طنجة اثناء مرورنا بها شخصا يرتدي جلبابا وعلى رأسه قبعة ، ان صورته لم تبرح ذاكرتى منـــذ ذلك الحين ... صورة هزلية لمرض اجتماعى لا هزل فيه ... تـــرى كـــيـــف سينظرون الى اذا عدت الى الولايات المتحدة لسبب من الاسباب فى يوم من الايام ؟ كلا يجب ان لا أفكر فى ذلك ابدا ... فـــأنا مغربية بالرغم من الدستور والقانون وشهادة الميلاد وجـــواز السفر ،،، وسأكون فى الولايات المتحدة أجنبية غريبة بدينى ولغتى

وزيى وتقاليدي وفهمى ،،، سيقولون عنى اننــى متوحشة تتناول الطعام باصابعها ... واننى عاطلة اقضى الساعات الطويلــة فى المطبخ لان اوقاتى من تراب ،،، واننى أغشى الحمامات العامة الدامسة لانهمك فى الاغتسال كما لو كنت أعمل فى مناجم الفحم... واننى انحدرت من اعالى عصر الورق الى اغوار عصر الماء ... واننى أضع جبهتى على الارض بدلا من ان أرفعها الى السماء... وأننى أرتدي أغطية فراشــى الفضفــاضــة بدلا من الفساتين الضيقة بعد الاستيقاظ من النوم ... واننى لا اعدو أن أكــون مجرد خادمة عند زوجى ... فان المعانى تخــتلــف باختــلاف الشعوب وباختلاف اللغات ... سرورهم فى العنف والتحــدي والصراع ... وسروري فى الرضى عن الــحــياة وحب زوجــى وعبادة ربى ... حزنهم سواد فى سواد ، وحزنى بــيــاض فى بياض ... الخنزير عندي قذارة ولحمه عندهم مما يستطاب

معانى كلمة الوحدانية فى لغتى ــ أنا التى أضيع وقتى فى المطبخ ــ تحتاج فى لغتهم الى مجلدات ، أنا أقول لا فرق بين عربى وأعجمى الا بالتقوى ، وهم يقولون لا فرق بين الناس الا بالقوة ، انا أقول ان الله خلقكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، وهم يقولون ان الله خلقكم شعوبا وقبائل لتتباغضوا ، وتتناهبوا ، ويقتل بعضكم بعضا ... فبأي معانــى اتحدث لغتهم او يتحدثون لغــتــى ...؟

هل يمكن أن نتحدث معهم لغة واحدة حينما يقــولون ان الانسان البدائى هو الذي يشرب الماء الزلال ... وان نظافة الحمام

اهم من نظافة الشخص ،،، وان تأمل الملكوت مضيعة للوقت ،،، وان استعمال الورق انظف من استعمال الماء ،،، هم يقولون معي «عش لدنياك كأنك تعيش أبدا» ولكـــننـــي أنا أضيف : « ولآخرتك كأنك تموت غدا » فكيف يمكن أن نتفاهم مع انفسنا أو معهم بلغتهم التى لها مفاهيم غير مفاهيم لغتنا ؟

زوجي منهمك فى مجلته يقرأ عن الهندسة بوجهه السمح وقسماته الآمنة المطمئنة تسري من روحه الى روحي ذبذبـــة لطيفة تشيع الاعتزاز بالماضي والرضى عن الحاضر والاطمئنان الى المستقبل ، على مبعدة من التواكل والخمول ، وفى غمـــرة غامرة من الايمان بالذات والايمان بالحياة والايمان بالله ، واعتقد أن الوقت قد حان لاستخراجه من فنونه الهندسية ، فعلى أن أقوم الى المطبخ لاعد له كوبا من الشاي الاخضر المنعنع لاستمع الى حديثه العذب الجذاب الحافل بالحياة ، يأتيـــنـــي بيـــن الـــرشفـــات » .

وغادرت السيدة الامريكية غرفة الجلوس لاعداد الشاي .

●*●

فى الوقت الذي انطلقت فيه السيدة الامريكية الى المطبخ فى الشقة رقم (12) من العمارة الواقعة فى الرباط ، كان شيء آخر يجري فى الشقة رقم (13) منها :

كانت الزوجة فتاة مغربية من مكناس اسمها ليلى ، وكان يطيب لزوجها ان يدعوها « ليلى العامرية » لا يتجاوز تكوينها

الدراسى السنة الثانية او الثالثة من الثانوي ، وكانت على جانب لا بأس به من الجمال مكنها من أن تتزوج فى سن مبـــكـــرة من شبابها ، ومن الغريب أن يكون اسم زوجها ابراهيم هو أيضا ، ولكن وجه الشبه بين الاســـرتين يقف عند هذا الحد لا يتعداه، وأول ذلك أننا أصبحنا فى حاجة الى مترجم من الفرنسية على أنا أن أتولى مهمته ، فان ليلى ـ ما شــاء ـ لا تتــحــدث الا بالفرنسية ، مع زوجها ومع اولادها ومع نفسها أيضا ...

كانت ليلى قد غادرت الشقة منذ قليل بادية القلق وعادت اليها وهى أشد قلقا واندفعت الى غرفة الجلوس وهى تصيـــح بزوجهـــا :

ـ لا أعرف أين ذهب الشياطين لا وجود لهم فى الشارع ؟

ـ الاولاد ؟

ـ نعم الاولاد، أيمكن أن يكونوا قد دخلوا عند الامريكيـــة المتوحشـــة ؟

ـ فى أمريكا قبائل متوحشة ؟ لم أسمع عن هذا من قبل ، ومع ذلك فقد انقطعوا عن زيارتها بعد أن زجرتهم عن ذلك منذ أكثر من شهور ، هل عادوا الى زيارتها ؟

ـ سأسحقهم اذا فعلوا ، ان لحظة واحدة مع المتوحشة كافية لاحالة اكثر الناس حضارة فى القرن العشرين الى همج ورعاع، اذهب للبحث عن اولادك .

ـ أين يمكن ان ابحث عنهم ؟ انهم يلعبون .

ـ مع الاولاد ؟ مع اولاد الشوارع والازقة اظن ؟ كيـف يمكن أن يربى الانسان اولاده فى هذا المحيط القذر الذي يصبح فيه حتى الامريكيون من الهمج ...

ـ لماذا تصرين على أنها همجية ؟ لانها تعيش كما يعيش المغاربة وتتحدث بلغتهم ؟

ـ هاهها هاهها ، انها لا تعرف كلـمـة واحدة من لغتنـا الفرنسية حييتها بالفرنسية ، فاجابتنـي بالانجليزية ...

ـ ولكن لماذا لم تحييها باللغة العربية ؟ انك تعرفين انها تتقن العربية ، اذا لم تكن تعرف الفرنسية .

ـ أنا لا أتحدث بالعربية .

ـ ولكنك تعرفينها وليس معنى ان االغة الفرنسية أجمـل وأرقى ، ان لا تستعملى اللغة العربية وخصوصا عند الحاجة ، هذا تعصب جارح .

اننى لست فى حاجة الى ان أتحدث بلغة الرعاع، لاننى لا أخالطهم ولا حاجة لى بهم ولا أحب أن يخالطهم اولادي ... نعم أين أولادي ابحث لى عنهم ... قد يـكـونون فى منزل جدتهم يلعبون مع اولاد عمهم .

ـ هذا انكـى ،،، اعنى لا أحب أن يدخلوا سراديب المدينة الضيقة القذرة بالاوحال والعميان والمتسولين ...

ـ الا يزورون جدهم فى الرباط وجدهم فى مكناس ؟ نفس الشـــىء .

ـ ابراهيم ابراهيم ، افهمنى قليلا ، ان من المستحيل أن نعيش فى عصرين .

ـ ولكن من المستحيل أن أتنكر لابى ولا لابيك او ان تتنكري أنـــت لهما ، انهما ليسا جوربين قديمين يمكن ان نخلعهما ،،، انهما والدانـــا

ـ والدانا والدانا، ما هما الوالدان .. عاشا حياتيهما وانتهى الامر ، اف ؟

ـ لا تقولى اف ... اف بالذات ،،، لا تقل لهما اف ،،، هـــذا قرآن ،،، الابوان باللغة العربية كلمة لها معنى خاص وتاريخ حافل ،،، فيها الحدب والحنان والمحبة والاحترام والتوقير ، لا بد من استعمال اللغة العربية فى بعض الاحيان لتعمق الاشياء، هناك معانى فى العربية لا وجود لها فى الفرنسية ، معـــانـــى تتكون منها حياتنا الاجتماعية ولا بد من التعبير عنها وبدونها نمسخ حياتنا .

ـ انظر يا ابراهيم لقد انزلقت بنا عن موضوع الاولاد الى هذا الكلام المعقد الذي لا فائدة منه ترجى سوى اضاعة الوقت قلت لك ابحث لى عن الشياطين ... هل أطرق باب الامريكيـــة الصابـــئـــة ؟

ـ الصابـــئـــة لماذا ؟

ـ عن الحضارة الحديثة ، عن الرقى انها وصمة عار فى جبين ارقـــى دول العالم ...

ـ دعينا من هذا الآن ... تطرقين بابها وتقولين لها ماذا ؟

ـ أحدثها بالإشارة ؟..

ـ ماذا ؟ تستطيعين ان تتفاهمى معهـــا فى امر يخصـــك ، وتحدثينها بالاشارة ؟

ـ أنا أكره أن تفرض على هذه الاجنبية الخبيثة ان اتحدث اليها باللغة العربية ، وهى فى بلادي ، انت تهزل .

ـ لا وحق السماء لا اهزل يا ليلى العامرية .

ـ من هى ليلى العامرية هذه ؟ اننى اود أن أســألــك هذا السؤال منذ اعوام .

ـ ليلى العامرية فتاة عربية جميلة ، كان يتغنـــى بها شاعر رقـــيـــق .

ـ أعوذ بالله . كيف تسمح لنفسك ان تلقبنـــى بلقب بدوية كان يتغنى بها شاعر جلف تحت شجرة ميتة فى جوف الصحراء . ونحن فى الربع الاخير من هذا القرن العشرين ؟ عصر التشبيب البدوي انتهـــى منذ زمن بعيد ايها المغوار .

ـ هذه عبارة قد لا يكون عليها غبار بالفرنسية ، ولكنهـــا كـــفـــر بالعـــربيـــة .

ـ رجعنا الى خرافة اللغات مرة أخرى، فبأي لغة تريد منى أن أطلب منك ان تبحث عن أولادك بها؟ بالهيروغليفية . أم أنك تريد ان تشككنى فى الف باء الحضارة الحديثة ؟

ـ أريد فقط أن أصحح معلوماتك عن الصحراء والبداوة .

ـ الاولاد ، قلت لك الاولاد ـ ابحث عنهم قبل ان يتحولوا الى قردة فى الازقة والدروب .

أقول لك شيئا ، لقد ايقظ فى حديثك مغربيتى الدفينة ، فما رأيك فى أن أذهب أنا للبحث عن الاولاد بينما تضعين أنت الماء على النار ، واشتري أنا النعناع خلال ذلك لنشرب شايا معطرا منعنعا طال شوقـــى اليه .

ـ النعناع ؟ ماذا ؟ ستقول غدا الخليع والكوارع والكرشة .. وتلك الاشياء العفنة الاخرى ،،، هل تريد أن تنـــحـــدر بنا الى المستوى الخفيض الذي انحدرت اليه الامريـــكيـــة الهمجية ؟ النعناع ؟ والله لن يدخل لى دارا ..

ـ ولو كان من مكناسة الزيتون ؟

ـ ولو كان من باريس مدينة النور

ـ اذن ارسل لك الاولاد ، واعرج على المقهى ، وامري لله .

●*●

وبينما كان ابراهيم الشقة رقم 13 يبحث عن اولاده فى الشوارع ثم يجلس على الكرسى الخشبـــى فى المقهـــى ليتناول

كوبا من الشاي المنعنع تاقت نفسه اليه ، كان ابراهيم الشقة رقم 12 يجلس الى زوجته ويتجاذب معها اطراف الحديث عن أسرار المادة واسرار الروح ، وكانت تصغى اليه خلال ذلك فى روية وفى اعجاب ...

الرباط عبد المجيد بن جلون

تاريخ الولايات المتحدة
في المصادر المغربية

د. عبد الهادي التازي

لم يهتم المؤلفون المغاربة فقط بفلاسفة الاغريق والرومان، ولكنهم أولوا عنايتهم كذلك لجغرافية البلدان وتاريخ الامم .

وقد كانت القارة الامريكية مما تناولته أقلام المغاربة منذ العهد الوسيط .

ولعل من الطريف أن نعرف عن رسالة صدرت من هايتي بتاريخ أكتوبر 1498 يعترف فيها كريستوف كولومب بأن تأليفا للعلامة المغربى أبى الوليد ابن رشد هو الذي حمله على الاعتقاد بوجود العالم الجديد ...

واضافة الى هذا فان جل الذين علقوا على حديث الجغرافى الشريف الادريسى حول ليشبونة و «مغامرة الاخوة المغرورين

فى بحر الظلمات » ، جلهم كانوا مقتنعين بأن المكان الذي وصله أولئك المغاربة هو أمريكا بالذات ..

واذا عرفنا عن قوة الاسطول الموحدي آنذاك وعن وفرة المهتمين بالبحرية سهل علينا تصور قصة تلك الافادة التاريخية من الادريســـى ...

واذا كانت قصة ذلك الاكتشاف ما تزال عند بعض المؤرخين فى عداد الموضوعات المطروحة للبحث ، فاننا اليوم أمام بعض الوثائق الدبلوماسية المغربية التى تتحدث عن مشروع للعاهل المغربى أحمد المنصور ، يهدف الى النزول فى القارة الامريكية أو الهند الغربية كما تسميها الوثائق المغربية ، ويتعلق الامــر بمهمة السفير المغربى عبد الواحد عنون لدى الملكة اليزابيث الاولى سنة 1600 .

وتمضى تسعون سنة لنجد فى المذكرات التى دونها ابن عبد الوهاب الغسانى سفير السلطان المولى اسماعيل الى كارلوص الثانى سنة 1690 نجد حديثا عن عهد الملكة ازابيل ، ووضع القارة الامريكية على ذلك العهد ومدى استفادة اسبانيا مـــن النزول هنـــاك ...

وقد كان تتبع المملكة المغربية لاخبار القارة وراء التصريح الذي أصدره السلطان سيدي محمد بن عبد الله أو (محمـــد الثالث) بتاريخ 20 دجنبر 1777 والذي يعترف فيه لاول مرة بالولايات المتحدة الامريكية قبل شهرين تقريبا من ابـــرام الاتفاقية الامريكية الفرنسية ، على ما تؤكده جريدة بترسبورغ

فى خبر لها مكناس بعد يومين من صدور التصريح الملكى ..

وانى على مثل اليقين من أن القائد الطاهر فنيش سفيـــر الملك محمد الثالث لدى لويز الرابع عشر (يناير 1778) اجتمع فى فرساي بالبعثة الامريكية التى كانت تشرف على المفاوضات الفرنسية الامريكية لان رسالة الاعتماد التى كان يحملها ، كانت تنص على الاتصال « مع جميع البعثات الاجنبية المعتمدة » فى شأن الغاء الرق بسائر جهات العالم .

ولم يكن غريبا علينا بعد هذا ، أن نقرأ فى مذكرات محمد بن عثمان سفير الملك محمد الثالث لدى كارلوص الثالث ملـــك اسبانيا (يناير 1780) حديثا عن موقف انجلترا مـــن نضـــال الشعب الامريكى ...

ومن المطرف ان نجد السفير المغربى يشير الى الشعـــار الذي رفعه الوطنيون الامريكيون « لا ضريبة بدون تمثيـــل فى مجلس النواب » Notaxation Without Reprensentation
كما يشير الى قصة السفن الانجليزية المحملة بالشاي التـــى أغرقها الوطنيون فى البحر Bosteu Teaparty

لقد كان السفير المغربى أول مؤرخ عربى علـــى الاطـــلاق سجل هذه القصة التى تعتبر من أروع القصص التى تعتز بهـــا مدينـــة بوسطـــن Boston

ومن الملاحظ ان المراسلات المغربية الامريكية نشطت فى أعقاب زيارة السفير ابن عثمان لاسبانيا الامر الذي أعقبتـــه

التفاتة العاهل بالافراج عن بعض الامريكان الذي وقعوا ضمن أخرين من اسبانيا فى الاسر ... وتبعه ابرام الاتفاقية المغربية الامريكية بمراكش عام 1786 حيث وجدنا الملك محمد الثالث يسعى لانشاء أسطول تجاري كان يعتزم بواسطته ربط خط بحري بين المغرب وأمريكا، بعد شهرين من ابرام اتفاقية مراكش على ما تقول وثيقة مغربية تحمل تاريخ 10 غشت 1786 محفوظة فى أرشيف فيينا .

ولم تكن هذه آخر مساهمة مغربية فى كتابة تاريخ أمريكا فقد تضمنت مخطوطة للمؤرخ ابن عبد السلام الرباطى معلومات دقيقة عن الفترة التى عاشتها العلاقات المغربية الامريكية أيام السلطان المولى سليمان سنة 1802 والرئيس طوماس جيفرسن T. Jeffersu تلك الفترة التى أسفرت عن تجديد الاعتراف باتفاقية 1786 كما أعقبها تبادل الهدايا بين الرئيس جميس مونرو J. Monroe والسلطان مولاي سليمان حيث وجدنا هذا الاخير يعوض الولايات المتحدة بزينة الدار التى كانت تستقر فيها القنصلية الامريكية فى طنجة على ما تشير اليه وثيقة عدلية حررت فيما بعد ...

وبعد نحو من ثمانين سنة ظهر تأليف جديد فى تاريخ المغرب يحمل اسم (الاستقصا) للناصري ... وقد أورد منه فصلا عن تاريخ أمريكا بمناسبة حديثه عن طرد المسلمين من ديارهم بالاندلس وامتداد الاطماع الاوروبية نحو الدنيا الجديدة ...

وتحتفظ المكتبة المغربية بمخطوطة ألفت على شرف جلالة الملك الحسن الاولويتعلق الامر بكتـاب ((الـدر المنتخـب المستحسن)) الذي أورد فيه مؤلفه أحمد بن الحـاج علاقـات الملك محمد الثالث بالدول الاخري وفى وضمنها أمريكا التى روى عنها ما كان يحتاج من الباحثين الى تعقيب .

وفى نفس هذه الفترة ظهرت مخطوطة مغربية عبارة عـن أطلس مكتوب بالالوان ، تحتفظ بها المكتبة الملكية وقد خصص مؤلفها أحمد شهبون صفحات على حدة أثبت فى احداها خريطة جغرافية للولايات المتحدة الامريكية ... وباقى أطراف القارة ، كما صنف فى صفحة أخرى لائحة باسماء البحور والبحيـرات والانهار والجزر والجبال .. اضافة الى جدول بعدد الحكومات التى وصلت على ذلك العهد الى خمسة وعشرين ذكرها باسمائها وخطوط عرضها واختلاف الساعة بين سائر البلدان وأسمـــاء العواصم ، وعدد السكان الذين كانوا لا يتجاوزون فى الولايات المتحدة على عهد المؤلف ثمانية وثلاثين مليون نسمة ...

ويمضى ربع قرن من الزمان ليطلع علينا كتاب (فواصـل الجمان) لمحمد غريط الذي وجد فى حياة الرئيس الامريكـى جوهن ادامس J. Adams ما يستوجب تقديمه للمجتمـع المغربى كمثل على أن الطريق الى الحكم ليست وقفا على طبقة دون طبقة ، ولكن الايام دول بين الناس ، أحيانا فى يد هــذا وأحيانا فى يد الآخر .

واذا ما تجاوزنا المؤلفات الى المراسلات المغربية كمصـــدر لتاريخ العلاقات ، فسنجد أنفسنا أمام ثروة هائلة لا تقدر بثمن

وهكذا ففيما يتعلق با لهدايا المتبادلة بين الجانبين الأمريكى والمغربى نقف على عدد من التحف الثمينة التى عبرت المحيط الاطلسى من ، والى المغرب ، وقد سجل التاريخ حادثة مضحكة فى هذا الباب نختصرها هنا على سبيل الاحماض والاستنهاض

لقد وجه السلطان المولى عبد الرحمن الى الرئيس أنـــدرو جاكسون A. Jackson عددا من الهدايا المغربية كان منها (أسد) اصطاده من الاطلس كانت هذه أول مـــرة فى تاريـــــخ الولايات المتحدة تتلقى فيها هدية من هذا النوع وبما ان امريكا كانت فى بداية خطواتها ، فان الهدية المغربية أحدثت أزمة مالية لان الاسد أصبح يكلف الدولة دولارا كاملا فى اليوم وهو مبلغ كان يضايق الخزينة المالية .

وبعد أن كان القنصل الامريكى أعرب للعاهل المغربى عـــن اغتباط الولايات المتحدة بهذه الهدية الرائعة تلقى تعليمات تطلب اليه أن يعرف كيف يبلغ الخارجية المغربية الاعتذار عن قبول هدية فى المستقبل من هذا النوع ، ولشد ما كانت حيرة القنصل جميس ليب J. Leib وقد بعث اليه السلطان هذه المرة ليس بأسد واحد ولكن بأسد وأسدة وقد حاول أن يعتذر ، لكن المكلفين بنقل الهدية أفهموه ما ينطوي عليه اعتذاره من قلة لياقة وهنا أخذت البرقيات والرسائل المستعجلة تتبادل بين طنجـــــة وواشنطن . ويجتمع الكونكريس لدراسة الحدث الذي كـــــان

يصادف قرب انتهاء أمد اتفاقية 1786 ... ومن شأن الاعتذار عن قبول الهدية اغضاب العاهل المغربى الذي قد يرفض تجديد الاتفاقيـــة

ان المرء ليشعر بمتعة زائدة وهو يقرأ عن الصراع المرير الذي عاشته السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية فى الولايات المتحـــدة .

سأختصر الحديث لاذكر أن التعلميات صدرت أولا للقنصل الامريكى حتى يفصل بين الاسد والاسدة .. وأخيرا تقرر قبول الهدية .. وقد تبين لدى وصول الهديتين الى العاصمة أن القنصل الامريكى كان قد أخل بواجبه فى عملية الفصل بين الجنســين وهكذا وصلت مجموعة طيبة من الاشبال الرضع كانت بحاجة الى العناية والرعاية قبل أن تفوض الحكومة الامريكية لقنصلها فى مفاتحة العاهل المغربى بمكناس فى تجديد اتفاقية مراكش .



وفيما يمس موضوع التعاون ضد الحركــات الانفصاليــة وجدنا المملكة المغربية تساعد الولايات المتحدة فى حروبهـــا الاهلية ، وهكذا زود السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن أو (محمد الرابع) نائبه فى طنجة السيد محمد بركاش بمتابعــة الانفصاليين المعادين للولايات ، وحظر نشاطهم على التــراب المغربى ، وقد وجد القنصـــل الامريكى جميــس دولونـــك

J. Delong في السلطات المغربية خير مساعد على اعتقال المشاغبين الذين وردوا على العاصمة الدبلوماسية للحصول على المساعدة .

وفيما يخص فصول المجاملات نجد المملكة المغربية لا تترك الفرصة للجواب عن رسائل التهاني والمواساة كما أنها بدورها لا يفوتها أن تهنىء وأن تواسى ، وأن من أرق الرسائل التى حفظها التاريخ تلك الرسالة التى بعث بها العاهل للتعزية فى الرئيس الامريكى أبراهام لينكولن A. Lincoln الذي كان على حد تعبير الرسالة الملكية « حريصا على أن يكون الناس ذاتا واحدة ونفسا متحدة » .

وفى موضوع المسائل الطارئة ، نجد مجموعة مهمة من الرسائل المتبادلة بين المسؤولين المغاربة والامريكيين ، كان منها رسالة تتعلق بارسال بعثة طلابية مغربية الى أمريكا (1885) ورسالة لجلالة الملك الحسن الاول يعد فيها الرئيس الامريكى صطيفان كليفيلاندي S. Clevelandi بأنه « على نية توجيه سفير مغربى للولايات المتحدة بقصد تجديد الصلات » (1887) .

ويظل اللقاء التاريخى الذي تم فى الدار البيضاء سنة 1943 بين جلالة الملك محمد الخامس والرئيس روزفيلت مجسدا طموح المغرب لاستعادة سيادته الكاملة ، وان ما كتب عن هذا اللقاء ابتداء من روزفيلت الابن الى مذكرات جلالة الملك الحسن

الثانى فى كتابه (التحدي) ليترجم عن ذلك الطموح ترجمـــة صادقـــــة .

وعسى أن يسهم النشاط الذي تضطلع به « الجمعية المغربية الامريكية لدراسة العلاقات » فى ابراز المزيد مـــن استيعـــاب صلات الامس ، وفى تمهيد الطريق لنتمكن من كتابة تاريخ الغد بصياغة أفضل وأجمل .

واننا نتوقع أن يتجاوز نشاط الجمعية فى المرحلة الثانية الى دراسة علاقاتنا بمختلف الامم الاخرى ، فان كلنا يعلـــــم أن التاريخ الدولى لامة ما من الامم يرتبط حتما بالدول الباقية ، ومن ثمت فان التخطيط من الآن لافاق المستقبل ينبغى أن يأخذ بعين الاعتبار هذه الحقيقة الناصعة .

الربـــاط **د. عبد الهادي التازي**

مأساة الحسين في الأدب الأندلسي

ـ 2 ـ

د . عبد السلام الهراس

كان الاتصال وثيقا بين الاندلس والمشرق بما كان يقوم به الاندلسيون من رحلات للحج وطلب العلم واللجوء السياسي ورحلات المغامرات والتجارة ولاغراض سياسية كما كان المشارقة يفدون على الاندلس لاهداف مختلفة من علمية ومادية وسياسية فكانت تستقبل العلماء والمغنين استقبالا حافلا وتحيطهم بالرعاية والاكرام ، وقد أتاح هذا الاتصال تعرف كل جانب على الآخر ، وكان الاندلسيون اكثر اهتماما بالمشرق واطلاعا على علومه وخفاياه وقد ظل ذلك الاهتمام طابعا مميزا للمغاربة الى اليوم .

والملاحظ ان اهتمام الاندلسيين كان منصبا اكثر على الجوانب التي تتعلق بالحديث والقرآن واللغة والنحو والادب في حين قل اهتمامهم بالفلسفة والكلام ، وقد يكون احمد بن محمد بن سعد ، ممثلا لعقلية الاندلسيين بل والمغاربة عموما، فقد زار بغداد في رحلة له الى المشرق قبل الاربعمائة ، فحضر مجالس أهل الكلام مرتين ثم تركها واستعاذ الله منها لما رأى فيها من حرية بين المناظرين المختلفين دينا وعقيدة فقد كانت

المناظرات تجري بين المسلمين من أهل السنة والبدعة والكفار من المجوس والدهرية والزنادقة واليهود والنصارى وسائر اجناس الكفر ، وقد هاله أن يسمع مناظرا من الكفار يقول « قد اجتمعتم للمناظرة فلا يحتج علينا المسلمون بكتابهم ولا بقول نبيهم فانا لا نصدق بذلك ولا نقر به وانما نتناظر بحجج العقل وما يحتمله النظر والقياس فيقولون : نعم لك ذلك : قال ابو عمر فلما سمعت ذلك لم أعد الى ذلك المجلس » (1) .

ورغم هذا فقد كان الاندلسيون مطلعين على الشيعة ومذاهبهم كما كانوا مطلعين على التيارات الفلسفية بالمشرق وربما تاثر بعضهم ببعض تلك التيارات كابن مسرة المتهم بالاعتزال كما نجد بعض اتباع ابن مسرة(2) يقول بزواج المتعة . ومن الاندلسيين من كان يؤمن بالرجعة (3) وان كان للسياسة والمعاصرة اثر كبير فى هذه التهم التى قد تتسرب الى التاريخ فتصبح شهادات ظاهرة الصحة !

وكان الفاطميون يقومون بنشاطات قوية لبث دعاتهم وانصارهم فى المغرب والاندلس ومن اعلام العلماء الفاطميين الذين دخلوا الى الاندلس فى زي مختف أبو اليسر الرياضى وابن هارون البغدادي وابن حوقل (2) ولعل والد بن هانىء كان يقوم بدور ما للعبيديين ثم نشأ ولده على الولاء لهم أيضا والجهر بمذهبهم ولما افتضح أمره وتعرض للخطر فر الى تونس ليصبح شاعر الدولة العبيدية وكان المعز يدخره ليفاخر به أهل المشرق ، لكنه اغتيل فى طريقه لمصر ولعله كان اغتيالا سياسيا . واشتد الامويون فى مقاومة الافكار الشيعية والعبيديين وانصارهم بشتى الوسائل وكان ميدان القول وسيلة مسلمة فى تسوية سمعتهم ، وقد رموا الشيعة بالالحاد والكفر والقرمطة والفسق والخروج عن السنة والجماعة .

لم يتح للافكار الشيعية الانتشار بين الاندلسيين اذ لم يتجاوبوا معها لا لكونهم امويين فقط بل اكثر من ذلك لان العقلية الاندلسية — وقد اسهم العنصر الافريقى المغربى فى تكوينها بحظ وافر — محافظة متزنة تكره كثرة النحل والمذاهب وتبتعد عن الجدل فى الدين والمناقشة فى العقيدة ، بالاضافة الى عامل هام وهو تلك الظروف الخاصة التى كانت تعيشها الاندلس الاسلامية المهددة دائما باخطار النصارى المتحدين فى جبهة

واحدة من هنا الى اقصى البلاد النصرانية عبر البابوية مما يفرض عليها الحرص على وحدة الدين ووحدة العقيدة بل وحتى على وحدة المذهب الفقهي لتحقيق وحدة المجتمع الاسلامي الذي يواجه عدوا موحد الدين والمذهب معا ؟ لذلك ما كان المجتمع الاندلسي ليسمح برواج اي مذهب يزعزع هذه الوحدة . حتى ولو كانت المذاهب الفقهية السنية فبالاحرى المذاهب الفلسفية والصوفية والكلامية والسياسية ، ولقد كانوا يعيبون على المشرق التمزق المذهبي يقول احد كبار المؤرخين الاندلسيين وهو ابن حيان (4) .

« فلم تدخل على الامة شبهة حتى كانت دولة الطائفة الزائغة والعصابة الباغية من ولد العباس ففشت البدع وكثرت النحل ووقعت الجهالة والزيع والضلالة فانحل شدهم ووهى عقدهم وتغيرت نعمهم المحن اذ حلوا النظام واهملوا الزمام وخففوا الالوطء عن رقاب اهل وآلت الامور عندهم باختلاف المذاهب الى ما اعضل داؤه وطار بلاؤه وحملت الصحف على الايام شنيع ذكره وعصم الله بمنه وفضله اهل الاندلس وسلم لهم دينهم من الآفات ومستكره الخلات ...

ورغم ذلك فقد تسربت بعض الافكار والمفاهيم الشيعية الى الاندلس كالمهدوية والرجعة والجفر والتناسخ والوصية والامامة (5) .

ولارتباط التشيع بالتصوف فان التصوف الاندلسي سيحتضن بعض الافكار الشيعية ؟ كما ستروج بعض المباديء الشيعية أيام حكم الموحدين الذين يقولون بالامامة والعصمة .

وخلاصة القول فان الاندلسيين كانوا معتدلين فى حبهم لآل البيت ولم تستطع الدعاية والمجهودات الفاطمية ان تخلق فيهم تيارا شيعيا كما لم يكن يوجد فيهم اتجاه معاد لآل البيت ومعنى هذا ان ما عرف بالنواصب والروافض بالمشرق لم يوجد لهما فى الاندلس مكان ولا مناخ ! وقد عبر عبد المهيمن الحضرمى عن طبيعة حب المغاربة والاندلسيين لآل البيت عندما قال أحبهم حب تشرع لا حب تشيع اي ان حب الاندلسيين كان غير مشوب بالجوانب السياسية والمذهبية (6).

وليس من الضروري أن ترتبط عواطف آل البيت ولا التأثر بمآسيهم ، وبخاصة مأساة الحسين رضى الله عنه بالتشيع فالمأساة هـي مأساة اسلامية عامة والتأثر لها عند المسلمين لا ينطوي على اغراض سياسية واهداف شعوبية ونزعات قومية ضيقة لذلك فان علاقة الاندلس والمغرب بآل البيت كانت تنتظمها شبكة عاطفية شرعية مترابطة رغم اختلاف الحكام والدول .

وسنقوم بتتبع ودراسة الآثار الادبية التى تحترم آل النبي صلى الله عليه وسلم وتنفعل لمأساة الحسين . وان من اوائل هذه الآثار البيتين اللذين نظمهما منذر البلوطى ردا على ابن عبد ربه صاحب كتاب « العقد » الذي اغفل ــ عمدا ــ فى ارجوزته التاريخية ــ ذكر على فى الخلفاء متجاوزا اياه الى ذكر معاوية حيث عده رابع الخلفاء : يقول منذر :

او ما على ــ لابرحت ملعنا يا ابن الخبيثة ــ عندكم بامام

رب الكساء وخير آل محمد داعى الولاء مقدم الاسلام

وجعل هذين البيتين فى طرة كتاب ارجوزة ابن عبد ربه التاريخية وكان منذر قاضى الجماعة ابان حكم عبد الرحمن الناصر وهو من اصل بربرى . وعندما دالت دولة الامويين واحترق آخر آمالهم وتطلعاتهم فى جحيم الفتنة القرطبية وخاض الحموديون لجج الفتنة فى مغامرات عاتية لاحظنا ظاهرتين :

1 ــ انحراف الناس عن بنى امية

2 ــ اضطراب الحكم فى قرطبة .

وقد شاهد الاندلسيون المصير المأساوي الذي آلت اليه الاموية بعد انهزام المرتضى الذي تآمر عليه خيران ومنذر بن يحيى .

قال ابن حيان عن المأساة (8) :

فحل بهذه الوقعة على جماعة من الاندلس مصيبة سوداء انست ما قبلها ولم يجتمع لهم على البربر جمع بعد واقروا بالادبار وباؤوا بالصغار »؟

ثم يقول : « فركدت ريح المروانية من ذلك الوقت بقتل من نجا منهم فى اطراف الارض وأيس الناس من دولتهم والوى الخمول بجملتهم فتقطعوا فى البلاد ودخلوا فى غمار الناس وامتهنوا واستهينوا ».

وقد وجدت ظروف مغايرة نشأ فى جوها ادب يتصل بآل البيت. كان الصنف الاول منه يتداول بعض المصطلحات الشيعية المذهبية وان خلا من حرارة الصدق ودوافع الايمان اما الصنف الثانى فقد كان مرتبطا بمدح آل البيت وبخاصة بكاء مأساة الحسين رضى الله عنه والحملة على قاتليه مع انطوائه على الصدق والاخلاص والتجرد من الدوافع المادية .

وقد اتاح تغير الظروف مجالا للمغامرين وطلاب الحكم وكان منهم الحموديون الذين لم يتخلوا عن اقتناعهم بحقهم المشروع فى الحكم (!) وعندما استولوا على كرسى الخلافة ذي القوائم النخرة توجه الشعراء نحوهم وكانوا قد فقدوا بضياع الدولة الاموية والحجابة العامرية سندا ماديا وديوان العطاء الذي كانوا يتزودون منه ويعتمدون عليه . ويصور النص الآتى حالة الشعراء فى ظروف هذه الفتنة وذلك بمناسبة الحديث عن الامير الشاعر سليمان ابن الحكم عندما نصب خليفة فى قرطبة .

واغتنمته شعراء العامرية والدولة الاموية ، وقد نسجت على افواههم ومحاريبهم العناكب أيام الحرب والفتنة واشتدت فاقتهم وحمئت طباعهم وكانوا كالبزاة الفذة الجياع انقضت بفرط الضرورة على الجراد فلم يبل صداهم ولا سد خلتهم لاشتغاله بشأنه واشتداد حاجة سلطانه (9) .

فهذه الفاقة الضاربة هى التى كانت تلجىء الشعراء الى ترصد كل ثائر وكل منتصر للاندفاع نحوه بالقصائد الطوال متوسلين اليهم بما قد بدا لهم من أساليب وافكار انها قادرة على ان تستدر عطفهم وتحقق مآربهم منهم ، لذلك كانوا يتهمون حينا وينجدون أحيانا حسب اهواء الممدوح فهم تارة أمويون وتارة عامريون وتارة طالبيون . وفى ضوء ذلك نفسر اتجاه الشعراء وأهواءهم ، فقد اتجه كبارهم نحو الحموديين يمدحونهم ووجدوا فى نسبهم الطالبى مادة استثمارية ذات نفع ارتزاقى فاستخدموها فى شعرهم رغبة فى أحكام ضمان الاستجابة لمطالبهم اما

مادية مثل ابن دراج وابن الحناط وعبادة بن ماء السماء وابن مقانا الاشبوني او معنوية كابن شهيد الذي كان ينشد الامن تحت ظلال العمائم فرارا من ظلم القلانس وسنورد هنا نصوصا تتعلق بهذا الاتجاه لنبين ما تتضمنه من ملامح وخصائص فكرية ع ربطها بصاحبه وواقعه ودوافعه ؟

ان أغزر ما وصلنا من شعر في الادارسة الحموديين هو من نصيب ابن دراج الذي فقد بانهيار العامريين وشبوب نيران الفتنة مورده الوحيد الذي كان يدره عليه توظيفه لشعره ونثره ومواهبه في خدمة الحجابة . وكان ابن دراج كغيره من شعراء قرطبة يترصد أي متزعم متمرد ليندفع نحوه مادحا ومتزلفا . وديوانه طافح بقصائد المدح حتى ليظن انه ما كان يحسن غير هذا الفن .

حاول بن دراج ان يتصل بالقاسم بن حمود الادريسي الذي كان وزيرا لسليمان ابن الحكم الاموي وقدم اليه قصيدة يتعرض فيها لمأساة اسرته في خضم الفتنة ويرغب اليه أن يزوده بتوصية منه الى اخيه على بن حمود حاكم سبتة عله يبل صداه وينتشله من وهدته ورغم أن قرطبة كانت اذذاك تحت حكم خليفة أموي فان ابن دراج الذي يهمه قبل كل شيء أن يحقق ما يسد حاجته ويرتق فتقه أدرك بحاسته المدحية أن مركز القوى هو بيد الحموديين ، لذلك اتجه نحوهم متضرعا ومتوسلا اليهم ببدع من القول بالنسبة للقيم الفكرية المتداولة الى ذلك الحين رقد مدحهم بقصائد اربع (رقم 30 — 31 — 161 — 162) (10) ولو أنهم استجابوا لندائه وهبوا لانجاده لملأ الاندلس شعرا بمدحهم على النحو الذي سار عليه مع الجميع وكانت ظروف الفتنة قاسية على كثير من أمثاله لكنها نالته بأوفر نصيب .

والقصيدة الاولى (رقم 30) استهلها ببيت يصور بدقة مأساة الشاعر ابان الفتنة وآماله في بني حمود يقول :

كم استطيل تضللي وتلذذي ... واروح في ظلم الخطوب واغتدى

والارض مشرقة بنوري ربها ... والفجر منبلج لعين المهتدى

ويشيد بنسبهما الشريف وبطهارة محمد القاسم وقداسة نطفته التى انتقلت عبر اسياد واجسام مطهرة وأرواح مقدسة ولاول مرة فيما نحسب يردد شاعر اندلسي فكرة الوصية اذ يخاطب القاسم بقوله :

يا ابن الوصي على اوص سميته الا يضيع سمي جدك احمد

ولكنه كما بدا ، لا يهمه من ذلك سوى ان يسوغ له هذا الاعتراف المتمتع بتوصية من القاسم لاخيه على ليكرم أحمد بن دراج سمي جدهم الرسول صلى الله عليه وسلم . وواضح أيضا ان الدافع للمدح هو الحاح الجوع وغريزة الابوة وضياع الاسرة وفقدان المعيل وهو لا يكتم هذه الحقيقة فهو يقول (ص 74).

فى ستة ضعفوا وضعف عدهم حملا لمبهور الفؤاد مبلد

شيد الجلاء رحالهم فتحملت افلاذ قلب بالهموم مبدد

وحدث بهم صعقات روع شردت أوطانهم فى الارض كل مشرد

وفى القصيدة التالية (رقم 31) يمدح على بن حمود أمير سبتة ويعتبر ابن بسام هذه القصيدة من غرر الهاشميات اذ يقول :

« وهى من الهاشميات الغر بناها من المسك والدر ، لا من الجص والآجر ، بل خلدها حديثا على الدهر وسر بها مطالع النجوم الزهر لو قرعت سمع دعبل بن علي الخزاعي والكميت بن زيد الاسدي لا مسكا عن القول وبرئا اليها من القوة والحول ، بل ولو رآها السيد الحميري وكثير الخزاعي لاقاماها بينة على الدعوى ولتلقياها بشارة على زعمهما بخروج الخيل من رضوي...» (11)

والقصيدة طويلة ، ولكن لم يبق منها سوى (77) بيتا استغرق الحديث فيها عن نفسه ومآسيه حوالى الثلثين حيث بث خلالها أناته الحزينة وزفراته الملتهبة وهلعه الشديد على مصير اسرته وفلول أهله الذين افلتوا من جحيم الفتنة وما تجرعوه من غصص وما تجابههم به الحوادث من أخطار مكشوفة . ان احساسه بالخطر الداهم لاطفاله قد أجج موهبته

وانعم نغماته بالاسى المتوهج ولم ينس ان يقارن هذا الحاضر المظلم بالماضى المشرق ولكن اكثر من يروعه هو المستقبل المكفهر المتجهم . ثم بعد هذه المقدمة التى هى فى الحقيقة مسوغات مدحه ومبررات استرزاقه يتوجه بالخطاب الى الممدوح الهاشمى الطالبى وحتى فى هذا الجزء نراه يمزج المدح بالشكوى حتى لكأنك لا تسمع سوى صيحات الاستنجاد وصراخ الخطر .
وفى ربط الشاعر الممدوح بأجداده يختار من سني خلالهم كرم الضيافة ، وايواء المستجير وهو لا يقتصر على ذكر شمائل الرسول صلى الله عليه وسلم فى الكرم والضيافة والايواء وانما يشير ايضا الى ما كان للهاشميين والطالبين من مكانة فى هشم الثريد واكرام الضيف حتى وحوش الفلا وذلك أيام الجاهلية .

وقد تناول ابن دراج فى هذه القصيدة بعض الافكار الشيعية بتفصيل اكثر ، فالممدوح هو ابن الوصى وآله خير من يحلون الجنة ، وانهم اجدر بالخلافة فى أمور الدين والدنيا . فقد ثبت لهم ذلك بالكتاب والعقل وهم ائمة وقدوة فى مجال القول والعمل وبهم يقتدى فى الحياة والموت وفى هذا الجزء من القصيدة لقطات جميلة صور فيها حنان الرسول صلوات الله وسلامه عليه وحدبه على احفاده وذلك بأسلوب حزين ومشاعر صادقة ، ونستطيع القول بان ابن دراج كان صادق المشاعر وعميقها فى تصويره ذاك لان موضوع الاطفال والحنان عليهم والرأفة بهم مما يهز عواطفه ويثير أشجانه لا سيما فى مثل هذه الظروف الحرجة من حياته . فالموضوع هنا مما يتعاطف معه الشاعر لانه يعيشه ويعانيه لذلك فهو يعبر فى الحقيقة عن ذاته واحاسيسه وتجربته .

وفى القصيدة رقم (161) التى مدح بها يحيى بن على الحمودي لا يتناول فيها غير الشكوى والبكاء واستدرارا للعطف على أطفاله وليس فيها سوى بيت واحد يشيد باوجه الفاطميين ويعنى بهم الحموديين يقول فى مستهل هذه القصيدة :

وفى غيابات أطباق الخطوب شج بالبين ييأس أحيانا وينتظر

مظاهر بين ليلى كربة ودجى لا يرتجى لهما فجر ولا سحر

ويقول عن اولاده :

حان على كرش منثورة سلب يكاد من شجوهن النجم ينتشر
ابرزن من ستر الاكرام وانسدلت من الهوان علينا بعده ستر
ولا يد غير ايدي الظلم تعرفنا ولا بغير دموع العين ننتصر
نرعى الهشيم ونمتص الثمار وقد اظل انهارنا الاغصان والثمر

وبعد تصوير مأساته ومأساة اسرته يشرع فى المدح العادي ويختمه بقوله :

لعلنا نرد الماء الذي صدرت عنه الحوائم وردا ما له صدر
وتنجلى ظلمات الخطب عن امم لا الشمس آفلة عنها ولا القمر
بأوجه الفاطميين التى شهدت شمس الضحى انها فى وجهها الغرر

وله فى ادريس بن على امير سبتة قصيدة رقم (162) يهنئه فيها بمولود وليس بها اثر شيعى متميز .

ان ارتباط ابن دراج بالحموديين كان عابرا وبدافع الاضطرار لذلك لم يكن تشيعه نابعا عن اخلاص لمذهب او التزاما بقضية انما همه اولا واخيرا البحث عن ملاذ لاسرته المشردة . اما ابن شهيد فقد كان مخلصا لنفسه قبل كل شيء ليبحث عمن يسند له الوزارة وينصره على خصومه وينتقم له من اعدائه ويحفظ له موارده وممتلكاته وفى الازمات الصعبة عمن يلوذ به فرارا من السجن او الفتك فلقد التجأ الى يحيى الحمودي أمير مالقة بعدما شعر بأن أعداءه سيفتكون به وسيخسفون بداره الارض يقول لاعدائه (رقم 12).

عليكم بدارى فاهدموها دعائما ففى الارض بناؤون لى ودعائم
لئن اخرجتنى عنكم شر عصبة ففى الارض اخوان على اكارم
وان هشمت حقى امية عندها فهاتا على ظهر المحجة هاشم
ولا غرو من ترك القلانس جانبا اذا عرفت حقى هناك العمائم

وله في يحيى قصائد مدحية (24 ــ 23 ــ 4944) وليس فيها ما يشير الى المعانى الشيعية او المتصلة بآل البيت .

وابن الحناط (محمد بن سليمان الرعينى 434) لا يختلف عن ابن دراج وغيره من الشعراء الذين فاجأتهم الفتنة واذاقتهم من ويلاتها مما جعلهم هدفا لكل مصيبة تفوق نحوهم بسهامها ويردد ابن الحناط نفس الشكاوي التى يرددها ابن شهيد وابن حزم وابن دراج ، فلا ذنب له سوى انه عالم اديب ذو فهم فى حين ينعم السفلة والانتهازيون البلداء بالمال والحكم ويتصرفون كما يشتهون فى مصائر الناس واموالهم واعراضهم .

وفى ظروف الفتنة حيث يكثر الهرج والفتك والانتقام تنقلب القيم وتفسد المقاييس ويتعكر الجو فتبرز ظاهرة الحكم المرتكز على التسلط والاكراه والمغامرة مما لا يتسنى القيام به الا من ذوي الطموح المنحط والنزوات الطائشة الذين يسارعون بالبد نحو الخراب والضياع .

واذا كان ابن شهيد قد وجد فى ضياعه وممتلكاته ما يجعله غير مضطر للتوسل ، فان ابن الحناط (13) رفيقه وخصمه كان فقيرا وأعمى ولعل عماه وقدرته على مسايرة الناس اعاناه على الاستقرار اكثر بقرطبة وهو من الشعراء الذين استقبلوا على ابن حمود استقبالا حماسيا ووصفه بأوصاف سنية مما انسى الناس المنصور والسفاحا . وكان الناصر الحمودي هذا على عجمته (لانه قد تبرر) وبعده عن الفضائل يصغى الى الامدح . فالذي اقام الدين حسب شهادة ابن الحناط هو الذي سارع الى هدمه وهدم المجتمع القرطبى المسلم فى الحقيقة وقد استراح الناس عندما اغتاله بعض غلمان القصر .

وعندما استولى القاسم بن حمود على الحكم سارع ابن الحناط الى مدحه والاشادة بخلاله وقد سجل مقتل المرتضى المروانى (عبد الرحمن بن محمد) سنة 409 وانهزام الجيوش المؤازرة له بقيادة خيران ومنذر التجيبى واصفا لهم بجمع « الكفرة » واتباع الشيطان الذين هزمهم حزب الله الذي كان جبريل رائده يقول :

واشرقـــت الـــدنيـــا بنور خليفـــة به لاح بـــدر الحـــق بـــدر افـولـــه

من الهاشميين الذيـــن بمـــجدهـــم تعـــود شخص المجـــد جر ذيولـــه

وفى هذه القصيدة نــــراه يشير الى أحقية هـــذا الحمـــودي بالملـــك الذي انتزعه من خيران يقول :

لـــك الخير خيران مضى لسبيلـــه واصبح ملك الله فى ابن رسولـــه

وفرق جمع الكفر واجتمـــع الورى على ابن حبيب الله بعد خليلـــه

ولكن هذا الامير المسكين أصابه ما اصاب رفاقه حيث مله النـــاس وانحسر عنه حماسهم وتحولت اهواؤهم عنه الى غيره فلم يجده سوى الفرار من قرطبة انقاذا لحياته من فتكة مترصدة او طعنة غـــادرة فدخل يحيى قرطبة ليبايع بامارة المؤمنين وقد ولى الخلافة مرتين كعمه القاســم وذلك فى سنتى 412 — 416 ، اشتهر يحيى بسكره وعربدته ومغامراتـــه كجل الحموديين الذين تسلطوا على الاندلس واسهموا بحظ وافر فى تقويض اركانها باسم « رسول الله » وهو من افعالهم براء ، ولما كان كل اميـــر يستولى على قوة الجيش وقوة المال فان شاعرا ضائعا مثل ابن الحناط كان لا يرى أي حرج من استجدائه ومنافقته لان الفرد عندما يفقد الشعور بكرامته يسخر كل شيء من أجل مكاسب مادية وبخاصة اذا كان فى حاجة ماسة وقد سار ابن الحناط فى ركابه واصبح شاعره يصف بعض معاركه وايقاعه بالسودان بأشبيلية ولعله كان ينتقل معه .

ومع ذلك فان ابن الحناط كان كثير الشكوى ، ولذلك كان يضطر لان يعلن حبه لمن أحيـــى مواته يقول فى المعتلى :

امـــت امير المؤمنيـــن مواحـــلا سقى صداها غيثـــه الشؤبـــوب

المعتلـــى باللـــه والملـــك الـــذي تـــاج الفخار براســـه معصـــوب

ان كان عدوا أحـــب آل محمـــد ذنبـــا فانـــى لست مـــنـــه اتوب

ثم تغير الحكم واسندت الخلافة العجفاء الى هشام الملقب بالمعتد بالله الاموي ، وكان حكمه نكبة تضاف الى نكبات قرطبة البائسة وقد احيط ببطانة سوء « اكثرهم صبية أغمار ممن ديدنه حث الكأس وتنضيد الآس وطبخ الترفاس والتفكه بأعراض الناس (14) وكان أمير المؤمنين — زعم — لاهيا عن شؤون الحكم بما اعده له وزيره الجاهل من القينات والملهيات . وفى هذا الوزير يقول الشاعر أبو الربيع :

هبك كما تدعى وزيرا وزير من أنت يا وزير ؟

والله ما للامير معنى فكيف من وزر الامير

وكان ابن الحناط عضوا بارزا فى تلك البطانة بجانبه رفيقه وخصمه ابن شهيد . وقد سئل ابن الحناط عن سيده هذا بعد عزله فأجاب متهكما « يكفى من الدلالة على اختياره انه استكتبنى واتخذ ابن شهيد جليسا (15) وكان ابن الحناط اعمى وابن شهيد اصم . وقد خلع سيده سنة 422 وطرد شر طرد كما اغتيل وزيره ابن القزاز .

يتبين من هذا ان ابن الحناط كان مـ ناصحاب المصالح والاهواء المرتبطة بالحاجة وقد كان مشردا مطاردا محفوفا بالاخطار ليس له من وسيلة سوى شعره وقلمه يسخره لمن يدفع ، لذلك كان يتقلب بين حزب وآخر فى لحظة وجيزة وبمقدار ما يتحول مؤشر المصالح وكان ابن الحناط حريصا على المكوث فى قرطبة بعد عزل سيده غير ان ابن جهور ازعجه عنها لما كان يتهم به فى دينه . يقول ابن سعيد :

« وكان الغالب عليه المنطق حتى اتهم فى دينه ونفى عن قرطبة ويبدو أنه اعتمد فى اتهامه هذا على ما أورده ابن حيان عنه حيث يقول 438 (16) .

«وكان من اوسع الناس علما بعلوم الجاهلية والاسلام بصيرا بالآثار العلوية عالما بالافلاك والهيئة حاذقا بالطب والفلسفة ماهرا فى الربية والآداب الاسلامية وسائر التعاليم الاوائلية من رجل موهن فى دينه ومضطرب فى تدبيره سىء الظن بمعارفه شديد الحذر على نفسه ، فاسد التوهم فى ذاته عجيب الشأن فى تفاوت أحواله » ...

فاضطر للعودة الى احضان الحموديين من جديد فهاجر الى الجزيرة الخضراء التى كانت تحت حكم محمد بن ادريس الحمودى ، وقد انشأ بهذه المناسبة قصيدة لم يبق منها سوى ابيات يصف فيها انزعاجه عن قرطبة وهجرته للجزيرة التى امل ان تكون له دار اقامة وامن بعد ان عانى من حياة الظعن والعداوة ، يقول :

تفرغت من شغل العداوة والظعن   وصرت الى دار الاقامة والامن

فلله سيري يوم ودعت صحبتى   زماعا ولم اقرع على ندم سنى

وهو هنا مثل ابن شهيد الذي لم يقرع سنه ندما على فراق قرطبة ثم يصف طريق الرحلة الطويلة بين قرطبة والجزيرة وهو وصف واقعى ودقيق الى ان وصل الى مدينة المنكب Almunicar فاتخذ البحر سبيلا الى الممدوح فيقول :

ولما تنكبنا المنكب لم نجد   لنا مركبا اهدى سبيلا من السفن

ترامت بنا الاهوال فى كل لجة   تخيلها جوا تجلل بالدجن

ترى السفن فوق الموج فيها كأنها   تحدرت من رعن وتوفى على رعن

فبوات رحلى ظل اروع ماجد   يقول بلا خلف ويعطى بلا من

امام وصى المصطفى وابن عمه   ابوه ، فتم الفخر بين اب وابن

وقد بزغ نجم ابن الحناط فى ظل الحموديين ومدحهم بقصائد متعددة ولكنه لم يكن مشايعا لآل البيت عن عقيدة وحتى الامراء الحموديون لم يكونوا يرغبون الشعراء فى ذلك الاتجاه ...

ومات ابن الحناط فى جمادى الاخرة سنة 437 قبل ان يرى سيده يبايع بالخلافة المزقة بالجزيرة الخضراء سنة 439 هـ.

وابن مقانا الاشبوتى كان تائها ضائعا مثل زملائه شعراء وادباء هذه الفترة ينتقل من مدينة الى اخرى يمدح الزعماء والمستبدين الذين

يركزون سلطتهم داخل حدود أقاموها بينهم وبين نظرائهم ممن تراموا على الدولة الاندلسية يمزقون وحدتها ويقتسمونها فيما بينهم وكل زعيم من هؤلاء الزعماء اصبح فى حاجة لمن يدعم حكمه التافه بكل وسيلة ومنها وسيلة القول ان صدقا وان كذبا وابن مقانا من اولئك الذين وجدوا الفرصة مواتيه للتوسل الى الحموديين ببعض المعانى التى تمت الى المناخ الشعري المغالى فى حدود ما يقبله الحموديون انفسهم وقد انشد الشاعر الخليفة ادريس الحمودي من وراء حجاب حيث كان يتشبه بخلفاء بنى العباس ، فلما بلغ الشاعر الى قوله :

انظرونا نقتبس من نوركم   انه من نور رب العالمين

أمر حاجبه أن يرفع الحجاب وقابل وجهه وجه الشاعر دون حجاب وأمر له باحسان جزيل يزيد المقري قائلا : « فكان هذا من أنبل ما يحكى عنه » وليس فى التصيدة الطويلة من أفكار شيعته الا أفكار عامة مشتركة بين جميع من يحب آل البيت فقوله : (17)

يا بنى احمد يا خير الورى   لابيكم كان وفد المسلمين

خلقوا من ماء عدل وتقى   وجميع الناس من ماء وطين

انظرونا نقتبس من نوركم   انه من نور العالمين

ويبدو ان عبادة بن ماء السماء كان اكثر هؤلاء الشعراء صدقا فى حبه للحموديين (18) ولعل ذلك بدافع تلك العلاقة العريقة التى تجمع بين أسرته وآل البيت فهو نفسه يشير الى ذلك الولاء صراحة يقول :

وعندي صريح فى ولائك معرق   تشيعه محض وبيعته بتل

ووالى ابن قيس اباك على العلى   فخيم فى قلب ابن هنده غل

ولذلك يقول عن ابن بسام : « وكان عبادة يظهر التشيع فى شعره، وفى الحقيقة انه كان اكثر الشعراء فى هذه الفترة تناولا لبعض الافكار

الشيعية مثل الوصية وميراث الحموديين للخلافة من النبـي وتقديس على بن حمود تقديسا حمله على ان يدعو الى الصلاة عليه والتسليم له فيقـول :

ابوكـم علـى كان بالشرف بدء ما ورثتم وذا بالضرب ايضـا سميه
فصلوا عليـه اجمعـون وسلموا لـه الامران ولاه فيكـم وليـه

ويقول من اخرى فى نفس الممدوح :

صلى عليك الله يـا ابن رسولـه ووليه المخـتـص بعـد خليلهـ
وزع الالـه ببأسـه وعقابـه مـا لـم يزع بالنـص من تنـزيله

ولعل الشاعر يحاول ان يجعل عليا هنا هو المراد بالقـول المشهور « ان الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » .

وهو يعتبر ان حزب على الحمودي هو حزب الله الذي اطاعته القلوب ولكنه يشيد فى نفس الوقت بولاية العهد التى اسندها هشام الاموي الى على بن حمود الذي قام بعد اغتيال الخليفة يطالب بدمه مستظهرا بالعهد الذي له منه يقول الشاعر : 1ـ1/478.

ابالك ان تـهـاض علاك عـهـد هشـامـى وحدهـا سمـى

ويفجع الشاعر باغتيال سيده لكن استيلاء القاسم على الخلافة هدأ من روعـه ؛ يقـول :

مـا غـاب التـم الا ريثمـا جلى الدجـى عـن الصباح الازهر
أن يهو من افـق الخلافـة نيـر تهـدي السبيل فقـد تـلاه نيـر
بالقاسـم المامـون افرخ روعنـا فالقسـم واف والنصيـب موفـر

ومن حينئذ اصبح من شعراء القاسم وله فيه قصائد منها قصيدته التي يقول فيها :

ما ضيع الله ملكا انت راعيه ولا اباح ذمارا انت حاميه

ثم يصبح اثر هذا شاعرا ليحيى بن على الحمودي الذي كان يناوىء عمه القاسم حيث هاجر الى مالقة ليعيش فى كنفه ويموت هنالك بعد سنة 421 كما يفهم من رواية للحميدي عن ابن حزم او فى سنة 419 كما ينص ذلك ابن شهيد (جذوة المقتبس ص 275 ـ الذخيرة 1 ـ 1/470-457) وابن عبادة كان كغيره من الشعراء يكتسب بشعره ولا يقصره على أحد دون آخر . فقد سبق له أن مدح الحاجب ابن ابى عامر ورثى والد زيدون .

الى هنا نكون قد تناولنا المرحلة الخاصة بالظاهرة الشعرية الجديدة التى برزت على عهد الحموديين حيث نشطوا المدح المشوب بافكار شيعية . وباختفاء هؤلاء الحموديين يختفى هذا النوع من الشعر ليبرز بعده تيار ادبى مرتبط بآل البيت ولكنه يهتم اكثر ببكاء الحسين وتناول مأساته ، وذلك ما سنتناوله فى الحلقة الثالثة باذن الله .

(يتبع)

فاس — د. عبد السلام الهراس

المصـــادر والمراجـــع
حســـب الاشارة اليها أثنـــاء البحـــث

1 ـ جذوة المقتبس للحميدي ص 101ـ102

2 ـ انظر بحث الدكتور محمود مكـــى ـ صفحات 112 ـ 115 الهامة التي اوردها ابن حيان عبد الله مسرة فى كتابه : المقتبــس ـ مخطوطة الخزانة الملكية . ـ

3 ـ نفس الصحيفة ـ 132ـ133.

4 ـ المقتبس ص 58 ـ مخطوطة الخزانة الملكية

5 ـ الذخيرة 1ـ2/161 ، انظر بحث الدكتور مكـــى وحموديات ابن دراج بديوانه وحموديات عبادة بن ماء السماء فى الذخيرة

6 ـ انظر مقدمة التحقيق لكتاب ـ درر السمط فى خير السبط » لابن الابار .

7 ـ التكملة 293/1 نفح الطيب 511/2ـ512 .

8 ـ الذخيرة 1ـ391/1.

9 ـ اعمال الاعلام 122 .

10 ـ ديوان ابن دراج ـ تحقيق د. محمود مكـــى

11 ـ الذخيرة 1ـ87/1ـ88 تحقيق د. احسان عباس ـ الدار العربية للكتـــب ـ لبنان 1977.

12 ـ ديوانه ـ رقم القصيدة 63

13 ـ الذخيرة 1ـ437/1 ـ تحقيق د. احسان عباس ـ الصلة ص 140 ـ التكملة ص 387 الذيل والتكملة 221/6 المغرب 121/1 ، جـــذوة المقتبس .

14 ـ البيـــان المغرب 149/3

15 ـ المغرب لابن سعيد 3/1

16 ـ الذخيرة 1 ـ 434/1

17 ـ نفح الطيب 434/1ـ435

18 ـ الذخيرة 1ـ468/1 ـ تحقيق د. احسان عباس ـ المطمـــح لابن حاقان 95 ـ نفح الطيب 52/1 ـ جذوة المقتبس 275 .

د. ع. هـ

أنا والحرية..!

علي الصقلي

كم قيل : ما لم يال جهـــــ	ــدا فى سبيلـــك لا يــراك
كــلا ! ولا هــو فى الــورى	اهـــل لتحضنــــه يـداك
فمضيــت لا تــلوي طــريــ	قــى بى على شىء ســواك
أقفــو خطــاك ، ترى اتسـ	ــلمنى الطريــق الى خطاك ؟
فى الـــزهرة المعطار ، بــيــ	ن الشـــوك ابحث عن شذاك
فى الفـــرقــد اللماع ، جـــ	ــوف الليل ، استجــلى سناك
بين الوحوش الخرس ، عبــ	ر الغـــاب ، عل بــه صـــداك
فى الرعد ، فى قلــب الــزوا	بع استصيــخ الــى نــداك
فــوق الذرى ، آه امتــطيــ	ت أنـــا السمـــاء الــى ذراك

لكنهــا لــيــســت ســمــا ءك ، لا ! ولا هــذا ثـــراك
اواه ! زاغــت بى الطريــق ــق اليك ، أيــن اذن تــراك

*

وكــذاك طوح بـــى الخيــا ل ، وتهــت فى درب الضلال
وافـــقــت من حــلــم علــ ى أنــــاخ معتــكــر الظلال
لاراك لا بيـــن الـــخـمـــا ئل ، او على قــمــم الجبال
بل ملء روحى ، ملء حســ ى فى جمـــالــك والــجــلال
بل لســت انت ســوى أنـــا حـــتـــى اســيــر الى زوال
ما الحق ؟ بل ما الحـــب دو نك؟ ما الكرامـــة؟ ما النضال؟
يا سر معنى المــجــد اكـــ ليلا علـــى هـــام الــرجــال
يـــا كــل نجــوى القلب مـــ ـما قــد يقال ولا يـــقـــال
يا قوت هذا الكــون ، قـــبـــ ـل الخبــز والمــاء الــزلال
حقــل هـــو الكــون الفسيـــ ـح ، وانت فيه سنى الجمال
وأنـــا ، كنــبــت فى مــغــا رسه ، ألست ســوى مثال ؟

ستروكـــة **علي الصقلـــي**

ذوو اللسانين في الأدب العربي

د . عبد اللطيف السعداني

الموضوع الذي نعرض لبحث جوانب من مظاهره فى الادب العربى، يشخص لنا الى حد واضح آثارا ما كان لها ان تحدث لولاه ، ويشرح لنا تحولات طرات على هذا الادب لا يمكن الاستغناء عنه لتحليل خباياها . بل به يتيسر فهم العوامل التى شاركت فى تكوين الفكر العربى والتى تمكن من أن نتجاوب مع معطياته .

بدا منطلق هذا الحدث فى تاريخ الفكر العربى خطوطا متوازية ، وكلما امتدت فى اعماق الزمان ، وتسربت فى غور الايام ، زادت اقترابا من بعضها وانسجاما ، ثم تشابكت وتداخلت حتى بدى الخوض فيها امرا مشوبا بالمخاطر ، عسير المنال ـ فقد لمس هذا المسار التاريخى الفكر العربى فى رفق ودعة ، وترك وقع بصماته انغاما نقشت على صفحات النفوس والمشاعر ـ وان هذه الخطوط مهما ظلت باهتة اللون حتى اليوم ، فستبقى اهميتها بالغة ، اذ فى ظلالها تحرك دبيب الفكر الاسلامى بين الفرس والعرب ، يبث كل منهما من روحه وذات نفسه .

∴

الذي اعنيه بـ : ((اللسانين)) هو لسان العرب ولسان الفرس . وبين اللسانين اتصال يعود الى اعصر بعيدة . وبين القومين صلة بلغ بها المؤرخون المسلمون درجة القرابة والنسب . فقالوا : ان الفرس أبناء اسحاق . وفى هذا يقول الشاعر العربى جرير بن عطية الخطفى (متوفى سنة 111 هـ) مشيراً الى ان فارس والروم والعرب هم جميعاً اولاد اسحاق بن ابراهيم :

وابناء اسحاق الليوث اذا ارتدوا محامل موت (1) لابسين السنورا
فيوما سرابيل الحديد عليهم ويوما ترى خزا وعصبا منيرا
اذا افتخروا (2) عدوا الصبهبذ منهم وكسرى وآل الهرمزان (3) وقيصرا
ترى منهم مستبصرين على الهدى وذا التاج يضحى مرزبانا مسورا
اغر شبيها بالفنيق اذا ارتدى على القبطري الفارسى المزررا
وكان كتاب فيهم ونبوة وكانوا باصطخر الملوك وتسترا
لقد جاهد الوضاح بالحق معلما فأورث مجدا باقيا اهل بربرا
ابونا ابو اسحاق يجمع بيننا أب كان مهديا نبيا مطهرا
فيجمعنا والفر ابناء سارة اب لا نبالى بعده من تعذرا
ابونا خليل الله ، والله ربنا رضينا بما اعطى الاله وقدرا (4)

وربط بينهم بعض المؤرخين برباط المصاهرة ، فقالوا : ان الضحاك قد كان عربيا من تبابعة اليمن ، وأن ملك كابل الذي كان من اولاده قد زوج بنته روذابه بزال بن سام ، وكانت ثمرة هذا الزواج بطل الفرس الملحمى، رستم بن زال . وزوج سرو ملك اليمن بناته الثلاث لابناء افريدون : سلم

---

1) محامل موت : حمائل ملك
2) افتخروا . انتسبوا .
3) آل : عدوا
4) ديوان جرير . ج 1 ص 242 — 243 .

وتور وايرج ومنهم تكون ملك الروم والترك وايران ، حسب الاسطورة . وفى غزو كيكاوس لبلاد اليمن وقعت معارك مثيرة بين العرب والفرس ، ثم انتهى الامر بزواجه من سودابه بنت ملك حمير (5) . ويردد التاريخ ايضا ، ويردد معه الشعر العربـــى اخبار زواج شابور الاول مع النضيرة بنت الضيزن ملك الحضر (6) فى مشاهد اختلطت فيها الحرب بالحب ، تناقلتها اشعار الاعشـــى (7).

وتعرف علاقة العرب والفرس مع سابور الثانـــى (309—379 م) مرحلة اخرى من التفاهم ، ونقطة فى اتصال العرب بلغة الفرس وبيئتهم . فقد اسكن سابور قبائل عربية بايران ، اسكن بنى تغلب دارين — واسكن عبد القيس وقبائل من تميم هجر ، واسكن بكر بن وائل — بعدما ذاقوا الويل من الفرس — كرمان ، واسكن من بنى حنظلة الاهواز وتـــوح من كور فارس واسكن وجوههم مدينته المسماة فيروز سابور ، وادخل بعضهم فى عداد حاشيته ، وأسكن من قبائل العرب بنى شيبان وبنـــى غـــفـــار

ثم يلتقى العرب والفرس على مسرح التاريخ ، فيجمعهم النسب بالرضاع ، فبهرام بن يزدجرد الاثيم يرسل الى بلاط المناذرة فى الحيرة ليتعلم آداب العرب ويتربى وينشا نشاة عربية على الشهامة والفروسية والكرم والفصاحة . فترضعه هناك امراتان عربيتان واخرى فارسية . وكان للحيرة فى عهد المناذرة شان كبير فى هذه الصلة اوثق العلاقة بين العرب والفرس .

وتاكدت صلة المودة بين العرب والفرس حينما قدم انوشيـــروان العون لسيف بن ذي يزن ، ملك اليمن ، ليساعده على صد غزو الاحباش سنة 522 ميلادية ، فسمى جيش الفرس لذلك جيش النجاة ، وانحازت اليمن الى فارس منذ ذلك الحين . واصبح ذو يزن عامل كسرى عليها الى

---

5) تروى الشهنامة هذه الحوادث بتفصيل . انظر : مدخل الى الشهنامة . للدكتور عبد الوهاب عزام . ص 242 — 243

6) انظر : تاريخ الطبري : ج 2 ص 47 .

7) انظر : ديوان الاعشى ص 201 طبع بيروت .

ان مات . ثم تتابع الولاة الفرس عليها بعده . وكان العرب هناك يسمون الفرس — نتيجة لذلك — بالابناء وببنى الاحرار . وفى شعر ابى الصلت(8) وعدي بن زيد العبادي (9) اشارات الى هذه التسمية ومدح للفـرس بتلك المناسبة .

ولقد تحقق فى بلاد العرب الشيء الكثير مما مهد لاتصال العرب والفرس وتبادل الاستفادة بينهما . وبينما نجد اخبار الترابط بواسطـة النسب تجمعهما تروى عن المصادر الاسلامية سعيا وراء تقريب الشعوب الاسلامية من بعضها البعض ، فان المصاهرة بين العرب والفرس كانت فى البلاد العربية كثير الاتفاق ، متمثلة فى العرب الذين كانوا يتزوجـون بالمجوسيات (10) . وكان ذلك من الكثرة بحيث وجد فيه ابو الحسن على ابن محمد المدائنـى (11) المادة الكافية للكتابة ضمن مؤلفاته فى « اخبار العرب ...» من تزوج مجوسية (12) . ويكفى تاثيرا ما يستخلصه العربى من هذا الزواج من تقمصه للشخصية الروحية الفارسية فى نـفـسه ، وتمثلها فى عقيدته وانصرافه الى تهذيب احواله وافعاله واقواله وفـق حكمتها وحسب ارشادها .

ويفيد هذا ان المجوسية التى هـى دين الفرس ، كانت شائعة فى بلاد العرب وبينهم حتى لقبت احدى قبائلهم بها وهم بنو مخزوم الذيـن دعوا بـ « المجوس » ويقول ابن قتيبة حول اديان العرب : « وكـانت المجوسية فى تميم ، منهم زرارة بن عدس التميمى وابنه حاجب بن زرارة،

---

8) كقوله : حتى اتى ببنى الاحرار يقدمهم تخالفهم فوق سهل الارض أجيالا

9) كقوله من قصيدة يستعطف بها النعمـان :

ما بعـد صنعـاء كـان يعمـرها سادات ملك جزل مواهبها

10) شبيه بهذه الظاهرة وما تركت من آثار ما حدث بعد ذلك من تزوج الموالى بالعـرب . وقد الف فى ذلك الهيثم بن عدى الطائى (130 — 209 هـ) ، كتاب من تزوج من الموالى فى العرب .. معجم الادباء ، ياقوت ، ج 19 ص 319

11) الحارث بن ابى ثمامة المدائنى أبو الحسن على بن محمد بن عبد الله بن أبى سيـف ، مولى شمس بن عبدمناف (135 — 215 أو 225 هـ) . انظر عن أخباره وكتبه : الفهرس لابن النديم . ص 153 — 158 . طبع مصر .

12) « كتاب من جمع بين أختين ومن تزوج ابنه امراته ومن جمع أكثر من اربع ومن تـزوج مجوسية » الفهرس ص 155 .

وكان تزوج ابنته ثم ندم ، ومنهم الاقرع بن جابس كان مجوسيا وابو سود جد وكيع بن حسان كان مجوسيا . وكانت الزندقة فى قريش اخذوها من الحيرة ...» (13) . وفى هذا نموذج لما أمكن أن يتسرب الى عقائد العرب وأفكارهم وعاداتهم من هذا المصدر ... وفى البعثة النبوية تحددت لنا ، من خلا لبعض الاحاديث والرسائل النبوية والاخبار والروايات بعض المناطق التي كان بها هؤلاء العرب المجوس وقبائلهم التى تمجست . فقد كانوا فى اليمن ، حيث فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم على كل من بلغ الحلم من مجوس اليمن من رجل أو امرأة دينارا أو قيمته من المعافر (14) وميزوهم — والنصاري واليهود — بأن جزوا رؤوسهم (15) . وفى هجر ، وكان واليها مرزبانا يسمى سيبخت ، فقد كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوهم للاسلام ، فان اسلموا فلهم ما لنا وعليهم ما علينا ،ومن ابى فعليه الجزية ، من غير أكل لذبائحهم ولا نكاح لنسائهم(16) وكانوا فى عمان « وكان الاغلبين على عمان من الازد » (17). وفى البحرين وقد كانت ارض البحرين ونواحيها من مملكة فارس ، وكان بها خلق كثير من العرب من عبد القيس ، وبكر وائل ، وتميم ، مقيمين فى باديتها ، (18). وكانوا فى القطيف ، وهى قرية من البحرين (19) . وفى السابون والغابة والزارة ، ولم تفتح كلها الا فى خلافة عمر بعد ان حوصرت فى عهد ابي بكر (20) .

هذه النزعة المجوسية التى كانت شائعة بين العرب ، عملت على دفع المشركين بعد الاسلام الى الميل الى الفرس . وعامل الاسلام المجوس بمعاملته لاهل الكتاب ، فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم فى حق مجوس هجر : « سنوا فيهم سنة أهل الكتاب » فأخذت منهم الجزية . ولما

---

13) المعارف لابن قتيبة ص 266
14) فتوح البلدان ، للبلاذرى ص 83 .
15) فتوح البلدان ص 80 .
16) فتوح البلدان ص 91 .
17) فتوح البلدان ص 88 .
18) فتوح البلدان ص 89
19) فتوح البلدان ص 92 — 96
20) فتوح البلدان ص 96 .

كره المجوس واليهود بالبحرين الدخول فى الاسلام وفضلوا الجزية قـال منافقو العرب : ((زعم محمد آنه لا يقبل الجزية آلا من آهل الكتاب وقـد قبلها من مجوس هجر وهم غير اهل كتاب)) ، فنزلت ((يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم)) (21) . وعندما هدى الله سلمان الفارسـى الى الاسلام بعد المجوسية ، انفتح عالم فارس من جديد للعرب فى ظل الاسلام . وكانت حظوة سلمان لدى النبى صلى الله عليه وسلم ايذانا بالدور الذي ستقوم به هذه الامة فى بناء الحضـارة الاسلامية

وفى ظل الإسلام أيضا تحققت مرة اخرى صلة القرابة الروحيـة والفكرية ، وصلة المصاهرة والنسب بين العرب والفرس ، ويرمز الى هذه زواج ثلاثة من نجباء العرب وورثة الصديقية والفاروقية والحيدرية. هم : القاسم بن محمد بن ابى بكر ، وسالم آبن عبد الله بن عمر ، وعلى ابن الحسين زين العابدين بن على ، بثلاث بنات من يزدجرد الثالث آخر ملوك الدولة الساسانية . (22) والزواج الاخير على الخصوص انجـب فكرة دعمت دعوة الحكم عند الفرس ، حيث جمع فيه شرف النسـب النبوي وسلالة سؤدد الملك الكسروي .

هكذا استحكمت الصلات بين الفرس والعرب باوثـق عـروة ، وتظافرت العوامل على ارساء آسبابها ، فسرعان ما تكونت مظاهر هذه الصلات ثم تكاملت . ولقد بدى اتصال لغة القومين اروع مثال جمع امتين فى تاريخ البشرية . وارتبطت لغتهما منذ ذلك الحين الى ما شاء اللـه . لهذا لم يكن غريبا ان دخلت اللغة العربية منذ ما قبل الاسلام مسميات حضارية واصطلاحات مدنية وتعابير لم يكن للعرب بها عهد من قبل ، ترددت فى احاديث الناس وكلامهم المنثور والمنظوم . ولا كان صعبا ان تحل العربية بعد الاسلام لغة الفرس بنسبة ستين فى المئة ، فتشارك بهـذه النسبة الضخمة فى تكوين ادبهم ، وتفتح لهم بحار معانيها ليتفـنـنوا فى استخراج كنوزها ، حتى تم لهم ابداع لغة اسلامية رائعة ..

---

21) فتوح البلدان ، للبلاذرى . ص 90 .
22) انظر : وفيات الاعيان لابن خلكان . ج 1 ص 403 .

هذا المد والجزر في صلات العرب والفرس ، وهذه المصالح التي تولدت عن ذلك فساعدت على ربط الامتين ، كل ذلك شد انظار العرب الى فارس التي كانت امبراطورية ذلك العالم المهيبة ، وحفز بعضهم الى الاخذ من اسباب حضارتها ، والارتواء من معين مراكز الثقافة فيها .

رحل الحارث بن كلدة الثقفي (23) ، طبيب العرب ، الى جندي سابور (24) . فتعلم هناك الطب وتعلم العزف على العود .

ثم قابل كسرى انوشيروان ، فدارت بينهما محاورة ممتعة جدا حول الطب ، عبر فيها الحارث عن نظرياته وآرائه وخلاصة تجاربه ، فأبان عن ادراك واسع وخبرة كبيرة وفطنة ودهاء انتزع بها اعجاب كسرى وتقديره . (25) .

لقد أقام الحارث بن كلدة في بلاد فارس لاجل طلب العلم ، وذلك يستلزم مدة قد تطول وقد تقصر ، كما يستلزم المعرفة الضرورية بلغة التدريس لتلقي هذا العلم . لذلك ، فان مدة هذه الاقامة تكفي مهما قلت لان يصبح الحارث ملما بلغة القوم الى الدرجة التي تسمح له بتلقي العلم . وتزداد معرفته بهذه اللغة بفعل البيئة الفارسية باضطراد واستمرار . وقد يصل به ذلك الى درجة الانطلاق في حوار فني يستطيع معه التعبير عن مراده بدقة ، وبلغة ادبية جميلة . ولكنا نحتار — مع ذلك — أمام هذا البيان البليغ في الحديث الطويل الذي دار بينه

---

23) الحارث بن كلدة الثقفي طبيب العرب وحكيمها . كان مولده قبل الاسلام وادرك الاسلام فاسلم . وقد كان النبي يأمر من به علة أن يأتيه فيتطبب عنده . رحل الى فاس مرتين. وكانت وفاته حوالي سنة 50 هـ حيث عاش حتى زمان معاوية .

24) جندي سابور مدينة بخوزستان يقع مكانها اليوم بين دزفول وشوشتر اقيمت فيها جامعة كبرى اقتبست اسمها كما أخذته المدينة نفسها من اسم بانيها سابور الاول . في القرن الثالث الميلادي أمر اردشير بابكان بجلب كتب ادبية وعلمية من الهند واليونان كانت نواة هذه الجامعة . وامر شابور الاول بترجمة هذه الكتب الى اللغة الفهلوية فبدأ النشاط العلمي في هذه الجامعة. استمرت جامعة جندي سابور قرونا وكانت الى ما قبل الاسلام بمئة عام اكبر المراكز العلمية والثقافية في العالم .

25) سجل الحارث بن كلدة هذه المحاورة في : « كتاب المحاورة في الطب » . انظر هذه المحاورة في : العقد الفريد لابن عبد ربه ج 8 ص 77.وفي طبقات الاطباء لابن ابي اصيبعة. الباب السابع

وبين كسرى . فهل كان كسرى انوشيروان يحسن اللغة العربية الى هذا الحد ؟أم كان الحارث يجيد الفارسية بهذه الدقة ؟ لقد كان كسرى يحسن الاستماع أكثر مما يحسن لغة المخاطب العربي ، كما سنشير اليه فيما بعد . أما الحارث فقد أجاد اللغة الفارسية . ولكنه استعان في حديثه هذا بالتراجمة الذين كان يضمهم بلاط كسرى وهم عرب في أغلب الظن ، واستنادا على ما كان معمولا به في بلاط الاكاسرة ، فقد استعمل لقيط بن يعمر الايادي في الكتابة والترجمة ، وكان عدي بن زيد العبادري من تراجمة ابرويز كسرى (26) . فاذن كان في بلاد فارس ، وفي مجالس بلاطها من العرب النبهاء المثقفين من اتقنوا لغة الفرس اتقانا تاما ، كما يشهد به ترجمة هذا النص العلمي البديع ، وتكفلوا بالترجمة من الفارسية الى العربية ، ومن العربية الى الفارسية ، فساعدوا بعملهم هذا على فتح آفاق التقارب بين اللغتين . فيجب أن يوضع هؤلاء في طليعة ذووي اللسانين

وشبيه بهذا مناظرة جرت بين النعمان بن المنذر وبين كسرى ، في شان العرب . يتهم كسرى العرب بما ينقص من قدرهم ويهجن أمرهم مما اتخذته الشعوبية فيما بعد سندا وحجة . وينافح النعمان بن المنذر عن فضلهم ويعظم حظهم . فلم يزل النعمان يحاجه حتى أنصفه كسرى (27) ثم ينتدب النعمان لهذه المهمة العسيرة عشرة من بلغاء العرب وكبارهم هم : اكثم بن صيفي ، وحاجب بن زرارة التميميين (28) ، والحارث بن عباد، وقيس بن مسعود البكريين ، وخالد بن جعفر ، وعلقمة بن علاثة ، وعامر بن الطفيل العامريين ، وعمرو بن الشريد السلمي ، وعمرو بن معديكرب الزبيدي ، والحارث بن ظالم المري . وكتب معهم كتابا غاية في الجودة والبلاغة . فخرج القوم في اهبتهم حتى وقفوا بباب كسرى بالمدائن، فدفعوا اليه كتاب النعمان ، فقراه ، وأمر بانزالهم الى ان يجلس لهم مجلسا يسمع منهم فلما ان كان ذلك بايام ، أمر مرازبته ووجوه اهل

---

26) تاريخ الطبري ج 1 ص 1016 . طبعة بريل .
27) أنظر تفصيل ذلك في العقد الفريد لابن عبد ربه ج 1 ص 228
28) وفد حاجب بن زرارة غير هذه المرة وحده على كسرى ، وذلك لما منع كسرى تميما من ريف العراق ، فتكلم لديه بأحسن القول، فكافاه أحسن كفاية . ورحل ابنه عطارد الى كسرى يسترجع قوس أبيه المودعة رهينة لديه . أنظر العقد الفريد ج 1 ص 239 .

مملكته ، فحضروا وجلسوا على كراسي عن يمينه وشماله ، ثم دعا بهم على الولاء والمراتب التى وضعهم النعمان بها فى كتابه ، واقام الترجمان ليؤدي اليه كلامهم ثم أذن لهم فى الكلام (29) فتكلم كل واحد منهم على حدة ، واستنفذوا طاقتهم فى الحديث البليغ والحجة البالغة والكلام النافذ . وضرب كل بسهم فى القول ، وتنويع الاسلوب ، مما يجمل فى حضرة الملوك، وينفذ ولا يجرح، وينال من نفس المخاطب، ويقع منه موقع الرضا والقبول ، فى غير تعنف ولا غلظة . وهى مهمة فى غاية الخطورة لانها تضع شرف أمة معرض الاختبار . مع الوسائل المحدودة ، اذ يجب اقناع الخصم ببيان المتكلم العربى واسلوبه وبلاغته التى لا يعرفها المخاطب . وكانت نصف هذه المهمة على عاتق المترجمين العرب الذين يعرفون اللسانين اتم معرفة فتمت بالرضا والتوفيق . وحسم الامر ، وختم الكلام بقول كسرى : ((قد فهمت ما نطقت به خطباؤكم ، وتفنن فيه متكلموكم ولولا اني أعلم أن الادب لم ينقف اودكم ولم يحكم أمركم وانه ليس لكم ملك يجمعكم تنطقون عنده منطق الرعية الخاضعة الباخعة فنطقتم بما استولى على ألسنتكم وغلب على طباعكم لم أجز لكم كثيرا مما تكلمتم به .. وقد قبلت فيما كان فى منطقكم من صواب ، وصفحت عما كان فيه من الخلل (30) .

نقتطف من هذا النص على الخصوص قوله : ((وأمر بانزالهم الى أن يجلس لهم مجلسا يسمع منهم ، فلما أن كان ذلك بأيام ، أمر مرازبته ووجوه أهل مملكته ، فحضروا وجلسوا على كراسى عن يمينه وشماله ... وأقام الترجمان ليؤدي اليه كلامهم ...)) ففيه وصف حى لهيبة المجلس المتخذ لهذا الحدث الجلل ، حدث طبع صلات الفرس والعرب منذ ذلك الحين بطابع الاحترام والتقدير والمودة ، واعادة الاعتبار واحقاق الحق. وفيه مظهر حدث أدبى فريد جمع اللغة العربية باللغة الفارسية فى مجلس فاضفى على بهائه رونقا ادبيا بديعا رتعت فيه الافكار فى رياض القول الزاهية بالوان الخيال ، نسجل اهميته هنا ، ونسجل لذوي اللسانين الفضل فى اقرار قرار هذا الحدث التاريخى .

---

29) العقد الفريد . ج 1 ص . 232 — 233 .
30) العقد الفريد . ج 1 ص 231 — 238 .

ويعود الحارث بن كلدة الثقفي الى بلاده ليعلم المعرفة التي اكتسبها والفن الذي درسه في فارس (31) وبعده رحل ابنه النضر بن الحارث الى بلاد فارس . وكان النضر من أذكياء قريش ، رحل الى الحيرة فتعلم ضرب البربط (32) وغنى غناء أهل الحيرة ، ثم علم ذلك قوما من أهل مكة . وتعلم هناك أيضا أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم واسفنديار (33) . ورحل الى فارس ونظر في كتب الفرس وعاشر الاحبار والكهنة (34) . ثم رجع الى بلاده في عهد البعثة النبوية .

كان النضر بن خالة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان أشد قريش مباذاة للنبي بالتكذيب والاذى (35) . كان اذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسا فذكر بالله وحذر قومه ما اصاب من قبلهم من الامم من نقمة الله خلفه في مجلسه اذا قام ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثا منه فهلم الى فانا أحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يقول : بماذا محمد احسن حديثا مني ؟ ويقول : انما ياتيكم محمد بأساطير الاولين ، فنزلت فيه الآية « واذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ان هذا الا اساطير الاولين » ، وكان يقول عن النبي انما يعينه على ما يأتي به في كتابه جبر غلام الاسود بن المطلب وعداس غلام شيبة ابن ربيعة فانزل الله عز وجل « ولقد نعلم أنهم يقولون انه يعلمه بشر لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين » والآية «وقالوا اساطير الاولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة واصيلا » .

ونزلت فيه آيات كثيرة أخرى (36) . فما هو هذا الذي كان يحدث به النضر الناس فيفتنهم عن دينهم ؟ وأي شيء هذا الذي تعلمه النضر

---

31) دخل الغناء الفارسي الى بلاد العرب على يد الفرس أولا ثم اقتبسه منهم سعيد بن مسجح ، واخذه بعد ذلك سائب خاثر من اماء بالمدينة ومن فارسي يعرف بنشيط : انظر نهاية الارب للنويري . ج 4 ص 239 — 243 .

32) البربط : آلة موسيقية (العود) وهو معرب. وهو من ملاهي العجم ، شبه بصدر البط. والصدر بالفارسية « بر » فقيل « بربط » المعرب من الكلام الاعجمي . الجواليقى ص 71

33) سيرة ابن هشام . ج 1 ص 195 . تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد .

34) عيون الانباء في طبقات الاطباء . ابن ابى اصيبعة . ج 1 ص 167 . ط : بيروت

35) سيرة ابن هشام . ج 1 ص 195

36) قال ابن اسحاق : حدثني رجل من أهل مكة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال أنزل الله في النضر ثماني آيات من القرآن ، قوله تعالى : « اذا تتلى عليه آياتنا قال اساطير الاولين » . وكلما ذكر فيه الاساطير في القرآن . سيرة ابن اسحاق . ص 182 طبعة فاس

فى فارس فوصف عند ابن ابى أصيبعة بقوله « وحصل من العلوم القديمة أشياء جليلة القدر » (37) ، كان ذلك هو قصص الفرس وأساطيرهم . فيحدثهم عن ملوك فارس وعن رستم وأسفنديار ، وتلك ملاحم الفرس وبطولاتهم واخبارهم التى نقشت فى ذاكرتهم ، وترددت على السنتهم عبر الاجيال اناشيد من الخداي نامه والشهنامه ... وذلك مد آخر سرى الى العربية وآدابها عبر هذا الفن الطريف من الثقافة وبواسطة الذين تشبعوا بثقافة الامتين وحذقوا اللغتين .

لم تكن الرحلة الى فارس او المناطق الواقعة تحت نفوذها تخص طائفة من العرب دون اخرى . ولم يهتم بلغة الفرس طبقة معينة من العرب . ولكن ذلك الاهتمام قد ظهر بين الكتاب والشعراء ، واخصهم اولئك المتطلعون الى عطاء يدره مدح او حظوة ومكانة لدى عزيز ، مما اكسب هذا الموضوع اهمية خاصة . ممن رحل مع هذا الامل الى بلاد فارس اسرة عباد . وهذه الاسرة تأتى فى طليعة العرب الذين احتلوا مكانة بارزة فى بلاط الاكاسرة ، ظهر اثره واضحا فى أحوالهم واخبارهم وفى شعر شعرائهم .

وعباد اسرة تنحدر من قبائل عربية شتى اجتمعت بالحيرة ، والحيرة يومئذ مركز الحضارة الفارسية ، وقد عرفوا بنصرانيتهم ، كما اشتهر منهم فى الاسلام كعب بن عدي العبادي ، احد صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتميزت شهرتهم كذلك باتقانهم للغة الفارسية.

اول من كتب من هذه الاسرة هو احد جدودهم حماد بن زيد ، وبرع فى هذا الفن حتى اصبح كاتب النعمان ، ولما توفى تكفل صديقه الفارسى فروخ ماهان — وهو دهقان من المرازبة — برعاية ابنه زيد ابن حماد فعلمه الفارسية . وشب خطيبا شاعرا . فلما كمل ادبه اشار المرزبان على كسرى أن يجعله على بر البريد فى حوائجه فولاه ذلك . وظل فى عمله الى ان مات النعمان بن المنذر ، حيث اختير لامارة الحيرة باشارة من المرزبان أيضا . وبقى ملكا عليها حتى ولى امرها المنذر بن

---

(37) عيون الانباء . ج 1 ص 167 .

ماء السماء . وترك زيد هذا أبناء ، أكبرهم هو عمار بن زيد الملقب بـ « أبي » كتب لكسرى مع أخيه عدي ، واستمر في ذلك الى ما بعد مقتل أخيه عدي كما سنذكر . أما عدي بن زيد ، فهو شاعر هذه الاسرة الاكبر ، نشأ أيضا في رعاية البيئة الفارسية ، فتربى مع ابن المرزبان وتعلم عادات النبلاء الفرس من التلعب بالصوالجة والرمي بالنشاب حتى اصبح من الاساورة ، وجمع الى فصاحته في العربية وتمكنه من الشعر ، تضلعا في لغة الفرس « فلان لسانه وسهل منطقه » ويرجع ذلك ابن سلام الى انه « كان يسكن الحيرة ومراكز الريف » (38) . ورغب المرزبان الى كسرى ان يولي عديا امرا من اموره، فولاه الكتابة في ديوانه . فكتب عدي بالعربية ، وكان اول من فعل ذلك في ديوان كسرى (39) . وكان يترجم لكسرى ما يرد من كتب العرب . وبقي نجم عدي بن زيد في صعود الى ان قتل على يد النعمان بن المنذر بسبب وشاية جرت بينهما ، تبين للنعمان كذبها بعد فوات الاوان (40) فحاول التكفير عن ذلك وتدخل لدى كسرى لتولية ابن لعدي هو زيد بن عدي . وكان هذا اديبا عاقلا ، فكان يلي المكاتبة عند ملوك العرب ، وفي خواص امور الملك . ولم يمض زمن يسير حتى اخذ زيد بثأر ابيه . فوشى بالنعمان لدى كسرى ، وكان ذلك سببا في نهاية النعمان شر نهاية . وكتب التاريخ وكثير من كتب الادب تذكر هذه القصة بتفصيل .

ونخرج من هذه القصة بملاحظة طريفة تبرهن على الدور الذي كان يقوم به ذوو اللسانين من المترجمين العرب في هذا الوقت . تلك هي أن الشيء الذي اوغر به زيد صدر كسرى على النعمان كان كلمة قالها هذا عن حسن نية ، ولكن زيدا ترجمها عن قصد ترجمة حرفية ، فكانت سبب مصيبة النعمان في حياته .

خطب كسرى احدى بنات النعمان (وكان ذلك بايعاز من زيد) فرد النعمان يدعو كسرى للزواج من بنات عمه اللاتي كانهن المها . فما كان من زيد الا أن تلقف الكلمة فاستغل المناسبة وترجم كلمة « المها » الى الفارسية ترجمة حرفية بـ « بقر الوحش » متعمدا ذلك ، فقال

---

38) طبقات فحول الشعراء . ص 117 ، 139 . تحقيق الدكتور شاكر .
39) الاغاني . ج 2 ص 102 .
40) أنظر تفاصيل اخبار عدي بن زيد وآبائه في الاغاني ج 2 ص 89 ، 155 . طبعة دار الكتاب

لكسرى : انه يقول « على الملك ببنات عمه اللاتى يتشبهن بالبــقــر »
واوهمه ان هذا على جهة العيب والنقيصة . فاغتاظ كسرى ودبر لقتل النعمان ، ثم قتله . ويقال ان ذلك كان سببا في الحرب الكبرى التى كانت بين العرب والفرس التى انتصر فيها العرب لاول مرة على الفرس في بداية بعثة النبى صلى الله عليه وسلم المعروفة بــ : « ذي قار » (41) .

من نزلاء الحيرة وزوار فارس الذين نصفهم بذوي اللسانيــن ، الشاعر العربى ميمون بن قيس بن بكر بن وائل الملــقب بــالاعــشى والمعروف بــ « صناجة العرب » لانه كان يتغنــى بشعره (42) او لجودة اشعاره(43) او لانه اول من ذكر الصنج في شعره (44) . واصل الكلمة على كل حال هو في الفارسية « جنك » . هذه الصفات التى ذكر بهــا الاعشى انما هي لرقة معانــى شعره ، وخفة اوزانه ، وقد كان الاعشى كثير التنويع في الاوزان . يقول ابن سلام : « وقال اصحاب الاعشــى هو اكثرهم عروضا (45) (يعنى كثرة الاوزان واختلافها) واذهبهم في فنون الشعر واكثرهم طويلة جيدة واكثرهم مدحا وهجاء وصنعا ، كل ذلــك عنده » . (46) وشعر الاعشــى يمتاز بذكر الــزهــور في الخــمريات واوصاف مجالس الشراب (47) ، وقد اكثر الاعشــى من ذلك وبالغ في بعض الاحيان حتى انه اتى باسماء كثير من الزهور المعربــة عــن الفارسية مجموعة متتابعة ، كما سنرى في المثال الذي سنذكره له . مرد كل هذه الخصائص في شعر الاعشــى كثرة تطوافه في البلاد ومنها بلاد العجم . قال :

---

41) انظر هذه القصة في كتاب الزهرة . ابو بكر محمد بن داود الاصفهانى (النصف الثانى) ص 49 — 50 .
42) الاغانــى . ج 4 ص 105 .
43) خزانــة الادب . ج 1 ص 85 .
44) الشعر والشعــراء . ص 179 .
45) يوضح المستشرق كرنباوم ان الاعشى وعدى بن زيد العبادى ومجموعة اخرى من شعراء الحيرة في عهد المنادرة قد نوعت الاوزان واكثرت خاصة من بحر الرمل ، وان ذلك مقتبس من وزن بهلوى ثمانى المقاطع . دراسات في الادب العربى . ص 265 — 266 .
46) طبقات فحول الشعــراء . ص 65
47) دراسات في الادب العربى. كوستاف فون كرنباوم ص 170 ، وايضا التعليق رقــم 95 ص 197 .

وقد طفت للمال (48) آفاقه عمان فحمص فأوريشلم
أتيت النجاشي في ارضه وارض النبيط وارض العجم

واقامته الطويلة في بلاد العجم ، يقول :

قد سرت ما بين بانقيا الى عدن وطال في العجم ترحالي وتسياري

فكان ان تأثر بالبيئة الفارسية ، وضمن ذلك لغة الفرس . وهذا ما اكسب شعره مدنية بلاطية أكثر من غيره ، على حد تعبير المستشرق كرنباوم (49) . لقد اطال المقام في ذلك البلاط حتى الفه ، وحتى لنراه يتجول منشدا في رياضه رخي البال ، لا تعترضه كلفة تحجب اشعاره عن سمع كسرى ... فيلاطفه هذا ، ويعلق على اقواله . قيل سمعه كسرى يوما فقال : من هذا ؟ قالوا : « او سرودكوى تازي » (50) اي مغنى العرب ، فانشد :

ارقت وما هذا السهاد المؤرق وما بي من سقم وما بي معشق (51)

فقال كسرى : فسروا لنا ما قال . فقالوا : ذكر انه سهر في غير سقم ولا عشق . فقال كسرى : ان كان سهر من غير سقم ولا عشق فهو لص (52) .

وكثرة تردده على ملوك فارس وبلاد فارس هي السبب في كثرة الالفاظ الفارسية الواردة في شعره كما يقول ابن قتيبة (53) . ومثال واحد

---

48) للمال — للشعر
49) دراسات في الادب العربي كرنباوم ص 140 و 265 .
50) في الاصل المطبوع : آسرودكويدتازى . وقد صححناها كما ذكرنا .
51) من أبيات هذه القصيدة :
وكسرى شاهنشاه الذى سار ملكه له ما اشتهى راح عتيق وزنبق
52) الشعر والشعراء ج 1 . ص 179 — 180 .
53) الشعر والشعراء . ج 1 ص 179 — 180 .

من أشعار الاعشى يكفينا دليلا على ما قلناه وعلى معرفة هــذا الشاعر للفارسيــة قــال :

الـم خيـال من قتيلـة بعـدمـا	وهى حبلهـا مـن حبلنا فتصرمـا
فبت كانـى شارب بعـد هجعـة	سخاميـة حـمراء تحسب عنـدما
اذا بزلـت من دنهـا فـاح ريحها	وقد اخرجت من اسود الجوف ادهما
لها حارس ما يبرح الدهـر بيتهـا	اذا ذبحت صلى عليهـا وزمزمـا
ببابل لم تعصر ، فجـاءت سلافـة	تخالـط قنديـدا ومسكـا مختمـا
يطوف بها سـاق علينـا متـوم	خفيف نفـيـف مـا يزال مفدمـا
بكـأس وابـريـق كـأن شرابه	اذا صب فى المصحاة خـالط بقمـا
لنـا جلـسان عندهـا وبنفسـج	وسيسنبـر والمرزجـوش منمنمـا
وآس وخيرى ومـرو وسـوسـن	اذا كان هنزمن ورحـت مخشمـا
وشاهسفوم والياسميـن ونرجس	يصبحنـا فى كـل دجـن تغيمـا
ومستـق سنـيـن و ون وبربـط	يجاوبه صنج اذا ما ترنمـا (54)

* * *

اتسع مجال معرفة اللغة الفارسية بعد الاسلام ، فاصبـح يعم عديدا من الناس فى البلاد العربية وشاع ذلك بكثرة فى المناطق المجاورة لبلاد فارس ، وصار بعض المتادبين يتانقون بخلط كلامهم بالفاظ فارسية ، ويفضلونها مع وجود مقابلها العربي (55) . قال الجاحظ : « وقد يتملح الاعرابى بان يدخل فى شعره شيئا من كلام الفارسية كقول العمـانـى للرشيد فى قصيدته التى مدحه فيها :

(54) ديوان الاعشى . ص 187 — 188 . طبعة بيروت .
(55) اشار السيوطى الى ذلك فى كتابه المزهر فذكر أسماء معربة لها نظائرها فى العربية « فصل فى المعرب الذي له اسم فى لغة العرب » المزهر . ج 1 ص 283 .

مــن يلقــه من بطل مسرنــد   فى زغفــة محكمة بانــســرد

تجول بين راسه و « الكرد »

الكرد يعني العنق (وهو بالفارسية : كردن) . وفيها يقول :

لما هوى بين غــيــاض الاسد   وصار فى كف الهزبر الورد

آلى يذوق الدهر « آب ســـرد » .

« آب سرد » يعنى الماء البارد

ونقل الجاحظ أبياتا ليزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري تنبؤ عن رواج الفارسية بين عامة الناس كبيرهم وصغيرهم وتداولهم لها فى الاسواق . ذلك أنه امر بطلب هذا الشاعر وقد اكثر من هجاء بنى زياد وقذف ابــا سفيان بالزنا ، فلما تمكن منه عبيد الله بن زياد امر به فسقى نبيــذا حلوا قد خلط معه الشبرم ، فاسهل بطنه وطيف به وهو فى تلــك الحال والصبيان يتبعونه ويصيحون : « أين جيست ؟ » اي ما هذا ؟ اشــارة الى ما ينزل منه . فاخذ يجيبهم بالابيات الآتية :

آب است نبيذ اســت   عــصــارات زبيــب اســت

سميــه رو سبيد اســت

آب است : يعنى هو ماء . نبيذ است : يعنى هو نبيذ . رو سبيذ أست : يعنى بيضاء الوجه . ومعنى الابيات ان ما ترون هو ماء ، وهو النبيذ عصارات الزبيب ، وسمية بيضاء الوجه .

وهى سخرية من سمية أم زياد وتعريض بها بالاشارة الخفيــة الى انها على عكس هذه الصورة التى يذكرها حيث انها تأتى الفواحش التى تسود الوجه . او على معنى انها مشهورة (بيضاء الوجه) بالاعمال القبيحة طبعا (56) وذكر الجاحظ من ذلك ايضا قول اسود بن بن ابى كريمة :

---

56) انظر التعليق رقم 1 و 2 صفحة 143 ج 1 البيان والتبيين . تحقيق عبد السلام هارون . والمراجع التى اشير اليها هناك .

(1) لـزم الـفـرام ثوبى	بـكـرة فى يـوم سـبـت
(2) فتمايـلـت عليـهـم	مـيـل زنـكـى بمـستـى
(3) قد حسى الدادي صرفـا	او عقـارا بايـخـسـت
(4) ثـم كفتـم دور بـاد	ويحكـم آن خـر ، كفـت
(5) ان جـلـدي دبفـتـه	أهل صنعاء بجفـت (بجرت)
(6) وأبـو عـمـرة عنـدي	آن كـور بـد نـمـسـت
(7) جـالـس انـدر مكنـاد	ايـا عـمـد بيـهـشـت

(2) زنكـى : زنجى ، مستـى : السكر ، (3) بايخست : كـل ما وطىء بالقدم ، والمقصود الخمر التى هيات بعركها بالارجـل ، (4) كفتم : قلت . دور باد : لا قدر الله . آن : ذلك ، خر : الحمار كفت :قال، (5) بجفت : كذا ذكرت ، ومعناها جلد كل شىء . وأرى انها : جـرت وهى قرية (القاموس : مدينة) من قرى صنعاء باليمن (6) آن : ذلك ، كور : اعمى . بد : مخفف بود اى كان نمست : نـ : لا ، مست : سكران. (7) ذكر هذا البيت بشكل .

دـابـس اندر مـكـنـاد	ابـا عـمـد بيهشـت

وبكلا الشكلين لا يستقيم وزنه ولا معناه . آنذر : فى (آذر : النار)، مكناد : لا كان ، ايا : هل بهشت : الجنة .

وقال الجاحظ : « ومثل هذا موجود فى شعر ابى العذافر الكنـدي وغيره ، ويكون ايضا أن يكون الشعر مثل شعر بحر وشاذ (57) .

وصار العامة يقتبسون من العجم والاسواق تعج بهم ، فكـان الفارسى يرطن العربية والعربى يلحن الفارسية . حتى ضاق صدر احد البلغاء العرب ونفذ صبره ، فاذا هى صرخة مدوية ينفثهـا صـدره ،

(57 البيان والتبيين . ج 1 ص 141 — 144 .

وزفرة ألم يصعدها ، تعبر عما أصاب القوم وأذهلهم ، وتصف الوضع بين العربية والفارسية أصدق تصوير . ذلك البليغ العربي هو ابو مهدية الاعرابي (58) . قال أبو عبيدة ، سمع ابو مهدية رجلا يقول بالفارسية « زود ، زود » فقال ما يقول هذا ؟ فيقول له : يقول « عجل ، عجل » فقال : « افلا يقول حيهلا » (59) وزار أبا مهدية أبو محمد اليزيد يحيى ابن المبارك ، وخلف الاحمر يسألانه عن الصواب فى قولهم «« ليس الطيب الا المسك (60) هل بالرفع ام بالنصب . فنصب ورايه آن الرفع لحن . قال ذلك واليأس يمزق أحشاءه ، وهو يقدر اية هاوية هذه التى تتردى فيها العربية . وقد عبر عما يختلج فى صدره فاضاف قائلا : الا انشد كما أبياتا قلتهما حين سمعت تراطن هذه آلاعاجم حولى ، فقالا : بلى ، فأنشد :

(1) يقولون لى شنبذ ولست مشنبذا   طوال الليالى أو يزول ثبير

(2) ولا قائلا زود لاعجل صاحبى   وبستان فى صدري على كبير

(3) ولا تاركا لحنى لاحسن لحنكم   ولو دار صرف الدهر حيث يدور(61)

---

(58) « أبو مهدية » كما فى الفهرس والعقد الفريد وذيل الامالي وغيرها . و « أبو مهدي » كما فى مجالس العلماء (ص 2 – 4) . وفى المعرب للجواليقي ، أبو المهدي و « ابن مهدى » كما فى الاصمعيات (ص 67) . و « ابن مهدية » كما فى احدى نسخ كتاب الحيوان الخطية (الحيوان ج 5 ص 309) . أبو مهدية : هو من باهلة ، أحد الاعراب الفصحاء الذين روى عنهم البصريون ، وكان مرجعا فى الحجاز . أنظر مجالس العلماء ص 3 – 5 . وكان يهيج به المبرد فى كل سنة مديدة . الفهرس لابن النديم ص 75 .

(59) العقد الفريد . ج 3 ص 69 – 70 .

(60) ورد فى كتاب الحيوان حول هذه العبارة ما يلى : « قال الاصمعى : قلت لابى مهدية كيف تقول : لا طيب الا المسك (قال) فاين أنت من العنبر ؟ قال فقلت (لا طيب الا المسك والعنبر . قال فاين البان ؟ فقلت لا طيب الا المسك والعنبر والبان . قال فاين انت من ادهان يحجره ؟ قال فقلت) لا طيب الا ... (قال فاين فارة الابل صادرة ؟ قال الاصمعي فارة الابل) . الحيوان للجاحظ . ج 5 ص 309 . وقد روى أبو علي القالي فى ذيل الامالي (ص 39) القصة التي جرت حول سؤال أبى مهدية عن هذه العبارة بتفصيل .

(61) مجالس العلماء لابى القاسم الزجاجى . ص 3 – 5 .

(1) شنبذ : على صيغة فعل الامر العربى ، يعنى قل « جــون بودي » أي كيف كنت ؟ = كيف حالك ؟ ومشنبذ ، صيغة اسم الفاعل العربى من هذا التركيب الفارســـى .

(2) زود : عجل . لا عجل ، في كتاب المعرب : ليعجل ، بستان : فعل امر فارســـى من ستادن : أن يأخذ .

(3) لاحسن لحنكم ، في كتاب المعرب : لاحسن لحنهم . حيث يدور ، في كتاب المعرب : حين يدور (62) .

غير أن الكتب والاخبار لم تهتم كثيرا بنقل مثل هـــذه الـــروايات والاحداث . ولعلهم كانوا يأنفون من ذكرها ويضيقون بها ، بل ويعيبـــون صاحبها ويقولون : « لكنة فارس » (63) . ولعلها لم تكن حدثا متميزاً ، وهى كثيرة متداولة . نفهم هذا فيما يرد عرضا عند الـــحـــديث عن بعض الادباء والشعراء وكبار الرجال ، في كتب الاخبار المتنوعة وكتب الثقافـــة العامة . فمثلا يروي أبو العباس المبرد اشارة عن عبيد الله بن زياد حـــول ذوقه الادبـــى الرفيع فيقول : « وكان كثير المحاورة عاشقا للكلام الجيـــد مستحسنا للصواب منه » ، ثم يقول : « وكان مع هذا الكن يرتضخ لغـــة فارسية »» (64) ، واشارة عابرة أخرى من المبرد تفيدنا شيوع الفارسيـــة

---

62) انظر هذه الابيات أيضا) في المعرب من الكلام الاعجمي لابى منصور الجواليقي ص 9 وقد نسبت في حاشية نسخة خطية لهذا الكتاب ليونس النحوى . راجع التعليق رقم 2 من الصفحـــة 9 .

63) نقل الجاحظ تحت عنوان « من هجته زوجته » : قال : وانشدنى الاصمعى قال انشدنى رجل ولم يسمه :

اذا ما بدى عمرو بـدت منـــه صـــورة   تـــدل علـــى مكنـــونـــه حـــين يقبـــل

بيـــاض خراســـان ولكنـــة فـــارس   وجثـــة رومـــى وشعـــر مفلفــــل

64) قال لرجل مرة واتهمه براي الخوارج : أهرورى (أحرورى) منذ اليوم . الكامل ج 3 ص 1002 ويروي الجاحظ أن عبيد الله قال لهانىء بن قبيصة : أهرورى سائر اليوم. البيان والتبيين ج 1 . ص 72 . قال الجاحظ (ص 73) وانما أتى عبيد الله في ذلك انه نشأ في الاساورة عند شيرويه الاسوارى زوج أمه مرجانة .

شيوعا عود الناس سماعها ومن لم يعرفها منهم كان مستأنسا بها متذوقا رقتها . قال حميد بن ثور :

فلم ار مثلــي شاقه صوت مثلها   ولا عربيا شاقه صوت اعجمى

يقول ، لم افهم ما قالت ولكنى استحسنت صوتها واستحزنتــه فحننت اليه ، مثله فى ذلك مثل العربي الذي استحسن صوتا عجميــا لم يفهمه . ثم يضيف المبرد فى هذا المعنــى : ويروى ان بعض الصالحين كان يسمع الفارسية تنوح ولا يدري ما تقول ، فيبكيه ذلك ويرققه ، ويذكر به غير ما قصدت اليه . وحدثت ان بعض المحدثين (65) سمع غناء بخراسان بالفارسية فلم يدر ما هو غير انه شوقه لشجاه ، وحسنه فقال فى ذلك :

حمدتك ليلــة شرفــت وطــابــت   أقــام سهادها ومضــى كراهــا
سمعــت بها غنــاء كــان اولــى   بأن يقتاد نفســي من غــنــاهــا
ومسمعــة يحــار الســمــع فيها   ولا تصممــه لا يصمــم صــداهــا
مــرت اوتارها فشفــت وساقــت   فلو يستطيع حاســدهــا فداهــا
ولم افهــم معانــيــهــا ولــكــن   ورت كبدي فلــم أجهــل شجاهــا
فكنــت كأنــى أعــمــى معنــى   بحب الغانيــات وما يراهــا (66)

واحتفظ لنا الجاحظ بمثال فريد نموذجا لظاهرة علمية وأدبية لها من غير شك نظائر واشباه ، تمثل ميدانا عمل فيه ذوو اللسانين ، فحــقق عملهم هذا آثارا بعيدة المدى ، لا يمكن حدها وحصرها . ذلك هو القصص، ويرجع العهد بهذه الظاهرة الى وقت مبكر حيث كان يستغل هذا الفــن لتوجيه آراء الناس ، ووعظهم بذكر الاحاديث والاخبار المأثورة ، ومزج ذلك بالقصص والحكايات . ولقد كان الناس ماخوذين بهذا النوع الجديد

65) قيــل هــو ابــو تمــام .
66) الكامل للمبــرد ج 3 ص 851 — 852 .

مولعين به منسجمين مع القصاص واقوالهم . واستعملت هذه الطريقة فى تفسير القرآن الكريم على إساس قصص الغابرين وأساطير الاولين . وتكاثر اصحابها عبر السنين ، واتسع نشاطها فى كل مكان .. وأحد ذوي اللسانين كان من أعلامها فيما ينقل الجاحظ : « وكان من اعاجيب الدنيا، كانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية وكان يجلس فى مجلسه المشهور به فتقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ثم يحول وجهه الى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية . فلا يدري بأي اللسانين هو أبين » (67) ذلك هو موسى بن يسار الاسواري .

وليس ينحصر اثر هذه الظاهرة فقط فى ايجاد ترجمة وتفسير للقرآن لاول مرة فى التاريخ باللغة الفارسية ، نعتبره الاول من نوعه . او أحداث تفسير عربى للقرآن من لدن رجل مزدوج الثقافة واللغة والبيان ، يقتضيه المقام مزجه باشارات مستوحاة من كلتا الثقافتين . ولا هو محدود فحسب فى اختلاط فئتين من الناس فى مجلس واحد الايام والشهور والسنين (68) وما ينتج عن ذلك من تبادل الفائدة وتبادل التاثير . ولا فى مرويات هذا المفسر من الآثار والاخبار والاشعار والاستشهادات والاستطرادات والقصص العربية والفارسية . كل ذلك له اثره البالغ فى النفوس والعقول . ولكن اثر هذه الظاهرة هو بصفة خاصة فى هذه الحركة الدائبة التي تموج فيها اللغتان وتضطرما وتجتمعا وتفترقا فى قلب هذا الرجل المتحدث ، ثم تتخذ كل واحدة منهما على لسانه بيانا وتعبيرا ، فى هذا المشهد المليء بالحركة كما يصفه الجاحظ ، وما يتفجر عن ذلك من الوان المعانى وينكون من أساليب البيان عبر هذه اللغة أو تلك . وبقرب اللغتين العربية والفارسية الشديد من بعضهما والتقاؤهما حول كثير من المفاهيم وخصوصا الاسلامية منها ، يزيد من عناء المقبل

---

67) البيان والتبيين . ج 1 ص 368 . تحقيق عبد السلام هارون .

68) يقول الجاحظ : « ثم قص فى مسجده (اى المسجد الذى كان يقص فيه موسى بن يسار) أبو علي الاسواري وهو عمرو بن فائد ستا وثلاثين سنة فابتدأ فى تفسير سورة البقرة فما اختتم القرآن حتى مات لانه كان حافظا للسير ولوجوه التاويلات فربما فسر آية واحدة فى عدة اسابيع » البيان والتبيين . ج 1 ص 368 .

على مثل هذا العمل ، ويجعل من اثر هذه المعاناة نموذجا لم يسبق لـه مثيل .. ومن نجح فى انجازه فقد حقق فعلا المعجـزة .. وقد كانـت المعجزة مرة أخرى فى استخراج عبد الحميد الكاتب ((امثلة الكتابة التي رسمها لمن بعده من اللسان الفارسي فحولها الي اللسان العربي)) (69) . ثم فى تلك النماذج البليغة من النثر العـربـى عند من ترجموا من لغتهم الفارسية الى اللغة العربية ، وكان نثرهم قدوة وكلامهم حجة . وبلاغة النثر العربـى المستحدث هى عند عبد الله ابن المقفع الذي انحصر علمه بين لسانين فقط فارسـى وعربى ، وانحصر مجال الابداع بينهما ، فتم له انجاز روائع وبدائع امدت اللغة العربية بقدرة جديدة فى التعبيـر وبرصيد من المصطلحات . وامدتها بكتاب كليلة ودمنة ، الذي اغنى الفكر العربـى والانسانـى عامة .

ويسعفنا ابن النديم فى هذا الباب بلائحة لاولئك النقلة عن الفارسية الى العربية فى مختلف العلوم والفنون ، وباسماء الكتب التى نقلوها . وهى على ما بها بالغة الاهمية (70) .

كان ذلك فى البلاد العربية والبيئة محتفظة على شكلها التقليدي ، والسيادة للعرب وللعربية ، اما وقد حدث الامتزاج فى بيئـة سياسيـة واجتماعية وثقافية عمت البلاد العربية كلها فى حين من الدهر ، تتحرك فيها باستمرار عوامل الحضارة الفارسية بكل حرية ، وقد واتتها الفرصـة والمناسبة ، ومالت اليها الاهواء وتعلقت بها عزائم وآمال دفينة ، فقـد استغرقت البيئة المتمازجة مشاعر الادباء والعلماء وافكارهم . ولم يعـد ذوو اللسانين ينقلون الالفاظ الجميلة والتعابير الرقيقة من تلك اللغـة الى هذه فحسب ، بل اصبحت المعانـى الفارسـية شيعا بين الادباء من كل جنس يضمه هذا المجتمع ، حتى لا يكاد يوجد مثقف فى العصر العباسى لم يصبه رذاذ من هذه الظاهرة . وبعض ادباء هذا العصر قد احتضنتهم بلاد فارس فاستقروا بها وعاشوا حياتهم او بعضها يتنسمون هواءها .

---

(69) كتاب الصناعتين ، لابى هلال العسكرى . ص 69 الطبعة الاولى سنة 1952 .
(70) انظر كتاب الفهرست . الصفحات 355 ــ 356 و 535 و 438 .

فكانوا يغرفون من ذلك المعين ويستقون من منبعه مباشرة ، وكانوا من المساهمين في انماء هذه الفئة من ذوي اللسانين .

ظهرت طلائع هؤلاء متمثلة أولا في يزيد بن زياد ابن ربيعة الملقب بمفرغ الحميري (متوفى سنة 69 هـ) الذي ورد على سجستان وأقام بها مدة . ونهار بن توسعة بن أبي عتبان (متوفى سنة 83 هـ) شاعر قبيلته بكر بن وائل في خراسان . والمغيرة بن حنباء (متوفى سنة 91 هـ) الذي مات في نسف بين جيحون وسمرقند على مقربة من بخارى . وثابت قطنة بن كعب بن جابر العتكي الازدي (متوفى سنة 110 هـ) الذي شهد الوقائع في خراسان سنة 102 هـ وصحب أشرس بن عبد الله في غزو سمرقند وما وراء النهر ، وحارب في آمل حتى قتل هناك . ثم امتد اثر ذلك عند ابى الحسن على بن الجهم بن بدر (188 — 249 هـ) الذي كان أهله يستوطنون خراسان . وأبي طالب عبد السلام بن الحسين المأموني (متوفى سنة 383 هـ) الذي تنقل بين الري ونيسابور وبخارى . بل لدى احد فحول الشعراء العرب ، وهو ابو تمام (متوفى سنة 231 هـ) الذي كان صديق على بن الجهم الحميم ، والذي اقام في خراسان مدة .

من ذوي اللسانين من كان ابن البيئة الفارسية نفسها ، وأحد أعلامهم البارزين هناك الذي غلب عليه القول بالعربية هو الصاحب بن عباد . وكانت مجالسه تكتظ بالشعراء والكتاب من كل جنس وبلد تأثروا من ذلك المحيط الذي قوى هذه الظاهرة . وفي فارس ازدهرت ظاهرة ذووى اللسانين وكثرت وشاعت بين شعراء الفرس عامة ، ابتدأت وقد غلب عليهم القول بالعربية واستمرت بعد رواج الشعر الفارسي فغلب عليهم القول بالفارسية . وعرف بهذه الظاهرة من بينهم شعراء منهم : أبو منصور قسيم بن ابراهيم القائيني الملقب بـ : « بزرجمهر » وأبو الطيب المصعبي محمد بن حاتم وابو عبد الله الغواص وابو القاسم الاسفراييني وأبو الفتح البستي (71) فكان شعرهم العربي يحتوي على روح ومعاني وتجارب مشحونة بلون البيئة الفارسية وثقافتها وحضارتها .

* * *

(71) انظر الحديث عن هؤلاء وغيرهم في يتيمة الدهر ج 4 وتتمة اليتيمة ج 2 وفي دمية القصر للباخرزي .

لم يكن لوجود هذا الرافد فى الادب العربى وتكاثر الفئة التى تمثله ان يضل غير متميز بسمات خاصة ، غير واضح المعالم والآثار الا فى مجالس ادب او مغانى انس . بل اننا بدانا نرى آنعكاس اثر هذه الظاهرة يتجلى عند المخاطبين العرب أمام نماذج من هذا الشعر العربى فى تقبلهم الاشارات الفارسية الخفية التى تتطلب فهما أعمق وتذوقا اسلم للغة الفارسية ، وتتطلب ممارسة لتبين تلك المعانى المقصودة من خلال الصناعات الادبية آلمستعملة فى ذلك . يقول ابو على الساجى فى مدح مرو :

بلد طيب وماء معين وثرى طيبه يفوق العبير

واذا المرؤ قدر السير فيه فهو ينهاه باسمه ان يسير (72)

يكنى بذلك الجناس المتكون من كلمة « مرو » وقولهم بالفارسية : « مرو » التى تعنى : لا تذهب .

ويقول ابو الحسن الاغاجى فى ذم بلخ :

وبلدة قد ركب اسم لها من احرف البخل هى بلخ

والعيش فيها كاسمها مبدلا من بائها تاء وذا تلخ (73)

و « تلخ » باللغة الفارسية هى : مر .

ويقول الصاحب ابن عباد فى خرآسان :

قالوا : خراسان اخرجت رشئا ليس له فى ملاحها ثانى

فقلت : لا تنكروا محاسنه فمطلع الشمس من خراسان (74)

---

72) يتيمة الدهر ج 4 ص 80 .

73) تتمة اليتيمة ج 2 ص 114 .

74) ديوان الصاحب بن عباد تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين . طبع : بيروت بغداد. ص 275 .

وكلمة « خراسان » بالفارسية تعنـــى مطلع الشمس . « خراسان تفسيره المشرق » كما قال الخوارزمى (75)

ويلغز ابو سعيد احمد بن محمد العميدي قائلا :

الا يا أيــهـــا الشيـــخ المـــفـــدي وقيـــت اذى الـــمـــكـــاره والرزية

قد آحتجنا لـــفـــرط الـــبـــرد جدا الـــى مقلوب ما يدعـــى مزية (76)

ومقلوب « مزية » (بالهاء فى الاخير) هو : « هيزم » وهى فارسية معناها « الحطب » .

وهكذا تضاعف اثر هذه الظاهرة فى الادب العربـــى ، وتسرب الى مختلف شعابه . وكثر حملة هذا الشعار من العرب والـــفـــرس حتـــى ليصعب حصرهم ، وكل واحد منهم جدير بافراد دراسة خاصة حوله . وبرزت خصائص فنية جديدة فى الاسلوب العربـــى واغراض طريفة فى الشعر والنثر وفنون أدبية بديعة . ونكتفى هنا بالاشارة الى فنين فريدين من فنون الشعر اختص بهما ذوو اللسانين ، فكانا من مولـــدات هـــذه الظاهـــــــرة .

اولهما الامثال والحكم المترجمة عن الفارسية . وذلك ما يـــرى فى اشعار صالح بن عبد القدوس (مقتول سنة 167 هـ) التـــى جمـــعـــت بين الامثال الفارسية والعربية . يقول أبو هلال العسكري فى رسالتـــه « التفضيل بين بلاغتـــى العرب والعجم » : سمعت أبا بكر بن دريـــد يقـــول : اجتمـــع فى ديوان صالح ابن عبد القدوس — وهو رجل مـــن شعرائهم — الف مثل للعرب والف مثل للعجم » (77) .

ومنذ ان عمد ابان اللاحقى (متوفى سنة 200 هـ) الى نظم امثال كليلة ودمنة (78) بدا هذا الفن فى الازدهار . وقد زخرت كتب ابى عبيدة (متوفى

75) مفاتيح العلوم . ص 114 طبعة اوربا .
76) تتمـــة اليتيمـــة ج 2 ص 59 .
77) مجموعة رسائل الجاحـــظ . ص 217 .
78) كتاب الاوراق للصولى . ص : 46 — 50 . عنى بجمعه ج هيوارث دن .

سنة 215 هـ) والجاحظ (متوفى سنة 255 هـ) وكثير من الادباء بعدهما مثل ابى الحسن محمد بن يوسف العامري النيسابوري (متوفى سنة 371 هـ) فى كتابه السعادة والاسعاد ، وأبى حيان أبو حيان التوحيدي (متوفى سنة 400 هـ) وابن مسكويه (متوفى سنة 421 هـ) بالأمثال المترجمة عن الفارسية . وجمع ابن عبد ربه (متوفى 340 هـ) فى كتابه العقد الفريد بين الامثال الفارسية المروية عن بزرجمهر والامثال العربية المروية عن اكثم بن صيفى (79) . ثم نلاحظ بعد ذلك أن أبا منصور الثعالبى (متوفى سنة 429 هـ) يخصص فى بعض كتبه لهذه الامثال ابوابا يسهب فيها القول وينوع التصنيف لا سيما فى كتابه التمثيل والمحاضرة (80) ولقد امد ذلك الادب العربى بافكار جديدة وبتجارب وحكم عملت على صقله.

وفى القرن الرابع الهجري اولع بعض الشعراء الفرس بهذا الفن . على راس هؤلاء الشعراء ، ابو الفضل احمد بن محمد بن زيد السكري المروزي شاعر مرو ، فكان ينقل الامثال الفارسية الى العربية شعرا . من ذلك قوله :

من مثل الفرس سار فى الناس   التين يسقى بعلة الآس

وقوله :

اذا لم تطق أن ترتقى ذروة الجبل   لعجز فقف فى سفحه ، هكذا المثل

وقوله :

ما كنت لو اكرمت استعصى   لا يهرب الكلب من القرص

وقوله :

تبختر اخفاء لما فيه من عرج   وليس له فيما تكلفه فرج

---

(79) العقد الفريد ج 3 ص 11 — 16 .
(80) انظر هناك مثلا الصفحات 17 و 43 و 130 — 143 .

وقولـــه ؟

ادعـــى الثعلـــب شيئـــا وطلـــب   قيل : هل من شاهد ؟ قال : الذنب

وقوله من مزدوجة ترجم فيها امثال الفرس :

من رام طمس الشمس جهلا اخطا   الشمـــس بـــالتطييـــن لا تغطـــى
احسن ما فى صفـــة الليـــل وجـــد   الليـــل حبلى ليس يـــــدري ما يلد
من مثل الـــفرس ذوي الابصـــــار   الثـــوب رهن فى يـــد الـــقصـــــار
ان البعيـــر يبـــغـــض الخشاشـــا   لكنـــه فى انـــفـــه مـــا عـــاشـــا
نال الحمار بالسقوط (81) فى الوحل   ما كان يهوى ونجـــا مـــن العمـــل
نحـــن على الشرط القديم المشترط   لا الزق منشق ولا العيـــر سقـــط
فى المثـــل الـــســـائـــر للحـــمـــار   قـــد ينـــهـــق الحمـــار للبيـــطـــار
والعنز (82) لا يسمـــن الا بالعلف   لا يسمن العنز بقـــول ذي لطـــف
البحـــر غمر الماء فـــى الـــعيـــان   والكلـــب يروي منـــه باللـــســـان
لا تـــك من نصحـــى فى ارتـــيـــاب   مـــا بعتـــك الهـــرة فى الجـــراب
من لـــم يكـــن فى بـــيتـــه طعـــام   فما له فى محـــفـــل (83) مـــقـــام
منيتنـــى الاحـــسان دع احسانـــك   اتـــرك بحشـــو اللـــه باذنجانـــك
كان يقـــال : مـــن اتـــى خـــوانـــا   من غير ان يدعى اليه هـــانـــا (84)

81) بالسقوط (فى الكشكول) : من السقوط .
82) والعنـــز (فى الكشكول) : العنـــز .
83) محفل (فى الكشكول) : بيتـــه .
84) يتيمة الدهر . ج 4 ص 88 — 89 . وانظر هذه المزدوجة ايضا فى الكشكول لبهاء الدين العاملى الجزء الاول . الصفحة 346 .

واهتم شاعر آخر من شعراء القرن الرابع الهجري بهذا الفن ، فنظم هذه الامثال الفارسية فى سلك التعبير العربى . ذلك هو أبو عبد الله الضرير الابيوردي ، وهذا مما خلفه من ذلك :

صيامى اذا أفطرت بالسحت ضلة   وعلمى اذا لم يجد ضرب من الجهل
وتزكيتى مالا جمعت من الربا   رياء، وبعض الجود اخزى من البخل
كسارقة الرمان من كرم جارتها   تعود به المرضى وتطمع فى الفضل
الا رب ذئب مر بالقوم خاويا   فقالوا : علاه البهر من كثرة الاكل
وكم عقعق قد رام مشية قبجة   فانسى ممشاه ولم يمش كالحجل
يواسى الغراب الذئب فى كل صيده   وما صاده الغربان فى سعف النخل(85)

ولشاعر آخر فى هذا الفن الادبى قوله :

ما اقبح الشيطان ، لكنه   ليس كما ينقش او يذكر
يطلب اصل المرء من فعله   ففعله عن اصله يخبر
كم ماكر حاق به مكره   وواقع فى بعض ما يحفر
أن تأت عورا فتعاور لهم   وقل : اتاكم رجل اعور
والكلب لا يذكر فى مجلس   الا تراءى عندما يذكر (86)

الفن الثانى من فنون الشعر التى ساهم بها ذوو اللسانين فى اثراء الادب العربى هو ما اولع به بعض هؤلاء بترجمة أشعارهم أو أشعار غيرهم الفارسية شعرا الى اللغة العربية او عكس ذلك ،

---

85) يتيمة الدهر . ج 4 ص 90 – 91 .
86) يتيمة الدهر ج 4 ص 90 .

باحسن بيان وارق عبارة . من هؤلاء الشعراء ابو جعفر الامدادي الذي قال عنه الباخرزي :

«... وكانت له طريقة في الشعر تفرد بها ولم يلحق فيها غيره شوطه وان قنع الفرس سوطه في طلبها . وهي قصائده التي صاغها بالعربية وترجمها بالفارسية مصبوبة في قالبها ، محذوة على مثالها ، منسوجة على منوالها ، موزونة بكفتها ، منعلة بقافيتها » ، مثل قوله :

عذيري من قدك الخيزراني ومن وردتي خدك الارجواني

وترجمه بالفارسية فقال :

ففان زان دو رخ جون كل ارغواني وزان بر شده قامت خيزراني

وقوله .

ألما ببدر الدجى فانظرا الى صورة صورت للورى

وترجمه بالفارسية فقال :

يكى برمه جارده بكذرا بروي نكارين او بنكرا (87)

واديب آخر كانت وسعة مداركه وقوة لغته العربية والفارسية تتحدى فتاتي بالعجائب . حكى منها ابو منصور الثعالبي انه كان يقترح عليه الكتاب فيبدا بآخر سطر منه ثم هلم جرا الى الاول . كان يقترح عليه ويقترح عليه ، فلا تعجزه قريحته ابدآ . وكان يقترح عليه ان يترجم من الابيا تالفارسة المشتملة على المعاني الغريبة بالابيات العربية ، فيجمع فيها بين الابداع والاسراع . ذلك هو ابو الفضل احمد

---

87) دمية القصر وعصرة أهل العصر . ج 2 ص 1324 — 1326 . توزيع دار الفكر . تحقيق ودراسة محمد التونجي . وقد ورد البيتان الفارسيان هناك محرفين .

ابن الحسين بديع الزمان الهمداني (358ـ398 هـ) . روى انه ، عندما دخل في خدمة الصاحب بن عباد كان يجيد الشعر العربي وسنة اثنتا عشرة سنة ، وكان الصاحب مداوما على قراءة اشعار منطقي الرازي (88) الفارسية . وذات يوم حضر بديع الزمان عند الصاحب بن عباد ، فأمره أن يقول شعرا . فقال بديع الزمان : اختبرني ، فقرا عليه الصاحب هذه الابيات للمنطقي الرازي :

يك موي بدزديدم ازدو زلفت چون زلف زدي اى صنم بشانه

چونانش بسختي همي كشيدم چون مور كه كندم كشد بخانه

با موى بخانه شدم يدر كفت منصور كدام است ازاين دوكانه

ثم قال له : ترجم هذه الى العربية . فقال بديع الزمان : في اي قافية تفضل ؟ قال : قافية « الطاء » . قال بديع الزمان : وفي اي بحر تريد ؟ قال الصاحب : اسرع يا بديع في البحر السريع . فاردف بديع الزمان بدون تأمل :

سرقت من طرته شعرة حين غدا يمشطها المشاط

ثم تدلحت بها مثقلا تدلح النمل بحب الحناط

قال أبي : من ولدي منكما كلاكما يدخل سم الخياط (89)

فجاءت مطابقة للاصل مطابقة تامة سوى ما زادت عليه من المعنى الجيد الموجود في المصراع الاخير . وحقق فيها البديع جميع التحديات التي تعهد للصاحب بانجازها .

وكم تسامت همم مجموعة من الشعراء وتبارت قرائحهم لترجمة البيت الواحد والبيتين ، ومجالس الادب مزدانة ، كما حدث في قصة

---

88) هو أبو منصور محمد بن علي شاعر فارسي مجيد من شعراء اواخر القرن الرابع الهجرى
89) لباب الالباب . محمد عوفي . ج 2 ص 17 . طبع بريل في ليدن ، ونص الكلام العربي هنا هو مترجم عن الاصل الفارسي بتصرف .

ترجمة بيتين للشاعر الفارسى أبى القاسم عبد الله محمد بن صالح الولوالجى الى العربية . فقد ذكر أن جماعة من الشعراء حاولت ترجمة بيتين له ، فلم يفلح أحد منهم فى ذلك . ولم يزل الامر كذلك حتى تجشم مخاطره الشاعر أبو القاسم بن أبى عباس الاسفرايينى ، فنال رضى كل الفضلاء . قال أبو عبد الله الولوالجى :

سيم دنداك وبس دآنك وخندانك وشيوخ
كه جهان آنك بر ما لب او زندان كرد

لب او بينى وكوئى كه كس زير عقيق
با ميان دو كل آندر شكري بنهان كرد

وقال ابو القاسم فى ترجمتهما :

فضى ثغر لبيب ضاحك عرم
من عشق مبسمه اصبحت مسجونا

بسكر قد رايت اليوم مبسمه
تحت العقيق بذاك الورد مكنونا (90)

وقد تنشد الابيات عربية ، فتروق وتطرب ، فتسارع الالفاظ الفارسية لتعانق معانيها العربية . فهذا الصاحب الاجل نظام الملك محمود ابن أبى توبة ينشده أحد ندمائه فى مجلس هذه الابيات لابي نواس :

وخود اقبلت فى القصر سكرى ولكن زين السكر الوقار
وهز الريح اردافا ثقالا وغصنا فيه رمانا صغار
وقد سقط الردى عن منكبيه من التجميش واسترخى الازار
فقلت : الوعد سيدتى فقالت كلام الليل يمحوه النهار

90) لباب الالباب . محمد عوفى ج 2 . ص 27 .

فيطـــرق ساعـــة ثم ينطبق مترجما هذه الابيات الى الفارسية فاذا هـــى غـــايـــة فى اللطـــف :

مست آمد بيش من در كوشك آن زيبا نكـــار
از خـــرد وآهستكـــى كه هست او هوشيار

از سرين او نـــموده باد از نسريـــن دو تار
وز بر جون عـــاج او انكيخته سيمين دو تار

آستينش را كرفتـــم دركشيـــد از دســـت من
مفجرش از ســـر افتاد وسست شد بند ازار

كفتم اى جان وعده دوشين خود را كن وفـــا
كفت نشنيدي : كلام الليل يمحوه النهار (91)

* * *

عندما كان بعض هذه الاقوال يذكر بشكل ملاحظات متناثرة فى كتب المتقدمين ، عرضا حينا ، وقصدا الى استخلاص رأي او تدعيم قول حينا آخر ، لم يكن الامر فى جملته يتعدى التمثيل لواقع معاش فى المجتمع الاسلامى آنذاك . وقد كان هذا الواقع بحيث لا يحتاج الى كثيـــر مـــن الاصرار للدلالة على وجوده ، وهو أكبر الحقائق الواضحة البارزة المعالم فى مجتمع ذلك العهد ، تشخصها الحركة الدائبة لحياة الناس كل يـــوم على اختلاف اذواقهم ومشارب معارفهم فى مختلف ارجاء هذا المجتمع ، ان فى أحاديث أسواق بغداد او منتديات البصرة ، وان فى حلقات العلـــم باصفهان ونيشابور .. وهو واقع يجب أن نتشخصه بكل دواعـــى الحياة النابضة التى رسخت جذوره واينعت غصونه ، كيما نستطيع القول انه حقق السمة الدائمة لشخصية المسلم حيثما كان بلده ، ومهما كان جنسه ، وكيفما كانت لغته . فلقد شد اليه كل هـــذه العناصر فى تجانس عجيب ، ونفـــذ بهذه الصفة الى اعماق انسان ذلك المجتمع فخلق الفرد النموذجـــى ، المتماســـك ، القـــوي .

---

91) لباب الالباب . محمد عوفى ج 1 . ص 75 — 76 — 77 .

ذلك ما جعل العناصر الفكرية للعرب والفرس تلتقى وتتكامل وتنضج فى امثلة فريدة فى عالم الامس واليوم . تعددت نظائرها واشباهها فيه فلا تحصى ، وتكاثرت فكانت غاية فى الاهمية لبيان الوجه الحقيقى لتاريخ الثقافة الاسلامية بعارضتيه ، واساسا لدعامة العربية والفارسية فى آدبيهما .

ولقد كان ضروريا والعهد باللغة الفارسية وأدبها الزاخر جديد ، وملامح تكوينه تتراءى فى مطالع القرن الرابع الهجري ، ان توصف تلك اللغة بـ : « الفارسية الاسلامية » . فهى لغة هذا المجتمع المتكامل المتجانس ، الناضج ، وابداع ذلك الفكر فى مسيرته المستمدة من قداسة الوحى الالهى ، وعبقرية لغة الضاد ، ونفاذ بصيرة الفارسى وذوقه الرقيق واحساسه المرهف ... فلم يكن اسم أحرى بتلك اللغة واجدر واحق من الذي وصفها بـ : « الاسلامية » . ولم يتيسر لادب ما تيسر لادب هذه اللغة من مجال واسع من هذه الصفة التى طبعتها ، فما اصابته كلفة على كثرته ولا علت صفاءه طرفة . بل ظل عنوان حقيقة حية فكرت وعبرت بلسان الواقع يسجل الحدث الكبير الذي جمع لغتين ووحد جنسين ، عقيدة وتفكيراً وآمالا .

فاذا اتجهت القلوب العربية الى ذلك البحر الزخار من الافكار والمباديء والفضائل الذي حملته السنين عبر ادب اللغة الفارسية ، فستجد فيها أصداء تلك الروح التي حملت اليها سر حضارتها .

ومن ثم سيعيش العربى شخصيته فى هذه اللغة الفارسية كما يعيشها الفارسى تماما بتمام . وسيعيشانها معا فى نفس اللغة العربية بشكل دائم الامداد والاستمداد ، دائم الحياة . لا تمييز فيه للفصائل عن بعضها ، ولا مجال لفصل الاجناس وتفرقتها . اذن ليس لنا أن نعتبر هنا ما يفرضه علم اللغة فى هذه الحالة من ازدواجية ، وما ينتج عنها من تعدد الشخصية او اضطرابها ، وتشتت الاتجاه والتفكير ، وفقدان التحكم فى هذه القوة المهمة فى حياة الانسان ، والانقياد الى احدى اللغتين قولا والى الاخرى تفكيرا ، عند من يجمع بين العربية والفارسية من ذووي

اللسانين . فذلك أمر ينطبق على الجميع بين لغتين تتنافران في الاصل والجنس وتتنافران في الظروف التي جمعتهما ، تنافر إصحابهما عقيدة وتاريخا وتقاليد ثقافية وطموحا وآمالا ، وتتنافران في مستوى الحياة الاجتماعية والفكرية لمتعلميهما الذين يختار لطبقة منهم لغة وثقافة ، وتفرض لغة وثقافة أخرى على عمومهم الآخرين . وتتنافران فتميز احداهما بدعوى أنها لغة العلم وتوصف الاخرى بأنها لغة العواطف ، وتتنافران بحيث ان سلطة سياسية او اقتصادية هي التي تفرض العلاقة بينهما وتتحكم في هذه العلاقة لصالح تلك السلطة . أما العلاقة بين الفارسية والعربية ، فعلاقة تاريخ طويل سلكاه في مسار واحد ، متواز ، مستمر. وتاصلت جذورهما معا في كنف التراث الاسلامي ، فكون منهما شخصية ثقافية واحدة ، نمت وتكاملت في حركة دائمة الاخذ دائبة العطاء وهي تشيد صرح الحضارة الاسلامية . فالاخذ بهما معا ، يجمع شتات فكر المسلم ، ويوجهه نحو أصالته ، ويخلق الظروف التي ازدهرت فيها هذه الثقافة . واشارة الجاحظ وهو يضرب المثل بفصاحة فارسي وقد اتقن العربية والفارسية ، ومارس التفكير والقول بهما ، تنبه الى هذا . فعنده « ان اللغتين اذا التقتا في اللسان الواحد ادخلت كل واحدة منها الضيم على صاحبتها الا ما كان من لسان موسى بن سيار الاسواري » (92).

وعلى شيوع اللغات الاجنبية في البلاد العربية في عهد الجاحظ ، وقد أخذ هو منها كذلك بنصيب وافر — فقد كانت اشارته هذه بمثابة استغراب لامر ثقافة الفرس ولغتهم في لقائها بثقافة العرب ولغتهم ، لذلك سجل مثاله هذا ليؤكد الوحدة الكاملة التي جمعت اللغتين ، ولم يلتفت الى غيره على كثرة وجوده . ونجد هذه الاشارة قائمة في القرن الرابع الهجري كذلك . والامر بين الفارسية والعربية ممثل به كما كان من قبل ، متجاوزا اللفظ الى البلاغة والابداع في التعبير . يقول ابو هلال العسكري معمما ثم مخصصا : « ومن عرف ترتيب المعاني واستعمال

---

92) البيان والتبيين . ج 1 ص 368 . تحقيق عبد السلام هارون .

الالفاظ على وجهها بلغة من اللغات ثم انتقل الى لغة اخرى ، تهيأ له فيها من صنعة الكلام مثل ما تهيأ له فى الاولى » (93) .

ويقول : « العجم والعرب فى البلاغة سواء ، فمن تعلم البلاغة بلغة من اللغات ثم انتقل الى لغة أخرى أمكنه فيها من صنعة الكلام ما أمكنه من الاولـــى (94) .

فهو يعمم اولا بين اللغات كلها ، ويعمم ثانيا بين مطلق العجم ، وقد كان الاختلاط اذ ذاك أكثر وشيوع اللغات والثقافات المختلفة اشمل . ولكنه يحصر مثاله فى الطرف الآخر فى العرب . ويعـــمـــم فى البـــلاغة ، ولكنه حينما يريد تطبيق رأيه فى مثال آنما يتناول آلفرس وبلاغتهم ، لانه أقرب مثال واوضحه واشمله ، بسبب التلاحم الكبير بين العربيـــة والفارسية ، وقد كان ابو هلال بنفسه مثالا له . ويقول : « ويدلك على هذا ان تراجم خطب الفرس ورسائلهم هى علـــى خـــطـــب العـــرب ورسائلها » (94) .

ويقول : « وللفرس امثال كأمثال العرب معنى وصنعة . وربما كان اللفـــظ الفارسى فى بعضها أفـــصـــح من اللفـــظ الـــعـــربـــى ... ويأخذ من مثال الكتاب عبد الحميد الكاتب الذي استخرج امثلة الكتابـــة التى رسمها لمن بعده ، من آللسان الفارســـى فحولها الى اللســـان العـــربـــى (95).

والعجمية — عموما — فى راي ابن خلدون لا تتنافر مع العربيـــة كذلك . غير انه يلح باصرار على اللغة العربية وان لا تسبقها العجميـــة فى التعليم ، فذلك يسبب القصور فى تحصيل العلوم عن آهـــل اللسان العربـــى ، الا ان تكون ملكة العجمة السابقة لم تستحكم حين انتقل منها

---

93) كتاب الصناعتين . ابو هلال العسكرى ص 69 . تحقيق على البجاوى ومحمد ابراهيم
94) كتاب الصناعتين ص 69
95) كتاب الصناعتين ص 69 وديوان المعانى ج 2 ص 89 .

الى العربية (96) ويفترض فى ذلك زيادة على حجاب المصطلح ودلالته ، حجابا اعوص من الاول يعوق كسب المعرفة ، هو خط اللغة العربية بالنسبة للعجمى الذي تعود على خط لغته ، مستثنيا من ذلك نوادر ، اذ ربما يكون الداب على التعليم والمران على اللغة وممارسة الخط ، يفضيان بصاحبهما الى تمكن الملكة ، كما نجده فى كثير من علماء العجم (97) اما « اذا كانت ملكته فى الدلالة اللفظية والخطية مستحكمة ارتفعت الحجب بينه وبين المعانى ، وصار انما يعانى فهم مباحثها فقط (98)

وتنجاب هذه الحجب ايضا عن الفارسية واهلها ، فهم اولا حين يتعلمون لغتهم يتعودون على المصطلح الاسلامى على اصله العربى فى العلوم والآداب وقد استوعبته الفارسية كاملا ، فابدعوا فى مجال العلوم الاسلامية وفاقوا غيرهم من العرب والعجم . اما بلاغة القول وفنون التعبير ، فقد غلب على طباعهم وتحكمت فيه اذواقهم الرقيقة فى لغتهم فكان جبلة فيهم انعكس على منظومهم ومنثورهم فى العربية . وهم لا يستشكلون قراءة الخط العربى وهو الخط الذي كتبت به فارسيتهم الاسلامية . وطال مراسهم لهذا الخط حتى تفننوا — فيما بعد — فى ايجاد انواع له نسبت اليهم .

ومع ان ابن خلدون يعود فى الاخير وكانه يعدل من رايه ، فيفصل بين العجم بالنسب مؤكدا قوله المشهور فى ان اكثر علماء الاسلام عجم ، وبين العجم باللغة . ولكنه يعمم رأيه فى جميع اصناف اهل اللسان الاعجمى من غير تمييز .

هذه الصفة اللسانية التى ابرزت الحقيقة العجيبة لاتصال هذين العنصرين ، الفارسى والعربى فى تجانس وانسجام ، قد ابدعت عبقريات من عجائب الزمان .

فاس　　　　　　　　د. عبد اللطيف السعداني

---

96) مقدمة ابن خلدون ج 4 ص 1250 .
97) مقدمة ابن خلدون ج 4 ص 1252 .
98) مقدمة ابن خلدون ج 4 ص 1251 .

القوى الوطنية في شمال افريقيا

في مواجهة قرطاج وروما

(من القرن الثالث ق.م إلى القرن الاول الميلادي) (1)

د. فوزي مكاوي

اذا جاز لنا ان نصور التاريخ بنهر يتدفق بالحضارات ، فان شمال افريقيا ظل بعيدا عن تيار هذا النهر فترة طويلة من الزمن الى ان اتصلت شعوبه بشعوب اخرى كان لها قصب السبق فى ميدان المدنية . فكان لاتصال هذه المنطقة بالفينيقيين (2) وغيرهم الفضل الكبير فى تطوير شعوب هذه البلاد واخذها باسباب التقدم فى شتى جوانب الحياة .

برز فى تاريخ شمال افريقيا منذ الاستقرار الفينيقى على سواحل البلاد قوتان :

القوة الاولى : هى الشعوب الوافدة على المنطقة كالفينيقيين والاغريق (3) ومن بعدهم الرومان (4) . وهذه الشعوب وفدت الى تلك البلاد بهدف الاستيطان وانشاء المراكز التجارية واستعمار المنطقة لمصلحة دولة معينة . والملاحظة العامة انهم تركزوا جميعا فى السواحل ونادرا ما امتدت سلطة اي منهم خلف الشريط الساحلى للبلاد . وقد قام هؤلاء المستعمرون ببناء المدن الساحلية لخدمة اغراضهم واستقروا فيها ثم زرعوا بعض المساحات من الاراضى المحيطة بتلك المدن لسد حاجة

سكانها من الغذاء ، ولكن اهتماماتهم وامكاناتهم لم تصل الى ما وراء ذلك فظلت المساحة الكبرى من البلاد بعيدة الى حد كبير عن سيطرتهم ونفوذهم. هذه القوة في الواقع تمثل الاستعمار على ارض تلك البلاد ومهما كان اثر هذه الجماعة او تلك في حياة المنطقة فانها في النهاية كانت جماعات غريبة صغيرة العدد . ويمكننا ان نقول باطمئنان بأن كل موجة منها كانت تذوب تقريبا في شمال افريقيا قبل وصول الموجة التالية . الجدير بالاهمية ان هذه النشاطات الاستعمارية على شواطىء شمال افريقيا ظلت محور اهتمامات المؤرخين من قديم الزمان ، فالمؤرخون منذ عصر الرومان يركزون على نشاطات الجماعات دون ان يتعرضوا لحياة وتاريخ الوطنيين الا عندما يتصل هؤلاء الوطنيون بسلطات الاحتلال على السواحل وسار المؤرخون المحدثون على هذا النهج حتى اصبح متوقعا أن نجد محتوى كل كتاب يبحث في تاريخ شمال افريقيا في هذه الحقبة مرتبطا بنشاط هذه الجماعة فقط (5).

القوة الثانية : هي قوة الوطنيين الذين عاشوا في تلك البلاد واحتلوا اغلب ارضها خلف الشريط الساحلي ومثلوا اغلبية سكانها على طول عصور التاريخ . هذا الشعب كون جماعتين من الناحية الحضارية . الجماعة الاولى شملت السكان الذين عاشوا على هوامش المناطق التي عاش فيها الفينيقيون وغيرهم من الجماعات التي استعمرت شمال افريقيا في العصور القديمة . وقد كانت هذه الجماعة الاولى لصيقة بتلك الحضارات وتعاملت معها وعاشت نظمها السياسية والادارية والحضارية كما وقعت في حبائل استغلالها اثناء عنفوان المد الاستعماري لكل منها فأعلنت الولاء ، وربما دفعت الضرائب ثم استطاعت ان تثور على هذه التبعية عندما آنست ظروفا مواتية ، بل واستطاعت ايضا هذه الجماعة الاولى عندما تأثرت بحضارات المستعمرين واخذت بأسباب تقدمهم ـــ اقول استطاعت أن تقيم الممالك الوطنية التي اصبحت في بعض الاحوال خطرا على الوجود الاستعماري ذاته .

اما الجماعة الثانية فتضم السكان الوطنيين الذين عاشوا الى الجنوب من أراضي الجماعة الوطنية الاولى ، وكانت هذه الجماعة الاخيرة ابعد عن خطر الاستعمار معتصمة بالجبال او الصحراء البعيدة فظلت متمتعة باستقلال كامل اغلب تاريخها ، ولكنها تأثرت قليلا بما جاورها من الحضارات ولذا ايضا ظلت على بدائيتها .

هاتان الجماعتان الوطنيتان هما كل شعب شما ل‌افريقيا المسيطر على جل اراضيه ، ولكنهما لم ينالا حقهما فى اهتمام المؤرخين بهما ، فظل تاريخ الشمال الافريقى كما سبق أن ذكرت قصرا على الاهتمام بنشاطات الشعوب الوافدة من دون الوطنيين .

وهدف هذه الدراسة هو القاء الضوء على صفحـات من كفاح الوطنيين فى شمال افريقيا الذين استوعبوا حضارة الاعداء ووطنوها فى بلادهم وصاروا بتطويرهم بلادهم مصدر خطر على اكثر من قوة استعمارية فى السـواحـل .

وقبل أن ادرس نشاط الوطنيين ودولهم ، تجدر الاشارة الى الظروف التى ساعدت على قيام هذا النشاط خـلال الالف الاول ق.م. كان نشاط الفينيقيين فى مجال التجارة قد عظم على شواطىء البحر المتوسط جميعها ثم عبر (مضيق جبل طارق) لكى يصل الى مناطق تعدين الفضة فى غـربى اسبانيا على سواحل الاطلنطى ؛ وكانت الرحلة الطويلة من شواطىء فينيقيا فى شرقـى البحر المتوسط الى تلك المناطق النائية تحتاج الى محطـات يلتقط فيها البحارة أنفاسهم ويتزودون منها بالمؤن لما بقى من الرحلة. ومن ثم ظهرت الحاجة الى اقامة مراسـى على طول السواحل التى تصل بين فينيقيا ومناطق انتاج الفضة فى غربى اسبانيا . وشاهدت سواحل البحـر المتوسط منذ البداية المبكرة للألف الاول ق.م. نشأة العديد من المحطات مثل أوتيكا Utica وحضرموت Hadrumetum (سوسة) وتيباسة Tipasa شرقى شرشال Cherchell وسيجة Siga وليكسوس Lixus والصويرة Mogador هى أقصى محطة فينيقية معروفة فى المغرب (6) ، الا ان قرطاج كانت أشهر هذه المحطات التى أنشأها الفينيقيون على ساحل شمال افريقيا . فقد قدر لها أن تكون اكبر المحطات الفينيقية ثم تحولت مع الوقت الى قوة استعمارية كبيرة فى المنطقة ، ارتبطت اهداف الاستقرار الفينيقى على سواحل شمـال افريقيا (7) كما ذكرت — بخدمة أهداف التجارة الفينيقية فضلا عن الظروف السياسية التى سادت منطقة البحر المتوسط فى ذلك الوقت ولذلك لا يمكن أن نرى فيها أوجه شبه بالمستوطنات اليونانية التي قامت لتخفيف ضغط السكان عن الوطن الام . وكنتيجة لاختلاف النشأة اختلفت ايضا اهتمامات

سكان هذه المحطات الفينيقية فظلوا يعترفون بالولاء للوطن الام لفترة طويلة ، كما امتنعوا عن الاستيلاء على المزيد من الاراضي المحيطة بمحطاتهم باستثناء الاراضي اللازمة لزراعة ما يكفيهم من الحبوب .

لم يشذ عن هذا النظام سوى قرطاج فقد دفعتها ظروف سقوط الوطن الام صور تحت الحكم الفارسي الى صدارة العالم الفينيقي فى غرب البحر المتوسط (8) ودفعتها ايضا ظروف التنافس التجاري مع الاغريق الذين استقروا فى أماكن عديدة فى صقلية وهددوا المصالح القرطاجية فى غرب الجزيرة (9) الى صدارة كل القوى فى غرب البحر المتوسط فان نجاح قرطاج فى صد محاولات صقلية اغراها بتوسيع رقعة اهتماماتها فى سردينيا والتحالف مع الاترورسيين Etruscans فى ايطاليا . وهكذا فان ظروفا مختلفة دفعت قرطاج الى اقامة امبراطورية خاصة بها ، تركزت فى شمال افريقيا وشملت المستوطنات الفينيقية الاخرى فضلا عما انشأته قرطاج من مستوطنات حديثة ، كل هذا بالاضافة الى السيطرة على مزيد من الاراضي الخصبة فى سهول تونس الحالية لكى تكفى حاجات الطعام والامن لقرطاج . وهكذا امتدت أملاك قرطاج على طول الساحل من خليج Sidra الى ساحل الاطلنطي (10) .

وتتفق المصادر القديمة على أن قرطاج اصبحت اغنى مدينة فى العالم من خلال تجارتها خاصة فى الفضة والذهب والحديد والتى كان يتم الحصول عليها مقابل بضائع مصنعة أو استهلاكية ذات قيمة تافهة (11) حافظت قرطاج على احتكارها لهذه التجارة بنجاح من القرن السادس الى القرن الثالث ق.م. وطردت كل المنافسين من منطقة غرب البحر المتوسط ، ويمكننا أن نقول باطمئنان ان التاجر القرطاجى اصبح مألوفا فى كل مراكز الاقتصاد فى ذلك الوقت (12) .

اصبح واجبا على قرطاج أن تحمى اراضيها المتزايدة ومن ثم اصبحت مواردها البشرية قاصرة عن الوفاء باحتياجات جيوشها فاتجهت للاعتماد على المرتزقة خاصة من الوطنيين فى شمال افريقيا (13) على أن الصراع الدامى الذي اثر فى حياة منطقة البحر المتوسط وقلب موازين القوى فى

العالم كان صراع قرطاج مع روما . فان روما الفتية استطاعت ان تسيطر على كل جنوب ايطاليا فى القرن الثالث ق.م. ومن ثم اقتربت من مناطق النفوذ القرطاجية فى صقلية ورأت قرطاج فى محاولات المد الرومانى مصدر خطر على نفوذها فى الجزيرة ، وكانت الحرب البونية الاولى التي استمرت من 264 ق. م. حتى عام 241 قم (14) وقد انتهت هذه الحرب بهزيمة قرطاج وفقدت صقلية وسردينيا (15) .

اتجهت قرطاج الى اسبانيا فى محاولة لبناء امبراطورية على ارضها عوضا عن املاكها المفقودة فى الحرب البونية الاولى واملا فى الاستغلال المباشر للثروة المعدنية فى اسبانيا سابقة الرومان فى ذلك ، وقد استطاع زعيمان قرطاجيان هما هملكار باركا Hamilcar Barca وصهره هسدروبال Hasdrubal أن يقودا جيشا كبيرا استوليا به على جزء كبير من شبه جزيرة ايبيريا (16) ولكن هذا الاتساع القرطاجى قاد الى حرب مدمرة أخرى هي الحرب البونية الثانية بين قرطاج وروما التي كانت قد صممت على منع امتداد وتدعيم الامبراطورية الجديدة (17) واستطاعت العبقرية العسكرية لهانيبال ، وهو احد ابناء قرطاج (18) أن تدخل الرعب فى قلب كل انسان رومانى ، والحق هانيبال الهزائم الثقيلة بالجيوش الرومانية عند بحيرة تراسمينوس Trasimenus 217 ق.م. وكناي Cannae 216 ق.م وغيرهما (19) ، وبقى هانيبال فى ارض ايطاليا حتى عام 203 ق.م. عندما استدعى على عجل ليواجه تدبيرا رومانيا معاكسا .

اذ ان سكيبو الذي عرف بالافريقى نقل المعركة الى قلب افريقيا عندما قام بعملية ابرار على ساحل أوتيكا Utica القرطاجية ومعه جيشه الرومانى . وقد استطاع سكيبيو أن يحقق نصرا خرافيا على قوات هانيبال فى زاما Zama فى عام 202 قم اعترفت قرطاج بالامر الواقع وجلست على مائدة الاستسلام فحلت اسطولها وتنازلت عن املاكها فى أعالى البحار بل وبعض أملاكها الافريقية (21) . ومع ذلك فبعد نصف قرن من الزمان ، وخوفا من صحوة أخرى لقرطاج قرر الرومان افناء المدينة العظيمة ولم يجد القرطاجيون بدا من ان يدافعوا حتى الموت عن

مدينتهم ، وبعد ثلاث سنوات من الحصار سقطت المدينة فى سنة 146 قم ودمرت عمائرها واصبحت اثرا بعد عين (22).

والمعروف ان قرطاج عرفت النظام الملكى القائم على الانتخاب دون وراثة ولكن منذ القرن الرابع قم انتقلت السلطة الى ايدي قاضيين ينتخبان لمدة عام واحد من بين المواطنين الاغنياء ، وكانت قيادة الجيش فى البداية وظيفة الملك ولكن فيما بعد أصبح الملوك لا يتولون سوى قيادة الحملات الهامة ، أما الجيش فقد اعتمد على المرتزقة وضم الليبيون المشاة والنوميديين والموريتانيين الخيالة بالاضافة الى عناصر اخرى اشتركت فيما بعد فى تكوين هذا الجيش .

لم ينحصر تأثير قرطاج الحضارى فى شمال افريقيا فى حدود البلدان التابعة لنفوذها السياسى وحدها بل تعدى هذه الحدود السياسية لكى يشمل بلاد شمال افريقيا كلها .

فالوطنيون الذين خدموا كجنود فى جيوش قرطاج وتأثروا بحضارتها حملوا الى اوطانهم عند عودتهم شيئا من هذه المدنية القرطاجية التى خبروها ، كما ان التجار الفينيقيون فى تجوالهم لم يقدموا للوطنيين بضائعهم فقط بل قدموا ايضا بعضا من عقائدهم الدينية واساليبهم الاقتصادية وافكارهم الصناعية والزراعية وقد استجاب الوطنيون لما ناسبهم من هذه المظاهر الحضارية مما كان له اثر كبير فى تطوير مدنياتهم البدائية (23).

لم يكن تأثير حضارة قرطاج على الوطنيين بدرجة واحدة من القوة ، اذ ان أهالي المناطق المحيطة بأراضي قرطاج فى نوميديا كانوا اكثر أهل شمال افريقيا تأثرا بهذه الحضارة ، حيث انبهر الامراء النوميديون بما شاهدوه فى قرطاج التى عاشوا فيها فترات طويلة من حياتهم وتزوج بعضهم من بنات نبلائها وأطلقوا على ابنائهم اسماء قرطاجية (24) وظهر اثر هذا التاثير على من تولى الحكم فى بلاد منهم فمنح الملوك بلادهم دساتير على نسق دستور قرطاج وعبدوا آلهة تلك المدينة ودعوا رعاياهم الى العمل بأساليب الزراعة القرطاجية (25) ، كما استعان الملوك وكبار القوم بفنيين من قرطاج

على اقامة العمائر فى بلادهم . وهناك مثل واضح على هذا التأثير ــ مقبرة يبدو انها ملكية عثر عليها فى مدينة دقة استخدم فى بنائها العلوي اساليب الفن القرطاجي وهذا البناء أقيم من الحجارة ويضم ثلاثة طوابق ذات زخارف جميلة وكانت تحمل نصا واحدا كتب باللغة الليبية والبونية وهذا النص يعتبر دليلا على استخدام اللغة البونية فى المناطق الوطنية بجانب اللغة الوطنية الليبية التى كانت تكتب بحروف بونية (26) . مما لا شك فيه ان اثر الحضارة القرطاجية بقى فى بلاد شمال افريقيا بعد زوال قرطاج .

والتأثيرات العقائدية لقرطاج ظلت قوية فى بلاد شمال أفريقيا حتى بعد اختفاء القرطاجيين وانتقال السيادة الى الرومان وان اضطرت هذه الالهة الى التسمى باسماء رومانية فالاله (بعل) سمى (سيترن) Saturn وظلت العملة تحمل عبارات باللغة البونية فى كثير من مدن الساحل حتى عهد تيبيريوس (27).

ومهما كان الراي حول مدى عمق الاثر القرطاجى على حياة سكان افريقيا فيكفى ان بلاد شمال أفريقيا قد اندمجت، فى عالم البحر المتوسط من خلال قرطاج ، كما كان لقرطاج الفضل فى وضع بذور المدنية التى أتت أكلها .

قيام الممالك الوطنية اعتبارا من القرن الثالث ق. م.

قامت هذه الممالك وعاشت فترة من الدهر بعيدة عن مجرى الاحداث فى منطقة غرب البحر المتوسط فيما عدا دورها فى امداد الجيوش القرطاجية بالجنود (28) الا ان احداث الحرب البونية الثانية دفعت طرفي النزاع الاصليين الى التسابق لكسب رضى الممالك الوطنية ومن ثم بدأ دور الممالك فى الظهور .

أهم الممالك الوطنية التى ظهرت فى ذلك الوقت كانت مملكتا مازيسولة وماسولة النوميديتين . وكانت املاكهما تضم الاراضي المحصورة بين الحدود القرطاجية شرقا ونهر الملوية غربا ، كانت مملكة مازيسولة اوسع مساحة من مملكة ماسولة (29) وقامت كل من المملكتين من اتحاد مجموعة من القبائل، وتولى الحكم فى كل منها زعيم اقوى قبائل المملكة (30). لا نعرف

على وجه الدقة تاريخقيام كل من هاتين المملكتين ولكن المؤكد انهما كانتا على جانب كبير من الاهمية اثناء الحرب البونية مما دفع كل من قرطاج وروما الى السعى نحوهما املا فى كسب صداقتهما اثناء الصراع المرتقب بينهما . لم تنجح اى من القوتين العظيمتين فى غرب البحر المتوسط فى اكتساب ولاء المملكتين فى وقت واحد اذ ان الخلافات القبلية بينهما كانت أقوى من دوافع التحالف مع قرطاج أو روما وكان التحالف مع أي منهما يعنى تلقائيا امكانية انضمام القوة الاخرى الى المعسكر المعادي . وقد سعت قرطاج وهى تعد للمعركة المرتقبة بينها وبين روما الى التحالف مع اقوى المملكتين وهى مملكة مازيسولة . فعقدت حلفا (218 قم) مع ملكها سيفاكس يؤمن لها امدادات الجنود وربما الفداء أيضا ، كان هذا التحالف كافيا لكي يكون ملك مملكة ماسولة على عداء معها ، ولكن عندما سقط حلف مازيسولة مع قرطاج بانسحاب الاولى منه 213 سعت قرطاج تخطب ود الملك غايا ملك ماسولة ، ولم يكن لدى الملك ما يمنع من قيام هذا التحالف ، أما سيفاكس ملك مازيسولة فما أن ترك جانب القرطاجيين حتى سعت اليه روما تمد يد الصداقة بينهما (31) .

فى ذلك الوقت كانت معارك الحرب البونية بين روما وقرطاج تتخذ من اسبانيا مسرحا لها ودخل الطرفان الوطنيان بثقلهما فى المعركة كل منها الى جانب أصدقائه . وقد استطاعت قوات ماسولة الموالية لقرطاج أن تحقق لها تفوقا مبكرا بنجاحها فى منع سيفاكس من امداد الرومان بفرق من خيالته عندما هزمت بقيادة ماسينسا ابن الملك غايا قوات الامداد قرب الملوية وطنجة (32) كما استطاعت قوات ماسولة فى عام 212—211 ق.م. تحت قيادة ماسينسا أن تقوم بدور متميز فى هزيمة بوبليوس سكيبو الكبير وجيشه فى اسبانيا (33) .

ولكن فى عام 208 قم حدثت أمور غيرت موازين القوى فى المنطقة فقد انتصر الرومان انتصارا كبيرا على ماجو القرطاجي وحلفائه من النوميديين (الماسولة) وذلك فى موقعة البا Ilipa فى اسبانيا ، ومات ملك نوميديا فى عام 208 بينما كان ابنه الاكبر مسينسا الى جانب القرطاجيين فى اسبانيا وذهب العرش الى أكبر أفراد أسرته فورثه أخوه وكان ملكا ضعيفا (34) ورأت قرطاج فى ذلك نذير سوء اذ أن الملك الجديد لا يستطيع

ان يقدم لها عونا مؤثرا خاصة وانها كانت ترى بذور فتنـــة بين امـــراء البيت الحاكم النوميدي صراعا على العرش ومسينسا اكبر ابناء الملــك الراحل، والشاب الذكى النشيط لن يتقبل ما حدث لبلاده من تخطى لحقه فى وراثة العرش . بدات قرطاج ترى من صالحها أن تولي حلف ماسولة ظهرها وتعود للاتفاق مع سيفاكس ملك مازيسولة ، وبذلت فى ذلك الكثير من الجهد حتى تكللت هذه الجهود بالنجاح الذي دعمه زواج سيفاكس من ابنــة احدى الاسر النبيلة فى قرطاج وهـــي الاميـــرة صوفونيبا . تلقـــى مسينسا العديد من الاخبار السيئة مرة واحدة وهو بعد في ميدان القتال الى جانب القرطاجيين فى اسبانيا ، بلغه نبأ موت ابيه وذهاب العرش الى عمه وبلغه ايضا أنباء الحلف الجديد بين قرطاج ومازيسولة . فما كان منه ان ترك ميدان المعركة خاصة بعد ان حقق الرومان انتصارا كبيرا فى ألبا 207 ق.م. ، التقى مسينسا قبل رحيله مع Iunius Silanus أحد القادة الرومان قرب قادس ويقال أنه كان راغبا فى اللجوء الى روما ولكنه غــادر اسبانيا بعد هذه المقابلة بوقت قصير عائدا الى افريقيا (35) ولعله نجح فى الحصول على وعد رومانى بالمساعدة . وما كاد مسينسا يطىء أرض افريقيا بقدميه عام 207 ق.م حتى تلقى المزيد من الاخبار السيئة اذ بلغه تكون حلف ثلاثى بين قرطاج ومازيسولة تحت حكم سيفاكــس وكذلــك Mazaetullus المتصرف فى شؤون الحكم فى ماسولة وكان هدف هذا الحلف الوقوف فى وجه اطماعه ومنعه من تحقيق أهدافه فى الاستيلاء على العرش فى ماسولة (36)

قضى ماسينسا اياما عصيبة خلال العامين التاليين 206—205 ق.م. في مواجهة هذا الحلف ، ورغم نجاحه فى هزيمة قوات مملكة ماسولة فى مناوشات اولية الا انه عانى هزيمة قاسية نتيجة تدخل سيفاكس لصالح ملك ماسولة ، وعندما طارده بوكار Bucar — أحد ضباط سيفاكس — بعد ان فقد جيشه فى منطقة Massif Khoumirie لم يجد أمامه الا ان يهرب عبرنهر مجردة Bagradas وبقى مختفيا فترة طويلة حتى التأمت جروحه . وبدأ يسترجع قواه ويستجمع شجاعته ويجمع حوله من جديد أفرادا من جنوده واستطاع ان يكون خطرا على امن اعدائه فى المنطقة الجبلية الواقعة بين قرطة وهيبورجيـــوس Hipporegins (37) .

وبدات روما فى تجهيز مسرح العمليات على الساحل الافريقـي ، فارسلت باحد قوادها المدعو Laelius فى عام 205 الى افريقيا لكى يضم من يستطيع من القادة الوطنيين الى صفها . وعندما وصل هذا الضابط الى Hipporegius وجد مملكة مازيسولة تحت قيادة سيفاكس ومملكة ماسولة تحت قيادة Mazaetulius قد اتخذت جانب القرطاجيين وجمعت الظروف بين مسينسا القائد الشريد وروما الباحثة عن حليف ، واتفق المندوب الرومانى مع مسينسا على ان يساعدوه ويساعدهم خلال الصراع القـادم (38) .

عرف سيفاكس بمكان مسينسا فقاد اليه الجنود بنفسـه وهـزم مسينسا الا انه استطاع الهرب الى منطقة سرت الصغرى Leser Syrtis فى انتظار وصول حلفائه الرومـان .

انضم مسينسا الى الرومان بمجرد وصولهم عـلـى شاطىء رأس Farina فى عام 204 ق.م. ، وبالرغم من الحجم الصغير لقواته العسكرية فى ذلك الوقت والتى لم تزد على مائتى فارس فقط فقد استطاع آن يكون عاملا مؤثرا فى كل معركة تالية ، ويرجع هذا بغير شك الى كفاءته وعزمه الذي لا يلين فى الوصول لهدفه بالجلوس على عرش ماسولة ، فاستطاع أن ينصب فخا للخيالة القرطاجيين فى المنطقة التلية الجنوبية من اوتيكا . وفى اوائل 203 ق.م اسدى خدمة لا تقدر لحلفائه الرومان عندما قاد القوات النوميدية الرومانية المشتركة فى عملية فدائية احرقوا فيها مـعـسكرات القرطاجيين وحلفائهم . واستطاع مـرة اخرى أن يكون ذا دور حاسم فى هزيمة قوة نوميدية وقرطاجية مشتركة فى وادي نهر Bagradas (39).

مسينسا يعتلي عرش نوميديا

طالب الحليف مسينسا حليفه الرومانى بأن يفى بالوعد بمساعدته فى الاستيلاء على عرش بلاده ماسولة وتقدمت قوات رومانية بقيادة Laelius لمساعدة قوات مسينسا الذي استطاع ان يصل الى عاصمته ويحرر بلاده ثم طور هجومه ندخل حدود سيفاكس وتقدم فى اتجاه عاصمته ونجح اخيرا فى الاستيلاء على قرطة عاصمة البلاد والقبض على Syphax . ومن المؤكد انه اسر الملكة Sophoniba التى اتخذها زوجة له قبل أن

تنتحر فى اليوم التالى (40) . وأعلن القائد الرومانى سكيبيو اعتراف روما بحليفها مسينسا ملكا على نوميديا الموحدة ، وصادق مجلس الشيوخ على هذا الاعتراف فيما بعد (41) . نجح مسينسا فى السيطرة على المناطق التى امتدت من الحدود القرطاجية الى ما يعرف الآن باسم ملوية . Moulouya ولكنه ركز نشاطه على ما يبدو فى المناطق الشرقية اذ سمح لفيرمينا ابن سيفاكس بأن يعود حاكما على قبائل المازيسولة ، وان كان هذا الاخير لم يتمتع بلقب الملك . وقد جعل العاصمة فى قرطة التى كانت عاصمة سيفاكس، وتؤكد الابحاث الاثرية أن قسنطينة بنيت فوق اطلال تلك المدينة ، ويقال ان سكانها على عهد مسينسا بلغوا 200 الف نسمة (42).

وفى العام التالى (202 قم) دعا سكيبيو حليفه مسينسا الى مساعدته فى الهجوم النهائى على قرطاج بعد ان وطد دعائم ملكه فى مملكته الكبيرة التي ضمت املاك آبائه بالاضافة الى مملكة سيفاكس. تقدم مسينسا على رأس قوات ضخمة ضمت اربعة آلاف فارس وستة آلاف من المشاة حيث كونت هذه القوات ميمنة الجيش المهاجم لقرطاج . وقد استطاعت هذه القوات ان تحسم المعركة لصالح الرومان عندما نجح مسينسا فى ان يدور بقواته حول مؤخرة الجيش القرطاجى فى الوقت الذي كان القرطاجيون يواجهون الهجوم الرومانى من الامام . وقد اوقعت هذه الخطة الاضطراب فى صفوف القرطاجيين مما ادى الى هزيمتهم هزيمة ساحقة ، وقد اعترف الرومان لمسينسا بالفضل فى تحول المعركة لصالحهم وكرموه فى احتفالاتهم بالنصر واعطوه مكانة مساوية لمكانة Laelius مساعد سكيبيو ، وعبر مجلس الشيوخ الرومانى عن عمق امتنانه لمسينسا . ان هذه الصورة كانت الخلفية التاريخية للصداقة الوطيدة التى ميزت العلاقات بين روما ونوميديا خلال نصف القرن التالى (43) .

انتهت الحرب البونية الثانية باستسلام قرطاج لشروط روما القاسية فسلبت كل املاكها خارج افريقيا وان احتفظت بترابها الافريقي بشرط الا تعلن الحرب الا بموافقة سابقة من روما، واعترفت بمسينسا ملكا على نوميدية وسرحت جيشها وحرمت من فيلتها واسطولها فيما عدا عشر سفن ثلاثية كما فرض عليها دفع غرامة حربية قدرها عشرة آلاف وزنة (أوبيه) يدفع

عشرها فورا قبل ايقاف القتال ، كما اجبرت على ارسال الرهائن لكـــى يسيروا فى مهرجان النصر فى روما (44) .

منذ انتهاء هذه الحرب ركز الملك مسينسا جهوده فى اتجاهين الاول هو اكتساب المزيد من الارض على حساب قرطاج المهزومة والاتجاه الثانى هو بذل الجهد فى سبيل توطين النوميديين الرحل ودفعهم للاخذ باسباب الحضارة الفينيقية والرومانية التى كانت سائدة فى تلك المنطقة من البحر المتوسط (45) .

وقد سلك مسينسا طريقا حذرا فى الحصول على مزيد من الارض على حساب قرطاج . وقد استغل النص فى اتفاقية 201 بين روما وقرطاج على تحريم قيام قرطاج بحرب دون اذن من روما وبدأ يضم الاراضى قليلا قليلا كلما وجد الظروف مواتية ، واذا جأرت قرطاج بالشكوى الى رومـــا سارع باثارة خوف الرومان من عودة الخطر القرطاجى بادعاءات ملفقة فى بعض الاحيان عن الميول السياسية لقرطاج واستعداداتهـــا العسكريـــة الخطيـــرة (46) .

ومن الواضح ان أطماع مسينسا اتجهت فى البداية نحو الاراضـــى الخصبة فى وادي مجردة Bagradas وهى اراضى زراعية تسكنهـــا مجتمعات قروية مستقرة ذات كثافة سكانية عالية والمنطقة الاخرى هـــى منطقة امبوريا Emporia وكانت منطقة غنية بزراعات الزيتون فضلا عن أهميتها التجارية كوسيط للتجارة مع الظهر الافريقـــى وتقع على خليج ســـــرت الـــصــــغـــرى .

وقد وضح ذكاء مسينسا فى اختيار أوقات انقضـــاضـــه على تلك المناطق قام بحملة على اقليم امبوريا فى الفترة من عامى 195—193 ق.م ، عندما لاحظ ازدياد غضب الرومان ضد قرطاج منذ 196 نتيجة انتخـــاب هانيبال كحاكم فى قرطاج مع ما يحمله هذا من احتمالات اعادة بناء القـــوة القرطاجية مرة اخرى وما شاع عن اتصالات قرطاج فى عام 193 بشأن اقامة تحالف قرطاجي مع انتيوخس وقد ساعد على رواج هذه الاشاعـــة أن هانيبال كان لاجئا الى بلاط هذا الملك (47)

عندما تأكد مسينسا من أن الظروف كلها تخدم غرضه تقدم بجنوده ناحتل جزءا من منطقة امبوريا وفرض سيطرته عليه وطرد ممثلى السلطة القرطاجية . ولم يكن أمام قرطاج الا ان تشكو الى روما .

وعينت روما لجنة للتحقيق فى هذا الامر رأسها سكيبيو أفريكانوس، القائد الرومانى للحرب البونية الثانية والصديق الشخصى لمسينسا ، لقد توصلت اللجنة الى سلامة موقف قرطاج وتأكدت من أن الهجوم والاستيلاء على الارض قام بهما مسينسا . ولكن اعتبارات الصداقة الرومانية النوميدية التى كان يدعمها الملك مسينسا من وقت لآخر بهدايا مجانية من الحبوب للشعب الرومانى ودعمه لقوات روما بالخيالة النوميديين المشهود لهم بالكفاءة فى الحرب وكذلك كان للعداء التاريخ بين روما وقرطاج وخوف روما من صحوة جديدة لقرطاج ، أقول كان لهذه الاعتبارات تأثيرها على قرار اللجنة الرومانية فعادت الى روما دون ان توصى بشىء وان قيل ان سكيبيو اكتفى بالتنبيه على صديقه مسينسا بعدم العودة الى ذلك مستقبلا وهذا يفسر عدم قيام مسينسا بأية هجمات جديدة طوال ما بقى من حياة سكيبيو الذي مات 183 ق.م.

عاد مسينسا ينفذ هدفه بالاستيلاء على المزيد من أراضى قرطاج فى عام 182 ق م وكان هدفه هذه المرة وادى Bagradas واكتفت روما بارسال مندوب عنها لتقصى الحقائق ولكنه لم يتخذ قرارا بادانة نوميديا . واكتفت روما بالمساعدة على اعادة مئات الاسرى الى قرطاج فى العام التالي للمعارك بل واعطت قرطاج وعدا بحمايتها من أي هجوم نوميدي فى المستقبل. ويقال أن روما شجعت خفية هجوما قرطاجيا مضادا قاده Carthalo ضد نوميديا فى السنوات التي تلت 183 ق م (49) .

مرة أخرى تمضى فترة لا نسمع فيها عن مزيد من العمليات العسكرية النوميدية ضد قرطاج وربما كانت فترة ترقب فيها الملك مسينسا الظروف السياسية الدولية المحيطة قبل أن يقدم على خطوته التالية وعندما بدأت مشاكل الرومان مع الملك برسيوس وجد مسينسا فرصته للانفراد بتقرير شكل الخريطة فى المنطقة ورغب فى اثارة خوف الرومان التقليدي ضد

القرطاجيين ، فضخم الانباء التي قيلت عن اتصالات سرية بين برسيوس والقرطاجيين واستغل الاثار المؤكدة لهذه الخدعة بتحريك قواته حيث احتلت أكثر من 70 مدينة وقرية في الفترة من 174—172 وجارت قرطاج بالشكوى الى روما التى ربما ارادت الا تتهم بالانحياز لنوميديا فطلبت من مندوب نوميديا ان يتصل بحكومته والعودة برد على الشكوى القرطاجية (50) ولكن لم يقدر لهذه المساعي أن تتم فقد قامت الحرب المقدونية الثالثة (51)

وقيام هذه الحرب يعتبر بداية لمرحلة جديدة فى سياسة روما تجاه الشمال الافريقى ، اذ أن روما قد تلقت معونات نوميدية هائلة ساعدتها فى هذه الحرب بدأت بامدادها بمليون مكيال Peck من القمح وكذلك اشتراكها بفرقة من الجنود النوميديين يضمون الفا من الخيالة والفا آخر من المشاة يقودهم Misagenes بن مسينسا كما وعد مسينسا ايضا بارسال مائتين والف فارس واثنى عشر فيلا فضلا عن انه وعد الرومان بامدادهم بأي معونة يطلبونها (52) . ويقع فى أهمية هذه المساعدات نجاح مسينسا فى زرع الشك فى قلوب الرومان ضد قرطاج للمساعدة فى هذه الحرب وحطم محاولة التقارب الرومانى القرطاجى بما اعلنه عن محاولات قرطاج اعادة بناء اسطول غير عابئين بنصوص اتفاقية 201 التى تحرم عليهم ذلك (53) . ومن جهة الرومان فقد قدروا هذا الاخلاص لهم من جانبمسينسا ، ولعل هذا يظهر فيما لقيه ولداه من ترحيب وتكريم سواء أثناء قدوم Masgaba لتقديم تهانى نوميديا بنصر روما فى الحرب المقدونية أو سواء عودة Misagenes من الحرب المقدونية الى بلاده .

وقارنت روما بين هذا الاخلاص لصداقتها من جانب نوميديا ومن انضمام برجاموم ورودس الى معسكر الاعداء فى تلك الحرب وهما اللتين كانتا تدعيان صداقتهما لروما (54) . أصبح الموقف الرومانى المتأثر بالاعتبارات السابقة منحازا تماما لوجهة النظر النوميدية ضد قرطاج فيما تلى من مشاكل على الحدود فقد سمحت روما لمسينسا أن يضم كل امبوريا وأجزاءا أخرى كبيرة من وادي Bagradas فى الفترة من 167—162 . وعادت قرطاج تطالب روما بايقاف التقدم النوميدي فى اراضيها ولكن موقف

روما وضح سلفا من تشكيل لجان تقصي الحقائق فقد ارسلت روما وفدا فى عام 153 للتحقيق فى مدى صحة شكوى قرطاج ضد نوميديا . وكان هذا الوفد برئاسة كاتو ، الشيخ الذي جاوز الثمانين من عمــره والمملــوء بالكراهية لقرطاج . عاد كاتولكى يثير الخوف الرومانى الدفين لقــرطاج وادعى ان قرطاج تعد العدة لنهضة جديدة تخالف اتفاقياتها مع روما كما ادعى فى السناتو أن استعدادات الاسطول قائمة على قدم وساق (56) ، ولم تستطع اصوات المعارضة فى السناتو الرومانــى ان توقف موجــة الغضب التى بدأت تجتاح روما ضد قرطاج (57) والتى كان يغــذيهــا مسينسا باستمرار برسائله الى السناتو التى قال فيها ان الاستعدادات العسكرية فى قرطاج وصلت الى مرحلة خطيــرة وتزايــد عدد اللجان التى ارسلتها روما فى عام 151 للتحقيق فى الحالة فى قرطاج . ذكرت تقارير هذه اللجان أن قرطاج اصبحت تملك بالفعل اسطولا . وقد استفاد مسينسا من هذه الظروف المعادية لقرطاج فى تحقيق احلامه فاستغل حادث طرد اربعين من النوميديين خارج قرطاج وهاجم مدينة تدعى Oroscopa قرب باجة Vaga وقامت قرطاج لمقابلة هذا الهجوم بجيش ضم خمسة وعشرين الفا قادهم Hasdrubal والذي نجح فى البداية فى طرد النوميديين من المدينة التى احتلوها وكذلك من المناطق القرطاجية التى استولوا عليها بعد عام 201 . ورغم نجاح مسينسا بعد ذلك فى الايقاع بهذا الجيش وهزيمتــه هزيمة ثقيلة وتكبيده خسائر كبيرة فى الارواح والعتاد ، مما جعل القــوات النوميدية على بعد 60 ميلا من مدينة قرطاج نفسها الا ان هذا الهجــوم القرطاجى المضاد كان مؤشرا خطيرا أكد مخاوف روما من انبعاث القــوة القرطاجية مرة اخرى بما تحمله من رعب لروما ومن ثم استمر فى ضمير الرومان النداء الذي كان يدعو اليه كاتو من ضرورة القضاء على قرطــاج نهائيا Delenda est Carthago ورغم ان قرطاج حــاولت جهدها لتبدد الخوف الرومانــى فقد أعلنت روما الحرب عليها رسميا 149 . اختلفت الآراء حول الظروف التى احاطت بالحرب البونية الثالثة التى انتهت بتدمير قرطاج وقيام حكم رومانى مباشر فى افريقيا ، فالبعض يؤكد أن التطــور الطبيعى الذي حدث فى الامور فى روما وشمال افريقيا هو الذي قاد الى هذه الحرب . ويؤكد اصحاب هذا الرأي أن روما كــانــت تتبع سياسة محايدة تجاه الصراع النوميدي القرطاجى فى الفترة السابقة علــى عام

170 ق.م. وهى الفترة التى كان مسينسا لم يفصح بصورة واضحة عن اطماعه ، ولكن بعد معركة Pydna فى الحرب المقدونية الثالثة فان روما قد اعادت تصنيف صداقاتها وانها تخلت عن الحياد الذي كانت تتبعه حيال مشاكل نوميديا وقرطاج اذ ان هذه الحرب أظهرت لها مدى عمـــق صداقة نوميديا واحاطت موقف قرطاج بالغموض فضلا عن خوف روما من أن تنضم الاخيرة الى احلاف معادية لها اذا وجدت فرصة مشابهة لتلك التى ظهرت لرودس وبرجاموم ، ثم كان التطور النهائي فى موقف روما بالتصميم على تدمير قرطاج مرتبطا بالاخبار والتقارير التي رفعها اليها كاتو والرسائل التي كان يرسلها مسينسا . وكل هذه التقارير والرسائل تحمل التحذيرات من مغبة التهاون مع استعدادات عسكرية ادعى التجهيز لها فى قرطاج .

اما الراي الاخير فيرى أن روما وان كانت صديقة لنوميديا الا انها كانت قد خططت سياستها العالمية على مبدأ عدم السماح بقيام قوى كبرى منافسة لها فى حوض البحر المتوسط ولذلك سعت دائما الى اجهــاض أي مشروعات من هذا النوع . ولذلك فانها كانت على استعــداد لان تتــرك لنوميديا الصديقة الفرصة لكي توسع من أملاكها على حساب قرطاج ، طالما كانت هذه التوسعات صغيرة المساحة نسبيا (58) وكانت بذلــك تحقق اهدافها بابقاء قرطاج ضعيفة نتيجة استنزاف جهدها فى دفع الغرامة الحربية لروما ، ونتيجة انشغالها الدائم بنزاعها مع مسينسا فى نوميديا . ولكن هذه السياسة تغيرت مع تغيير الاطماع النوميديــة فى الاراضــي القرطاجية ، فقد تطورت هذه الاطماع من مجرد ضــم بعــض المــدن أو المساحات الى المناداة بالقضاء على قرطاج ومن ثم وجدت روما نفسها امام خيارين اما ان تترك لنوميديا الفرصة فتقضي على قرطاج وتضم املاكهــا الى المملكة الفتية ومن ثم تغامر باقامة دولة وطنية فى شمال افــريقيــا. والاحتمالات الخطيرة التى تحملها مثل هذه المغامرة ، اذ ان نوميديا التى لم تتوقف عن التوسع منذ توحيدها على يد مسينسا 203 قم ، ربما تصبح قادرة على الوقوف فى وجه روما يوما ما . ولم تكن روما فى نفس الوقت على استعداد لان تفقد صداقة نوميديا فتتخذ مواقف حازمة ضد اطماعهــا فى الارض القرطاجية خصوصا بعد المساعدات الضخمة التي قدمتها نوميديا لروما فى الحرب المقدونية الثالثة . ولذلك يرى اصحاب هذا الراي بأن روما

اسرعت باحتلال قرطاج سابقة بذلك حليفتها نوميديا التى كان لا بد لها من أن تقوم بمثل هذا العمل يوما قريبا .

ويؤكد الراي الاخير حرص روما على تكتم أخبار استعداداتها لغزو قرطاج عن صديقها الوفى الملك مسينسا الذي ما أن علم بنزول القوات الرومانية على الشاطىء الغربي دون اتفاق سبق معه حتى ابدى استيائه للقادة الرومان من هذا التصرف ، أما ما يتبع ذلك من تـقـديم مسينسا مساعدات لروما فى حربها لقرطاج فان هذا لا يقوم دليلا على رضائه عن الغزو ولكنها الحيلة السياسية اذ وجد مسينسا أنه من غير صالح نوميديا ان تعادي روما أقوى دول العالم خاصة وان ملك نوميديا كان قد بلغ من السن حوالى التسعين عاما (59) .

مات الملك مسينسا فى عام 148 قم بعد أن وعد الرومان بمساعدتهم فى حربهم ضد قرطاج وخلفه Gulusa ابنه الذي اوفى بتعهداته مع الـرومـان (60) .

أما المعركة الاخيرة ضد قرطاج التى اشتركت فيها قوات نوميدية فقد كانت تنفيذا لحكم باعدام قرطاج أصدره مجلس الشيوخ الرومانـي الذي كان يخشى قيام دولة قوية فى المنطقة من جديد سواء بانتعاش قرطاج او باستيلاء نوميديا عليها مما يهىء لها مصادر هائلة للقوة .

وعندما أمر مجلس الشيوخ باعداد جيش الغزو ، اسرعت قرطاج فأعلنت أنها مستعدة لقبول كل الشروط الرومانية وقدمت ثلاثمائـة من نبلائها الشبان كرهائن بل وسلمت لقيادة الجيش الرومانى مائتى الف درع والفى مجنيق حتى تزيل الشك من قلوب الرومان بل وسمحت قرطـاج للرومان بالاستيلاء على مراكب الاسطول فأحرقوها (61) . بعد هذا كله أعلن القادة الرومان قرار مجلس الشيوخ باعدام قرطاج فان على سـكان المدينة أن يغادروها جميعا وأن يبنوا مدينة جديدة على بعد خمسة عشـر كيلو مترا تقريبا من البحر (62) .

راى ابناء الشعب فى قرطاج ان لا خيار أمامهم فقرروا البقاء بمدينتهم والدفاع عنها حتى الموت وظلت قرطاج تقاوم الغزو الى عام 146 قم عندما تمكنت القوات الرومانية النوميدية المتحالفة من دخول المدينة واضرمت فيها النار حتى ساوتها بالارض واصدر مجلس الشيوخ قرارا بلعن الارض التى كانت مبنية عليها ومنع اي محاولة للبناء فى مكانها (63) .

قبل أن نتابع الحديث عن خلفاء مسينسا ، تجدر الاشارة الى دور الرجل فى الرقي ببلاده نوميديا ، فقد اشتهر هذا الرجل بحبه للمدنية والاخذ بيد شعبه على دربها . وقد اشتهر عنه حبه للبناء ورعايته للعلماء فى بلاطه ولكن ابعد أعماله اثرا وأكثرها تأثيرا فى حياة شعبه هى توطين البدو من أبناء هذا الشعب وتحبيب الزراعة اليهم . ويصف بوليبيوس دور مسينسا فى تمدين شعبه فيقول : « لقد كانت نوميديا قبل عصر مسينسا أرضا قاحلة لا رجاء منها وكانت لا تنتج شيئا ولكن مسينسا كان الاول والوحيد الذي استطاع ان يثبت ان بامكان هذه الارض أن تدر جميع الخيرات مثل اية ارض أخرى . وذلك بأن أحيا أراضي شاسعة فاصبحت شديدة الخصوبة كما ترك لكل ابن من ابنائه الاربع والخمسين مزرعة مساحتها 10.000 بليثرا (874 هكتارا) تحمل كل أنواع المحصولات ، وقد قرر استرابو هو الآخر أن مسينسا نجح فى توطين البدو وتحويلهم الى فلاحين » . (64) ورغم أن هذه الشهادة مبالغ فيها الى حد ما اذ ان هيرودوت قرر قبل هذا التاريخ بعدة قرون أن المواطنين الافريقيين كانوا قادرين على استزراع القمح (65) . هذا فضلا عن دور قرطاج الذي لا ينكر فى نشر زراعة الحبوب بين الوطنيين القاطنين فى المناطق الخاضعة لسيطرتها (66) ولذا فعندما استولى مسينسا على الحكم فى 203 قم كانت هناك مناطق واسعة فى شرقي نوميديا عرفت زراعة الحبوب من وقت طويل . ولكن هذا لا ينفى دور مسينسا الرائد فى توسيع زراعة الحبوب ، والدليل على ذلك هو انتشار عبادة Cereres آلهتي القمح القرطاجيتين واللتين انتشرتا فى نوميديا عن طريق قرطاج . واستمرتا معبودتي منتجي الحبوب حتى بعد سقوط قرطاج فى ايدي الرومان وقد كانت أخصب مناطق الحبوب تقع الى الشرق من قسنطينة ولم يعثر على أي نقوش تكشف عن انتشار عبادة الـ Cereres غربي قسنطينة . وهكذا يمكن ان نقرر

باطمئنان ان دور مسينسا كان فى توسيع رقعة الاراضي المزروعة حبوبا وليس فى ممارسة زراعتها لاول مرة فى تلك المناطق .

ويتضح مدى التطور فى انتاج الحبوب اذا عرفنا ان مسينسا كان قادرا على تقديم هدايا للرومان فى الفترة من 200 و 198 ـ اي قبل أن تؤتى مشروعاته أكلها ـ 400 الف مكيال من القمح و 200 الفا من الشعير. وفى عام 191 ، 800 الف مكيال من القمح فضلا عن امدادها بـ 550 الف مكيال من القمح ايضا ، وأثناء الحرب المقدونية الثالثة قدم للقوات الرومانية هناك مليون مكيال ، فضلا عن بعض الهدايا من الحبوب قدمها مسينسا لديلوس فى الفترة من 168 الى 162 . بالطبع لا يمكن اتخاذ هذه الارقام مؤشرا لحساب كمية المنتج من الحبوب،فى الاراضي التابعة لمسينسا ولكنها على كل حال تشير الى تزايد القدرة على التصدير وبالطبع هذا كان يتم من فائض الانتاج . ولعلنا نستطيع تقدير مدى ضخامة الكمية المنتجة فى نوميديا على عصر مسينسا اذا عرفنا ان نسبة العشور التى جباها يوليوس قيصر من جزء اقتطع من نوميديا مساحته حوالي 200 ميل مربع هو 1،2 مليون مكيا ل,وهذا يعنى ان الانتاج الكلى لهذه المنطقة كان 12 مليون مكيال (67) .

ويشير سالوست ، نقلا عن بوليبيوس Polybius أيضا الى الجهود التى بذلها مسينسا فى ادخال زراعة الكروم والزيتون فى نوميديا (68) ولكن يبدو ان النتائج لم تكن على مستوى نجاح زراعة الحبوب اذ ان الكتاب الرومان أشاروا الى اختفاء هذه الزراعة من حول المدن النوميدية خلال القرن الاول ق م والاول الميلادي ويرجعون ذلك الى عدم صلاحية التربة لنمو هذه المحاصيل . ولكن فى المناطق الساحلية خاصة حول المدن القرطاجية السابقة كانت هناك زراعات زيتون كثيفة وقد قدمت منطقة لبدة وحدها كمية من زيت الزيتون بلغت ثلاثة ملايين رطل سنويا خلال حكم قيصر .

ولكن هذه الزراعات لمتقض تماما على تربية الحيوان فقد استمرت أهم الانشطة فى نوميديا كما ذكر استرابو (69) .

وقد حقق مسينسا ايضا طفرة فى تجارة نوميديا مع العالم الخارجى وذكر رستوفيزيف ان الاسواق الايجية كانت مملوءة بالمحاصيل النوميدية التى وصل عددها 170 نوعا . وهناك نقوش تدل على صلة مسينسا بتجار من رودس واثينا . ولكن المرجح ان المبيعات كانت كميتها صغيرة اذ ان اغلب الكميات المصدرة كانت هدايا لروما أو حليفاتها .

وقد ضمت قائمة الصادرات النوميدية اعدادا من الحيوانات البرية اللازمة لحلقات اللهو الرومانية فضلا عن طيور الزينة والعاج واخشاب الحمضيات ، وربما كانت هناك بعض الصادرات من المواشي التي كانت تربى باعداد هائلة فى نوميديا رغم افتقارنا للادلة المباشرة التى تؤكد ذلك ، اما الواردات فقد كانت محصورة فى استيراد بعض الخمور الايطالية او من دول البحر الايجى لاستخدامات الاسرة المالكة . هذا بالاضافة الى بعض الاوانى والمصابيح والاسلحة .

وقد حققت مملكة نوميديا رخاءا ماديا بما كانت تحصله من الضرائب من المدن الفينيقية الخاضعة لها فضلا عما حصلت عليه من تعويضات حربية من قرطاج بعد هزيمتها

.أما وسيلة التعامل فقد كانت تتم فى ميدان الاستيراد بالمقايضة اؤ بالعملات الاجنبية ، وما داخل البلاد النوميدية ، فقد كان يتم التعامل بعملات ضربت محليا من البرونز والنحاس ، ولكن لم يعثر على اي عملة نوميدية ذهبية أو فضية . وقد تر كمسينسا عملة تحمل صورته محاطا بالغار ويده تحمل الصولجان . وقد حكم مسينسا البلاد متأثرا بالاساليب الهلينستية وجعل كل وظائف الدولة الكبرى فى ايدي أفراد الاسرة المالكة سواء فيما يخص الاقتصاد او السياسة او الحرب أو القضاء (70).
ويقوم قبره على الطراز الاغريقي على بعد عدة أميال من قرطة .

نوميديا فى عهد أبناء مسينسا

دخلت نوميديا فترة جديدة فى تاريخها بوفاة مسينسا العظيم ، فقد تولى على العرش ملوك فشلوا فى الحفاظ على وحدة نوميديا كما كانت على

عهد مسينسا . كما فشلوا فى المحافظة على المكاسب الكثيرة التى حققها ذلك الملك العظيم . خلف مسينسا على العرش ثلاثة من أبنائه وهم مسيبسا ومستعنبعل وغولوسة ، اختص الاول بالامور الادارية للمملكة وتولى الثانى قيادة الجيش . أما الثالث فكان مسؤولا عن القضاء . تجنب ابناء مسينسا تقسيم المملكة عقب وفاة والدهم (71) وربما سارت الامور بقوة الدفع التى تركتها فترة النشاط فى نوميديا على عهد مسينسا وربما كان ذلك بفضل التدخل الروماني كما ذكر المؤرخون القدامى .

أما سياسة روما تجاه نوميديا بعد وفاة عاهلها العظيم مسينسا فقد اتسمت بالصداقة فاكتفت باحتلال أملاك قرطاج دون ان تحاول الاتساع على الاراضى النوميدية ، وسمحت للنوميديين بأن يشاركوها فى الغنيمة ، فقد كانت مكتبة قرطاج من نصيبها فضلا عن بعض الاراضى القرطاجية ، والواضح أن حصول نوميديا على المكتبة كان بناء على طلبها ؛ ذلك أن الملك مسيبسا كان تلميذا مجدا فى دراسة العلم والفلسفة كما كان قرب اليه كثير من العلماء اليونان .

لم يحدث ما يعكر صفو حياة الحكام الثلاثة او علاقاتهم الى أن مات الشقيقان الاصغر مستعنبعل وغولوسة فانفرد الاخ الاكبر مسيبسا بالحكم ولكن ظل حريصا على استقرار الامور فى بلاده كما حرص على استمرار علاقة الصداقة مع روما ، فكثيرا ما زودها بالمؤن والجنود فى حروبها المختلفة ومن ذلك مثلا مشاركة فى حروب سكيبيو الاميلي فى اسبانيا عام 134 ق. م. عندما أرسل له قوات تضم اثنى عشر فيلا وعددا من الفرسان وحاملي القسى والمقاليع بقيادة ابن أخيه يوغرطة (72) .

استمرت القاعدة التى استنها مسينسا باسناد العرش الى اكثر من وريث وقد حاول مسيبسا ان يطمئن على المملكة من بعده فاوصى بعرشه الى ابنيه آزربعل وهيامبسال والى ابن أخيه يوغرطة وكان قد تبناه ثم جعل الرابع فى الاحقية بالعرش هو ابن اخيه غوده (73) .

الا ان وفاة مسيبسا 118 ق.م حملت معها رياح الخلاف بين الورثة ، وفشل الثلاثة الاول فى الاتفاق فيما نجح فيه آباءهم وانفرط عقدهم وبدأ كل

منهم يدبر لاخويه المكائد عساه ينجح في الاستيلاء على العرش . كان يوغرطة اقل الثلاثة حقا في خلافة والده بالتبني ولكنه كان أكثرهم ذكاء واعظمهم طموحا . وما ان ظهرت بوادر الخلاف بين الورثة الثلاثة حتى بدأ يوغرطة في العمل لمصلحته فورا ، فأاح المنافسين من طريقه ، اذ قضى على هيامبسال باغتياله قرب Douga في نفس العام الذي مات فيه ابوه، ثم بدأ في محاربة الآخر حتى يخلو له العرش دون منازع ، ونجح منذ البداية في هزيمة خصمه الذي فر هاربا الى ولاية افريقيا الرومانية ، ومن هناك سافر الى روما لكي يعرض مشكلته على اصدقائه الرومان ، طالبا عونهم في صراعه مع يوغرطة .

اما يوغرطة الذي اتسم بدهاء لا حدود له ، فقد وجد من مصلحته أن يقطع الطريق على اذربعل في روما وكان يعلم ان الاخلاق الرومانية قد اصابها الوهن وتسرب اليها الفساد ، فارسل وفدا الى روما محملا بالهدايا والاموال . وقد استطاع هذا الوفد بهداياه ودفاعه أن يقنع الرومان ببراءة يوغرطة من قتل هيامبسال غدرا وادعى الوفد أنه قتل على يد جنوده الكارهين لخلقه الفاسد . كما اعاد الى ذاكرة الرومان اخلاص يوغرطة في صداقته لهم عندما حارب في صفوفهم في اسبانيا عام 134 قم (74) .

اصدر مجلس الشيوخ حكمه بتشكيل لجنة تقصي للحقائق تضم عشرة من الزعماء يراسهم اوبيميوس لبحث حقيقة مقتل هيامبسال والبحث وتقسيم المملكة النوميدية بين الاميرين المتنازعين . ان هذا القرار لم يكن يرضى يوغرطة ، ولكنه لم يعارضه . بل استقبل اللجنة الرومانية واستطاع أن يشتري ذمم اعضائها بأمواله فحكموا ببراءته من دم هيامبسال. وتم تقسيم المملكة بين الاميرين في عام 116 ق. م. واعطى اذربعل القسم الشرقي المتاخم للرومان (75) . وربما لجأ الرومان الى هذه القسمة تحقيقا لمصالحهم الذاتية ، اذ ان جيرتهم لملك كاذربعل قليل الطموح اكثر امنا من وجود يوغرطة على حدودهم .

ولكن الامر لم يكن كذلك بالنسبة ليوغرطة الطموح فهو يرمى الى كل أملاك سلفه العظيم مسينسا . ولكن يوغرطة تعلم من مسينسا أيضا أن لا

يواجه التيار فى عنفوانه كان عليه أن يبقى على خططه حية فى فؤاده وان يحقق ما يستطيع منها كلما وجد الظروف مواتية لذلك . اظهر يوغرطة موافقته على التقسيم ولكنه هاجم مملكة اذربعل بعد ذلك باربع سنوات بحجة تأديب ابن عمه على محاولته اغتياله وقد استطاع يوغرطة ان ينتصر على اذربعل منذ بداية المعركة فلجأ الاخير الى اسوار عاصمة قرطة ، وحاصرها يوغرطة عدة شهور ، استطاع بعدها ان يدخل المدينة وقتل اذربعل كما امر بقتل كل من ساعده على الصمود ، وكان من بينهم عدد من الايطاليين مما اثار حنق روما وغضبها على يوغرطة .

لم يهنأ يوغرطة طويلا بانتصاره على منافسيه وتوحيده لمملكة اجداده اذ ان روما بدات صراعا مريرا معه اتخذ اشكالا متعددة ولم ينته الا بالقضاء عليه . ان روما التى قضت على قرطاج وسيطرت على شواطىء البحر المتوسط لم تكن لتسمح لاي قوة وطنية بأن تصبح خطرا عليها ، ولقد رات فى اطماع يوغرطة ونجاحه السريع فى الوصول الى اهدافه خطرا يهدد مصالحها فى افريقيا كما ان نجاح يوغرطة فى القضاء على اذربعل صنيعة روما وتجرؤه على قتل بعض اتباع روما عند استيلائه على قرطة ربما اغرى القيادات المحلية فى أقاليم أخرى بأن تحذو حذوه (75) .

سيرت روما عدة حملات للقضاء على يوغرطة ، وكان على يوغرطة أن يقاوم هذه الحملات بكل ما أوتي من قوة ومكر . قامت الحملة الرومانية الاولى باحتلال بعض المدن الساحلية فى نوميديا عام 111 قم رأى يوغرطة أن يمتص الغضب الرومانى بقبوله الصلح مع القنصل باستيا Bestia وقد اعترف هذا القنصل بأحقية يوغرطة فى حكم ما تحت يديه من املاك فيما عدا لبدة الكبرى الذي وافق يوغرطة على اعتبارها مدينة دوله صديقة لروما . لعل يوغرطة رأى فى ذلك الوقت أن يلقى ببعض الفتات للقنصل الرومانى لكى يلهيه عن المائدة الشهية التى ابتلعها يوغرطة وقيل ان باستيا قبض ثمن خيانته لاهداف روما وقد عقدت روما محاكمة لباستيا وجماعته واستدعى مجلس الشيوخ الرومانى يوغرطة للادلاء بأقواله امامه كشاهد اثبات . وهنا نتوقف تعجبا أمام تصرف يوغرطة أنه لم يتردد فى الذهاب الى روما رغم ما يحيط بموقفه من شكوك بصفته مقدم

الرشوة اذا ثبت صحة ذلك ، ورغم ما بينهما من عداء لم تنهه الحملة الرومانية الاولى بقيادة باستيا ، ولكن العجب يزول اذا عرفنا راي يوغرطة فى الرومان لقد كان يرى روما (مدينة معروضة للبيع) (76) وهذا يشير الى أنه كان واثقا من انه يستطيع أن يشتري ذمم الرومان حتى فى داخل عاصمتهم . ولقد كان هذا القول محصلة خبرته فى التعامل مع الرومان ، فقد استطاع وهو فى روما ان يشتري ذمة اثنين من الترابنة احدهما التريبيون بايبيوس ، وبذلك تجنب الادلاء بشهادته اذ استخدما حق الاعتراض ومنعا يوغرطة من الادلاء بشهادته (77) عندما طلب مجلس الشيوخ منه ذلك. كما استطاع ايضا اثناء اقامته فى روما ان يقضى على آخر المطالبين بعرش نوميديا وهو ماسيوة Massiva بن غولوسة ، (78) ثم غادر روما عائدا الى بلاده وهو يقول قولته المشهورة (مدينة معروضة للبيع توشك ان تزول عن قريب متى وجد المشتري) .

احس مجلس الشيوخ الرومانى بخيبة أمل فهو لم يستطع ادانة اعمال يوغرطة بل ومكنه من عدوه فى روما نفسها ولذا اتخذ من قتله لماسيوة ذريعة لارسال حملة أخرى الى نوميديا بهدف القضاء على يوغرطة ولكن مصير الحملة الثانية كان مصيرا حالك السواد اذ انهزمت أمام يوغرطة مرتين الاولى بقيادة القنصل البينوس Albinus والثانية بقيادة اولوس Aulus اخى البينوس . وتعرض جنود هذه الحملة المهزومين للاذلال ، مما اثار روما مره أخرى فاتهمت أولوس بالارتشاء وبدأت تبحث عن قائد جديد يحقق لها أهدافها فى القضاء على يوغرطة (79) .

وجدت روما هذا القائد فى القنصل ميتلوس Metellus (80) ومساعده ماريوس اللذين توليا قيادة الجيوش الرومانية ضد نوميديا فى عام 109 قم . فشل يوغرطة فى اغرائهما بالمال واستطاعا ان يتقدما فى الاراضى النوميدية دون مقاومة حتى استوليا على باجة . لم يجد يوغرطة بدا من الحرب وقابل بجيشه الجنود الرومان قرب وادي ميتول Muthul وانهزم الجيش النوميدي بعد معركة طاحنة فى اغسطس 109 ، ثم استولى الجيش الرومانى على مدينة سيجة Sicca ، الا انه فشل في حملته المباغتة على زاما مما اضطره للعودة الى سيجة فى اكتوبر 109 ق. م .

استمر ميتلوس قائدا للجيش الرومانى فى نوميديا بعد انتهاء مدته كقنصل ، وقد استطاع خلال العام الجديد (108 قم) ان يؤدب مدينة باجة التى قتلت الحامية الرومانية ثم اتجه الى تالة Thala فى الجنوب مقتفيا اثر يوغرطة واستولى عليها بعد حصار دام أربعين يوما ، ولكنه لم يعثر ليوغرطة على اثر هناك . فأمر بهدم المدينة جزاء عنادها فى الاستسلام له . وقد تمكن فى اواخر عام 108 قم أن يستولى على عاصمة يوغرطة ، وبذا اتم ميتلوس السيطرة على الجزء الشرقى من نوميديا

اما يوغرطة فقد لجأ الى قبائل جدالة فى الجنوب طالبا العون ضد الرومان واستطاع أن يكون جيشا كبيرا منهم ثم اتجه الى صهره الملك بوخوس Bocchus ملك موريتانيا واستطاع ايضا أن يضمه اليه وبذا توحدت قوات المغرب الكبير لاول مرة ضد الرومان .

بلغت ميتلوس هذه الانباء ، وبدأ يستعد للقاء الوطنين المتحدين ولكنه تلقى أيضا أنباء سيئة من روما جعلته يترك القيادة عائدا الى هناك. فقد أصبح مساعده ماريوس قنصل عام 107 وتم تعيينه قائدا للجيوش الرومانية المحاربة ليوغورطة وجنوده (81) .

استطاع ماريوس بعد ثلاث سنوات من المطاردة ان ينتصر على يوغرطة فاستولى على قفصة فى عام 107 ويقال انه قتل سكانها وهدم مبانيها واستولى فى عام 106 ق. م. على حصن تاوريرت Taourirt على الحدود النوميدية الموريتانية ، ويعتقد باستيلائه على مخزون يوغرطة من الاسلحة والاموال نتيجة لهذا الانتصار (82) .

وخلال العام الثالث من الحرب استعان ماريوس باحد الضباط الرومان الذين اشتهروا بالدهاء السياسي وهو سلا Sulla (83) وقد استطاع هذا الرجل ان يقضى على يوغرطة بالخديعة بعد أن فشل القواد الرومان المتتابعون فى القضاء عليه بالحرب والمواجهة . وقد تم لسلا ذلك عندما استطاع أن يضم اليه ملك موريتانيا الملك بوخوس الذي كان الحصن الاخير والسند الوحيد ليوغرطة . ادت خيانة بوخوس ليوغرطة الى

وقوعه أسيرا في أيدي الرومان الذين ساقوه مكبلا بالاغلال (84) في حفل النصر في روما عام 104 ق. م. ثم أعدموه بعد ذلك .

القوى الوطنية بعد موت يوغرطة

اعادت روما ترتيب الامور في شمال افريقيا بطريقة تخدم مصالحها، فكافأ ت بوخوس على خيانته ليوغرطة بجزء كبير من نوميديا الغربية ، أما نوميديا الشرقية بما في ذلك قرطة العاصمة فقد عينوا عليها غودة بن مستعنبعل أخي يوغرطة وكان غير ذي خطر ولكنه بغير شك احد افراد الاسرة المالكة في نوميديا مما يساعد على امتصاص اي غضبة شعبية .

مات غودة في عام 88 قم ، فتولى ملكه ابنه هيامبسال كما تمكن ابنه الثاني ماسينسا في عام 81 قم من الاستيلاء على نوميدية الغربية من بوخوس . ولكن الملكين النوميديين خلعا عن العرش بعد ذلك بشهور على يد أمير نوميدي آخر يدعى حرباص ، ثم اعادهما بومبيوس في عام 80 ق م الى العرش. وعندما مات هيامبسال في عام 67 قم خلفه ابنه يوبا الاول(85)

في ذلك الوقت كانت موريتانيا تحت حكم بوخوس الاصغر وبوغود وعندما نشبت الحرب الاهلية الرومانية بين بومبيوس (86) وقيصر (87) وجد الاول عونا من ملكي نوميديا اعترافا بفضله عليهما عندما اعادهما الى العرش ، واتخذ ملكي موريتانيا جانب قيصر نكاية في الجارين المتنافسين. وكانت النتيجة طبيعية ، فقد انتهى أمر نوميديا بانتهاء الحرب لصالح قيصر . أمر قيصر بتحول مملكة يوبا الاول الى ولاية رومانية باسم افريقيا الجديدة Africa Nova كما أمر بضم نوميديا الغربية الى املاك بوخوس ، ملك موريتانيا مكافاة له على وقوف الاخير الى جانبه في ذلك الصراع .

وانشأ مملكة عازلة بين الولاية الرومانية الجديدة والمملكة الوطنية في موريتانيا وجعل على راسها احد المغامرين الايطاليين المدعو سيتيوس Sitius ولكن استطاع ارابيون أحد ابناء ماسينسا الثاني أن يقضي على هذا المغامر بمجرد اختفاء قيصر من مسرح الاحداث في عام

44 قم الا ان ارابيون نفسه واجه نفس المصير على يد الوالى الرومانى Sextius (88) .

اما بوخوس فى موريتانيا ، فقد استطاع أن يوسع مملكته على حساب املاك ارابيون بعد مقتله ، كما استطاع أن يضم مملكة بوغود اليه وبهـــذا اصبح يحكم المنطقة الممتدة من المحيط الاطلنطـــى الى مدينة قرطة . مات بوخوس فى عام 33 ق. م. دون وريث فعينت روما واليين لحكم موريتانيا ونوميديا الغربية ، واستمر هذا الحال حتى عام 25 قم (89) .

لم تشأ روما ان تستمر فى حكم مملكتى شمال افريقيا الوطنيتين حكما مباشرا كما فعلت فى مصر ، بل رفعت الى الـــحـــكم احد شبـــاب الامراء النوميديين وهو يوبا الثانـــى ، وكان ابنا ليوبا الاول وقع فى اسر روما بعد مقتل أبيه . وقد أحس أوغسطس انه استطاع ان ينتزع الكراهية للرومان من نفس هذا الامير اثناء تربيته فى بيت اكتافيـــا (90) بل ورأى ايضـــا انه يستطيع ان يثق فى اخلاصه للرومان ، والظريف انه لم يكتف برفعه الـــى الحكم بل أيضا زوجه كليوباترة سيلين الاميرة المصرية التى عانت نفـــس ظروفه بعد موت أبويها كليوباترة وانطونيوس . حكم يوبا الثانى كل الاراضى النوميدية والموريتانية التى لم تضمها ولايتى افريقيا الرومانيتين ويبدو ان حدس اوغسطس كان صادقا ، فقد استمر يوبا الثانى على ولائه لروما ، وبنى عاصمة جديدة له سماها قيصرية (شرشـال) تيمنا باســـم قيصـــر العظيم ، كما دعى ابناء شعبه الى تقديس قيصر ، ومن بعده أوغسطس وشغل نفسه بتجميل عاصمته واقتناء المجموعات الفنية والادبية ، واشتهر عن يوبا الثانى أنه كان اديبا .

ويبدو ان مواقف يوبا الثانـــى المتخاذلة تجاه التغلغل الرومانى أدت الى ثورة القوى الوطنية من قبائل الجنوب فى عام 6 قم فسببت قبائـــل جدالة المتاعب الكثيرة له وقتلت الكثير من الرومان ، ولذا كلفت روما احد قادتها بالقضاء على الثورة فى جدالة وساعده يوبا بقواته ، حيث حققـــا نجاحا وقتيا كوفىء عليه القائد الرومانـــى ويوبا الثانـــى كليهما .

بقى يوبا الثانى على العرش حتى وفاته عام 23 ميلادية ثم تلاه على العرش ابنه بطليموس حتى عام 40 ميلادية ، لم يكن للملكين اثر حقيقـي فيما يجري على ارض بلادهما وكفاهما ما كانا يعيشان فيه من بذخ وترف . أما أمور الحكم فقد كانت فى ايدي الحاشية ومندوبى روما .

أما الوطنيين فلم يستسلموا للهزيمة التى حاقت بقبيلة جدالة وانما انتظروا وقتا مناسبا لكى يقوموا بثورتهم من جديد . وجاءت اللحظة المناسبة للثورة عندما وجدوا القائد المحنك فى شخص تكفاريناس النوميـدي ، الجندي السابق فى الجيش الروماني . واستمرت ثورة تكفاريناس هي اهم الاحداث السياسية فى موريتانيا منذ قيامها سنة 17 م حتى مقتل قائدها عام 24 م ولا يمكن أن تتهم هذه الثورة بالقبلية ، اذ كانت ثورة كل القبائل حيث ضمت النوميديين والموريتانيين وقبائل الصحراء. استطاع القائد تكفريناس أن يكون مصدر قلق دائم للجالس علي عرش روما فسير هذا ضده عدة حملات واشرف علي الحرب ضده خمسة من خيرة القواد الرومان منهم اربعة كانوا يحملون لقب بروقنصل . ولكن تكفاريناس استطاع أن يحيـل الوجود الرومانى فى افريقيا الى جحيم باستفادته من الظـواهر الطبيعية واعتصامه بالصحراء وتغيير خططه فى الكر والفر من وقت لآخر حتى اتعب القوات الرومانية . ويكفي لبيان ذلك أن تاكيتوس Tacitus المؤرخ الروماني أكد أن تكفاريناس كان مصدر ازعاج دائم لتيبيريوس (91) .

وقد وصف تاكيتوس ثورة تكفاريناس فى ايجاز فقال : « اندلعت الحرب فى افريقيا فى نفس هذه السنة (17 م) وكان على رأس الثوار قائد نوميدي يسمى تكفاريناس وهو جندي سابق فى الجيش الروماني . جمع حوله فى اول الامر بعض العصابات من قطاع الطرق والمشردين وقادهم الى النهب ، ثم جعل منهم مشاة وفرسانا نظاميين ، وسرعان ما تحول من رئيس عصابة لصوص الى قائد حربى للمزالمة وكانوا قوما شجعانـا يجـوبون البراري المتأخمة لافريقيا .

حمل المزالمة السلاح واغروا جيرانهم الموريين بالانضمام اليهم وكان يقودهم (مازيبا) واقتسم القائدان الجيش، فاختص تكفاريناس بخيرة الجند

اي جمع المسلحين على النظام الرومانـــي حيث دربهم على النظام وعودهم على الامتثال للاوامر . اما مازيبا فكان عليه أن يستخدم السيف ويشعل النار وينشر الذعر بواسطة العصابات . »

من الواضح أن المؤرخ الرومانـــي أراد أن ينال من عدو الرومان تكفاريناس ولو كان القائد النوميدي زعيم لصوص ما قدر له أن يحظى بكل هذا التأييد الذي ناله من مواطنيه ، لو كان همه النهب فلماذا كان يكتفـــي بنهب الرومان فقط ؟

المعروف أن الثورة الشعبية امتد أوارها من المحيط الاطلسي غربا لكي تشمل الاراضى الموريتانية والنوميدية التى شملتها مملكة يوبا الثانى كما شب لهيبها فى الاراضى التى خضعت خضوعا مباشرا لروما فى ولايتى افريقيا . ولعل هذا يفسر الاهتمام الذي ساد روما من أجل القضاء على ثـــورة تكفاريـنـــــاس .

انهزم الثوار فى اول معركة لهم مع القوات الرومانية بقيادة البروقنصل كاورللوس Caurillus 17 م. فانسحبوا الى الصحراء حيث نظموا صفوفهم وغيروا اسلوبهم من الحرب النظامية الى حرب العصابات . وما أن حل عام 20 م حتى كانوا قد اصبحوا قادرين على شن الغارات المفاجئة من المناطق النائية ، بل استطاعوا الاستيلاء على احدى القلاع بعد القضاء على حاميتهـــا .

ظل تكفاريناس حريصا على الا يقابل الجيوش الرومانية فى الميدان بل ركز جهوده على الايقاع بهم حيث لا ينتظرونه مما جعل البروقنصـــل الجديد ابرونيوس Appronius وابنه يدوران بجيوشهما بحثا عنـــه فى كل مكان . وقد ظفر به Appronius الصغير فى ذات مرة ولكنـــه لـــم يستطع ان يلحق به هزيمة كاملة بل اضطره للجوء للصحراء ، وما كاد ابرونيوس الصغير يهدأ حتى كانت أخبار روما تحمل نبأ التهديد الـــذي أرسله تكفاريناس الى تيبريوس بأن يسلمه هو وجيشه الاراضي سلما والا عليه أن ينتظر حربا لا هوادة فيها ، ورغم رفض تيبريوس تهديد تكفاريناس

الا ان البروقنصل الجديد بليزوس Blaesus لم يجد بدا من أن يلجـأ الى الوعد بالتنازل عن بعض الاراضى كنوع من التـخـديـر الى أن يتـم استعداداته وقد لجأ هذا القائد الى محاولة الايقاع بين الـثـوار وتفريق صفوفهم فضلا عن اتباعه لاسلوب الحرب الخاطفة ضد الثوار . ومع ذلك لم يحقق القضاء على تكفاريناس وقواته . وعادت الحالة الى ما كانت عليه بمجرد رحيل هذا القائد ، بل وشملت الثورة كل بلاد شمال افريقيا مـن جديد مع اعتلاء بطليموس العرش وما كان يعلمه الثـوار مـن سحـب احدى الفرق الرومانية من هناك .

كلف البروقنصل الجديد Dolabella بتخليص الامـبـراطورية الرومانية من خطر ثورة تكفاريناس . فاتبع خطة سلفه بليزوس ، وقد ادى به ذلك الى الظفر بتكفاريناس وهو يستريح فى قصر مهجور بالصحـراء وقامت معركـة شرسة بين القوات الرومانية المستعدة للقتال وبيـن القوات الوطنية التى بوغتت وهى فى حالة استرخاء وانتهى القتال بقتل القائد الشجاع تكفاريناس فى عام 24 م.

هدأت الاحوال مؤقتا وغرق بطليموس فى لهوه وبذخه وبقى على العرش حتى قتله كاليفولا الامبراطور الروماني 40 م. وبمقتله انتهت مرحلة السيطرة الرومانية على الممالك الوطنية من خلال حكامها الوطنيين الى مرحلة الاستعمار المباشر للبلاد (92) .

يتضح من هذه الدراسة (1) أن الفينيقيين أصحاب فضل لا ينكـر فى دفع بلاد الشمال الافريقـى الى مسيرة التيار العام للحضارة . ولكـن الصحيح أيضا ان هؤلاء الوطنيين قد استوعبوا الدرس سريعا وساهموا فى تشكيل شكل الحياة فى حوض البحر المتوسط الغربى مساهمة ايجابية وفى هذا المجال يجدر بنا ان نشير الى ان جيوش قرطاج قد اعتمت فى أغلب حروبها على الجنود الوطنيين سواء كانوا الخيالة أو المشاة أو البحارة أو غيرهم ، ولنا أن نتصور مدى حجم هذا الاعتماد من خلال دراسة الارقام المتاحة عن عدد الجنود النوميديين والموريتانيين والليبييـن فى الجيـش القرطاجـى .

ولا يجب أيضا الا يغيب عن الذهن ان الوطنيين كانوا ينظـــرون الى كل من قرطاج وروما باعتبارهما قوتين اجنبيتين ، واذا كان اعتبار روما قوة اجنبية امرا منطقيا بالنظر للاعتبارات الجغرافية ، فان قرطاج ايضا كانت دولة أجنبية فى نظر الوطنيين كما جاء صراحة على لســان الملــك النوميدي الشهير مسينسا (94) . وتظهر هذه العقيدة الثابــتــة فى ثورات الوطنيين ضد روما وقرطاج أيضا فى أوقات متفرقة . ونستطيع أن نؤكد أن الوطنيين فيما يطلق عليه المغرب الكبير قد اســتــفادوا من الاحتكاك الحضاري بقرطاج وروما ، ولا نغالى اذا قلنا انهم استطاعوا أن يبلغـــوا مرتبة من التحضر لا تقل عن كثير من الدول الهلينستية المعروفـــة ولعلهـــا ليست مصادفة ان يسعى الملوك النوميديين للحصول على مكتبة قرطاج بعد الحرب البونية الثالثة ، وان يتحول البلاط الموريتاني فى اثناء حكم يوبا الثانى الى ملتقى للعلماء . والنتيجة التى يخرج بها الدارس لنشاط القوى الوطنية فى شمال افريقيا فى القرون الاربعة السابقة للميلاد يلاحظ أهمية قرطاج وأثرها الضخم فى دفع حركة التطور والتحضر بين الوطنيين ولكنه يلاحظ ايضا ان الوطنيين انفسهم اصبحوا قادرين على التطور المستقل بعيدا عن تاثير قرطاج خاصة بعد سقوطها وانهم استخدموا اساليبها .

(2) وبدراستنا تسلسل الملوك الوطنيين الذين حكموا فى شمال افريقيا خلال فترة الدراسة نلاحظ فى نوميديا ان الملوك جميعا انتموا الى أسرتين ملكيتين نوميديتين هما اسرتا سيفاكس وغايا ، وقد ظل التنافس بينهما يميل الى صالح اسرة على حساب الاسرة الاخرى الى أن استقر فى نهاية الامر لصالح اسرة غايا والد مسينسا وقد ظل الحكم فى هذه الاسرة حتى القضاء تماما على استقلال نوميديا وتحولها الى ولاية رومانية ، والمملكة التى خضعت لملوك هذه الاسرة تذبذبت حدودها بين الضيق والاتساع من عصر الى عصر ، وقد بلغت اقصى اتساع لها على عهـــد ملوكها العظام من امثال مسينسا ويوغرطة حتى ضمت كل اراضى الشمال الافريقـــى فيما عدا أراضى قرطاج القديمة التى تحولت بعد سقوطها الى ولاية افريقيا الرومانية . ولكن هذه المملكة تعرضت ايضا لكثير من فترات الضعف ولم تتعد حدودها خلال تلك الفترات عن نصف حدود نوميديا ذاتها وان لوحظ أن معظم الملوك كانوا حريصين على السيطرة على منطقة العاصمة قرطة.

وقد ظل هذا الوضع حتى انتحار الملك يوبا الاول 46 ق.م. وتحول نوميديا الى ولاية رومانية باسم (افريقيا الجديدة)

أما موريتانيا فقد حكمها ملوك من الصعب نسبتهم جميعا الى اسرة ملكية واحدة ، بل ان من نعرفهم من ملوك موريتانيا قد فصل حكم الواحد منهم عن الآخر فترات طويلة . ولا يعني هذا الامر فى حقيقته عدم وجود سلطة حاكمة فى موريتانيا فى بعض الفترات بقدر ما يعزى الى قصور معرفتنا بالملوك الحاكمين هناك . وذلك ان مصادرنا لمعرفة ما كان يجري على أرض الشمال الافريقى انما تتركز بصورة رئيسية فيما ذكره المؤلفون الاغريق والرومان وهم بطبيعة الحال لم يهتموا بما كان يجري فى تلك المناطق الا عندما يتصل ببلادهم واهتماماتهم ، ومن هنا وجدنا اهتماما أكبر بنوميديا .

فـــاس　　　　　　د : فوزي مكاوي

الهـوامـــــش

1) اطلق الرومان اسم الليبيون على كل سكان المناطق الواقعة الـى الغرب من مصر حتى المحيط الاطلنطى ومن البحر المتوسط شمالا حتى أراضى الاثيوبيين الغربيين جنوبا (جنوب الصحراء) ولكن مع التطور السياســى فى المنطقة خلال القرن الثالث ق.م. عرف أقوام باسم النوميديين وكان المقصود بهم جميع الليبيين غير الخاضعيـن لسيطـرة قرطاج المباشرة من حدود قرطاج الى المحيط الاطلنطـى غربا والى الصحراء جنوبا ، ولكن ظهور دولة موريتانيا فى الغـرب بالاضافة الى قبائل الجيتولين (جدالة) فى الجنوب ادى الـى حصر استـخدام اسم نوميديا فى المنطقة الواقعة بين حدود دولة قرطـاج شرقا وموريتانيا غربا .

كما اصبحت كلمة الليبيون بعد هذه التطورات السياسية تعبر عن السكان الوطنيين المقيمين فى مناطق تخضـع للحكم القرطاجـى المباشر فى تونس الحالية وقد استخدمت كلمة ليبيا لتعبر عن اراضي تقع فى داخل حدود جمهورية ليبيا الحالية خلال عصر دقليديانوس حوالى عام 300 م عندما انشأ ولايتى ليبيا العليا وليبيا السفلى فى الجزء الشمالى من برقة .

ـــ احمد صفر ، مدينة المغرب العربي فى التاريخ ، تونس د. ت. ص ص 172 — 173 .

ـــ عبد اللطيف محمود البرغوثى ، التاريخ الليبى القديم ، بيروت ـــ 1971 — ص 9 .

2) الفينيقيون Phoini هو الاسم الذي اطلقه الاغريق على مجموعة من سكان الساحل الشرقى للبحر المتوسط منذ حوالى القرن الثانى عشر ق. م. ، وكانوا يعرفون قبل ذلك بالكنعانيين ، وقد عاش الكنعانيون متأثرين بالحضارة المصرية وخضعوا للامبراطورية المصرية خلال الدولة الحديثة .

وقد تمتعت المدن الفينيقية بفترة ازدهار من خلال تجارتها مع شواطىء البحر المتوسط خلال القرون الاخيرة من الالف الثانى والقرون الاولى من الالف الاول قبل الميلاد . وكانت مدينة صور اهم المدن الفينيقية فى ذلك الوقت تعيش عصرها الذهبى فسارت اساطيلها التجارية ليست فقط بين الموانىء المعروفة فى حوض البحر المتوسط وانما توغلت فى الشواطىء المجهولة نحو الغرب حيث اسست محطات تجارية جديدة فى المناطق النائية . ووصلت بعثاتها التجارية الى ما بعد مضيق (جبل طارق) حتى الشواطىء الغربية لاسبانيا وفرنسا وكذلك شواطىء غرب افريقيا .

HITTI, Ph. K., History of Syria, London, 1951, PP. 79-81.

3) عرفت الفترة الممتدة من 750 الى 550 ق.م. فى تاريخ بلاد الاغريق بعصر الاستيطان فيما وراء البحار ، فقد تميزت هذه الفترة بخروج هجرات منظمة من المدن الاغريقية الى الشواطىء المختلفة بقصد الاستيطان واقامة مدن جديدة هناك . وكانت هذه الهجرات استجابة لظروف سياسية واقتصادية واجتماعية مرت بها بلاد اليونان خلال تلك الفترة فهاجر كثيرون تحت وطأة الفقر او هربا من العبودية بسبب الدين ، كما هاجرت الاحزاب السياسية المضطهدة ، واخيرا هاجر الباحثون عن الثراء بعد أن حرموا من الميراث فى ظل النظام الاغريقى الذي يورث الابن الاكبر فقط .

وقد انتشرت المستوطنات اليونانية على سواحل البحر المتوسط والبحر الاسود . وتزايدت المستوطنات اليونانية فى جنوب وغرب

ايطاليـــا وشرق صقلية حتى اطلق على هذه المنطقة (بلاد الاغريق الكبرى) . كما قامت مجموعة من المستوطنات اليونانية فى منطقـــة برقـــة وطرابلس فى ليبيا . وقد حاول داريوس بن ملك اسبرطة ان ينشـــئ مستوطنة فى منطقة خليج السرت الكبير لولا أن قضت قرطاج على محاولته فى مهدها .

أدى وجود الاغريق محيطين بشمال أفريقيا الى قيام تبادل تجاري بينهم وبين الوطنيين من خلال قرطاج ، او من خلال التجار الاغريق انفسهم كما أدى تصادم مصالح الاغريق مع مصالح قرطاج فى صقليـــة الى قيام حروب طويلة بينهما خلال القرن الخامس ق.م. ومع ذلك فان هذه الحروب لم تمنع قيام الاتصال الحضاري فظل الشعب فى شمال أفريقيا يتلقى زادا من الصناعات اليونانية من خلال قرطاج .

احمد صفر ، مدنية المغرب العربـــى فى التاريخ ، تونس د.ت. ص 141 — 143

السيد احمد الناصري ، الاغريق ، تاريخهم وحضارتهم ، القاهرة ، 1977 — ص 133 وما بعدها .

4) كان أول اتصال لروما بشمال أفريقيا من خلال معاهدة تجارية عقدتها مع قرطاج فى عام 508 قم بعد قيام الجمهورية ثم كانت المعاهدة الثانية فى عام 348 قم اثناء صراع روما مع المدن اللاتينية . وقد تعهـــدت قرطاج فى تلك المعاهدة الا تتعرض للمدن اللاتينية طالما بقيت هذه المدن على ولائها لروما وان تعيد الى سيطرة روما أي مدينة لاتينية متمردة عليها. وتعهدت روما بالمقابل بأن لا تتجاوز هي أو حلفاؤها فى ابحارهم منطقة الرأس الجميل (راس سيدي على المكى بتونس) الا لاسباب قاهرة كالعواصف او لمطاردة الاعداء . ولا يرخص لهم بشراء او اقتناء اى شيء الا ما كان ضروريا لترميم سفنهم او لاقامة شعائرهم الدينيـــة على أن يرحلوا فى فترة لا تتجاوز الخمسة أيام . وقد جمعت المصالح المشتركة بين روما وقرطاج مرة ثالثة بسبب عدائهما معا للملـــك بيرهوس الاغريقي الذي جاء من مملكته ابيروس لكي يحرر اغريـــق الغرب من سيطرتهما معا فعقدا معا معاهدة صداقة فى عام 280 قم وان لوحظ أن المعاهدة الاخيرة كانت تحمل بذور شك كل طرف فى نيات الطرف الآخر ، ولكن روما كانت تندفع بسرعة نحو زعامة

ايطاليا وتزايدت اهتماماتها التجارية والسياسية فى منطقة غرب البحر المتوسط ومن ثم كان صدامها مع قرطاج مسألة وقت فقــط . بــدا الصراع الرومانى القرطاجي فى النصف الاول من القرن الثالث ولكنه لم ينته الا بتدمير قرطاج فى عام 146 ق.م. وإذا كانت روما قد اكتفت بصداقة فريق من الوطنيين فى شمال افريقيا فانها قد بدأت تعيـــد ترتيب الامور لصالحها بعد سقوط قرطاج حتى استطاعت فى عام 40م أن تقضي على استقلال آخر الدول الوطنيةهناك وتحولت الى استغلال كل المنطقة لصالحها

Moscati, S-, The world of the Phoenicians, London, 1968
PP 119-120.

Oliver, R- and Fagan, B.M.
Africa in the Iron age, London, 1975, P. 47 FF

6) انظر مواقع هذه المحطات على الخريطة .

7) ترتبط نشأة قرطاج من الناحية الاسطورية بقصة الاميرة عليســة ، شقيقة الملك بيجماليون ملك صور . وكان الملك قد غضب على الاميرة لزواجها من شرباس أحد كهنة الاله ملقارت ، وأمر بقتل هذا الكاهن مما دفع الاميرة عليسة ومعها بعض اتباعها الى الهجرة من صور . وقد وصلت هذه الثلة من المهاجرين بعد عدة مغامرات فى البحر الى الساحل الذي قامت عليه قرطاج . وهناك نجحــت الاميرة فى اقناع الملك الوطنى فى المنطقة بأن يسمح لهم باقامة مستوطنة صغيرة . وقد انتحرت هذه الاميرة فيما بعد حتى لا تتزوج الملك الوطنـــى . ومما لا شك فيه ان معظم تفاصيل هذه الاسطورة من الصعب التحقق مـــن صحــتــه .

والمؤكد ان قرطاج نشأت على شبه جزيرة داخلة فى البحر فى خليج تونس الحالية ويرجح أن نشأتها على أيدي مجموعة من المهاجرين من صور حوالى عام 814 ق.م. وكانت فى البداية مجرد محطة بحرية متواضعة ولكن موقعها الممتاز فضلا عن ظروف سقوط الوطن الام على الساحل الفينيقـــى دفع بهذه القرية الصغـــيــرة الى صدارة المستوطنات الفينيقية فى الغرب .

رشيد الناضوري ، المغرب الكبير فى العصور القديمة ، القاهـــرة 1966 ، ص 161 – 165 .

8) لم يبدأ التاريخ المدون لمدينة قرطاج الا منذ القرن السادس قم عندما بدأت صور تضمحل ، ويقل شأنها تحت ضربات الملك الاشوري بختنصر (604 — 561 قم) وعندما سقطت دولة الاشوريين فى العراق تلتها دولة الكلدانيين ، واستمرت فى محاولة فرض سيطرتها السياسية على فينيقيا ، وعندما سقطت بابل عاصمة الكلدانيين في يد الفرس فى عام 539 قم اصبح للدولة الفارسية المنتصرة السيادة على فينيقيا . ومنذ بداية الحكم الفارسي تعرضت صور لكثير من التدهور والانحلال نتج عنه انفصال قرطاج سياسيا عنها فى عام 520 قم .

أحمد فخري ، دراسات فى تاريخ الشرق القديم ، ط 2 ، القاهرة ، 1963 — ص 111—112.

9) كانت قرطاج شديدة الحرص على ابقاء مناطق نفوذها فى غرب البحر المتوسط بعيدة عن ايدي المنافسين ، ولذلك فان تزايد اطماع الاغريق فى مناطق كانت حكرا على النفوذ القرطاجي كانت ايذانا ببداية الصراع مع النفوذ الاغريقي فى غرب البحر المتوسط .
وقد استغرق هذا الصراع قرنين من الزمان ومر بثلاث مراحل انتهت الاولى منه فى عام 480 ق م بهزيمة قرطاج أمام حلف المدن الاغريقية فى صقلية ، وانتهى دوره الثانى فى عام 409 قم بانتقام القرطاجيين لهزيمتهم الاولى ، ثم كان دور الصراع الثالث الذي انتهى بتأكيد سيادة القرطاجيين فى المنطقة بعد عقدهم معاهدة مع اجاثوكليس ملك سيراكوز قرب نهاية القرن الرابع قم.
لمزيد من التفاصيل عن ادوار هذا الصراع :

Polybius, Thehistories, P.6 FF.

رشيد الناضوري ، المرجع السابق ص ص 181 الى 205 .

10) جوليان ، شارل اندري ، تاريخ افريقيا الشمالية ، تونس 1969 — ص ص 108 — 109 والخريطة ص 88 .

11) ركز القرطاجيون اهتمامهم فى ابتكار اساليب التجارة مع الشعوب الاخرى وفتح اسواق جديدة لتجارتهم ، ولكنهم لم يشتهروا كصناع مهرة وكانوا يستوردون بضائعهم من بلاد اليونان وغيرها أو من المصنوعات الرخيصة التى كانت تنتجها قرطاج وكانوا يقايضون بهذه

البضائع الرخيصة الثمن معادن ومنتجات الشعوب البدائية .

Hedi Slim, Histoire de la Tunisie l'Antique N.D. Tunisie PP. 71-74.

Moscati, S., op.-cit. pp. 179-180.

13) اتسعت مناطق نفوذ قرطاج واسواقها التجارية وكان لزاما عليها أن تحمى هذا النفوذ وهذه الاسواق بتكوين جيش واسطول قويين . ولما كانت اهتمامات القرطاجيين تجارية بالدرجة الاولى فانهم لم يقبلوا على الاهتمام بالجيش ، واعتمدت قرطاج فى تكوينها للجيش والاسطول بصفة رئيسية على جنود مرتزقة من بين الوطنيين أو من الشعوب الاخرى المتصلة بهم .

ومع هذا فقد انجبت قرطاج قوادا عسكريين خلد التاريخ ذكرهم أمثال هملكار وهانيبال. كما اثبت القرطاجيون انهم محاربون ممتازون عندما ضحوا بالغالى والنفيس فى دفاعهم المستميت عن مدينتهم خلال الحرب البونية الثالثة والتى انتهت بتدمير قرطاج فى عام 146 قم

رشيد الناضورى، المرجع السابق ص ص 185 — 187 ، 278، 283

14) كان المناخ السياسى فى منطقة غرب البحر المتوسط مناسبا لقيام الحرب البونية الاولى خاصة بعد أن تزايدت قوة روما بسبب نجاحها فى طرد الملك بيرهوس من ايطاليا . ومحاولات قرطاج الناجحة لاستعادة كل ما سبق أن فقدته من اراضى .

فى ذلك الوقت تعرض ملك سيراكوز لتمرد بعض جنوده المرتزقة الايطاليين الذين استولوا على مسينا المطلة على المضيق المسمى باسمها وكانت مهمة تحرير هذه المدينة تقع بالطبع على عاتق هيرون ملك سيراكوز . لجأ هؤلاء الجنود الى الاستنجاد بكل من روما وقرطاج فى وقت واحد وكان خوف روما من استيلاء قرطاج على هذا الميناء سببا فى اتخاذها قرارا بالتدخل لصالح المرتزقة الايطاليين فى مسينا ضد حليف الرومان هيرون .

ولكن القرطاجيين سبقوا الى التدخل والاستيلاء على مسينا عام 268 قم الا انهم تعرضوا لانقلاب المرتزقة ضدهم . ونجح المرتزقة فى اعتقال القائد القرطاجى هانو ولم يطلقوا سراحه الا بعد أن وعد بترك مسينا . وفى نفس الوقت تقريبا أقام الرومان حاميتهم فى المدينة فى عام 264 قم.

ادت هذه التطورات الى نتائج دامية فحاكمت قرطاج قائد جيشها هانو بتهمة الخيانة واعدمته ، كما اعلنت ضرورة استعادتها لمسينا مهما كانت التضحيات ، واعلن هيرون ملك سيراكوز انضمامه الى جانب قرطاج ضد حليفته السابقة روما . وهكذا بدات الحرب البونية الاولـــى .

Hedi Slim, Op. cit. pp. 40-47

15) مرت هذه الحرب بثلاث مراحل انتصر الرومان فى مرحلتها الاولى فى معركة ميلاي البحرية فى عام 260 قم ونجحوا بذلـــك فى ان يطهروا المياه المحيطة بايطاليا وصقلية من القرطاجيين ، كما تصالح الرومان مع حليفهم القديم هيرون ملك سيراكوز . المرحلة الثانية كانت امتدادا للمرحلة الاولى ، نجحت خلالها قوات رومانية فى النزول على الارض الافريقية وهزيمة قوات قرطاج بقيادة قنصلي عام 256 ولكن وقـــع مجلس الشيوخ الرومانـــى فى خطأ خطير ، ففى الوقت الذي فرض شروطا قاسية على قرطاج للصلح معها سحب احد القنصلين ومعه قواته الى ايطاليا ، وقد ادى هذا الخطأ من جانب روما بالاضافـــة الى ما قامت به قرطاج من اعادة تنظـــيم جيـــشها تـــحـــت قـــيادة اكســانثيبوس Xanthippus الاسبرطى الى سحق الجيش الرومانى ووقع قائده اسيرا فى ايدي القرطاجيين فى عام 255 قم .
اما المرحلة الثالثة والاخيرة من هذه الحرب فـــقـــد قاد الجيـــوش القرطاجية خلالها هملكار برقة ورغم دفاعه المستميت عن قلعة ارتيس فى شمال غرب صقلية ورغم أن الطرفين الرومانى والقرطاجى قد انهكتهما الحرب ، الا ان روما تلقت زادا جديدا من تبرعات مواطنيها ساعد على انشاء اسطول جديد من مائتي سفينـــة . حاصـــرت روما بهذا الاسطول المراكز الحصينة لقرطاج فى غرب الجزيرة ، كما نجحت فى استخدامه لتدمير قوات النجدة القرطاجية فى عـــام 242 عـــنـــد جـــزر Aegates
واضطر القرطاجيون الى قبول الصلح فى عام 241 الذي نص على تنازل قرطاج عن صقلية والجزر الصغيرة المتاخمة لروما بالاضافة الى تحملها لغرامة حربية على أقساط قدرها 3.200 تالنت .
جوليان ، شارل اندري ، المرجع السابق 96 — 98 .

16) خرجت قرطاج منهكة القوى من الحرب البونية الاولى ولذلك اتجه قائدها هملكار برقة الى اسبانيا آملا فى أن يعوض بما يكسبه من اراضى وعائدات من اسبانيا ما فقدته قرطاج فى صقلية . وقد نجح هملكار برقة خلال الفترة من 237 الى 228 ان يخضع كثيرا من الشعوب والقبائل وانشأ عاصمة لعملياته فى اسبانيا تدعى Acra Lenca وقتل فى احدى المعارك فى عام 228 قم وخلفه فى القيادة هسدروبال، حيث حقق مزيدا من الانتصارات وضم كثيرا من الاراضى بالتراضى وكسب الحلفاء الوطنيين وانشأ مدينة قرطاج الجديدة على الشاطىء الغربى لاسبانيا ومد نفوذه الى نهر ابرو الذي اتفق مع روما فى عام 226 قم أن يصبح الحد الفاصل الذي لا يجب على قرطاج أن تتجاوزه شمالا .

احمد صفر ، المرجع السابق ، 209 — 211 .

17) كانت روما هى التى سعت الى قيام الحرب البونية الثانية اذ انها فرضت على قرطاج فى عام 241 أن تسلمها كورسيكا وسردينيا ، وأن تدفع غرامة حربية اضافية قدرها 1200 وزنة اوبية . وقد استغلت فى ذلك ظروف قرطاج التى كانت تواجه ثورة الجنود المسرحين من جيشها . وعندما اتجهت قرطاج للتوسع فى اسبانيا تعويضا لما فقدته فى جزر البحر المتوسط تدخلت روما ثانية وفرضت اتفاقية على هسدروبال فى عام 226 ق م بأن لا يتعدى نهر الابرو فى فتوحاته .

وقد ادت هذه التصرفات العدائية الى اثارة قرطاج وتصميمها على الثأر. وقد ورث هانيبال هذا الحقد على روما. أما الاسباب المباشرة لقيام الحرب البونية الثانية فقد كانت خرق هانيبال لنصوص اتفاق الرومان مع هسدروبال بعد التوغل خلف نهر الابرو شمالا مما دفع الرومان الى اعلان الحرب على قرطاج .

Hedi Slim, Op. cit., PP. 55-58.

عبد اللطيف احمد علـى ، المرجع السابق ص ص 104 — 106 .

18) يعتبر هانيبال احدى القيادات الفذة فى التاريخ ، تولى قيادة قوات قرطاج خلال الحرب البونية الثانية . واستطاع ان يحارب الرومان فى عقر دارهم لمدة ثلاثة عشر عاما نشر الرعب فى قلوب الرومان خلالها

ولمزيد من القراءة عن هذا القائد الاسطورة :
توفيق الطويل ، قصة الكفاح بين روما وقرطاج .
warmington, Carthage, London, 1960.

19) لتحقيق موقع هذه الاماكن انظر :
احمد صفر ، المرجع السابق لوحة رقم 56 .

20) سكيبيو الذي عرف بالافريقي هو ابن قنصل عام 217 قم كورنيليوس .
سكيبيو ، استطاع هذا الرجل ان يحقق لروما النصر النهائي في الحرب البونية الثانية بموافقة قرطاج على شروط روما في عام 201 قم . للمزيد من القراءة عن هذه الشخصية :
Thompson, The Battle Elephant M.A., Belfast University P. 121 FF.

2) استسلمت قرطاج لشروط روما خلال مفاوضات الصلح عام 201 قم وقد نصت هذه الاتفاقية على ما يأتي :
1 — أن تسلم قرطاج كل سفن أسطولها لروما فيما عدا عشرة سفن ثلاثية (ذات ثلاث طبقات من المجاذيف) .
ب — أن تسلم قرطاج كل ما لديها من أفيال لروما وان تتعهد بأن لا تعود الى صيد أو تدريب أو اقتناء اي فيل للقتال مستقبلا .
ج — الا تعلن قرطاج حربا جديدة الا باذن من روما .
د — أن تتحمل قرطاج نفقات جيش الاحتلال الروماني الى ان يتم اقرار الاتفاقية وانسحاب جنود الرومان من داخل حدود قرطاج .
هـ — أن تسلم كل الاراضي التي كانت خاضعة لنوميديا في وقت من الاوقات الى الملك مسينسا ملك نوميديا .
ز — أن تدفع غرامة حربية تبلغ عشرة آلاف وزنة اوبية من الفضة ، مقسطة على خمسين عاما .
ح — ان تسلم كل من أسرته من الجنود الرومان وكل من لجأ اليها اثناء القتال .
ط — ان ترسل مائة من خيرة أبنائها الى روما كرهينة لكي تضمن روما حسن امتثالها لشروط الاتفاقية .
روما حسن امتثالها لشروط الاتفاقية .
انظر نصوص الاتفاقية في بوليبيوس كما تجد ملخصها في :
Hedi Slim, Op. cit. PP. 66-67.

22) تعرضت قرطاج لحملة كراهية فى روما غذاها عدد من أعضاء مجلس الشيوخ خاصة كاتو الذي كان حريصا على أن ينهى حديثه في المجلس بعباراته الشهيرة : (قرطاج يجب ان تموت)

كما قام مسينسا ملك نوميديا باثارة خوف روما من صحوة جديدة لقرطاج وذلك بتسريب الاخبار المبالغ فيها عن استعدادات عسكرية تجري هناك . وقد وصل الامر الى ان حكمت روما على قرطاج بالموت . وأعلنت عليها الحرب البونية الثالثة فى عام 149 ق‌م ورغم محاولات القرطاجيين لارضاء الرومان فقد واجهوا تصميما على هدم عاصمتهم فاضطروا للذود عنها ودافعوا دفاع الابطال عن قرطاج وصمدوا أمام جيش روماني جرار حتى عام 146 ق م عندما نجحت القوات الرومانية فى اختراق دفاعات المدينة ودمرتها عن آخرها .

Walsh, P.G., Massinissa, Journal of Roman Studies, vol. LV, London, 1965. PP. 159-160.

Oliver. R, & B.M. Fagan, op. cit. p. 51.

24) عاش مسينسا ملك نوميديا فترة من شبابه فى قرطاج وقيل انه خطب احدى بناتها المدعوة صوفونيبا فى عام 209 ق‌م وتزوج منها فى عام 203 ق‌م .

Walsh, P.G., Op. cit. p. 149 F.N. 1 & P. 150.

25) كان القرطاجيون يعتنون بالزراعة وصنفوا فيها كتبا بقى لنا منها ذكر كتاب ماجو ويقع فى 28 جزءا ترجم الى اللاتينية ولم يقتصر المؤلف حديثه على اسداء النصائح الخاصة بالزراعة وتربية المواشى بل اشار بدقة الى كيفية ادارة المزارع فى الريف ، وقد تأثر النوميديون بالزراعة القرطاجية ، ويذكر مسينسا انه شجع زراعة القمح وغيرها من المحاصيل وأنه كان قادرا على اهداء كميات ضخمة من محاصيله الى روما عند حاجتها .

جوليان ، اندري المرجع السابق ، ص 112 .

26) الاشارة هنا خاصة بمقبرة دقة الشهيرة التي يعود تاريخها الى القرن الثانى ق‌م. أما النقش المكتوب باللغة اليونانية واللغة الليبية فقد نقل الى انجلترا فى عام 1842 م. ويشتمل النص على أسماء صناع هذا القبر من القرطاجيين والنوميديين .

أحمد صفر ، المرجع السابق ، ص ص 156—157 .

27) كان القرطاجيون يعبدون آلهة متعددة ، وقد انتقلت هذه الالهة مع المستوطنين الفينيقيين الذين استقروا فى قرطاج مثل ملقارت Melqart الذي كان أكبر آلهة صور وكذلك اشمون Eshmn ولكن طبيعة هذه الالهة تغيرت باقامتها فى بيئة مختلفة ، كما تأثرت بالعقائد المحيطة بها ومنها العقيدة الليبية . وهنا تجدر الاشارة الى الاله الاكبر فى قرطاج بعل حمون Baal Hammon وهو يقارن بزيوس عند الاغريق . ويعتقد أنه مزيج من الاله (الـ) باله وطني ويعتقد أيضا ان الالهة تانيت Tanit اشهر الاهات قرطاج هى مزيج من الالهة السامية عشترت والاهة محلية . وقد عبد الوطنيون الالهة القرطاجية ولكن فى نفس الوقت كان لهم الهتهم الوطنية وقد ادخل مسينسا ، ملك نوميديا (203 — 148 ق م) عبادة الاهتي القمح اليونانيتين Cereres الى بلاده .

Moscati, S., Op. cit. pp. 136-144.
Walsh, Op. cit. Map. p. 153.

28) شارك الوطنيون فى شمال افريقيا بقسط وافر فى جميع حروب قرطاج فى صقلية من اواخر القرن الخامس الى منتصف القرن الثالث ق م . كما اعتمد عليهم هملكار برقة فى حروبه الاسبانية . ويقال ان جيش هانيبال الى ايطاليا كان يضم اثنى عشر الفا مشاة كلهم من الوطنيين بالاضافة الى فرق الخيالة التي ساهمت فى تحقيق انتصاراته الاسطورية فى Cannae وغيرها .
للمزيد من القراءة :

Hedi Slim, Op. cit. p. 40 FF.

29) امتدت اراضي مملكة مازيسولة من نهر الملوية غربا الى شمال قسنطينة حاليا شرقا ، وكانت عاصمة هذه المملكة تقوم فى نفس موقع قسنطينة واسمها Cirta أما ماسولة فكانت اقل مساحة وتشمل القسم الشرقى من مقاطعة قسنطينة الحالية . انظر موقع المملكتين على الخريطة .
جوليان ، اندري ، المرجع السابق ص ص 132 — 133 .

30) رشيد الناضوري ، المرجع السابق ص ص 222 ــ 223 .

31) تركز المصادر اليونانية على الربط بين قيام هذه التحالفات مع قرطاج والزواج من بنت قائدها هسدروبال بن جزجو المسماة صوفونيبا . فتذكر هذه المصادر ان الفتاة خطبت لمسينسا بن ملك ماسولة فى 209 قم ، ولكنها تزوجت سيفاكس Syphax عندما حل هذا فى عام 208ــ207 قم محل جايا ملك ماسولة كحليف لقرطاج . وتركز هذه الروايات على اصرار مسينسا على الزواج من نفس السيدة بعد هزيمته لزوجها سيفاكس فى عام 203 قم . وتنتهى الروايات بالحديث عن انتحار الاميرة القرطاجية فى اليوم الثاني لزواج مسينسا منها .

Diodorus, 27, 7.

والمرجح ان الزيجات السياسية بين قرطاج والملوك الوطنيين كانت تدعم هذه التحالفات ولا تسببها ، ولقد تحالف مسينسا وسيفاكس من قبله مع الرومان دون الاشارة الى وجود مثل هذه الزيجات السياسية .

32) يعتقد ليفى ان هزيمة سيفاكس فى هذه المعارك قد سببت فقده لاغلب اراضى مملكته .

Livy, 24, 49, 4-6.

33) خدم مسينسا فى هذه المعركة تحت قيادة ماجو القرطاجى .

Livy, 25, 34, 1-6, 11-14.

34) اعتلى Oezalces العرش فى نوميديا بعد موت أخيه Gaia فى عام 208 قم حسب نظام وراثة العرش النوميدي الذي يعطي الحق لاكبر أفراد الاسرة المالكة سنا ، وقد خلفه ابنه Capussa ولكنه واجه تمردا من بعض افراد عائلته وقد نجح Mazaetullus اقوى الشخصيات فى المملكة ان يستولى على العرش النوميدي لصالح الطفل Lacuma شقيق Capussa فى عام 207 قم. وبقى الطفل الملك اسما بينما كان المتصرف الحقيقى فى شئون الملك هو Mazaetullus

Livy, 29, 6-13

35) Livy, 28, 16, 11.

36) كانت هذه هى المرة الوحيدة التى جمعت مملكتى مازيسولة فى حلف واحد مع قرطاج والسبب الواضح لهذا التحالف هو خوف الجميع من عودة ماسينسا المطالب بعرش ماسولة .

37) Walsh, op. cit. p. 150.

38) Livy, 29, 3, 7.

39) Livy, 29, 34, 10 FF.

(اضرام النار فى معسكرات قرطاج) Polybius, 14, 3, 7, 4, 7.

40) (معركة السهول الكبرى) Polybius, 14, 8, 6 FF

41) أحمد صفر ، المرجع السابق ص 229 .

42) Thompson, The Battle Elephant, p. 128.

43) Walsh, OP. Cit. P. 150 FF.

44) انظر الهامش رقم 41 .

45) Hedi Slim, op. cit. p. 104.

46) Moscati, S., The world of the Phoenicians, London, 1968. 130.

47) استطاع هانيبال ان يتولى الحكم مرة ثانية فى عام 196 قم فى بلاده وقام فور انتخابه بأعمال ثورية هدفت الى الحد من سيطرة الارستقراطية على الحكم واهتم بتحسين أحوال الزراعة والضرائب وغيرها ادت هذه الاعمال الى احساس الرومان بالخوف من صعود نجم هذا القائد مرة أخرى بما يحمله من كراهية لروما ربما دفعته الى محاولة الثأر منها ، وفى نفس الوقت واجه هانيبال مقاومة شديدة من مراكز السلطة القديمة فى بلده نفسها . ولم يجد بدا من الفرار والالتحاق بسوريا حيث لجأ الى انتيوخس ، ولكن هزيمة انتيوخس أمام الرومان وعقده لهدنة فى عام 189 قم أوقعته مرة اخرى فى مأزق شديد خاصة وقد طالبت روما أن يسلم هانيبال اليها . هرب مرة أخرى الى كريت ثم الى ارمينيا وأخيرا الى بثينيا . وقد ساعد ملكها بروزياس الثاني فى الانتصار على جيوش برجاموم . ولكن شعر فى عام 183 قم ان هذا الملك ينوي تسليمه للرومان ، ففضل الانتحار بتناول السم على أن يقع فى ايدي اعدائه .

جوليان ، اندري ، المرجع السابق ص 139 .

48) Walsh, P.G., Massinissa P. 148.

49) كانت روما ترغب فى اقامة توازن لصالحها فى المنطقة فهى حقيقة على صداقع مع مسينسا ملك نوميديا ، ولكنها لا تسمح له فى نفس الوقت بأن يتحول من صديق صغير الى منافس قد تغريه القوة بعداء روما نفسها . Walsh, P.G., Ibid P. 158.

50) جوليان اندري ، المرجع السابق ص ص 140—141 .

51) بدأ العداء بين روما ومقدونيا منذ موقف الاخيرة المؤيد لهانيبال بعد معركة كناي . ورغم أن مقدونيا لم تشترك فى الحروب ضد روما، الا ان روما ظلت تتوجس خيفة من سياستها . ولذلك فان ما قيل عن أطماع فليب الخامس ، ملك مقدونيا وانتيوخس الثالث ملك سوريا فى أملاك مصر ودويلات بلاد الاغريق كانت مبررا كافيا لمجلس الشيوخ الرومانى لكى يعلن الحرب على مقدونيا ، وعرفت هذه الحرب بالحرب المقدونية الثانية ، وقد انتهت بانتصار روما فى كينوس كفلاي Cynos Caphalae عام 197 قم.

ثم قامت الحرب المقدونية الثالثة بين بيرسيوس بن فيليب والرومان، وانتهت هذه الحرب بهزيمة بيرسيوس فى بيدنا 168 قم. وقد سقطت مقدونيا نهائيا فى أيدي روما بعد هزيمتها فى الحرب المقدونية الرابعة 148 قم.

ابراهيم نصحى ، دراسات فى تاريخ مصر فى عهد البطالمة ص 88 .

52) Walsh, P.G. Op. cit. p. 154.

53) جوليان ، اندري ص 140 .

54) تميزت سياسة روما منذ عام 168 قم تجاه الشرق بالقوة كما جاملت نوميديا بوضوح منذ ذلك التاريخ فى مشاكل الحدود بينها وبين قرطاج . وقد ظهرت بوادر هذه العلاقة الخاصة التي ميزت موقف روما تجاه نوميديا فى الاستقبال الرائع لابي مسينسا .
Livy, 45, 13-14

(55 Appianus Lib. 68

(56 عاش كاتو الذي عرف بالاكبر فى الفترة من 234 الى 149 قم وشهد الحرب البونية الثانية فى شبابه تولى عددا من المناصب العامة فكان قنصلا فى عام 195 قم وكنسورا فى عام 184 قم . وتذكر له مواقفه فى محاربة الافساد الخلقى والاجتماعى وكذلك البذخ والابتزاز . وقد زار قرطاج فى عام 153 قم ونادى بتدميرها خوفا من نهضتها ثانية بما يمثل خطرا على روما Hedi Slim, Op. cit. pp. 117-118.

(57 عارضت مجموعة من اعضاء مجلس الشيوخ تدمير قرطاج وقيل أن سكيبيو ناسيكا Nasica قائد هذه المجموعة المعارضة كان يرى فى القضاء على قرطاج خطرا على روما ذاتها ، اذ ان ذلك سوف يغرى الرومان بتوجيه طاقاتهم ـ التى كانوا يدخرونها لمواجهة اى خطر قرطاجى الى الصراع السياسى الداخلى ، ولكن لعل بوليبيوس الذي عاصر تلك الفترة يعبر عن حقيقة موقف الرومان عندما قال : « . . . ان الرومان كانوا مصممين منذ زمن بعيد على تدمير قرطاج ولكنهم كانوا ينتظرون فقط الوقت المناسب لذلك . . . » .

(58 يقول ليفى ان روما سمحت لمسينسا بتوسيع املاكه الى الدرجة التى أصبح معها « . . . ليس فقط أكثر الملوك ثراء فى افريقيا،بل ومساويا فى الهيبة والقوة لاى ملك فى العالم . . . » Livy, XXXVII 25. 10.

(59
Barton, J.M. Africa in the Roman Empire, Ghana, 1972 P. 13-17

(60 Walsh, op. cit. P. 160.

(61 ضمت قوات الغزو الرومانى 3.000 فارسا و 50 سفينة خماسية وقد نجحت هذه القوات بقيادة سكيبيو (ابن قائد الرومان الذي هزم أمام هانيبال فى كناي) فى الاستيلاء على ميناء اوتيكة دون مقاومة رغم محاولة القرطاجيين استرضاء الرومان بشتى الوسائل الا انهم فى النهاية أعلنوا عن شروطهم القاسية التى تقضى بهدم مدينة قرطاج . جوليان ، اندري ، المرجع السابق ص ص 142 ـ 143 .

(62 نص قرار مجلس الشيوخ الروماني على ضرورة هجرة سكان مدينة قرطاج نهائيا اذا تقرر تدميرها ، وقد تضمن نفس القرار السماح لاهالى

قرطاج أن يقوموا ببناء مدينتهم فى أي مكان آخر بعيداً عن هذا المكان بما لا يقل عن 80 استاديا (حوالى 15 كيلومترا تقريبا) .
احمد صفر ، المرجع السابق ص 244 .

63) استمر حصار قرطاج لمدة ثلاث سنوات ونجح الرومان فى اختراق اسوار قرطاج فى ربيع 146 قم وقتلوا الآلاف من أهلها ودمروا المدينة ولعنوا موقعها وحرموا البناء عليه مرة أخرى .
رشيد الناضوري ، المرجع السابق ص ص 280 — 281 .

64) Polybius, 36, 16

65) Herodotus, 4, 19, 1

66) من المعروف أن قرطاج قد توسعت فى أملاكها القارية اثناء صراعها مع الاغريق فى القرن الخامس قم بعد هزيمتها فى هيرا عام 480 قم لكى تستعوض ما فقدته من نفوذ فى البحر وقد توسعت قرطاج فى زراعة الحبوب فى تلك المناطق. Hedi Slim, op. cit. p. 30-31.

67) Walsh, op. cit. p. 154.

68) Sallustius B.J. 90

69) Strabo 17, 3, 7 ;

70) Walsh, op. cit. P. 154 FF.

71) رشيد الناضوري ، المرجع السابق ص ص 297 — 293 .

72) أحمد صفر ، المرجع السابق ص 275

73) جوليان ، اندري ، المرجع السابق ص 155

74) كان يوغرطة على راس قوات للمساعدة النوميدية التى ارسلها مسينسا لمعاونة سكيبيو فى حربه للوطنيين الاسبان اثناء حصار مدينة نومانتيا Numantia فى شمال اسبانيا . وقد استطاع الجيش الرومانى وحلفاؤه ان يدمروا المدينة 133 قم بعد خمسة عشر شهرا من الحصار فى عام
عبد اللطيف احمد على ، المرجع السابق ص 169

75) رشيد الناضوري ، المرجع السابق ص 294.

76) ذكر المؤرخ سوليستيوس Sallustius ان يوغرطة قال عن روما مدينة للبيع توشك ان تزول عن قريب متى وجد المشتري » .
«Urbem venalem et mature perituram si emptorem invenit»
Sallustius, Bellum Iugruthinum XXXV. 10.

77) عبد اللطيف احمد على ، المرجع السابق ص 171
78) كان ماسيوه بن غولوسة بن مسينسا يقيم فى روما على أمل ان يقنع الحكومة الرومانية بمساندته على اعتلاء العرش فى نوميديا . وقد نجح احد اتباع يوغرطة بالظفر به وقتله بتكليف من يوغرطة اثناء وجوده فى روما للادلاء بشهادتــه .Sallustius, Op. cit. XXXV
79) احمد صفر ، المرجع السابق ص 279
80) كان ميتلوس من اسرة ارستقراطية تولى عددا كبيرا من الوظائـــف العليا فى روما وقد تولى القنصلية عام 109 وكلف بقيادة الجيش ضد يوغرطة فى وقت كانت الثقة قد انهارت فى كل من يتولى قيـــادة الجيوش المحاربة لهذا الامير النوميدي ، وقد استطاع ان يعيد ثقة الرومان فى قوادهم مما ادي الى استمرار قيادته للجيش فى نوميديا خلال عام 108 قم بلقب بروقنصـــل
81) كان ماريوس رجلا عصاميا عمل مساعدا لميتللوس خـــلال قيادتــه للجيش الرومانـــى ضد نوميديا ، ولكنه عاد الى روما لترشيـــح نفسه قنصلا لعام 107 قم وقد نجح بالفعل واسندت اليه قيـــادة الحرب فى افريقيا . وقد اشتهر ماريوس فى التاريخ الرومانـــى بكثير من الاعمال مثل انتصاره على يوغرطة وانقاذ روما من هجوم القبائل فى الشمال وكذلك تعديله لنظام الخدمة فى الجيش ممـــا أدى الـــى تطورات هامة وخطيرة على كيان الدولة الرومانية .
82) جوليان ، اندري ، المرجع السابق ص 61 .
83) ســـلا : هو الدكتاتور الرومانـــى المشهور الذي قاد حزب السناتو وحاول خلال فترة حكمه ان يعيد اليه سلطته من خلال تشريعاتـــه الدستوريـــة وكان احد اشهر شخصيتين رومانيتين خلال الفترة من 88 الى 79 عندما اعتزل الحكم ومات فى العام التالـــى .
84) رشيد الناضوري ، المرجع السابق ص ص 267 — 268 .
85) جوليان ، اندري ، المرجع السابق ، ص 163 .
86) هو جنايوس بومبيوس بن بومبيوس استرابون ، قنصل عام 89 قم استطاع ان يتبوأ مكانة عسكرية متميزة لاعجاب سلا بشجاعته وقد دفع سلا مجلس الشيوخ فى عام 82 قم لاختياره قائدا على حملة الى صقلية وافريقيا مع تمتعه بسلطة الامبريوم التى يتمتـــع بهـــا

بروبريتور Propraetor رغم أنه لم يكن قد تقلد أي منصب عام حتى ذلك التاريخ . وقد نجح فى مهمته نجاحا كبيرا ودخل روما فى موكب الانتصار وحمل لقب Magnus (الاكبر) تولى بمبيوس عددا من أخطر المهام وتقلد ارفع المناصب فى روما وقد دخل فى حلف مع قيصر وكراسوس ، ولكن حدث خلاف بينهم فيما بعد ادى الى تفجير حرب اهلية كان طرفاها قيصر وبومبى وقام الاول بمطاردة الاخير فى شمال افريقيا حيث هزم من عضدوه فاضطر بومبى الى الفرار الى مصر وقدم قيصر فى اثره . ومن المعروف أن بومبى مات غريقا فى النيل عام 48 قم بأمر من بطليموس شقيق كليوباترة .

87) هو يوليوس قيصر الشهير ولد حوالى عام 101 قم انضم الى الحزب الديمقراطى رغم أصله الارستقراطى ، غادر روما اثناء حكم سلا الذي تعرض فيه الديمقراطيين للقهر السياسى ، تولى منصب كويستور فى اسبانيا عامي 66 ــ 68 قم كما تولى منصب الكاهن الاكبر ، ثم منصب البريتور فى عام 62 ، وفى عام 61 عين حاكما لاسبانيا وفاز بمنصب القنصلية عام 60 قم بفضل تحالفه مع كراسوس وبومبيوس .
قام قيصر فى السنوات التالية بفتوحات هامة فى تاريخ الرومان ، فقد فتح بلاد الغال وامتد شمالا حتى أخضع بريطانيا . انفجر الصراع بينه وبين بومبيوس فى عام 50 قم و استمر حتى اغراق بومبيوس فى النيل .

عبد اللطيف احمد على ، المرجع السابق ص 217 وما بعدها .

88) احمد صفر ، المرجع السابق ص 284ــ285 .

89) اندري ، جوليان ، المرجع السابق ص ص 166ــ167 .

90) شقيقة اكتافيوس (اغسطس) وكانت زوجة سابقة لانطونيوس .

91) تيبيريوس كان ابنا بالتبنى لاوغسطس ، وقد حكم الامبراطورية الرومانية بين عامي 14 و 37 بعد الميلاد .

92) اندري ، جوليان ، نفس المرجع ص ص 178 ــ 180 .

93) أحمد صفر ، المرجع السابق

94) احمد صفر ، نفس المرجع ص 238.

قـائـمـة مـراجـع البحث :

ا ـ مراجع باللغة العربية

1 ـ ابراهيم نصحي ، دراسات فى تاريخ مصر فى عهد البطالمة ، القاهرة، 1959 .

2 ـ احمد صفر ، مدنية المغرب العربى فى التاريخ ، الجـزء الاول ، تـونـس ـ ط. ت.

3 ـ احمد فخري ، دراسات فى تاريخ الشرق القديم ، ط 2 ، القاهرة، 1963 .

4 ـ رشيد الناضوري ، المغرب الكبير ،الجزء الاول، القاهرة، 1966

5 ـ سيد أحمد علي الناصري ، الاغريق ، تاريخهـم ، وحضارتهـم ، الـقـاهـرة 1977 .

6 ـ شارل اندري جوليان ، تاريخ افريقيا الشمالية ، ترجمة محمد مزالى والبشير بن سلامة ، تونس 1969 .

7 ـ عبد اللطيف أحمد على ، روما ، الجزء الاول ، القاهرة ، دت.

8 ـ عبد اللطيف احمد على ، التاريخ الرومانـى ، عصر الـثـورة ، الـقـاهـرة 1967

9 ـ عبد اللطيف محمود البرغوتى ، التاريخ الليبى القديم ، بيروت ، 1971

10 ـ فوزي مكاوي ، الفيل الافريقى ودوره فى الحروب الـقـديمة ، مجلة الدراسات الافريقية ، القاهرة 1976 .

ب ــ مراجع بلغات اجنبية :

11 — Appian, Romaica, with an English translation by H. White London, 1899

12 — Barton, J.M., Africa in the Roman Empire Ghana, 1972.

13 — Boardman, J., The Greeks overseas, 2nd. ed., London, 1973.

14 — Broughton, T.R.S., Romanization of Africa Proconsularis, London, 1929.

15 — Diodorus Siculus, with an English translation by Russel M. Geer London, 1946-1963.

16 — Hedi Selim, Histoire de la Tunisie l'Antique, Tunis, N.D.

17 — Herodotus, with an English translation by A.M. Godly (London, 1946-60).

18 — Livius,

19 — Moscati, S., The world of the Phoenicians, London, 1968.

20 — Oliver, R. and Fagan, B.M., Africa in Iron age, London, 1975.

21 — Plinius, Natural History (loeb series)

22 — Polybius, The Histories, with an English translation by W R. Paton (loeb series).

23 — Sallustius, Bellum Ingurthinum,

24 — Strabo, Geography of ..., with an English translation by H. L. Jones, London, 1949-54.

25 — Thompson, The Battle Elephant, M.A. Belfast Univ. 1968.

26— Walsh, Massinissa, The Journal of Roman Studies, vol. LX, London, 1965.

27 — Warmington, B.H., Carthage, London, 1960.

د : ف، م.

البدايات الاولى لليقظة المغربية على مستوى الاصلاحات الكبرى

محمد المنوني

عرفت العشرة الاولى من القرن العشرين حركة بعث مغربي جديد ، انطلق من مبادرات المستوى الرسمي ، ثم ساهم فيه نخب من طبقات المفكرين الوطنيين ، وهدفت هذه الانتفاضة الى محاولات اصلاحية مست سير الادارة والاقتصاد والاشغال العمومية وما الى ذلك. ومن جهة اخرى وقفت الحكومة والشعب على السواء ضدا على التدخلات الاجنبية، وتحرشاتها بالواحات والحدود المغربية .

وتبتديء هذه الفترة من سنة 1318 هـ / « 1900 م » ، لتقف عند سنة 1330 هـ / 1912 م ، وتبعا لتطور الاحداث تفرعت الحقبة ذاتها الى ثلاث مراحل :

الاولى : تمتد من بداية هذه الفترة ، ثم تنتهي أواخر عام 1322 هـ/ 1905 م .

والثانية من تقديم مقترحات فرنسا الاصلاحية في التاريخ المشار له ، حتى نهاية عهد السلطان العزيز عام 1325 هـ / 1908 م

الثالثة : من بداية عهد السلطان الحفيظ ، الى اعلان الحماية عام 1330 هـ / 1912 م

⁂

وأولا : نشير الى تركيب الحكومة التي سيرت نفس الفترة في ظل السلطان العزيز (1) ، وهكذا بعد وفاة الصدر ابا احماد صار تاليف الحكومة على الشكل التالي :

1 — الحاج المختار بن عبد الله بن احماد : رئيس الوزراء ووزير الداخلية ، وهو ابن عم الوزير السابق ، وتقلب — من قبل — في عدة مناصب، من بينها الوزارة للخليفة السلطاني بفاس (2) .

2 — المهدي بن العربي المنبهي : وزير الحربية والبحرية ، والمستشار الخاص للسلطان ، وبهذا صار له الاشراف على سائر الوزارات ، وكان قبل الوزارة قائدا على قبيلة المنابهة حوز مدينة مراكش ، مع حظوة لدى الوزير السابق احماد بن موسى (3) .

3 — عبد الكريم ابن سليمان الفاسي ، الغرناطي الاصل : وزير الخارجية ، بعدما كان كاتبا اول -بالصدارة- ايام الوزارة الاحمدية(4).

4 — الحاج عبد السلام بن محمد « موخ » التازي ، الرباطي : وزير المالية ، وهو يشغل هذا المنصب من عهد السلطان الحسن الاول (5)

---

1 — مصدر لائحة اغلب الوزراء في هذه الفترة هي (مذكرات » المفكر المغربي : محمد الحجوي بعنوان « انتحار المغرب الاقصى بيد ثواره » ، خ. ع. حـ 123 .

2 — توفي — بمكناس — عام 1335 هـ/1917 م ، وترجمته في « اتحاف اعلام الناس » ج 4 ص 306 — 308 .

3 — توفي — بطنجة — عام 1358 هـ / 1939 م ، ووردت معلومات عنه في « مذكرات » محمد الحجوي الانفة الذكر .

4 — توفي — بفاس — عام 1326 هـ / 1908 م ، وترجمته في « فواصل الجمان » ص 92—109.

5 — توفي — بالرباط — عام 1325 هـ / 1908 م ، وترجمته في « اتحاف اعلام الناس » ج 5 ص 363 — 370 .

5 — محمد بن على المسفيوي : وزير الشكايات : (العدلية » (6)، بعدما كان والده يشغل هذه الوزارة أيام السلطان الحسن الاول وصدر الدولــة العزيزيــة .

وقد نجح المنبهى فى التخلص من منافسين له فى هذه الحكومــة ، فان وزير المالية طلب من السلطان اقالته وقبلت بتاريخ 20 ربيع النبوي عام 1318 هـ / « 1900 م » (7) ، ثم خلفه فى وظيفته الشيخ التازي : محمد بن عبد الكريم الفاسي ، بعدما كان يشغل منصب امين الصائر (8) ، كما ان الحاج المختار عزل من منصبه اواخر ذي الحجة عـــام 1318 هـ « 1900 » (9)، وتولى محمد المفضل غريط الصدارة والداخلية، وهو الذي كان وزيرا للخارجية فى العهد الحسنــي (10) ، وبادر هذا فعزل محمد المسفيوي وزير الشكايات ، وعين مكانه المهدي (بن محمد) غرنيط (11) .

6 — « مذكرات » ثانية لمحمد الحجوى بعنوان : « الخبر عــن دولة السلطان مولاي عبد العزيز بن الحسن العلوي الحسنى » ، خ. ع. د 128.

7 — « اتحاف أعلام الناس » ج 5 ص 364 .

8 — « الحلل البهية » لمحمد بن مصطفــى المشرفى ، مخطوطة خ. ع د 1463 ، وكانت وفاة الشيخ التازي — بطنجــة — عام 1333 هـ / 1915 م ، حسب جريدة « السعادة » عدد الاربعاء 9 جمادى الاولى 1333 هـ / 24 مارس 1915 م ، وهو أخ محمد التازي المندوب المخزني السابق بطنجة ، والحاج عمر وزير الاملاك سابقا .

9 — « الحلل البهية » ، مع « اتحاف الناس » ج 4 ص 307 .

10 — « الحلل البهية » ، « وفواصل الجمان » ص 191 — 192 ، وكانت وفاة محمد المفضل غريط عام 1344 هـ / 1925 م.

11 — المذكرات الحجوية الثانية ، وتأخرت وفاة المهدي غرنيط الى عام 1363 هـ ، وهو اخ محمد المفضل غريط ، ووالدهــما — معا — هو الوزير محمد بن محمد بن عبد الله غرنيط، المترجم فى « اتحاف أعلام الناس ج 4 ص 248—254 ، مع « فواصل الجمان» ص 63 — 70 ، واجرى المصدر الاخير ذكره — ايضا — ص 168 .

واثناء ثورة الجيلاني الزرهوني (بوحمارة) عقب موقعة «سهل بوعبان» حمى الوطيس بين المنبهي ورفاقه الوزراء بانواع الانتقادات ، فطلب وزير الحربية والبحرية السفر لاداءفريضة الحج،وبارحالمغربفى رمضان عام 1321 هـ / « 1903 م » ، واذ ذاك خلفه في منصبه محمد بن محمد الجباص (12) «السفياني ثم الفاسي» .

هؤلاء هم الوزراء الذين سيروا المغرب فى الفترة الممتدة من وفاة الصدر أباحماد حتى نهاية الدولة العزيزية ، وميضاف الى لائحة الوزراء اسم قائد المشور ابن يعيش : ادريس بن القائد الحاج محمد البخاري ، وكان له دور فى بعض مشاكل هذه الفترة (13)

اما مقر الدولة فى الفترة ذاتها فكان — اولا — بمدينة مراكش ، ثم انتقل السلطان العزيز منها الى فاس ، وبارح عاصمة الجنوب اواسط رجب عام 1319 هـ / « 1901 م » ، واجتاز بمدينة الرباط ، حيث استمر بها الى ما بعد انصرام شهر رمضان ، ثم تابع الرحلة عبر طريق بني حسن فزرهون ، ووصل الى فاس اوائل ذي الحجة من العام نفسه (14)، الموافق سنة 1902 ، وقد حالت ثورة بوحمارة دون رجوع السلطان الى مراكش ، واستمر بفاس الى قيام الانتفاضة الحفيظية .

---

12 — المذكرات الحجوية الاولى ، وتوفى الجباص — بمدينة الجديدة — عام 1352 هـ / 1934 م ، وله ترجمة وجيزة عند محمد الحجوي فى فهرسه : « مختصر العروة الوثقى » المنشور بمطبعة الثقافة بسلا ، ص 17 .

13 — انظر كتاب « المسألة المغربية » تأليف محمد خير فارس،مطبعة نهضة مصر بالقاهرة ، ص 165 ، 248 ، وتوفى ابن يعيش — بالرباط — عام 1326 هـ ، حسب محمد دنية فى «مجالس الانبساط » مخطوط الخزانة الملكية 779 ، ج 2 ص 163.

14 — الحلل البهية ، مع المذكرات الحجوية الاولى .

ومن الجدير بالملاحظة ان المسؤولين فى هذه الفترة وجدوا امامهم – مع مر الزمن – مشاكل داخلية ، وهى قليلة بالنسبة الى المشاكل الخارجية التى بلبلت افكارهم (15) .

وقد صور واقع المغرب فى مبادىء هذه الفترة ثلاثة من المؤرخين المغاربة (16) ، ونجتزي بذكر ارتسامات أحدهم ، وهكذا يقول السليمانى (17) : (وبالجملة فبموت الحاجب أحمد بن موسى عمت الفوضى سائر البلاد ، وطغى حاضرها والباد ، ووقع الانقلاب المحسوس فى هياة الحكومة)) .

وعن ابعاد ثورة بوحمارة يقول محمد الحجوي (18) اثر ذكر عام 1320 ه : ((وفى هذه السنة بدا انقلاب الاحوال بالمغرب بثورة أبى حمارة ، التى سببت فقر مالية المغرب ، والسلف الاوربى ، ثم سقوط المالية بيد ادارة السلف ، وفناء حماة المغرب وابطاله فى الحروب الداخلية، وقد اختل النظام ، وضاع الامن ، وفسدت الاخلاق ، وضاعت الفضيلة والامانة .))

وقد تسلسلت احداث هذه الفترة كالتالى :

– مأساة الواحات المغربية .

– ماساة الحدود المغربية : الشرقية ثم الجنوبية

– حدة الحاح اوربا لاجراء الاصلاحات بالمغرب حسب مخططاتها.

---

15 – المذكرات الحجوية الاولى .
16 – اثنان منهم هما : المشرف فى الحلل البهية ، وابن زيدان فى ((اتحاف اعلام الناس)) ، ج 1 ص 396 .
17 – اللسان المعرب . عن تهافت المعمرين حول المغرب ، مخطوط الخزانة الملكية رقم 297 – الجزء الاول .
18 – الفكر السامى ج 4 ص 205 .

ـ ثورة المغرب الشرقـي بقيادة بوحمارة .

سياسة القروض الاجنبية .

ـ الاتفاقات الاجنبية الثنائية .

ـ مقترحات فرنسا الاصلاحية .

ـ مؤتمر الجزيرة الخضراء .

ـ ثورة الشريف الريسونـي

ـ احتلال وجدة والبيضاء .

ـ البيعة الحفيظية وما تلاها من أحداث حتى اعلان الحماية .

وليس من موضوعنا تحليل هذه الاحداث ، ويهمنا ـ فقط ـ ان نستخلص ـ من ماجريات بعضها ـ ملامح يقظة المغرب فى مطالع القرن العشرين ، حتى نستجلـى معطياتها على بعض المستويات الشعبيـة او فى سياسة الحكومة .

وقد استبد بتفكير المعنيين بالامر فى هذه الفترة قضايا الواحات والحدود . ومشاريع الاصلاحات ، وعلى هذا الترتيب سنعرض ـ فى هذا المدخل ـ الملامح الاولى للمشاكل الثلاثة :

* * *

ونذكر ـ اولا ـ أن الواحات المعنية بالامر تشمل فجيج ووادي الساورة ، واقليم توات بما فيه كرارة وتيدكلت وما اليهما .

وقد كانت قضية الواحاب اول مشكلة واجهـت المسؤولين فى هذه المرحلة ، حيث وجدوا الفرنسيين اتموا احتلال اقليم توات ، وشرعوا فى الاستيلاء على واحة فجيج .

ولمواجهة هذا الوضع سلك المسؤولون الطرق الديبلوماسية ، ورفضوا — بتاتا — تحركات المواجهات العسكرية ، استنادا لاوضاع المغرب المتخلفة أمام قوة ىالمتغلب ، « انظر الملحق رقم 1 » ، وقد سارت سياسة الحكومة السلمية فى مرحلتين :

الاولى : على عهد وزارة الحاج المختار .

والثانية : فى فترة وزارة المفضل غريط .

* * *

وكانت الوزارة الاولى تحاول — فى قضية توات — ان تسير فى خط سياسة الوزير المتوفـــى : احمد بن موســـى ، حيث كان هذا الاخير بعث الى طنجة مندوبا عن الحكومة ، للاسترعاء لدى ممثلى الدول ضـــد تصرفات فرنسا فى اقليم توات ، وكان وكان احتلالها — اذ ذاك — لا يزال فى بدايـــتـــه (19) .

وقد أعاد النائب محمد الطريس نفس المحاولة على عهد الوزارة الاولى ، وكتب الى نوا بالدول بطنجة باحتجاج المغرب ضد عمل فرنسا فى منطقة توات : حسب اشارة سجلتها رسالة ملكية الى نفس النائب ، بتاريخ فاتح ربيع الثانـــى عام 1318 هـ / « 1900 م » ، حسب الملحق رقـــم 2 .

وسوى هذا فكر الوزير الحاج المختار فى اثارة قضية توات علـــى مستوى سفارتين مغربيتين الى الخارج ، وفى هذا الصدد ورد فى رسالة من نفس الوزير الى النائب الطريس ، بتاريخ 29 ربـــيع الثانـــى عام 1318 هـ / (1900 م » .

« — فانى استشير معك فى تعيين سفيرين معتبرين ، من طرف مولانا — نصره الله — لجنس النجليز والبروسيا او غيرهما مما تشير به

---

19 — انظر الحلل البهية ، مع المذكرات الحجوية الاولى .

علينا ، برفع أمر قضية توات والكلام فيها حينما تعلمنا به ، نحبك تجعل هذا من مهماتك ، وتجيبنى — سرا — صحبة هذا الرقاص ولا بد ..» : الملحق رقم 3 .

ومن المؤكد ان هذه المحاولة لم تتحقق فى هذه المرحلة ، وسنرى — وشيكا — ان السفارات انما ذهبت لاوربا على عهد الوزارة الثانية .

* * *

وعن موقف الوزارة الاولى فى موضوع تتميم خط الحدود الشرقية، كان السلطان العزيز كتب رسالة شخصية الى المملكة الانجليزية فيكتوريا سنة 1900 ، وطلب من الوزير البريطانى المفوض بالمغرب ، أن يسلمها — مباشرة — الى الملكة نفسها .

وقد اقترح سلطان المغرب فى هذه الرسالة على الملكة ، أن تقنع الحكومة الفرنسية بوجوب تعيين الحد النهائى بين المغرب والجزائر ، بحيث تتعهد فرنسا أن لا تتعداه .

ووصل طلب السلطان الى الحكومة الفرنسية ، وأكد ديلكاسيه وزير خارجيتها للسفير البريطانى ، بان حكومته لا تنوي مهاجمة المغرب، ونفى كل الاشاعات حول خطط سرية او غير قانونية (20) .

بيد ان مجرى الاحداث — سواء فى الحدود الشرقية او بمنطقة توات — اسفر عن عدم جدوى الرسالة الملكية والمحاولات الوزيرية ، فلذلك قامت الوزارة الثانية — التى يتراسها غريط — بمساعى جديدة فى هذا الصدد ، وقررت اثارة قضية توات واتمام خط الحدود على نطاق دولى .

---

20 — تاريخ المغرب فى القرن العشرين ، تأليف روم لاندو . تعريب د. نقولا زيادة ... نشر دار الكتاب بالدار البيضاء ، ص 71 — 72 .

ومن هنا فان الوزارة الغريطية هيأت ـ لهذا الغرض ـ سفارتين، الى أوربا خلال عام 1319 هـ / 1901 م ، حيث كان السلطان لا يزال بمراكش ، ومن هذه المدينة توجهت السفارة الاولى الى لندرة وبرلين ، وكان على رأسها المنبهي، وزير الحربية والبحرية، وذهبت السفارة الثانية الى باريس وبطرسبورغ ، برئاسة ابن سليمان ، وزير الخارجية (21) .

وقد فشلت السفارة الاولى سواء فى لندرة او برلين ، فيما يتعلق بالموضوعات السياسية التى كانت تهدف الى اثارتها ، وانما تلقت توجيهات من انجلترا للمحافظة على استقلال المغرب ، ومنها اصلاح الطرق ، واجراء العدل ، ونشر الامن ، وفتح المراسى لتوسق والاتجار، واصلاح أحوال السجون ، وتجنب التبذير (22).

وبالنسبة الى السفارة الثانية فانها لم تنجح فى آثارة أي من موضوعي مهمتها ، وفى فرنسا رفض وزير خارجيتها مناقشة نقطة الواحات ، كما ظل متمسكا بسياسة عدم تتميم خط الحدود (23)، والح نفس الوزير فى شأن التنظيمات ودخول الاصلاحات للمغرب .

ولسوء الحظ فان السفارة الباريسية تورطت فى توقيع وفق 20 يونيه سنة 1901 م / 3 ربيع الثانى 1319 هـ ، وهو الذي انعقد ـ فى باريس ـ بين وزير خارجية المغرب عبد الكريم ابن سليمان ، ووزير خارجية فرنسا ديلكاسى ، ثم تلاه الوفق التطبيقى للمعاهدة الاولى

---

21 ـ الحلل البهية والمذكرات الحجوية الاولى ، ويلعق كاتب هذه المذكرات على سفارة ابن سليمان قائلا : « واما قول صاحب اتحاف اعلام الناس : انه توجه سفيرا الى المانيا ـ ايضا ـ فهو محض غلط ، والذي توجه لالمانيا هو المنبهى مع وفده مستقلا » .

22 ـ الحلل البهية ، مع المسألة المغربية ص 144 ، 124 ـ 214 .

23ـ المسألة المغربية ص 145 .

بتاريخ 20 ابريل 1902 م / 12 محرم 1320 هـ ، وكان انعقد بالجزائر بين محمد الجباص الكاتب الاول لوزارة الحربية آنـذاك والـجـنـرال كوشـمـيـر (24) .

ومن هنا تسنى لفرنسا أن تدعـي اعتراف ابن سليمان بشرعية وجودها في اقليم توات وبعض واحة فجيج ، انطلاقا من معاهدة باريس، وشجعت هذه الوثيقة نفس الدولة لتقوم — من جديد — بالاستيلاء على جهات لم تكن محتلة من قبل ، ومنها القنادسة ، ومنطقة اولاد جرير وذوي منيع ، وبشار ، وقصر بنى ونيف بفجيج (25) .

وسيأتـي رد الفعل الاول ضد وفق باريس من جهة بعض اعضاء الحكومة المغربية نفسها ، وهكذا صار كل من رئيس الوزارة غريط وقائد المشور ابن يعيش ، يحملان هذه المعاهدة تبعة الاخطار التى حاقـت بالمغرب من بعد (26) ، مما سنرى له رد فعل شعبي عنيف .

* * *

والآن يصل بنا المطاف الى موضوع الاصـلاحـات ، وقد كانت تستهدف — في الاكثر — المجال العسكرى ، واعداد طائفة من الموظفين والمترجمين ، وهى السياسة التى نهجها كل من العاهلين : محمد الرابع وابنه الحسن الاول ، وبعد وفاة هذا الاخير استبد بالدولة الصدر ابا أحماد ، فجمد — تقريبا — سير هذه التجربة .

حتى اذا توفـي هذا الوزير اثيرت المسـالـة على مستـوى الاصلاحات الكبرى ، لتلج ميادين الادارة والتعليم والعدلية والاقتصاد

24 — انظر النص العربـي للوفقين معا في كناشة لمحمد الحجوي خ. ع. د 125 ، وفي كتاب المسألة المغربية وردت خـلاصة العقد الاول ص 145 — 147 ، بينما جاءت خلاصة العقد الثانـي ص 149 — 152 .

25 — المذكرات الحجوية الاولى .

26 — المسألة المغربيـة ص 248 .

والاشغال العمومية وما الى ذلك ، وتبنــى هذا الاتجاه ـ من داخل المغرب ـ بعض اعضاء الحكومة الغريطية وبعض كبار الموظفين والتجار.

وهكذا يتبين ان المغرب ـ مع مطلع القرن العشرين ـ بدأ يحاول توجيه الاصلاحات وجهة جديدة تساير التنظيمات الحديثة ، وهو الطابع الرئيسى الذي يميز هذه الفترة ع نسابقتهــا ، ومن طبيعة مثل هــذه المرحلة فى حياة الامم أن تكون مجالا لاقتراحات تنظيمية ، ومحاولات على مستوى الحكومة .

وبهذا سنواجه نقطتين رئيسيتين :

ـ مشروعات تنظيمية

ـ محاولات اصلاحية حكومية

ومن خلال سير النقطتين معا نلمس بعض مظاهر اليقظة المغربية، فى الفترة الواقعة بين وفاة الوزير ابا احماد حتى نهاية الدولة العزيزية .

كما سنواجه ـ فى الحقبة ذاتها ـ معطيات أخرى لهذه اليقظة، تجسمها بعض طبقات الشعب فى مواقفها فى قضايا الواحات والحــدود والاصلاحــات .

يضاف لذلك عرض بعض النماذج من تجاوب المغرب مع الشرق فى اطار البعث الاسلامى الجــديد .

فهى اربعة مواضيع سيتدرج عرضها حسب المرحلتين المشار لهما سلفا : الاولى : من عام 1318 هـ / 1900 م، الى أواخر عام 1322 هـ / 1905 م .

ومن هذا التاريخ الاخير تبدا المرحلة الثانية لتنتــهــى عــام 1325 هـ / 1908 م. وقبل ان تاخذ فى تفاصيل المرحلة الاولى ، نذيل ـ هنا ـ بالملحقات الثلاثة المحال عليها :

الملحـــق 1

رسالة من القائد المدني المزواري الى السلطان العزيز :

بعد تقبيل حاشية بساط سيدنا ومولانا الشريف ، واداء مـــا يناسب المقام العالى بالله من التعظيم والتشريف .

ينهى لشريف علم سيـــدنا أيد الله امره ورفع قدره ، ان كتـــاب مولانا ـ أسماه الله ـ وصلنا مضمنه ، فبعد ما أطلعنا علم مولانا الشريف بالطائفة من الفرسان التى وجهناها لرد اخوانهم ايت عطه وبنى محمد الذين توجهوا لناحية توات ، واصدر لنا مولانا جوابه الشريف عن ذلك فى غيره بما فيه كفايـــة .

تجددت اخبار متواترة بالوقعة الشنعاء التى وقعت بتيميمون من طرف بلاد توات بين آيت عطه وبنى محمد مع النصارى ، وحيث لم يرد اعلام منا بشيء مما ذكر للاعتاب الشريفة ، طير لنا سيدنا ومولانا الكتب بما بلغ لحضرته العالية بالله لنعجل بشرح الواقع ، وبما آل اليه الامر فى ذلك ، ونقوم على ساق الجد فى رد من عسى أن يتشوف لشيء من هذا التدهور الذي لا يجر الا العطب ، ونجعل ذلك ـ سيدي ـ مـــن اهم المهمات ، حتى يظهر من سيدنا ما يكون عليه العمل .

فلينه لشريف علم سيدنا متعنا الله بطول حياته ، اننا بنفس مجرد سماعنا هذه الواقعة ، طيرنا الاعلام لسيدنا المنصور باللـــه بما تحـــقق لدينا فى ذلك ، ووجهنا المكاتب صحبة المخزنيين اللذين كانا توجها لـــرد المذكورين ، بقصد الاعلام بما شاهداه مشافهة .

وهذا ما وجب به اعلام سيدنا ، وعلى الخدمة والسمع والطاعة والســـــلام .

فى 10 حجة متم عام 1318

الخديم المدني عبد الله المزواري آمنه الله

من وثائق وزارة الخارجية المغربية

الملحق 2

رسالة من السلطان العزيز الى القائد عبد الله ابن سعيد :

خديما الارضى : القائد عبد الله ابن سعيد ، وفقك الله ، وسلام عليه ورحمة الله .

وبعد : وصل جواب خديمنا الحاج محمد الطريس مطويا على ما اجاب به رئيس الدولة الجمهورية الفرنصوية ، عن الحوادث التى اوقعتها جنود الايالة الجزائرية بقصور القطر التواتي وما والاه بما تضمن عدم الانصاف ، وعلى نسخة مما كتب به النائب المذكور لنواب الاجناس بقصد رفع ذلك لدولهم ، وصار الكل بالبال ، لكن اعلامه بما ذكر تقدم قبل التاريخ بأربعين يوما ، ولا زال لم يظهر منه اعلام بمثال الامر فيما كتب به للنواب .

والحالة ان الاخبار قد تكاثرت بكون الجنود الجزائرية لم تقف حتى عند مقتضى الجواب الوارد من رئيس الجمهورية الفرانصوية ، بل لا زال انتشارها بناحية الصحراء فى الزيادة ، حتى انهم صاروا يوجهون السرايا للتحويم على قبائل تافلالت ثم يرجعون ، وهذا عين التهديد على داخل الايالة البعيدة عن نقط الحدود ، بل هو صريح السعى فى اسباب ترويع القبائل المذكورة ، واستنهاضها للدفاع عن انفسهم ومحارمهم ، ليرتب الخصم على ذلك ما يرتبه من ادعاء هجوم القبائل الغربية عليهم ، الى غير ذلك من المقاصد التى لا تخفى ، وكيف يمكن مع هذه الحالة دوام كف اولئك القبائل عن مقابلة المهاجمين عليهم، او تثبيطهم عن بواعث الغيرة على ارضهم وبلادهم .

وحيث كان الانتظار لمثال ما كتب به هذا الخديم للنواب — والحالة على ما هو عليه من ضيف النطاق عن السكوت لتزايد امتداد يد الترامى ، وتكاثر التظاهر بما هو فى معنى التهديد على قبائل تافلالت — تعين تطيير الكتب لكم بما ذكر ، لتعجلوا بالاعلام بمثال كلام الدول فى الموضوع ، وبما تستروحونه من بعض الجوانب على وجه السر فيما يرجع لنتيجة المثال ، ليكون المخزن على بال ، لان انقطاع الخبر فى هذه

المدة كلها يورد على الفكر كثيرا من التوقعات ، ولا اقل فى مثل هذا الموضوع من تعاهد الكتب بالمسموع - رسميا او سريا - ولو مرة فى الجمعة .

وأما ما أجاب به رئيس الجمهورية ، فانه وان كانت الفاظه كلها خارجة عن طريق الانصاف ، فلا بد من امعانكم النظر فيه هل يناسب اصدار جواب عنه ام لا ؟

وقد امرنا الخديم المذكور بأن تحضر لديه - انت - والخديم الطالب بناصر غنام ، وكذلك الطالب عبد السلام أحرضان ان اقتضته المصلحة ، لتتفهموه مع ما يتعلق به من المكاتيب ونسخ الحجج التى عندكم فى هذا الشأن ، وتتفاوضوا فى ذلك ، وان ترجح عندكم مناسبة اصدار جواب عنه فبينوا كيفية المنوال المناسب الذي يجتمع عليه رأيكم فى هذا الجواب، او غيره من الوجوه الموصلة لكف يد الترامي ، والتوافق بين الجانبين على تتميم المحاددة بين الايالتين من جميع الجهات كلها ، وعقد شروط فى ذلك بما أمكن ، ولو بجعل سداد مناسب خفيف ارتكابا لاخف الضررين ، وحتى ان لم تكن عندك نسخة من تعريب جواب البريزدان ، فها هى تصلك بطيه .

وها نحن فى انتظار جوابكم بمثال كلام الدول ، وبما حررتموه فيما يوصل لاتمام المحاددة مع الخصم ، وتسكين الترويع الواقع فى الرعية ، لننظر فى ذلك ، ويظهر ما يتعين الاقدام عليه ، والله غالب على أمره .

وقد كتبنا للامين الطالب بناصر غنام بمضمنه ، والسلام ، فى فاتح ربيع الثانى عام 1318 .

من وثائق آل ابن سعيد بسلا بمبادرة الحلاحل الهمام السيد الحاج العربى بنسعيد .

الملحق 3

رسالة من الوزير الصدر الحاج المختار الى النائب الطريس :

محبنا الاعز الارضى ، النائب السيد الحاج محمد الطريس رعاك الله ، وسلام عليك ورحمة الله ، عن خير مولانا أيده الله .

وبعد فانى استشير معك فى تعيين سفيرين معتبرين من طرف مولانا نصره الله لجنس النجليز والبروسيا أو غيرهما مما تشير به علينا، برفع أمر قضية توات والكلام فيها حين ما تعلمنا به ، نحبك تجعل هذا من مهماتك ، وتجيبني ـ سرا ـ صحبة هذا الرقاص ولا بد .

وعلى المحبة والسلام ، فى 29 ربيع الثانى عام 1318

المختار بن عبد الله لطف الله به

من وثائق الطريس بالمكتبة العامة بتطوان .
محفظة 106/35.

الرباط — محمد المنونى

الوضع المالي لولاة مصر

من 1517 إلى 1798م

ـ2ـ

د. فؤاد محمد الماوي

ومن ناحية أخرى لم يكن هذا المنصب (تكليفا) من السلطان او الباب العالــى للقيام (بواجب مفروض) على بعض اعضاء فئة الباشات مــن الوزراء ، وبالتالــى لا يمكنهم التخلى عن تأديته ، بل انه ـــ كما سبق ان رأينا ـــ كان محط اطماع هؤلاء الوزراء بحيث ان من (يختار للتعيين) فيه ولا تكمنه ثروته من دفع (تأمين) ريعه (مقدما) كان يضطر للاستدانة حتى (يعين) بصفة نهائية (لمدة) محددة .

أما من ناحية الشك فى دلالة أرقام (السجلات الرسمية) التى اوضحت ان المصروفات المترتبة على التزامات المنصب كانت (رسميا) لا تتناسب مع أرقام المصادر المختلفة (لدخل) الولاة ، مما ترتب عليه القول بأنه مــن الصعب ان يكون منصب الوالى مربحا ، فلا يملك الدارس ـــ بعــد اخضاعها لشتــى الوان النقد ـــ الا ان يصدقها كسجلات محايدة تذكر (ارقاما رسمية صماء) ، لا مصلحة فيها لاحد حتى تثير الريبة او الشك .

غير أنها ليست مطالبة فى حدودها تلك الا بما أعطته فعلا ، وهو جزء من الحقيقة . أما الاستنتاج المترتب عليها وهو أن منصب الوالى من الصعب القول بأنه كان مربحا من الناحية المالية ، فهذا ما اثار السؤال المطروح بافتراضاته المختلفة التى ناقشناها ، وبقى منها الافتراض الاخير يلح فى نقاش ودراسة الموارد (غير الرسمية) للدخل المالى للولاة .

اذا كانت السجلات العثمانية والمصرية قد ذكرت ارقام الموارد (الرسمية) لدخل الولاة ، وقامت (بتنقيطها) سنة بعد سنة ، فان دراسة لموارد دخل الولاة (غير الرسمية) لم تظهر فيما نعلم حتى الآن ، رغم أنها تكون مع ما ذكرنا فى الصفحات السابقة من هذا المقال ، الوجه الكامل للوضع المالى لولاة مصر العثمانيين . غير ان الزعم بان دراسة تدعمها الارقام والاحصائيات لمثل هذا المصدر لدخل الولاة ، تحول دون تحقيقه صعوبات ، يتأتى فى مقدمتها انه باعتباره موردا (غير رسمى) فكان (غير قانونى) ، ولانه مرة أخرى غير رسمى وغير قانونى فلم يخضع لعملية (تسجيل) منظمة ودقيقة لارقامه ، ولهذا تعرضت المعلومات الخاصة بهذا المورد اما للتغاضى عنها أحيانا ، واما للتقليل أحيانا أخرى من تقدير قيمتها . وما يمكن الحصول عليه من معلومات خاصة بهذا المصدر مبعثرة فى الحوليات المخطوطة المعاصرة التى كتبها مؤرخون مصريون معاصرون ، ولم تنشر وتحقق حتى الآن (92) .

ومع هذا ، ففى هذه الحوليات المخطوطة مادة غنية قد تكفى لالقاء الضوء على هذا المورد من موارد الدخل المالى والعينى (غير الرسمى) للولاة والذي لم يظهر له أي تسجيلات فى الوثائق والدفاتر المالية العثمانية والمصرية . وبعض منابع هذا المورد تاتى من عدة روافد يمكن تتبع مجراها الذي يتجمع فى النهاية لياخذ الاشكال التالية :

أ ــ **الرشوة** : كانت الرشوة مصدرا هاما من مصادر الدخل (غير الرسمى) لولاة مصر ، حيث انها كانت فيما يبدو شيئا متواتر الحدوث ،

(92
Holt. P.M., Ottoman Egypt (1517-1798) : an account of Arabic historical sources, (Political and Social change in Modern Egypt). London, 1968, PP. 3-12

يتوقعه كل من الوالي القادم الى مصر ، كما يتوقعه الموظفون المرؤوسون له ، خصوصا اثناء القرن 10 هـ/16 م والقرن 11 هـ/17 م، (93) ، حتى ان محمود باشا (تولى اول شوال سنة 973 هـ ، الى 14 جماد اول سنة 975 هـ) (94) بمجرد وصوله الى مصر (95) (صلب القاضي يوسف العبادي ، كاتب الزردخانة ، وكاتب الجوالى ، وكان من أعيان مصر ، ذا جاه وتجمل) . وسبب ذلك ان محمود باشا حينما قدم الى مصر ، توجه الى اليمن ، أهداه غالب كبرآ (كذا) مصر الا هذا ، فلم يلتفت الى محمود باشا المذكور ، فأخذ فى خاطره منه) . اما الولاة الذين كانوا يشذون عن قاعدة هذا السلوك المتواتر فى رفض الرشوة ، فكانت الحوليات المصرية المعاصرة تسجل لهم هذا السلوك كمنقبة حسنة ، (96) فمسيح باشا الخادم من ناحية (97) (أمر الرشوة فما كان يقبل منها شيئا ، لا جليلا ولا حقيرا ، ولهذا عمرت مصر فى ايام دولته) . كذلك يصادفنا والى يدعى على(98) باشا الخادم (99) (كان من اهل الدين والخير والصلاح ، لا يعرف الكذب ولا اكل الرشوة)، ويحتمل ان هذا كان السبب فى انه (100) (لما مات بمصر وجد خلفه سبعة دنانير لا زائد عليها ، ومن الملبوس نحو خمسة عشر قطعة) . غير امثال هؤلاء الولاة لا تعثر بسهولة طوال القرن السادس عشر على من يكرر سيرهم ومناقبهم من الولاة ، بل تجد العديد ممن (101) (جعل الرشوة شعاره ، والظلم دثاره ، مع عدم

---

93) راجع قانون نامه مصر ، ورقة 41 ب ، وراجع ابن اياس ، سابق ذكره ، ج 5 ، ص 311 ، وراجع الخلاق سابق ذكره ، ورقة 37 م ، 39 أ ، وراجع اوليا جلبى ، سابق ذكره ، ج 10 ، ص 443 ، 447 — 9 ، وراجع P. 214 و Marcel op. Cit,

94) نظرا لاختلاف تواريخ الايام ، واحيانا الشهور ، بل قد تبلغ السنوات الخاصة بالتولية والعزل للولاة العثمانيين بين الحوليات المصرية المخطوطة المعاصرة فسوف أترك التاريخ الهجرى كما ورد فيها دون أن اضع بجانبه التاريخ الميلادى ، أينما ورد فى تلك الحوليات.

95) راجع ابن ابى السرور البكرى السابق ذكره ص 58 .

96) تولى اول شوال 982 — 15 جمادى الاولى 988) راجع ابن أبى السرور ، سابق ، ورقة 64 .

97) ابن أبى السرور ، سابق ، ورقة 64 .

98 — 99 — 103 — 104) راجع ابن ابى السرور ، سابق ، ورقة 56 ، وقد تولى فى أول شعبان 966 — الى 3 محرم 967) .

100) احمد جلبى ، سابق ، 6 ب ، وابن ابى السرور ، سابق ، ورقة 56

101) هو مصطفى شاهين باشا (تولى 7 الحجة 967 — الى 11 جمادى الاخرى 971) راجع ابن ابى السرور ، ورقة 57

انصافه للرعايا) وتجد أيضا من كان (102) (محبا للدنيا ، جماعا للاموال، اظهـــر الرشوة) .

والظاهر ان من رفضوا الرشوة من الولاة العثمانيين ، كان رفضهم لها ينبع من عمق احساسهم بالضمير الدينى والاخلاقـــى ، وليس منبعه روادع نص عليها القانون . فقد كان على (103) باشا الخادم (104) (من أهل الدين والخير والصلاح، لا يعرف الكذب)، ويؤكد هذا ان الوزير(105) أيوب باشا (كان صوفى المـــزاج) ، وحين عزل وذهـــب الى الـــديـــار الـــروميـــة (106) (نزل عن الوزارة ، وخرج عن جميع ما يملك لحضرة السلطان ، وعمل درويشا ، وجلس فى زاوية بالديار الرومية ، الى أن توفى) . وندرة الولاة الذين نصادف صفحات تاريخهم خالية من تقبل الرشوة تعنى ان الضمير الدينـــى والاخلاقـــى لدى باقى هؤلاء الولاة الـــذيـــن يشكلون الاغلبية كاد أن يكون منعدما .

وكانت الرشوة تقدم على شكل هدايا فى المناسبات التى غالبـــا ما كان الولاة يبتكرونها ابتكارا ، فحسن باشا (27 رمضان 1029 — 19 ربيع اول 1031 هـ) عمل فرحا لاولاده (107) (فدخل له من التقادم « أي الهدايا » فى هذا الفرح ما يحير الافكار ، من رخوت مرصعة ، وخيل ، وسكر ، واقمشة ، ودراهم ، ولم يقبل من أحد من ارباب الدولة فى هذا الفرح من السمن ، ولا العسل ، ولا الاغنام ، فكل من أحضر له شىء من ذلك ، يرده ، ويأخذ عوضه مما ذكر أعلاه) . أما محمود باشا السابـــق ذكره فحينما قدم الى مصر «108) (أتت اليه الناس بالهدايا ، وانواع الخيول ، والتحف والاقمشة ، منذ دخوله الاسكندرية . فلما وصل الى مدينة مصر ، قدم اليه صاحب الصعيد ، الامير محمد بن عمر ، بسفينة كبيرة مشحونة بأنواع الهدايا ، والتحف ، وخمسين الف دينار ، فبمجرد ما وصل أمر بصلبه ، واخذ جميع ما أتى به ، وأرسل ختم على حواصله) .

---

102) هو حسن باشا الخادم (تولى 6 جمادى اول 988 ـ ربيع أول 991) راجع ابن أبي السرور ، سابق ، ورقة 64 ، وأحمد جلبى ، سابق ، ص 7 ب

105 — 106) ابن أبى السرور ، سابق ، ص 177 ، 178 .

107) راجع ابن أبى السرور ، سابق ورقة 95 .

108) راجع ابن أبى السرور ، سابق ، ورقة 58 .

ويصرب اولياجلبى أمثلة لما كان يحدث خلال القرن 11 هـ/17 م اثناء حياته (توفــى 1679 م) من تقديم حاكم جرجا ، وامير الحـــج ، الرشا والهدايا لوالى مصر «(109) غير ان تلك الهدايا والرشا قد قل مقدارها فى اثناء القرن 12 هـ/18 م. لما انتاب الولاة من ضعف ، وتقلص فى نفوذهم ، حيث صار ميزان القوى السياسية لا يميل لصالحهم بازدياد نفوذ بكوات المماليك .

ب ــ **التلاعب فى قيمة العملة** : بالاضافة الى دخل الولاة من الرشا كان لهم أيضا دخول اخرى غير مشروعة ، اذ كثيرا ما كان يتلاعب الولاة فى العملة ، بالتآمر مع ملتزمى وأمناء دار سك النقود (الضربخانة) ، وذلك اما بخلطها بمعادن أقل قيمة عن تلك التى حددها القانون ، واما بانقاص وزنها ، فتتغير قيمتها ، ويقتسمون الفروق التى يحصلون عــلـــيها من المكاسب الناتجة عن تلك العمليات (110) . فعلى باشا الصوفى الخادم المعروف بكيلون «تولى 971ـــ973) هو (111) (اول من اوقع العباد فى المعاملة ، لانه أمر دار الدرب (كذا بالنص) بالمقاطعة تحت خلط النحاس الزايد على القانون . وصار أمنا (كذا بالنص) دار الضرب يخلطون فى المائة درهم ثلاثين درهما نحاسا ، فثقل الامر ، وقامت الرعايا) . أما الوزير أحمد باشا (تولى 22 رمضان 1042 ــ عزل فى 15 جـــمــــادى الاولـــى 1045 هـ) فقد جمع أرباب الصنايع وأمرهم بضرب النحاس نقود (112) (فشرعوا فى ضرب النحاس ، كل درهم نحاس بجديد ، بناقص عن المعاملة الاولى درهم لانها كانت كل درهمين بجديد ، فخانت الـــنــــاس ، وغلت الاسعار ، وتعطلت المعايش) . أما الوزير ابراهيم باشا (13 محرم 1081 3 رجب 1083) فقد حدث ان (113) (فى أيامه تغيرت معاملة مصر ، وسبب ذلك أن ابراهيم باشا استصحب معه جانبا من الفضة الصغرى

---

(109) راجع اولياجلبى ، سابق ، ج 10 ، ص 803 ، 804 ، 443 ، 445 .
(110) راجع اوليا جلبى ، سابق ، ج 10 ، ص 135 ، وراجع الخلاق ، سابق ، ورقة 165.
(111) أحمد جلبى ، سابق ، ورقة 6 ب . ويذكر ابن ابى السرور أن كيلون هذا (حضر معه جماعة من أهالى حلب ، فاستخدمهم فى خدمة قبض الدراهم ، ونقدها للخزينة العامرة ، واخذوا دار الضرب ، وجعلوا على كل مائة درهم من الفضة ثلاثين نصف زيادة، ولا زال يختل نظام المعاملة الى يومنا هذا) راجع ابن السرور ، سابق ، ورقة 57 .
(112) راجع ابن ابى السرور ، سابق ، ورقة 140 .
(113) راجع احمد جلبى ، سابق ذكره ، ورقة 25 أ .

(كذا بالنص) ، معاملة جريد (يقصد كريت) فقطعها فى مصر ، وجعلها معاملة ، فما مكثت شىء قليل حتى صارت صفرا (كذا بالنص) ، وامتنعت الناس عن المعاملة بها) . أما حسن باشا جنبلاط (20 شوال 1084 — 1087) فقد تآمر هو ومن لهم مصلحة من الملتزمين بدارسك العملة على ان (114) (نزلوا سعر الكلب الى ثلاثين فضة ، وكان بأربعين ، والريالى باثنين واربعين ، والشريفى المحمدي بخمسة وثمانين ، والبندقى بخمسة وتسعين ، واتفق الامر على ذلك ، وان الملتزمين يقبضون الكلب بثلاثين ، والريال بثلاثة وثلاثين ، والمحمدي بثمانين ، والبندقى بستين . فتوقفت البلد ، وعدمت الانصاف . ثم ان الباشا أمر اغا مستحفظان أن ينزل ويشق البلد فى كل اسبوع يوم) . كذلك نجد ان الوزير حسين باشا (17 رجب 1045 — 15 جمادى الاخرة 1047 هـ) كان (115) (لا يمضى شهر الا ويرمى عليهم ذهب ناقص ، ويأخذ فضة او فضة مقصوصة ، ويأخذ ذهب وازن ، وغير ذلك من هذا التبيل). غير ان الولاة لم يترك لهم طوال الفترة المدروسة هنا القيام بعمليات التلاعب فى العملة ، اذ انتزعها منهم المماليك فبعد ظهور على بك الكبير ، بعد عام 1769/1183 — 70 م، أجبر الولاة على تسليم دار الضرب كالتزام لشيخ البلد ، الذي استطاع ان يحدد ريع الولاة من هذا المصدر بجعلها كشوفية صغيرة لامين الجوالى (116).

جـ — مخالفة القوانين والاعراف — كان الولاة على استعداد للتغاضى عن احكام القانون ، وتخطى الاعراف ، وخرق العادات ، فى سبيل الحصول على الاموال ، ويكفى ان نورد هنا بعض الامثلة كشاهد على سلوك الولاة العثمانيين ، فموقف محمد باشا (28 رجب 1047 — 11 جمادى الاولى 1050 هـ) نجل احمد باشا ابن اخت السلطان سليم الثانى (1566 — 1574) من مسألة الاوقاف التى (117) (صار يخرجها لاتباعه ، ويأمر اتباعه باحضار المباشرين ، فيضعهم فى العرقانة (اي السجن) ويجعل على كل مباشر دراهم زيادة عن قدرته ، فلا يطلقه

---

114) راجع أحمد جلبى ، سابق ذكره ، ورقة 26 ب .
115) راجع ابن أبى السرور ، سابق ذكره ، ورقة 146 .
116) راجع Esteve, op. cit: p 122
وراجع Shaw, op. cit p. 324
117) راجع ابن أبى السرور ، سابق ذكره ، ورقة 151 .

حتى ياخذ منه ذلك ، حتى باعت المباشرين غالب جهاتها واملاكها ، وركبتهم الديون . والاوقاف لا يردها لاصحابها ، حتى يأخذ منهم قدر حقها المرة والمرتين ، فانا لله وانا اليه راجعون) . ولم يكتف هذا الوالى بذلك بل خالف أمر السلطان ، اذ عين صنجقين دفع له (118) (كل صنجق خمس عشر الف ذهب) . ولابتزاز الاموال اتخذ اجراءا غير قانونى ، بان (119) (عين شخص من اتباعه مع كاتب ، لضبط انوال القزازين ، فاحصى ما بمصر ، وانبابة ، والجيزة ، فكان ذلك سبعة عشر الف نول . فجعل على كل نول ثمانية أنصاف فضة وربع نصف ، منها برانـــى نصفين فضـــة وربع نصف ، والباقـــى لجانب الميري . فاعترض عليه ، فلم يفد . وعين ايضا شخص من جماعته للوجه البحري يضبط ذلك، والاخذ منه ، وللوجه القبلى كذلك) .

أما قبول الرشوة لكسر احكام القوانين فيطالعنا منها ما فعلـــه الوزير مصطفـــى باشا من اطلاق سراح محمد باشا ابن أحمد باشـــا السابق ذكره ، والذي كان قد سجن حتى يستوفى ما عليه مـــن اموال الديوان . وجاء اطلاق سراحه نتيجة لتقديمه رشوة لكتخدا مصطفى باشا ولكاتب ديوانه ، اذ انه (120) (ارشا كل واحد منهما بعشرة آلاف دينار). ولم يكف كتخذا هذا الوزير ولا كاتب ديوانه عن)121) (ظلم العباد ، واخذ الرشوة ، وبيع العلوفات ،... فاذا أخذ عشرة ، لم يعطوه منهـــا العشر) . كذلك نجد ان الوزير حسين باشا (122) (قد حجر على الرزق فصار كل من يطلع له ليغرج عن رزقه أو وقفة يأخذ مراسيمه ويأخذ ذلك له، فجمع من ذلك فوق الالفين فدانا، وجعلها على ملتزمى النواحى، بقطيعة الديوان ، ويكتبها على الملتزمين بحجة شرعية سنوات ، ويثبت ذل كعند قاضى الديوان ، ان ذلك أجرة المثل ، بغاية من الاحكام).

---

118) راجع ابن أبى السرور ، سابق ذكره ، ورقة 152 .
119) راجع ابن أبى السرور ، سابق ذكره ، ورقة 157 .
120) كان مصطفى باشا واليا على مصر من 10 جمادى الاولى 1050 — 7 رجب 1052 هـ ، راجع ابن أبى السرور ، سابق ذكره ، ورقة 160 .
121) راجع ابن أبى السرور ، سابق ذكره ، ورقة 160 .
122) كان حسين باشا واليا على مصر من 17 رجب 1045 — 15 جمادى الاخرة 1047 ، راجع ابن آبى السرور ، سابق ذكره ، ورقة 146 .

د ـ **الاغتيال والاوبئة والقتل** ـ لقد برع الولاة العثمـــانيين فى التحايل على جمع الاموال بكل الوسائل ، فاستخدموا القتل والاغتيال ، وحبك المؤامرات ضد من تبدو عليه مظاهر الثروة . فالوزير محمد باشـــا النشنجي قتل (شيخ البلد) اسماعيل بك لكي يستولى على ممتلكاته التي بيعت بشكل صورى ، لكى تذهب الى الخزينة ، الا انه اشترى منها ما يريده بابخس الاثمان (123) واغتال على باشا الازمرلى كذلك ، لكــى يصادر قصره الذي (صرف عليه جملة اكياس) (124) . أما فى حالات الموت الطبيعى فكثيرا ما كانت الاقطاعات تعود للمال الميري ، ولكن فى حالات الطاعون الذي كثيرا ما عم البلاد فى فترات متقاربة ، فكان ما يدخل للولاة من هذه الاقطاعات اموالا كثيرة ، ذلك لان عدد ضحايا الوباء يصبح كبيرا من ناحية ، ولان الاقطاعات تباع مرة بموت المنتفع الاول ، ثم يموت المنتفع الثاني ، ربما فى نفس فترة الطاعون،فتباع من جديد،ثم يحدث نفس الشيء فتباع للمرة الثالثة . ففى عهد ابراهيم باشا الوزير انتشر الطاعون (125) (فحصل للباشا شيء كثير من المحاليل ، وابيع بعض البلاد فى الديوان ثلاث مرار) . أما موسى باشا فقد (126) (قطع رأس رجل يقال له عبد الفتاح ، كان كاتب بثغر السويس ، فأخذ ماله ، وكان على ما يقال انــه يزيد على خمسة وسبعين كيسا ... ثم صلب شخصا ... ببيت الحسبة ، وأخذ من أمواله اربعة عشر كيسا .. وأن شخصا ... من ينجشرية الروم ، كان صاحب ثروة حصل له نو عمرض ، فأرسل اخذ ماله جميعا ، وهو يزيد على ما يقال على ثلاثين الف غرش ... ثم صار يتتبع عورات الناس بغاية الحيلة حتى يتوصل الى اخذ اموالهم) .

هـ ـ **الرمايا** : وهى نوع من الابتزاز لاموال الرعايا بأن يفرض عليهم شراء سلعة معينة ، ليس بهم حاجة اليها ، ويـــحـــدد لها البائع (الرامى) سعرا يرتضيه هو ثمنا لها ، بغض النظر عن قيمتها الاستعمالية، او قيمتها الحقيقية (127) وقد لجأ كثير من الولاة لطريقة الرمى هذه ،

---

123) راجع احمد جبلى ، سابق ذكره ، ورقة 139 ا .
124) راجع احمد جبلى ، سابق ذكره ، ورقة 189 ا .
125) راجع احمد جبلى ، سابق ذكره ، ورقة 25 ب .
126) راجع ابن أبى السرور ، سابق ذكره ، ورقة 124 .
127) اعتمدت فى (نحت) هذا التعريف للرمايا على المخطوطات العربية المعاصرة .

فمثلا : فى مدة ابراهيم باشا السلحدار (12 شعبان 1031 ـ 7 رمضان 1032) نجد انه قد (128) (حصل من اعوانه واتباعه اجحاف وطمع ، وخروج عن الحد فى الخدم التى يتوجهون اليها ، وتعبت الرعايا بسبب ذلك ، وان ابراهيم باشا رمى بضة على التجار ، ومشايخ الاسواق ، فحصل لهم خسارة فاحشة ، فشكوا امرهم اليه ، فلم يلتفت لشكواهم ، فتحرك عليه طائفة من اكابر الدولة) . كذلك نجد ان الوزير حسن باشا (17 رجب 1045 ـ 15 جمادى الاخرة 1047) قد جاء الى مصر (129) (وكان معه جماعة من الدروز فآذوا الناس غاية الاذية . ولما جاء آخر رمضان من السنة المذكورة نزلت سعاته ومعهم شمع سكندري ، فصاروا يرموا على كل دكان الشمعة والشمعتين ، ويقولوا لارباب الدكاكين ، كل انسان منكم يعطينا حلوان العيد ، خمس قروش ، فقفلت دكاكين مصر جميعا) اما عملية رمى النحاس التى قام بها احمد باشا (22 رمضان 1402-15 جمادى الاخري 1045 هـ) فقد (130) (شرع فى رمي النحاس . وعم البلا (كذا بالنص) الناس ولم يسلم من ذلك لا كبير ولا صغير ، حتى ارموا على ارباب الملاهى ، ومغسلين الاموات ، وحفارين الاموات ، واهل الغيطان ، وجميع اهل الاسواق ، والمراكبية . وكانت هذه من النوازل) .

تلك بعض (عينات) من مصادر الدخل (غير المشروع) للولاة ، وهى تمثل (حالات) تعددت صورها ، وابتكرت لها الحيل والاساليب الملتوية . ولا يندهش الدارس من الوقائع التى يرد ذكرها فى حوليات مؤرخى العصر حينما يكتشف ان الولاة كانوا يدعون الفقر ، ويحتالون فى انكار ما لديهم من اموال لكى يتهربوا من دفع متطلبات الخزينة . فعلى باشا الازمرلى (غرة الحجة ختام 1129 ـ قتل 14 ربيع الثانى 1133 هـ) الذي سجن هو وولده ، ومهر داره ، وكيخيته ، وكاتب ديوانه لم يعترف

---

128) راجع محمد عبد المعطى الاسحاقى ، اخبار الاول فيمن تصرف فى مصر من ارباب الدول ، القاهرة ، 1296 هـ ، ص 262 (ونشر بهامشه كتاب عبد الله الشرقاوى ، تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين)

129) ابن ابى السرور ، سابق ذكره ، ورقة 144 ـ 145 .

130) ابن ابى السرور ، سابق ذكره ، ورقة 141 ، وراجع احمد جلبى ، سابق ذكره ، ورقة 16 ا .

حتى الموت ، بما عليه للخزينة ، مدعيا الفقر . أما باقي السجناء فقد عذبوا حتى (131) (اقر الخازندار ان الباشا اودع عند شيخ الميلوانية ماية وخمسين كيسا ، كلها ذهبا ، فأرسل الباشا أتـى بها من عنده بختم الباشا) .
ولم يكتف احمد باشا الذي خلف الازمرلي في الولاية على مصر بهذا ، بل انه استطاع أن يستخلص من ابن الازمرلي الذي كان ما يزال مسجونا جزءا من المال الذي دخل طرف والده للخزينة المصرية وهو مبلغ (132) (أربعة آلاف واثنين وثلاثين كيسا ، فطلب الباشا خصومها ، ورجاعتها من ابنه ، فأعطاها له ، فارسلها الباشا الى الديار الرومية) . وكان الازمرلي قد هرب اموالة الى استانبول ، واتضح لنا ذلك من رسالة رجب باشا ، اذ (ارسل يقول للسلطان ان المال ارسله على باشا الى اخيه عندكم). ورغم ان رجب باشا نفسه رأى مصير الازمرلي هو القتل ، الا انه سلك نفس سلوكه ، هو والقاضي محمد افندي كتخدا زاده ، فقد (34) (فشوا في الظلم والاذية، وكيف أخذهما في جميع مال اسماعيل بيك ، وتفاريقه ، وخيله ، وارسالهم الى الاسكندرية ... وهذا أمر لا يعمل ولا في بلاد الكفار).

لم يكن اذن منصب الولاية على مصر غير مربح للولاة ، والا بماذا يفسر خروج (135) (ابراهيم باشا من القلعة بالاي من وسط القاهرة الى العادلية ، وعملوا حسابه ، فطلع عليه شيء قليل بالجبر ، ثم انه أعطاه لهم ، واعطا (كذا بالنص) كل وجاق خمسمائة محمدي بقشيش ... وطلع من مصر بسبعة عشر خزينة) ... أما خليل باشا (10 ربيع اول 1041 — 12 رمضان 1042) فقد قتل مرابـي يهودي . وكان بعض (أكابر مصر) لهم مال عند اليهودي ، فتشفعوا لليهودي عند الوزير لكي لا يقتله حتى لا تضيع عليهم أموالهم ، فقال لهم خليل باشا الوزير (136) (أنا الذي لكم عليه ، أزنه لكم من مالي ، فوزن لهم من ماله ، فوق الخمسة وعشرون ألف غرش

---

(131) راجع أحمد جلبي ، سابق ذكره ، ورقة 92 ب .
(132) راجع أحمد جلبي ، سابق ذكره ، ورقة 92 ب .
(133) راجع أحمد جلبي ، سابق ذكره ، ورقة 92 ب .
(134) راجع أحمد جلبي ، سابق ذكره ، ورقة 92 ب ، 94 ب .
(135) كان ابراهيم باشا واليا على مصر من 13 محرم 1081 — 3 رجب 1083) ، راجع أحمد جلبي ، سابق ، ورقة 26 أ .
(136) راجع ابن أبي السرور ، سابق ذكره ، ورقة 137 .

وقتله وأراح العباد منه) .

كذلك نجد ان الوزير مصطفى باشا (12 رمضان 1032 — 14 الحجة 1032 ، ثم ظل فى منصبه للمدة الثانية حتى 18 شعبان 1035 هـ) حين عزل وحضر خلفه بيرام باشا الذي (137) (رأى الخزينة تحتاج الى عشرين صندوقا ، فألزمه بها ، وان يسافر ، فاشتكى الفقر الزايد ، فلم يفد ذلك ، وشرع فى بيع اسبابه ، وخيله وبغاله ، وكل ذلك حيلة منه ، لان الاموال التى حصلها بمصر قد جاوزت الحد. ولم يزل به مولانا الوزير بيرام حتى وزن العشرين صندوقا). أما بيرام نفسه الذي خلف مصطفى باشا فى منصب الولاية ، فقد كان (138) (عارفا بأخذ اموال بغاية الدرية ، تابعا للتجارة ، بحيث انه اتجر فى مصر حتى فى الصابون) . وحينما عزل حوسب على أموال الخزينة (139) (وخرج من مصر فى موكب ما وقع لاحد غيره مثله ، بحيث كان أمامه أربعماية ملبس ، جميعا ملكا له) . ثم تعالى ننظر الى أحوال محمد باشا (14 جماد آخر 1031 — غرة رمضان 1031 هـ) الذي مكث فى هذا المنصب لمدة شهرين ونصف فقط ، ولكنه (40) (جمع فى هذه الايام من الاموال ما يعجز عن تحصيله غيره فى عام) .

بالرغم من ان حساب دخل الولاة من كل الموارد الرسمية وغير الرسمية ، والمنصرف من هذا الدخل فى كل الالتزامات المترتبة على المنصب قد امكن حسابهما ، الا ان ذلك يعطى نتيجة واحدة فى النهاية هى : مقدار ما يترتب على التعيين فى هذا المنصب من مكسب او خسارة . وبالرغم من أن الدراسة قد أوضحت فى هذه الحدود ، انه كان منصبا يدر ربحا ماليا لشاغله ، الا ان الولاة لم يكونوا أشخاصا يعيشون فى عزله تبعدهم عن أمور الحياة الت ىتجرى داخل المؤسسات الادارية والمصرية والمالية ، بل كانوا بحكم واجبات المنصب نفسه مسؤولين عن سير العمل فى هذه المؤسسات ، فرسم صورة تاريخية واضحة لاوضاع الولاة المالية ، لا يتم بالفصل بين وضعهم المالى بحساب مكاسبهم أو خسارتهم ، وبين ما كانت

---

137) راجع ابن ابى السرور ، سابق ذكره ، ورقة 103 .
138) راجع ابن ابى السرور ، 3سابق ذكره ، ورقة 120
139) راجع ابن ابى السرور ، سابق ذكره ، ورقة 120 .
140) راجع ابن ابى السرور ، سابق ذكره ، ورقة 97 .

تمليه عليهم التزامات المنصب من اعباء تنفيذهم لسياسة ادارية ومالية وعسكرية ، بل يحتم لكى تظهر الصورة وقد احاط بها الضوء ، ان تدرس اوضاعهم تلك داخل اطار المؤسسات التى نفذوا من خلالها سياسة الباب العالى ، وانعكاس اتجاهات السكان المترتبة على تنفيذ تلك السياسة .

ورغم ان تلك القضية تحتاج لتوضيحها الى عمل قائم بذاته ، وقد كرست لها بالفعل مقالا عن الوضع السياسى لولاة مصر مصر للفترة ذاتها، الا أن هذه الدراسة قد تستلزم المرور سريعا وبتركيز على النقاط المثارة . وفى حالات مثل هذه يلجأ للاسف بعض الباحثين الى استخدام مصطلحات اوربية ، كوصف الاشخاص والنظم بالاستبدادية او الاوتوقراطية او الاولجراكية او غيرها من المصطلحات التي توقعهم فى (فخ) التعميمات الشمولية ، فيهبطون بالكتابة التاريخية الى (التبسيطية) ، وتسقط شتى ادعاءاتهم فى اتباع منهجية سوسيولوجية او كما يسمونها احيانا بالمنهجية الاجتماعية ، فلا يقدمون عملا تاريخيا ، وانما انشائيات (سوقية) منافية لروح التحليل والتشخيص العلميين ، هروبا وعجزا عن النفاذ العميق لتحليل النمط الشرقى فى الانتاج ، المخالف لسير النمط الغربى ، وان كان يحكمهما معا قوانين علمية ومادية واحدة .

• ان خلاصة ما يخرج به الدارس من استنتاجات للوضع المالي لولاة مصر فى الفترة المدروسة هو أن مصر تحولت الى (بلاد تابعة) لنظام (اجنبى) يشرف على ادارته (موظف عثمانى) بدرجة (وزير) ، تعاونه اجهزة مالية وادارية وعسكرية وقضائية ودينية ، تتكون عناصرها من أفراد او فئات او فرق اجنبية ، ، سواء اكانت (تركية عثمانية) وافدة عن البلاد ، وتنحدر من البشناق الترك ، او (محلية مملوكية) من بقايا الجراكسة والمماليك الذين تتجدد اجيالهم باستمرار عن طريق شرائهم كعبيد . ويهدف هذا النظام بأجهزته المختلفة الى (نهب) ثروة البلاد ، بطريقة لا تجعل مواردها (تجف) نهائيا ، من خلال عملية (نزح) الثروة عن طريق (ارسال الخزينة) وغيرها من الالتزامات العينية والنقدية الاخرى التى فرضها (الغازي) وخلفاؤه على البلاد ، كما لا تمكن الاقتصاد المصري فى نفس الوقت من التأهب لعملية (اقلاع) من بؤرة النمط الانتاجى المتخلف ، والتحليق نحو آفاق مرحلة (أعلى) للتطور الاقتصادي ، بحيث تنمو مصالح (طبقة) او

(حلف من الطبقات) الوطنية تملى عليها مصالحها تلك (سحق النظام) الاجنبى ، وانتزاع ادارة البلاد منه .

فالعناصر الحاكمة التى يتركب منها جهاز السلطة التى يتربع على قمتها الوالى كانت تتكون من طغاة عسكريين ، ولد قسم منهم عبيدا ، ولا تربطهم بالشعب والبلد الذين يستغلونهما اي روابط طبيعية ، فانحصرت مطامعهم فى الثروة والسلطة ، خصوصا وان النظام بطبيعته يجعل العناصر المديرة لتلك المؤسسات ، وعلى راسها ، مرة اخرى ، الوالى ، غير مستقرة ووجودها مؤقت ، ومحدد بزمن ، مما جعلها تندفع فى القتال للحصول على اقصى قدر من النهب ، فى اقصر وقت ممكن ، فعرضت بذلك اقتصاديات البلاد لخطر الانهيار من ناحية ، وادير بينها صراع من ناحية أخرى لا تنتهى قصته التى ترويها لنا الحوليات المعاصرة (141) .

اما موقف المجتمع المصري من تلك الصراعات التى تدور على ارضه والذي كان فى مجمله يتكون من مجموعتين احداهما تلك الطبقة (الحاكمة) التى تحدثنا عنها ، والمكونة من الجند ، والموظفين ، مضاف اليها الشرائح العليا من فئة التجار ، والمجموعة الاخرى طبقة (الرعية) ومكونة من صغار التجار والحرفيين والفلاحين ، وان تكن تلك الطبقة فى مجموعها مرتبة فيما بينها فى سلم اجتماعى وطبقى متمايز . وكانت الطبقة الحاكمة تعيش على استغلال وحساب طبقة الرعية ، ولهذا فالصراعات التى كانت تنشب داخل الطبقة الحاكمة ، من اجل الثروة والسلطة ، لم تكن تعنى كثيرا طبقة الرعية ، لانها كانت تتم بين (اجنحة) أو أحزاب داخل نفس الطبقة ، ويشترك فيها الولاة مع هذا الجانب او ذاك ، بدوافع مالية أيضا ، ومغزى الصراع ومحصلته النهائية هى استغلال طبقة الرعية ، التى لم

---

(141) راجع احمد كتخدا عزبان ، الدرة المصانة فى اخبار الكنانة ، مخطوط ، جزءان 589 صفحة ، المتحف البريطانى رقم (4 — Or 1073)
وراجع
— Baldurin, George, Political Recollections relative to Egypt, London, 1801, Preface, PP. 50-1

— Lockroy, E. Ahmed le Boucher, Paris 1888, PP. 4-6 راجع

يكن يعنيها من هو الجناح المنتصر من تلك الطبقة الحاكمة ، وبالـتـالى المستغل لها (142) . فتعديل (السيادة) هنا لم يكن يغير من جوهر علاقات الانتاج القائمة ، وبالتالـى كان عدم الاكتراث الذي يبديه السكان في مصر تجاه التغييرات السياسية والفتن التى تنشب بين البكوات ، لم يكن ابدا دليل على سلبية هذا الشعب واستمرائه للطغيان المستمر .

هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى كان لتقوقع فئات الشـعـب داخل تنظيمات (طائفية) تحكم نفسها بنفسها ، ومكتفية بذاتها في حياتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وفي تنظيم علاقاتها بالسلطة عـن طريق (شيخ الطائفة) او القرية ، قد ساعدها على خلـق نوع مـن (التماسك) الاقتصادي والاجتماعى تجاه (الطغيان العسكري والحكومى) ، فتسطحت علاقات تلك الطوائف بالسلطة ، وتقلص حجم احتكاكها بالادارة البيروقراطية العثمانية ـ المملوكية الحاكمة ، التى كان نهمها الطفيلـى الاميبى لا يشبع من ابتلاع ثروات الشعب وانتاجه ، كما نتج عن هذا التقوقع والتقلص عدم (عثمنة) البلاد ، بل لقد (تمصر) الكثير من افراد حاميات البشناق التركية كنتيجة لازدياد تفوق القوات (المملوكية) التى كانت تحافظ على تراثها السابق على العثمانيين ، وكنتيجة للـتـزاوج مع المصريين وتغلغلهم تبعا لذلك في طوائف اهل الحرف (143) .

ومن ناحية ثالثة ، كان الـجـهاز الاجتماعـى كله وعاءا لحضارة تسودها علاقات انتاج تقليدية ترجع في معظم انماطها الى القرون الوسطى وكانت قوة قيام أي نمط للتغيير تكمن في ارتباطه بالافكار الدينية لـدى الحاكم والمحكوم ، وكانت السلطات الدينية الاسلامية بوظائفها ومراكزها على المستوى المحلى بالقاهرة ، والمستوى المركزي باستانبول ، تخضع للسلطة الحاكمة ، ولهذا وفرت لتلك السلطة ما يشبه القانون الدينى للحكم

---

(142) راجـع

Sonnini de Manoncour, C., voyage dans le Haute et la Basse Egypte, 3 tom Paris, an VII, Engl, tr, p. 428
— Aikin, A. ; travels in Upper and Lower Egypt, 3 vols London, 1803 vol. 1, PP. 67-68.

على كل ما قد يحدث من تغيير فى انماط الحياة سواء اقتصادية او اجتماعية او علمية او غيرها ، ومن هنا ارتبط البنائين الدينـــى (الفكري) والاجتماعى (الطبقى) فتشكل بذلك منهما معا قانونا غير مكتوب ، يمثل الـــطـــريق (الرسمى) الذي اختطه النظام فى عمليات وطرق وعلاقات الانتاج . وظل هذا القانون يحترم اغراض واهداف النظام الاجتماعـــى والاقتصـــادي والفكري المقفل بعلاقاته التى ترجع فى اصولها الى العصور الوسطى (144) وقد حلت التناقضات داخل هذا النظام حتى القرن الثامن عشر بالعنف ، فكانت تعيد التوافق المستمر للنظام ، غير انه نشأت فى القرن الثامن عشر عوامل أخلت بالتوازن الاقتصادي والحربـــى ، وخلقت مشاكـــل جديدة ، وقف النظام بتركيبه القديم عاجزا عن حلها ، فتعرى غطـــاءه الواهـــى القديم المرتكز على العنف ، والذي لم يعد قادرا على استخدامه، فى حـ لمتناقضاته الجديدة ، فتعرض بنيانه للانهيار ، واتاح هذا الى حد كبير فرصة لنمو جنينى لقوى انتاجية جديدة ، غير انها لم تتمكن من سحق النظام لظروف تاريخية (145).

---

144) راجع جب وبوون ، سابق ذكره ، ج 2 ، ص 24—28

145) راجع جب وبوون ، سابق ذكره ، ج 2 ، ص 24—28 .

(يتـــبـــع)

فـــــاس | د. فؤاد محمد الماوي

ذيل وتعليق

حول قضية المعتمد بن عباد

القسم العاشر

عبد الرحمن الفاسي

لهفة « ادفنش » الى طليطلة متأججة ، والحملة عليها بالسياسة وبالحرب حثيثة ، ولكن خطواته الحاسمة نحوها وانيات متمهلات ، ومن ورائها تتصرم الايام مسرعات ، حتى ليبدو بخطة مصابراته ، ومطاولاته التى ييس عليها اقتداء بوالده « فرذلند » ، وكأنه هامد ساكن ، لا حراك به ، أو أنه ضل عن طليطلة الطريق ، وتاه فى درب طويل نحو بلاد الصين .

والواقع أننا نلحظ من خلال ما نقرأ ونشهد ، أن حركاته سريعة ملتهفة ، وسكناته أيضا متحركة ! وانما تتسرب دراكا من وراء ، لتنعكس على تحركات وتصرفات اولئك الفرقاء ، المسيرين بالاضطرار وبالاختيار .

وهكذا نرى « ادفنش » الآن فى هذه المرحلة وقد ربط عجلة خطواته الى طليطلة بما يتوقع من طبيعة الهيج الذي ثار

فى وجه القادر ابن ذي النون ، فقد كانت مظاهر انتكاث الزمام فى يده منذ بداية ولايته (468) داعية التربص ، مغرية بمكاسب العمل السياسى والانتظار والتريث .

ولم العجلة ؟ وفيم المعاناة وركوب الوعر ؟ وقد دارت على القادر صاحب طليطلة الدائرة (1) وتوجهت الى مملكته أطماع الرؤساء ، (واحتقره القرباء والغرباء) (2) فلا يرى الملأ فيه على أريكة جده المامون ، غير مخلوق موهون ، منزوع بالتربية والحضانة الى جبلة الخصيان ، منهوك المرة ، محموم الاعصاب ، مهوسا بآلام ذرب فى معدته (3) لا تفصم عنه فى يقظة او منام ، فكان ، كما تصوره الاخبار (4) وكما يستجليه « ادفنش » بالمنظار والمعيار ، اضعف الضعفاء بين ملوك ذلك الزمان .

---

1) يقصد بالدائرة البطانة فى اصطلاح الاندلسيين ، ويراد بها بطانة السوء ، خاصة التى تظهر النصح ، وتضمر الغدر ، وقد صقل هذا التشبيه فى هذا العهد ، حتى صار يطلق على الفئات الشعبية المفسدة ، والضالة المضلة ، كما نراه مستعملا عند ابن بسام فى هذا المقام ، وكما يلاحظ ذلك من استعمال ابن الكردبوس فى نص له سابق عند كلامه على جماعة الدوائر ، وهى الجماعات الشعبية التى اغوتها الاطماع، وتجردت لخدمة الاعداء بشراسة من لا يرعى ذمة ولا انسانية.

2) كتاب « الاكتفاء » للمؤرخ ابن الكردبوس ، ص : 79 .

3) « الذخيرة » لابن بسام ، القسم الرابع ، المجلد الاول ، ص : 116، « أعمال الاعلام » ، جزء الاندلس ، ترجمة يحيى القادر .

4) راجع قول المؤرخين فى نصوصه الاصلية المنقولة فى القسم الرابع من هذه الفصول عن ذخيرة ابن بسام ، وعن ابن الخطيب فى « أعمال الاعلام » وابن الكردبوس فى « الاكتفاء » .

وصدقت رؤية « أدفنش » ، وصح ما قال عن الـــقادر وأصفوه ، فلم تختلج فى افقه منذ بداية عـــهـــده ، غير بوادر الانهيار ، وبوائق الفتن التى لن يستقر معها لامره قرار ، فقد استهدف منذ جلس عل ىاريكته ، لاضطرابات اطبقت عليه من الداخل ، ثم من الخارج ، فعاجلته على حدود مملكته نازلات انتكث معها الحبل فى يده ، ولم يدر ما يقدم وما يؤخر من أمره.

وقد عدد ابن الكردبوس فى كتابه « الاكتفاء » (5) هذه الحاقات فى سياق يتبادر منه انها انهالت عليه دفعة واحدة من غير امهال ، ومرد ذلك الى أن جميع المهاجمين كانوا ــ حسبما عرفنا ــ متربصين مترصدين ، حتى لكأنهم مشمرون فى سباق.

وعلى هذا الوجه يسجل صاحب « الاكتفاء » انتـــصاب المعتمد لمهاجمة القادر ، ولما ينعم بالجلوس على أريكـــة جده المامون ، غير أيام قلائل ، وقد عرفنا أن ابن عباد ما كاد يسترد قرطبة بتلك الانتفاضة الفجائية ، حتى أزعجه ما فى نفسه الى اقتحام مملكة طليطلة من حدودها الجنوبية .

ومع اندفاعة ابن عباد صاحب اشبيلية ، او بعيدها ، حلت بالقادر قارعة ابن هود صاحب سرقسطة ، وفيها يـــقول ابن الكردبوس (6) : (وجعل صاحب سرقسطة ابن هود «المقتدر» يطالبه اشد مطالبة ، ويحاربه انكـــى محاربة ، واستعان عليه

---

5) ص : 79 ــ 80 ــ 81 .

6) « الاكتفاء فى اخبار الخلفاء » ص : 80 ، تحقيق الدكتور احمد مختار العـــبـــــادي .

بالطاغية «ردمير» (7) فـأخـذ له « شنـتـبريـة » (8) و « ملينة » (9) فضعف الحفيد الصغير عن الدفاع عن نفسه (لما عنده من قلة التدبير) واستنصر (بأدفنش) .

(وكانت » كونكة « (10) للقادر ، فنازلها « ابن ردمير » ووالى عليها الحصار ، حتى كاد أهلها أن يهلـكـوا عطشا ، فافتدوا منه بمال كثير) .

ومن المفهوم ان « ادفنش » قد اعتبر هذه الحركة مـن « ابن ردمير » غير مضايقة له فى هذه الظروف ، بقدر ما هى مضايقة للقادر بن ذي النون ، لانها فى اعتباره ــ كيفما كان هدفها ــ حلقة فى الخناق ، حتى لكأنها ضربة ممالأة تنفـذ فى الابان ، ونفعها فى خطة « ادفنش » الالتفافية ، اوضح من اضرارها الآنية .

ويذكر صاحب « الاكتفاء » (11) بعد هذه مباشرة ــ وذلك صنيع له دلالته ، كما سيشار اليه ــ حادثة ابى بكر بن عبد العزيز نائب المملكة فى بلنسية ، فقد استبد فى الوقـت

---

7) ملك « ارغون » و « نبـرة »
8) شمال شرق طليطلـة بالقرب من منابع نهر « التاجه » ، ومن أهم حصونها قلعة : « اقليش » الشهيرة .
9) حصن فى مقاطعة « كونكة » شمال شرق طليطلة .
10) نفس المصدر والصحيفة ، و « كونكة » ، او « قونقة » : حصن بشمال شرق طليطلة ، وفى مقاطعته يقع حصن « ملينة » (سالف الذكـر)
11) الصحيفـة : 80

نفسه على القادر ، وخلع منه يد الطاعة ، وكأنه مدفوع من وراثه بـدافـع .

ولا يحتاج ابن عبد العزيز هنا الى تقديم ، فنحن نعرف من فصل مضى ، أنه فى طالعة خصوم الوزير ابن عمار ، وهو الذي تندر عليه بخاتم (التأمين والتأمير (12)) وأهم ما يعنينا هنا من خبره الحقيق بكل تندر وتشنيع ، انه هو نفسه الذي احتمى (13) «بأدفنش» حينما اخذ المقتدر صاحب سرقسطة يتلمظ للانتزاء على بلنسية ، ونظفر به هنا يؤدي ثمن الحماية باقدامه على خلع الطاعة ، وتأريث البلبلة فى هذه الظروف التى تجتازها طليطلة ، ولن يجهل أحد عندها ؛ ومن مصير بلنسية بعدها أن قشتالة هى المستفيدة الاولى من استبداده وخروجه على عهده ، وليس من الصدفة أن نقع على خبر خلعه طاعة القادر فى كتاب « الاكتفاء » ، مذكورا مباشرة عقب ذكر استنصار القادر « بأدفنش » ، مع ان صاحب « الاكتفاء » لم يكن قد استوفى تعداد الاحداث التى أعنتت القادر ، ومثله صنيع ابن بسام الذي أعقب مباشرة ذكر (14) استبداد ابن عبد العزيز بذكر الطاغية « ادفنش »،

---

12) انظر القسم الثامن من هذه الفصول بالعدد التاسع من مجلة : « المناهل » (يوليو 1977)

13) مجلة «المناهل » العدد السادس ، السنة الثالثة : يوليو (1976

14) يلاحظ أن ابن بسام لم يصرح بأن القادر استصرخ « ادفنش » عند هذه الحادثة ، كما صرح بذلك صاحب « الاكتفاء » ، وإنما اعقبها بقوله ان « ادفونش » فغر عندها فاه على الحصون والاموال .

وموقفه من الاحداث ، فمن الواضح أن « ادفنش » قد اتخذ من بلنسية ابن عبد العزيز المحمية ، احدى حـلقـات الطوق المضروب على طليطلة ، وان عائدة هذه الحماية لنتضح الآن فى حركة ابن عبد العزيز الاستبدادية ، واذا ما جنح القادر غدا الى الحرب ، فلن يسع ابن عبد العزيز ، طالب الحماية التـى أمنت له الاستقلال ، الا أن يؤدي ما سيطمع به « ادفنـش » فى حالة الحرب ، من اداء العوض بالتمام والكمال .

ولقد كان من شأن هذه الحاقـات ، وبما تشير اليه مـن بغضاء مستشرية وعداوات ، أن تقضى على تماسك حفيد ابن ذي النون ، فاضطرب فى يده الزمام ، وجمح به الارتباك ، فأثار على نفسه بسوء التصرف اعاصير اضـطـرابات هزت اركان حاضرته ، وعجلت بنهاية طليطلة ، ومأساة نهايته ، وقد عنـى ابن بسام فى الذخيرة بتسجيل تفاصيل هذه الاضطرابات ، وان افاداته لتفرض نفسها فى المقام ، حيث أتيح له ، وهو قريب من العصر وساحة الاحداث — ان ينفرد بتسجيل التفاصيل (15)،

---

15) الذخيرة: القسم الرابع، المجلد الاول، ابتداء من ص: 116، أما افادات ابن الكردبوس ، فممعنة فى الاختصار ، ومتناثرة — وفى « مذكرات الملك عبد الله » ، فقرات معدودة ، وسجل ابن الخطيب فى « اعمـال الاعلام » ، الجزء الخاص بالاندلس ، ص : 207 ، طبع : الرباط، بعض الافادات فى هذا الصدد ، وهى ، وان كانت منقولة عن ابن بسـام ، لكنها لا تقدم الينا الصورة كاملة كما هى فى « الذخيرة » .

ويعرض الاحداث متساوقة فى جربتها من بدايتها الى نهايتها وبذلك وضح لنا بعض ما جاء فى نصوص صاحب « الاكتفاء » منبهما ، أو ناقصا وداعيا الى تساؤل واستيضاح ، فأتاح للباحث أن يخرج عن ظاهر السياق فى نص « الاكتفاء » ، الى الاخذ بصريح العبارة التى توحى بأن حادثة خلع أبى بكر بن عبد العزيز الطاعة ، قد زادت فى الطين بلة ، وأن الشر كان سببا فأصبح أسبابا .

وفى معترك هذا الاضطراب ، يبدو القادر بن ذي النون ريشة فى مهب الاعصار ، فنراه غير مستقر على رأي أو حال ، تحسبه تارة مناوئا « لادفنش » ، فيستصرخ الجيران بعزيمة الدفاع والنضال ، ثم يزفر فى وجهه انقلاب بطانته ، وتخاذل أشياعه ، واستحرار الفتنة فى حاضرته ، فتنتزعه الى حزب النصارى وجهة جده ، واذا هو يهطع الى « ادفنش » متلمحا فيه ظهيره، وحامى ملكه، وهو فى الحالتين موهون الشكيمة،بادى العجز والارتباك، مستوحش من رجال دولته، وكلهم بررة كفاة، همهم ان يشدوا أزره ، ويدلوه على المداخل والمخارج فى مثل هذه الملمات ، ولكن اشاحته عن الكفاة قد كانت آفته الكبرى ، وبداية النهاية التى تزاحمت عندها الاحداث ، وخدمت أغراض قشتالة فى الوصول الى طليطلة بأيسر الحركات ، وبمحض الخطوات المتمهلة التى أحكم الطاغية تقديرها ، وحرك النازلات والاحداث على وفقها .

وتتلخص (16) قصة القادر التى تعرض علينا كل هذه البوادر فى أن جده المامون ابن ذي النون اوصاه عند العهد له ، أن يشد ازره بوزيرهم ابى بكر ابن الحديدي (17) ويركن اليه، فقد كان المامون يرى فيه مظنة تأييد خلفه ، وجمـاع امـره ، لانقطاعه الى الذنونيين، ولاستنامتهم الى رجاحة وزنه ، وجودة استقلاله وطاعته ، والى يده البيضاء التى تعد بين حسناته ، فهو الذي طير الى المامون ما كانت تدبره شفار الشر مـن أهـل حاضرته ، وقد كانوا نافرين من سيرته ، وهموا فى اثناء غيبته بالاستبدال منه ، فتلافى ابن الحديدي بيقظـتـه واخلاصه ،

---

16) تلخص هذه الصفحة جميع الافادات الواردة فى الفصول الخمسة التى اوردها ابن بسام فى القسم الرابع من المجلد الاول من ص : 116 ، الى ص : 133 ، من غير ادنى زيادة تمس بمعانـى نصوصه ، او تلوي بمدلول افاداته ، او بالصورة التى تثب الى ذهن القاريء من فقراته ، او تطل من بين سطوره ، وترد فى تضاعيف هذه الصفحة الملخصة من فصول ابن بسام بعض افادات عن ابن الكردبوس ، التـى تنسجم مع نفس السياق ، وطبيعة الاحداث .

17) الوزير ابو بكر يحيى بن ابى الطيب سعيد ابن الحديدي التجيبـى ، كان كوالده وجده ، من العلماء اهل الرواية والسماع ، وعرف بالنبل والفصاحة والاتقان ، وفى والده قال اهل المشرق : ما مر علينا قط مثله ، وقد وزر ابو بكر لاسماعيل ابن ذي النون ، ثم لولده المامون، وقدم فى الشورى ، وعرفت مكانته عند المامون ، فلم يكن يقطع فى شيء الا عن مشورته ، ودخل معه قرطبة حين ملكها عام 467 ، وكانت له عصبية وتأييد من جمهور أهل طليطلة وجماعتها ، ومن ثم كان موته فى قصر القادر حفيد المامون مثار النقمة على القادر ، وكانت وفاته ضحوة يوم الجمعة فى المحرم 468 ــ انظر الصلة لابن بشكوال، تـرجـمـة 1360 .

محنة ملكه، والفتنة فى بلده ، فحثه على أن يجثث الشر من أصله، ويلقى بجماعتهم فى المطبق بوبذة بآخر قلاعه ، وذلك ما حصل وكان ، وتناستهم فى غيابات مطبقه الايام .

ولما صار الامر الى القادر ، حفت به طائفة ممن كانــوا يتمسحون به ، ويمتون فى نفس الوقت بصلات الــى سجناء جده ، وتتأجج فى صدورهم الاحنة على ابن الحديدي وزيره .

وصار الامر الى ما هو منتظر ومعــهــود ، حين تعقــد المصاير بشهوات صغير ، أو ضعيف ، أو مريض ، أو مافون ؛ فغدا اولئك الدعرة يوسوسون فى اذنه بالهمس وبالاعــلان، ؛ وحسبما هو معهود فى كل زمان ومكان :

ـــ ان الوزير يا مولاي يتوقل ذروة الحكم آنا بعد آن ، وانه لآخذ بخطط الملك بأجمعها ، ومراتب الرياسة بأكملــها ، وانه اصطنع الرجال ، وسمت اليه الآمال، ولن يصفو لمولانا القادر أمر ، ولن يتلألأ لسلطانه لون ، أو يتذوق ما له من طعم ، حتى يزيح الوزير ابن الحديدي من دنيا حكمه ، ويحز رأسه من ساعته ، ويضرب به فى صدور أتباعه وشيعته ، فلا يختلج لهم أمل بعدها فى العودة الى صولته ، ورزوح الخاصة والعامة تحت نير سلطانه وهيمنته

وازور القادر حتى عن نصيحة وزيرهم أبى سعيد ابــن الفرج ، الذي نهاه عن اخفار الذمم ، وحاول ان يثير فيه الخشية من عواقب الايام ، ولكنه قد كان ركب هوى طغمته ، فأجمع

معهم الامر على ان يغتنموا السانحة فى محفل استقبال تابوت المامون جده ، وقد كان يومئذ محمولا من قرطبة الى مثواه فى الحاضرة طليطلة ، وبيتوها على ان يثبوا عليه عندما يتبرج فى العراء بمعزل عن الانصار والاتباع ، ولكن حاسة الوزير كانت أنفذ من مفاجأتهم ، وامضى من تدبيرهم ، فسرعان ما انسل من الحشد ولما يهموا به ، ونكب فى لمة من اصحـــابه الـــى احدى ضياعه ، وما كاد يهدأ حميه ، وتنتظم أنفاسه ، حتى دهمتـــه الوحشة من واقع الحال ، وشوشت ائتناسه بالنجاة ، ثم أخذت تلم به الخشية مما يجرى فى الخفاء ، وتنهال عليه ألمعيته بمـــا يحاك منذ صرح الشر ، وكشر العدوان ، فكانت هواجســـه تتآذبه بما يرجف به الاعداء :

ـــ أي صلاح يرجى يا مولاى ممن رجم بالغيب وحذرك ، واعتصم منك ، وتوقـــى مكروهك ، وكأن ليس لمولانا عليه يد ، ولا له فى هذه المملكة نهى ولا أمر ؟

وتحت تأثير هواجسه المستحرة عاد ادراجه الى الحاضرة ، فاستغلظت عليه خاطراته ، وأخذ يحسب كل صيحة عليه ، وكل نامة تشير اليه ، وكاد الارتباك يأخذ منه بالخناق ، حين اخذت الرسل تخطر بين الطرفين ، ويسعى اليه الاعداء فى صـــورة الاصدقاء ، ويطلع عليه الاصدقاء بلبوس الاعداء ، فمن مستفز يزيد بلة فى طين النازلة ، ومن غادر يستدرجه بالامان للرجوع الى مولاه ، ويحضه على اغتنام فرصة الاياب ، ويقنعه بأن تلاقى الاكفاء من شأنه ان ينسخ ما يناور به المـــوسوســـون والاعـــداء .

ولكن الخاصة من صحابه كانوا ملتـــفـــين من حـــوله ، يشاركونه فى ذوات صدره ، ويقومون على تأمين سربه ، الى ان تماسكت فيه رجاجته وألم به اعتداله ، فانتصب بمذخور وزنه ليرد الامر الى نصابه ، ويعيد القادر الى صوابه ، فحث ركبه الى عتبة مولاه ، وسط حشد هادر من انصاره ، معتدا بجاهه ، وبحمية الحافين به ، ولكن مسيرته الهادرة قد انطلقت معهـــا الشائعات ، رجلبت الى طريقه فضول الغوغاء ، كما يجلب الضوء الباهر الفراش ، فسالت بهم الجادات ، وضجـــت بهم افنيـــة القصر ، وغصت بهم العرصات ، ولم يسع القادر ، وقد هدرت فى مسامعه الزعقات ، ووزيره بين يديه ، الا ان اشار عليـــه بمغادرة مجلسه فى الحال ، فخرج كما يـــقول ابن بـــســـام : (والدولة متعلقة بأذياله ، وطبقات أعيانها عن يمينه وشماله ، والعامة من بين يديه ومن خلفه يتمسحون بآثاره) .

وفى غمرة الظفر بالانتصار ، والاستنامة الى العامة التى لا تؤتمن على نصفة ، ولا على نصرة او ولاء ، ســـطـــت النشوة الكاذبة على ابن الحديدي ، وطغى فيه الاعتداد ، فبدا ، وكأنـــه ما غنى يوما بمعرفة الايام ، وبما دحرجته من رؤوس وقيم فى مثل هذه الاحوال ، واذا هو يرسل نقمته على شيخين من شيوخ الخدمة ، حاقت بهما الظنة ، وتفرس فيهما منبع الشر والمحنة، فنبر بالحافين به : ان اقطعوا دابر الشر باستئصالهما ، ونهب أموالهما ، فما للحيات جحر بين ظهرانينا .

وعلـــى مقطع كلماته توافينا القصة بمشـــهـــد الجانب

الآخر ، فنرى دائـرة السوء ، وقد التفت بالقادر ، والالسنـة نصال حواصد ، سلوها لاهراق دم الوزير ، ولكن التماعتها كانت تضيء نزوعهم الى التخريب ، والى أخذ القادر نفسه بما قدمت يدا جده في حق اولئك المساجين المناكيد ، فأروه السداد في الرحمة والشفقة ، وأن في اطلاق سراحهم استدراجا لولائهم واخلاصهم، وأن الرأي في اسعافهم بفك الاغلال ، حتـى يثبوا وثبا علـى الوزير الناهد الى الصيال ، ويشكوا احنتهم بين أضاليعـه ويجرونه جرا الى حتفه .

وأعشت القادر التماعة النصال ، فلم يستبن أنها ما نفرت من قرابها الا لتجهز على مملكته ، ولتأخذه أخذا بما بدر مـن جده ، فما تمالك أن أطلق الطائفة المغربة (وأدخلها (18) البلد سرا من بعض مداخله الخفية ، وقد سترهم باللثم ، وأوهم أنهم بعض الحرم ، حتى وصلوا اليه ، ومثلوا بين يديـه) ، ويؤرخ ابن بسام الحادثة بيوم الجمعة لعشر خلت لمحرم سنة ثمان وستين واربعمائة .

وكان ابن الحديدي على صداقة مع ابن المشاط ، أحد قضاة المملكة (فاستدرجه (19) هذا بالامان ، واستفزه الى مصرعه بمزورات الايمان ، حتى جرعه رداه ، وأسلمـه الـى عـداه) ومـا (20) ان دخل ابن الحديدي مجلس القادر ، مستئنسا

---

18) « الذخيرة لابن بسام ، القسم : 4 ، المجلد الاول ، ص : 120.
19) نفس المصدر السابق .
20) « الذخيرة » لابن بسام ، القسم : 4 ، المجلد الاول .

بتأمين صديقه الغادر ، حتى فوجىء بنظرات ترميه بشــواذ ، وبوجوه انكرها من طول ما عرفها فى غابر الايام ! فأيقن بالهلكة، وحاول ان يلوذ بحماية القادر ، ولكنه اشاح عنه وفصل عــن مجلسه ، فأخذ (21) (يتعلق بأذياله ويستجيره ، فلم يغنه ذلك ، فتمكنوا منه وقتلوه ، وهاجت العامة ، فشغلت بــنهــب دوره واطلاق ايديها فى ماله)

واعترض طلقاء المطبق جموع الغوغاء ، واسكتوا أصواتها الهادرة بالمنافرة وبالمخادعة ، فشتتوها ، وانطفأت شعلة الحمية للوزير الهالك من حينها ، ثم انقلبت فلول الرعاع ، وقد أيقنت بنهايته الى نهب دوره وممتلكاته ، وطغت فيهم الغوغائيــة ، فانتهبوا ديار الاعيان (22) ، وأطاحوا برؤوس وقيم ، وضامت الحاضرة أفاعيل وموبقات ، وضرب فيها الشقاق ، فتفرق سكانها شيعا وأحزابا متنافرات ، وحلت بينهم البغضــاء ، واستحــر الاعتــداء .

وتتدارك الحوادث مع الايام ، وتستفحل معها دسائس خصوم جده الذين أطلق سراحهم ، وغفل عما تبيته فى الخفاء فعالهم ، وأخذت التطورات من داخل الحاضرة وخارجها ، تنذر بما لا قبل له به ، وتسعــى الى « ادفنش » بيومه الموعود الذي جاء كفلق الصبح قريبا منه ، فما كاد القادر يستنصره فى عصى أمره ، ويرغب ان يوجه اليه كتائب عسكره ، حتى راجعه الماكر

---

21) « أعمال الاعلام » ، جزء الاندلس ، ط : الرباط ، ص 207 .

22) كتاب « الاكتفاء » لابن الكردبوس ، ص 81 .

بصريح قصده : (وجه الى مالا ان كنت تريد الدفاع عن أنحائك، والا سلمتك لاعدائك (23) .

ولم يستطع القادر ان يقوم بما رسم عليه من المال ، فانقلب يفرضها ثقيلة مرهقة علـــى كواهل الرعية مـــن غيـــر امهال ، الى أن ضاقت سبل العيش بالناس بتوالى المفروضات مع توالى الايام .

وانقلب « ادفنش » الى ممارســـة الضــغــط بــغــارانه الاستنزافية ، وقد ابتدأها سنة 471 ، للتعفية على موارد القوت، بانتساف الاشجار والزروع ، وتخريب ذخيرة المعاقل والحصون، وتقتيل العجزة والصبيان والشيوخ .

ولكن الذي حدث ، هو ان المتوكل ابن الافطس (464—488) صاحب مملكة (بطليوس) ، لم يتحرج من أن ينبرى وحده لمحاولة رد هذه العاديات عن صاحـــب طليطلـــة ، وقـــد انفردت الرواية القشتالية بذكر هذا ، فسجلت هذه المبادرة من المتوكل فى جولتين (24) : الاولى سنـــة 471 ، عند بداية هذه العمليات التخريبية ، وتذكر أن « ادفنش » نزع الى مذهبه فى

---

23) كتاب « الاكتفاء » لابن الكردبوس ، ص 82 .

24) انظر « دول الطوائف » لمؤرخ الاندلس الاستاذ محمد عبد الله عنان، الطبعة الاولى ، ص 89 — 90 — 110 ، ولم يعين الاستاذ مصدره فى ذلك ، ويبدو انه رجع فى ذلك الى المؤرخ الكبير ماننذث بيدال فى كتابه « اسبانيا فى عهد السيد » حيث يلاحظ أن المستشرق الفرنسى ليفـــى بروفنسال ، ينقل عنه ايضا فى هذا الموضوع بالذات .

المراوغة ، ورأى التدبير فى الانسحاب دون معركة ـ ما دام أمر مكاسبه معقودا بما يجري فى طليطلة ـ أما الجولة الثانية ، فقد كانت بعد هذا التاريخ ، عند تطور الاحداث فى طليطلة ، بعدمـا أصبح المتوكل طرفا مباشرا فيها ، وسترد الاشارة اليـهـا فى حـيـنـهـا .

ولم تكن هذه المبادرة التى انفرد بها المـتـوكل ، مـن المفاجآت بالنسبة الى « ادفنش » ، لانه يعلم قبل سواه ، أن مملكة بنى الافطس ، التى تسامت حدود طليطلة الغربية ، قد شذت عن الطوق المضروب على القادر ، وهذا صاحبها المتوكل قد شمخ بأنفه، وامتنع عن اداء الجزية شاردا عن سربه، ثم انها المملكة الموتورة التى داستها قشتالة باحتلال «قلمرية» و «بازو» و «لميقة» الواقعتين على نهر التاجه، شمال البرتغال ، ومـن ترابها كانت بداية الانطلاق الى تطويق تراب الاسلام ، فلهذه الاعتبارات ما كان عمر المتوكل ، ليتوانى بحال عن النهدة الى مناهضة الاعتداء ، لا سيما وهو يؤدي بذلك فى نفس الوقت ، دينا عليه لمملكة بنى ذي النون ، التى ساندته سنة 461 ، الى أن استوثق له الانفراد بالامر دون اخيه ، وليس من البعيد ازاء هذا أن يكون القادر ابن ذي النون قد استنصر به ليخـفف عنه صولة الحاقات التى ألمت به ، وهذه أيضا مما لا يند عن حساب « ادفنش » ، الذي يخطو فى هذا الهجوم بمنتهى الاحتـراس وبالتقديـر المعهـود .

وهكذا ، فان « ادفنش » لم يحد عن مذهبه ، فاجتنـب

الاصطدام ، ولجأ الى الانسحاب ، وهو على موفور العزمة على موالاة عملياته التخريبية ، التى سير اليها كتائبه الآن .

وتمدنا أسجاع ابن بسام ، وتوارد فواصله بصورة واضحة عن هذه الحقبة الكالحة وذيولها ، فاستوعبت واقع الحال ، وتجاوبت اصداء رناتها بما ينتظر من تطورات ، سواء بالنسبة لاى ضغوط « ادفنش » ، وما سينشأ عنها فى حالى مجابهة او استخذاء ، او ما سيستحر بين أهل الحاضرة من خلاف ، او بالنسبة لما سيعتمل فى مطاوي العامة والخاصة ، من نقمة على القادر ، فيتملص منه ولاء الناس ، وتحل بالحاضرة دواعى التسليم عن طواعيه واختيار .

وبهذا ارهص ابن بسام فى اسجاعه بما سيضطرم على القادر فى نفوس الناس ، وفى معترك الاحداث التاليات ، فقال (25) : (وفغر الطاغية ادفونش بن فرذلند فمه على ثغوره المثغورة ، فجعل لوقته يطويها طى السجل للكتاب ، وينهض فيها نهضة الشيب فى الشباب. وابن ذي النون يلقمه أفلاذ كبده،ويرجمه بسبده ولبده ، وادفونش لعنه الله ، لا يقنع منه بصيد العنقاء ، ولا ببيض الانوق ، بل يكلفه احضار الابلق العقوق ، ويسومه درك الشمس ، ويطالبه برد أمس ، فلما أكل الانفاق ثبج ماله ، وأخذ الخناق بكظم احتياله ، وأحس العدو المشاق بذلك من حاله

---

25) « الذخيرة » لابن بسام ، القسم الرابع ، المجلد الاول ، ص 121 .

سما الى معاقله المنيعة (26) وذرى أملاكه الرفيعة ، عدد الانام، ودروب الاسلام ، فما راهنه منها عليه غلق ، وما رام أخذه من يديه لم يدركه حتى مزق) .

وأعيت القادر الحيلة ازاء سوء الحال ، وكلب « ادفنش » بالمطالب والغارات، فوضع زمام أمره فى يد خصوم جده الطلقاء، فأوقدوها عليه نارا ، وانصرفوا الى جباية الاموال بالانتهاك والابتزاز ، لمواجهة مطالب « ادفنش » ، الملحة على الرعايا فى اليقظة وفى المنام .

---

26) لم يسجل ابن بسام اسماء المعاقل والحصون التى استولى عليها « ادفنش » قسرا او رهنا ، كما يفهم من صنيعه أن « ادفنش » قد فغر فاه عليها ، عندما استنجد به القادر فى المرحلة الاولى من هذه القصة لرد عادية ابن عباد ، وابن هود ، وابن ردمير ، فى حين ان ابن الكردبوس سمى بعضها ـــ كما سيرد فى مرحلة اخرى من هـذه القصة ـــ بعد ان تطورت الاحداث ، واصبح « ادفـنـش » يطالب بالحصون فى مقابل اعادة القادر الى عرشه ، كما سنسمع فى بقية تفاصيل قصته ، والمتامان معا يحتملان الضغط القشتالى بالمطالبة بالمعاقل والحصون ، حتى يصبح القادر أمام اختيار قاهر ، وقد كان الاستيلاء على المعاقل والحصون، نقطة ارتكاز لتطويق التراب الاسلامى ولتمهيد الانسياح فيه بمنجاة من خطوط النار ، التى كانت تقوم فى الثغور الاسلامية ، حدودا بين الفريقين ، وذلك ما دلت عليه تحركات فرذلند ، منذ اخترق منطقة «الشدانية» (لوزيتانيا) فى مملكة بطليوس ، واستولى سنة 449 ، على « بازو » و « لميقة » ، ثم فى سنة 456 ، على « قلمرية » الحصينة ، وما تبعها من اعمال ، وعلى نفس الخطة ، سار ولده « ادفنش » الذي عرفنا من امره انه كان يتوقى المجابهات والمشابكات ، فكانت خطة والده أشكل بمنازعه .

وأخيرا جمع القادر الرعية وأهل الحضر ، وجميع العمال، وكانت نوبة مرضه قد شنجت أعصابه ، فنبر بالصيال ، والمقام لخفض الجناح ، وهدر بالجلاغة فى الجماعة ، وما استجابت للدعوة الا لتفسح له فى الضيق ، وتدير معه وجوه التدبير ، على ما تعلم من منازعه ، وعقمه تجاه كل جليل وحقير ، وهكذا لطمهم لطمته الهوجاء ، حين قال (27) : (أقسم ان لم تحضرونى هذا المال الذي طلب فى الحين ،لاجعلن عنده رهنا جميع من عندكم من العيال والبنين).

وغدا احتمالهم الى نضوب ، وولاؤهم الى أفول ، فما نطق فيهم بجواب ، غير القائد ابى شجاع (28) ابن لبون :
(لقد خلعت نفسك بما قلت ، وبما ازمعت عليه وعولت)

---

27) كتاب « الاكتفاء » لابن الكردبوس ، ص 82 .

28) كان لبنى لبون ، وهم فى عداد المولدين ، ولاية وشفوف فى دولة بنى ذي النون ، منذ عهد اسماعيل (427 — 435) وقد كان احدهم من الجلة الاربعة ، الذين دبروا دولته ، وهم : الحاج ابن محفور ، وابو سعيد ابن الفرج ، وابو بكر ابن الحديدي ، قتيل قصر القادر ، وكان ابو شجاع المذكور فى القصة ، يشغل منصب والى « وبذة » ، وابو عيسى منهم ، هو الشاعر الذي تأخرت به الحياة الى أن رثى اخوته ، وقد كان على ولاية « مربيطر » من اعمال بلنسية ، ولما تغلب السيد الكمبيادور على بلنسية ، تنازل ابو عيسى عن ولايته لابى مروان عبد الملك ابن رزين ، صاحب « شنتمرية » الشرق (انظر الكلام على بنى لبون ، عند ابن الابار فى « الحلة السيراء » ، الجزء الثانى)

وفسدت نفوس الجماعة ، ورأوا أنه لا تجب له عليهم طاعة (29)

وتجهمت السماء بتجهم الوجوه ، وفى ليلة جديسية ليلاء، خطر طلقاء المطبق أشباحا تحت جنح الظلام ، وانقضوا على حزب القادر وحرسه مسحا بالسوق والاعناق ، وما كان ليشفى نفسهم من المامون ، الا الاطاحة بالقادر حفيده ، وكبس خزائن مكنونات ذخائره .

وما ان راع القادر الصريخ ، حتى طار به الضعف ، وجفل فارا على وجهه ، ومن أحد الابواب الخلفية ، تسرب الى العراء، غير ناظر لغير نجاة نفسه ، وهرول فى اثره فله الذي بقــى الى جانبه ، وتبعته زوجته وابنته راجلتين نيفا على فرسخين، الى ان ادركتا بمركوب ، وأخيرا انتهى بهم السرى الى «وبذة» (30) ولكن واليها ابن لبون ، وكان من أقرباء أبى شجاع ، الذي نفــض يديه من الولاء ، ناوأهم (31) فى الالتجاء، فأغذوا السير نحــو

---

29) كتاب « الاكتفاء » لابن الكردبوس ، ص 83 .

30) من الحصون الشمالية الشرقية ، على مقربة من « قونقة » والى « وبذة » هذه ، كان المامون جد القادر ، قد غرب هؤلاء الاشرار ، وكبسهم فى مطبقها ، الى أن سرحهم القادر ، حسبما فصل .

31) كتاب « الاكتفاء » لابن الكردبوس ، ص 83 .

« قونقة » التى كان لبنى ذي النون فيها اشياع (32) وعندهـا حمد القادر السرى ، وأخذ يتسقط أخبار طليطلة ، الى أن عثر عثرته الكبرى ، بذنبه (غير المغفور) على مر الدهور، حسبمـا سيـرد بعد سطور .

وهكذا اصبح سكان طليطلة سائمة فر راعيها (وليـس عليهم أمير ، ولا الى الصواب مشير) وأخذت الجماعة تنتظـر لامرها بين ملوك الطوائف ، فتهافت عليها غير ما واحد ، وتطلع الى حملها كل عاجز ، ولكن حزب القائلين بدعوة المتوكل ابـن الافطس ، صاحب بطليوس ، قد رجحت كفته على غـيـره ، وذلك بالرغم عما ذكر به المتوكل من ضيق مسافة نـظـراته ، واشتغاله بلذاته .

واذا صدقنا الملك عبد الله فيما حكاه ، فقد كان هناك صوت نشاز ، يدعو اهل طليطلة الى أن يحكموا انفسهم بأنفسهم ، وان لهم فى أداء الجزية الى « ادفنش » غناء عن اي رئيس يلى أمر ولايتهم ، وكان هذا صوت الوزير ابن عمار ، الذي كان قد استبد بمرسية ، وخرج منها يومئذ ، كما يقول المؤرخون ، لبعض

---

32) مرد ذلك الى أن قلعة « قونقة » كانت مهد ولاية بنى ذي النون ، حيث انتزى عليها جدهم عبد الرحمان بعد موت واضح الفتـى ، حاكمها ، ومنها بسط الذنونـي حكمه على ولاية كورة « شنتبرية » على عهد سليمان الظافر ، الذي اقره عليها ، واولاه الاعـتبار ، واضفى عليه لقب ناصر الدولة ، وعند قيام الفتنة الكبرى ، اعلـن عبد الرحمن استبداده بها ، ثم كانت بعدها قصـة رياسـة ابنـه اسماعيل فى طليطلة ، باستدعاء من أهلها .

أغراضه العاجلة ، وقد انفرد الملك عبد الله بتوضيح هذا الغرض كما انفرد بذكر اشارته على أهل طليطلة ، التى كانت منه خدمة صريحة للمصلحة القشتالية ، كما ان الملك عبد الله ، انفرد بتعيين السابق واللاحق من تنقلات ابن عمار بين قشتالة ، وطليطلة ، ومملكة سرقسطة ، على ان المهم فى هذا ، انما هو خبر اشارته على أهل طليطلة ، بالركون الى هيمنة « ادفنش »، والاستغناء بحكمه عن قضية الرئيس والمرؤوس .

وقد افصح الملك عبد الله اثر ذكره خرجة ابن عمار من امارته مرسية ، التى لم يكتب له رجوع اليها لاستبداد ابن رشيق بها ، فقال عن ابن عمار : انه (33) (خرج عن مرسية ، يريد لنفسه فى رسالة النصرانى ، ليخدم أمر الانظار التى تجاوره فى الشرق ، وعسى يضعها فى يديه ، مثل « شنت مرية » ، ويسعى فى اصلاح ما افسده عليه ابن رشيق ، فانه لم يجد اليه سبيلا لكلبه عليه ، ولما نهض الى الفونش ، فأول ما سعى فى تسيير طليطلة اليه ، بمداخلة أهلها ليكونوا حاكمين أنفسهم ، ويؤدوا الجزية للنصرانى دون رئيس) .

ويذيل الملك عبد الله هذه الفقرات بافادة أخرى حول تمادى ابن عمار عند تطور الاحداث ، فى أداء رسالة قشتالة ، الى أن اضطر الى مغادرة طليطلة ، ناجيا برأسه ، ومصدقا توهمه فى البحث عن حظه .

---

33) « مذكرات الامير عبد الله » ، ص 80 .

ولا يخلو كلام الملك عبد الله من مسحة صدق تنفى عنه بهتان التحامل فيما رواه ، وذلك ان لحاق ابن عمار « بأدفنش » عندما فر على وجهه من مرسية ، مذكور معروف ، فمن المروي (34) أنه قصد جليقية شاكيا غدر ابن رشيق ، رجاء اعدائه عليه ، ولكن هذا كان قد قدم الحزم ، فاستمال «ادفنش» بالهدايا والالطاف كما يحكى ابن الابار .

وعلى كل حال ، فقد أجاب المتوكل ابن الافطس الدعوة ، ووصل الى طليطلة يحمل الامانة ، ويؤرخ ابن بسام دخوله اليها بعقب سنة اثنين وسبعين واربعمائة .

وليس من العسير ان نتمثل الدواعي التي زكت ابن الافطس عند شيوخ الجماعة ، حتى قدموه على غيره من ملوك الجزيرة ، فقد كان فى هذه الظروف التي اشتد فيها كلب « ادفنش » الملك الوحيد ، الذي ظل خارج دائرة فلك الطاغية ، فوقف منه موقف التحدي بالامتناع عن أداء الجزية ، وتصدى لرد عاديته عن تراب طليطلة ، وأيضا فان أهل هذه المملكة ، وقد ضاقت بهم سبل العيش ، بتوالى الاضطراب ، ونضبت أقواتهم ومؤنهم عقبى لتخريب المزارع بترادف الغارات ، باتوا مشرئبين مستشرفين الى خفض العيش فى مملكة المتوكل ، وبسطة الحياة فيها منذ فصمت عنها عاديات «ادفنش»، الذي شغل ردحا من الزمان بابن عباد ، الى ان انجلت معركة الشطرنج عن وضع اليد فى اليد ، وانصراف « ادفنش » بعدها الى مأربه فى طليطلة ،

---

(34) « الحلة السيراء » ، لابن الابار ، الجزء 2 ، ص 145 .

ففي اثناء ذلك كانت مملكة « بطليوس » تنعم بعهد هدنة ورخاء ، وتغيض فيها الارزاق ، ويشع بلاطها بمختلف من حج اليه من العلماء والادباء ، الذين يسترفدون نوال ملك مفضال، أصبحت أيامه ــ كما يقول الفتح بن خاقان ــ (كأنها من حسنها جمع ، وليال كـــان فيـــهـــا على الانس حـــضـــور مجتـــمـــع راقت اشراقا وتبلجا ، وسالت مكارمه انهارا وخلجا) او كما قال عن ذلك البلاط صاحب « المعجب » باعجاب : انه كان على عهـــد المظفر وابنه عمر المتوكل ، ساحة علوم وآداب (خلدت فيهم ولهم قصائد اشادت بمآثرهم ، وابقت على غابر الدهر ، حميـــد ذكـــرهـــم) .

انها فقرات تشير الى مظاهر سعود وهناء ، من شأنهـــا أن تزهر بالآمال في اذهان شيوخ طليطلة ، التى ادبرت عنها النعماء، وتجهمت لها الحياة ، وانحسرت عنها اردية الجمال والبهاء ، منذ تناوشتها المطامع ، واستغلظ في ارجائها الاضطراب ، واستحكم بين أهلها الخلاف ، وناء عليها « ادفنش » بالاعتداء والاستعداء.

وازاء هذا ، شاءت الاقدار ان تخيب الحدس والخيال ، فتكشف المتوكل ــ الذي تفرس فيه أهل طليطلة غرس النجاة ــ عن (كودن سامون خطة سباق ، وحبينة أقامـــوها على ساق) على حد تعبير ابن بسام ــ وقد صدر عنه ابن الخطيب (35) وقبس من هذه السجعات التى عبرت ء نالخيبة ، وانـــطـــوت علـــى السخرية ، كما اوحت بأن الحال قد انقلب الى أسوأ مما كان .

35) «اعمال الاعلام » ، جزء الاندلس ، ط : الرباط ، ص 208 .

وكأنما عاودت الحسرة ابن بسام ، فعاد فى معرض تال الى التفصيل بعد ذلك الاجمال ، فذكر ان المتوكل أقام فى طليطلة (طليح جفان (36) طريح أكواب ودنان ، مكبا على قمش مـا أبقته المحنة ، وتجافت عن انتهابه الفتنة ، من فرش فخـم ، وسرداق ضخم ، وآنية وكتب ، وصعد من آلة الملك وصبب ، حتى اجتمع عنده من خبث زبرتها ، وغثاء غمرتها مع ما ادبوا له صدر مقدمه من شحم سنامها ، وأفاضوا من قدرها وسلامها، جملة علمته الجلوس فى الصدر ، وأرته الفرق بين الخل والخمر، وأهل طليطلة الممتحنون فى غمرتهم ساهون ، وعلى أعقابهـم ينكصون ، يخوضون ويلعبون ، ويخربون بيوتهم بأيديـهـم وأيدي المومنين) .

واذا نحن سبرنا مفاد هذه الاستعـارات ، واصخنا الـى رنين هذه السجعات ، انطبعت فى اذهاننا صـورة مـا كان ، فنعرف أن المتوكل لم يقدر ما كانت تتطلبه منه ظروف طليطلة، فما نبر تجاه اللاعبين والمخوضين بنبسة ، ولا جنح الى تعبئة فى النفوس ، أو ترتيب فى الاجناد ، ولا أقام اتصـالا مـع الملوك الجيران ، الذين شمروا عن ساق لتوزع المملكة الذنونية لصالح قشتالة فى الحال وفى المآل ، ولا استشرف للاطلاع على ما يبيت بين « برغش » و « قونقة » ، وانما انصرف انصرافا خـلال عـشـرة اشـهـر كـامـلـة ، قـضـاهـا فى طليطلـة ، الى اشباع رغائبه ــ كما سمعت ــ ، بوضع اليد على كل نفيس من الآنية والمتاع ، وآلات الملك ، والسلاح ، وفاخر

36) « الذخيرة » لابن بسام ، القسم 4 ، المجلد : 1 ، ص 124 .

الرياش ، واطلق هواينه فى الكتب على مداها — وهو العالم الاديب سليل المظفر العالم الاديب — فقضى وقته فى كنز كل ثمين ، وعلق نفيس ، مما صفحت عنه يد اولئك الرعاع ، الذين نهبوا القصور ، وتخطفوا متاع البيوت ، وهدروا القيم ، وأطاحوا بالرؤس .

وقد تذكر للمتوكل محمدة فى هذا المقام ، على احتمال أنها كانت منه واليه ، وأعنى بذلك حركة استنجاد واستنفار لجمع الكلمة ، قام بها امام الاندلس ، الفقيه القاضى ابو الوليد الباجى (403—474) فقد جاء فى « طبقات المالكية » (37) قولها من ترجمته : (وكان جاء الى المرية سفيرا بين رؤساء الاندلس ، يؤلفهم على نصرة الاسلام ، ويروم جمع كلمتهم مع جنود ملوك المغرب المرابطين على ذلك ، فتوفى قبل تمام غرضه رضى الله عنه) .

وقال عنه ابن بسام : (ومشى بين ملوك أهل الجزيرة بصلة ما انبت من تلك الاسباب ، فقام مقام مومن آل فرعون ، لو صادف اسماعا واعية ، بل نفخ فى عظام ناخرة ، وعكف على اطلال دائرة) .

والقاضى ابو الوليد،وان نسب الى باجة ، فهو معدود

---

37) مخطوط الخزانة الملكية لمؤلف مجهول ، مسجل تحت رقم 10.925 ، وانظر ترجمة مطولة للقاضي ابى الوليد الباجي فى « نفح الطيب » ، ج : 1 ، ابتداء من ص 353 ، ط : الميرية — وفى الذخيرة لابن بسام القسم 2 ، المجلد : 1، ص 81 ، تحقيق الاستاذ لطفى عبد البديع .

أيضا من أهل « بطليوس » عاصمة المتوكل ، وقد كانت له نزعة الى السلطان ــ كما حكى القاضي عياض ــ فتمت له مداخلة مع الرؤساء ، واستعملوه فى الرسائل بينهم ، وأدرك حظوة عند ابن هود ، صاحب سرقسطة ، وسواه ، ويبدو أنه لهذه الاعتبارات ، مثل فى ذهن بعض المحدثين احتمال نهدته الى هذه المأثرة باشارة من المتوكل صاحب « بطليوس » .

على أن هذه الصيحة بمبدئها ومنتهاها ، ومن أي كان صدورها ، انما كانت فى واد ، فان طالب الوحدة الى التساند بين أولئك الاملاك ، انما هو كمستولد البيض من الانوق ، سواء بسواء ، فمن المفروغ منه أن الاستخذاء الى قشتالة ، جرثومة فى الطينة ، وفى الفصول السابقات ، عرفنا جذورها المستحكمات المعرشات ، سواء بالمنصوصات ، او بالنقد والتحليل للاجتماعيات والنفسيات ، وذلك ما انتهى مؤرخ الاندلس ابن حيان ، الى تسميته بداء التقاطع ، فجلى عن زمانة عقدة الضعف الاندلسية بأبلغ بيان .

واذا كان جمع الكلمة قد تبرج حقيقة ماثلة ، كاملة بين ملوك الطوائف ، عندما نفروا باجمعهم سنة سبع وخمسين واربعمائة ، لاسترداد مدينة « بربشتر » الحصينة (38)ــ

38) تقع شمال « سرقسطة » على أحد فروع نهر « الابرو » ، انظر عن هذه الموقعة الدامية ومكرمة استردادها من يد الاردمانيين ، « البيان المغرب » ، لابن عذاري ، ج 3 ، ص 225 ، « نفح الطيب » ج 2 ، ص 574 ، ط : الميسرية .

استردادا ظافرا اقتصوا به لمحنتهم الدامية فيها ، ولما يمض على استيلاء الاردامانيين على تلك القلعة الحصينة ، غير سنة واحدة ، فان من الملاحظعلى هذه الظاهرة ، ان الاندلسيين ، ملوكا ورعية واجنادا ، لم يخطر ببالهم ، ازاء نصرهم المؤزر ، أن يقفوا نفس الوقفة ، ويدرعوا بنفس الوشيجة ، لمناوأة قشتالة ، لا سيما ، وقد كان لها يد فى محنة احتلال « بربشتر » الدامية ، حسب رؤية نافذة سجلت فى احد الفصول السابقة ، حيث اشير الى ان تسرب الاردامانيين اليها ، ما كان ليتم الا عن طريق تراب قشتالة ، وبتحريض يومئذ من صاحبها « غرذلند » ، الذي كان يهدف الى انهاك طاقة الدفاع عند ملوك الجزيرة ، استعدادا لاستيلائه فى نفس السنة ، على مدينة « قلمرية » ، اهم قلاع الجزيرة فى المنطقة الغربية ، واود أن أؤكد ان استئسادا اندلسيا فى وجه قشتالة ، وعند اهل هذا الجيل بالذات ، ليعد من رابع المستحيلات ، فهم أسد على غيرها، نعائم تجاهها ، بطبيعة عقدتهم المركبة ، وبالجبلة والعقيدة .

وهكذا كانت خطوات « ادفنش » قد سبقت فى حساب الاقدار ، ومعجرية الزمان ، خطوات فقيهنا ابى الوليد ، الذي لم يرجع بغير اجر الطاعة والصلاح ، ولم يلبث المتوكل السادر فى هواياته ورغائبه ، ان رجت مسامعه أخبار عودة القادر الى طليطلة ، تحت ظلال بنود « ادفنش » صاحب قشتالة ، فما

وسع المتوكل غير المبادرة (39) بالرحيل عنها الى بلده « بطليوس » ، معتبرا فراره مكايدة ، كما تمثله ابن بسام ، فأمسى أهل طليطلة ، كما أصبحوا منذ عشرة أشهر ، بلا أمير ، وأمرهم كالسفينة خانتها الريح .

ودخل القادر ابن ذي النون طليطلة ، يقدمه « ادفنش » ، بعدما هدها هول المفاجأة ، واشتد الحال (وضاقت بها انشوطة الحصار) .

ويوضح ابن بسام ، فيذكر ان القادر حينما انفلت الى « قونقة » راسل « ادفنش » مذكرا بسالف عهد قام بينه وبين جده المامون ، على النصرة ، والمنافحة عن كيان المملكة ، واثار ذكريات أيام منفاه ، حينما غلب عليه اخواه ، ويذكر القاريء أن جده المامون ، قد احتفل للجوئه اليه أيما احتفال ، وأقام له من قصره قفصا ذهبيا ، أنسى « ادفنش » غربته ومنفاه ، وأشع لألاؤه فى نفسه بضياء الآمال ، فكانت أيام التجائه الى كنفه ، طوالع سعد ، ميمونة الغدوات والروحات .

وما كان « ادفنش » ـ كما نعرف من طبيعته ـ ليقيم على عهد ، او يحفظ ذمة ، فسرعان ما نفض يديه من عهده ،

---

(39) هذه رواية ابن بسام (القسم 4، المجلد 1 ص 125) ، الذي سجل ان رحيل المتوكل عن طليطلة ، كان قبل وصول القادر صحبة « ادفنش » اليها ، اما المؤرخ ابن الكردبوس (« الاكتفاء » ص 83) فيروي أن المتوكل لم يخرج من طليطلة ، الا بعد أن اشتد عليه الحصار ، وهذا أيضا ما تسجله الرواية القشتالية ، التى تقول أن القادر لم يستطع الدخول الى عاصمته ، الا بقوة السلاح .

وتحلل من دالة بنى ذي النون ، بفتوى الكهنوت ، ثم حصــر تدبيره في المسيرة الى طليطلة بالذات ، وسبق خياله خطواته الى التربع في قصور الضيافة ، التى ملكت عليه نهاه ، وظل يسعى لتحقيق تلك الاحلام ، الى ان اصبحت اليوم ساعية اليــه في حقيقتها ، وزخرفها ، فليس بينه وبين تلك العرصات ، غير أيام ؟

ولقد كان اربه في الحاضرة الذنونية مكشوفا للعيــان ، سواء بوجهة دفة السياسة ، أو بعلنية الغارات على التــراب الذي ائتمنه عليه سيد الحاضرة ، واصطفاه للنصرة على المتكالبين عليه ، فمن المنتظر ان يعلق ابن بسام على رسالة اســتنــجاد القادر ، بان الاستجابة لمطلبه قد انتصبت في نظر « ادفنش »، مطية ذلولا للوصول من اخصر طريق الى مبتغاه ، وان الدخول الى طليطلة في الحال ، ولو برسم حماية صاحبها ، فيما يظهــر للعيان ، انما يخدم مأربه ، ويدنى فيها يومه ، وعن مقــصــده السافر في الاستجابة للقادر ، عبر ابن بسام في هذه الفقرات : (فلبى دعواه ، وسمع شكواه ، واظهر الارتماض لما عزه وعراه، وأقبل معه الى طليطلة ، يرد ماء بماء ، وييسر حسوا في ارتغاء ، يورد وردا اليه صدره ، ويحلب حلبا له اكثره) .

وقد كانت بين « ادفنش » والقادر ، صفقة لها ظاهر وباطن ـــ كما يقول ابن بسام : (وكان عاقده ابن ذي النون أنه اذا ضرج قذاها ، وأماط أذاها ، واقتضــى دينها ، خلى بينــه وبينها ، هذا ما اضمر، فأما الذي أظهر ، فانه وعده اداء جملة من المال ،لاتفى به مدة الاقبال ، ولا ارخاء الحال ، راهنــه بها أبناء الامجاد ، وبقايا معاقله الافراد) .

وأفهم من هذا النص ان الضمير الفاعل المستتر فى : (خلى بينه وبينها)، يعود على ابن ذى النون، وبه يستقيم معنى قول ابن بسام : (هذا ما أضمر) وذلك على أساس انه أبطنه احتراسا من أن يثير عليه خبر تمليك العاصمة للنصرانى أحنة أضرى ومعارضة أوسع وينسجم معه أيضا ذلك (الذي أظهر) ذرا للرماد فى العيون ، فلا يصل الى الآذان غير مطلق التعاقد على جملة رهائن واموال ، وليس هذا مما يغلى صفقة استرداد العاصمة ، وما لا يؤدى فى الحال سيقضى فى المآل .

وعلى هذا ، فان تخلى القادر عن طليطلة الى «ادفنش » قد تم بهذا التعاقد ـ حسب سياق ابن بسام وصيغته ـ قبل عودته الى عاصمته تحت ظلال رايات « ادفنش » .

وقد يسبق الى الفهم غير هذا ، وأن الضمير الفاعل فى : (خلى بينه وبينها) يعود الى « ادفنش » ، على معنى انه اذا أعاد القادر الى عرشه ، وازاح العقبات من طريقه ، خلى بينه وبين عاصمته ، وعاد ادراجه الى حال سبيله راضيا من جهد اسناده باقتضاء دينه ، ومكافأة الذنونى على سلف احسان جده ، ولكن الاخذ بهذا الوجه لا يستقيم له معنى ، لا مع (اضمر) ولا مع (اظهر) سواء كان « ادفنش » المضمر والمظهر ، او ان هذا الفاعل المناور هو القادر.

ويظهر ان ترنح الضمائر فى نص ابن بسام ، قد اظلم على المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال ، فأعرض عن الافادة من الاساس، ولم يسعه الا ان يلتمس للحادث الجلل موضعا مناسبا من الظروف التى ألحت على ابن ذي النون حتى اجترح

التعاقد على ذلك الوجه الملعون ، وهكذا افترض أن فكرة التخلى عن طليطلة انما خامرت ابن ذي النون بعد شهور من عودته الى عاصمته ، وبعد ان تجلى له ورأى رأي العين أن جند قشتالة قد احاط بها وتغلغل بين أهلها ، وان ادفنش قد خلع عن وجهه قناع الحماية ورد الجميل ، وانتصب مدرعا بلامة المحتل المتملك المقيم ، فلم يكن فى يد ابن ذى النون وقد عجز عن اداء غادح الدين ، وعن فك الرهائن والرهون ، غير التراضى حينئذ على التخلى عن طليطلة فى مقابل تأمين استرداده لولاياته الشرقية وفى طليعتها بلنسية .

وهو لعمري موقف منظور اليه فى القصة التى تدرجت روايتها من احراج فور احراج ، وبما تعاقبت على نفس الذنونى من فاجعات ، فهو ظرف مناسب ويلتفت اليه القاريء حتى بالخيال ، فيقيم عنده ارضية هذا التعاقد بكل اطمئنان . ولكن الموضوع للرواية ، وليس للافتراض .

والواقع ان منطق المستشرق الفرنسى يساير رواية صاحب « الاكتفاء » اذا نحن افترضنا انها كانت من مصادره يوم ظفر بافادات ابن بسام الفريدة فى المقام ، وفى هذه لا ينفعه ترجيح من غير مرجح لا سيما وهو الذي نسج بحثه على ما جاء به ابن بسام غير ناظر الى سواه .

وعلى كل حال فما زلنا مع نص ابن بسام لنشير الى انه يذكر المعاقل مرة أخرى ، ولا يسميها ، كما انه يصف هذه المعاقل بالبقايا ، مما يفيد أن طليطلة جردت

بتعاقد « قونقة » ، من ءاخر حصونها .

وقد رسم صاحب « الاكتفاء » بصيغة الحوار صورة هذا التعاقد ، كما عنى بذكر اسماء الحصون والمعاقل ، فقال — وهو يصف تلبية « ادفنش » لاستنجاد ابن ذي النـــون — (40) : (فجاء بنفسه فى أسرع وقت ، فتلقاه المقادر ، واتفـــقـــا على محاصرة طليطلة ، حتى يخرج عنها ابن الافطس ، ويصرفها اليه ، على أن يجعل جميع اموالها فى يديه ، فقال له الفنش : اعطنى حصن « سرية » ، وحصن « قنوريـــة » 41) رهنــــا ، فأدخل فيهما اللعين ثقاته فى الحين ، وحصنها أشد تحصين) .

---

40) كتاب « الاكتفاء » لابن الكردبوس ، ص 83 .

41) ورد اسم « قنوريـــة » مصحفـــا باسم « قـــوريـــة » فى نسخـــة « الاكتفاء » ، التى اعتمدها الاستاذ احمد مختار العبادي ، ولم يفت الاستاذ تصحيحها بكلمة « قنورية » من حصون طليطلة ، الواقعـــة على الحدود القشتالية ، كحصن « سرية » ، ولا ريب فى وجاهـــة التصحيح ، لان « قورية » — كما سنعلم — داخلة فى مملكة «بطليوس» وليست من تراب مملكة طليطلة ، والملحوظ ايضا أن « قنوريـــة » هذه ، صحفت الى « فتورية » فى كتاب « دول الطوائف » للاستاذ محمد عبد الله عنان ، وسيأتـــى فى حينه ذكر حصن ثالث ، وهو حصن « قنالش » الذي طالب به « ادفنش » بعدما اعاد القادر الى حاضرته طليطلة .

وأما « سرية » ، فمدينة قال عنها الملك عمر بن الافطس فى كتابه الى ملك المسلمين يوسف بن تاشفين : (ان عليها قلعة تجاوزت حد القلاع فى التحصين والامتناع ، وهى من المدينة كقنطرة الدائرة ، تدركها من جميع نواحيها ، ويستوي فى الارض بها قاصيها ودانيها).

واذا ذكرنا ان ابن بسام ، قد سجل قبل سطور من هذا ؛ أن المتوكل ابن الافطس دخل طليطلة بعقب سنة اثنين وسبعين (472) وانه لم يقم فيها غير عشرة اشهر فقط ، استطعنا ان نؤرخ دخول القادر اليها في معية « ادفنش » ، بآخر سنة ثلاث وسبعين 473 (42) واستطعنا أن نتأكد من ان تاريخ استنجاد القادر «بادفنش» ، وانعقاد الاتفاق بينهما ، قد تم حسب نصوص ابن بسام وابن الكردبوس ، « بقونقة »، وخلال شهور سنة ثلاث وسبعين ، مع حتمية افتراض أن تكون الشهور الاخيرة من هذه السنة (473) هي التي تم فيها هذا التعاقد المريب .

ويعنينا من الاهتمام بتحقيق هذه التواريخ ، ما رتبته الرواية القشتالية على اتفاقية « قونقة » بين القادر و «ادفنش» فقد نقل الاستاذ ليفي بروفنسال عن المؤرخ الاسباني ماننديث بيدال (43) ان الاتفاق بين القادر «وادفنش» ، قد وقع في سنة 1079 ، ثم زاد (وقد تبعه في الحال هجوم على المتوكل ، أفضى

---

42) ارخ الاستاذ المختار العبادي (تعليق رقم : 5 ، ص : 83 ، من كتاب : « تاريخ الاندلس » لابن الكردبوس) دخول القادر الى طليطلة بسنة اربع وسبعين واربعمائة (474) وكأنه يوسع مفهوم كلمة « عقب » في افادة ابن بسام ، الى ما يوازي ثلاثة اشهر ، واعني على هذا ، أن المتوكل ابن الافطس ، اذا كان أقام فيها عشرة أشهر ، ابتداء من الشهر الثالث من سنة 473 ، فسيكون دخول القادر اليها في بداية سنة 474 .

43) مجلة « هسبرس » المجلد : 12 ، سنة 1931 . « الاسلام في المغرب والاندلس » ، ص : 142.

الى الاستيلاء على « قورية » (44) .

ونظرا لصمت الرواية العربية عن تفصيل القول فى فاجعة حادث ضياع « قورية » ، تعين أن نناقش تاريخ الاستيلاء عليها عند هذين المؤرخين ، فنرى اننا حتى لو أخذنا بآخر شهور سنة 1079 الميلادية ، فسيكون الموافق من العام الهجري ، جمادى الثانية من سنة اثنين وسبعين ، أو أي شهر بعده ، وكلاهما من عام 472 ، مع ان الواقع ان القادر ابن ذي النون ، صاحب الاتفاقية التى (تبعها فى الحال الاستيلاء على «قورية») قد كان

---

44) تقع شمال غرب طليطلة قريبا من البرتغال ، على نهر « جحون » احد فروع التاجه ، وهى من فتوح موسى بن نصير ، وقد كانت من كورة « ماردة » ، ومن ثم قال صاحب « الروض المعطار » ، انها قريبة منها ، وقد اشتهرت بسورها المنيع ، الذي اشار اليه الادريسى وابن عبد المنعم الحميري ، وبأنها من معاقل الجوف خلال فترات دخولها فى حوزة المسلمين على عهد الخلافة ، ثم على عهد ملوك الطوائف . وقد اشار الى اهميتها وحصانتها الاصطخري فى المسالك والممالك » ، وسنرى شرحا لهذه الاهمية فى الكتاب الذي استنجد به المتوكل ابن الافطس ، أمير المسلمين ، يوسف بن تاشفين ، واستولى عليها « اردنيو » الاول ، ملك « ليون » عام 246 ، ولكنها استردت منه ، وخلاها الخليفة عبد الرحمن الناصر من الثوار والخارجين على الدولة الذين يتحصنون بها ، ومنها تسرب المنصور ابن ابى عامر فى غزوته الثامنة والاربعين عام 387 ، الى « غليسية » ، حين قصد « شنت ياقب » ، ثم صارت من مملكة « بطليوس » على عهد ملوك الطوائف ، الى ان استولى عليها « ادفنش السادس » ، فى أثناء هذه الحوادث ، وقد استردها منه المرابطون ، وظلت معقلا فى الثغر الجوفى ، الى ان استولى عليها « ادفنش » الثامن عام 597، وقد تحدث عنها الادريسى فى « نزهة المشتاق » ، وهى يومئذ فى ملك الروم

فى اثناء عام 472 ، لا يزال بطليطلة ، ولم يفر منها الا فى آخر السنة ، حيث دخلها بعده المتوكل — على جميع الروايات — وبعقب عام 472 ، حسب تعبير ابن بسام ، فلا مفر من القول بأن هناك تصحيفا مطبعيا فى السنة التى سجلها المؤرخ الاسبانى أو فى نص ما نقله عنه المؤرخ الفرنسى ، او ان هناك وهما فى الرواية القشتالية التى يعتمدها المؤرخ الاسبانى بيدال ، وهى رواية تاريخ الفونسو العاشر ، المعروفة بالحوليات العامة، أو التاريخ العام .

وهكذا ، فمن الواضح أن استيلاء « ادفنش » على « قورية » من مملكة المتوكل بن الافطس ، قد كان فى آخر سنة 473 ، او بعيدها ، وكان ضربة قشتالية ، قصد بها تقليم أظافر المتوكل ، حتى يعجز ، او تداخله الخشية من القيام بأي مناوأة ، بعد اضطراره الى التخلى عن مملكته الجديدة ، وهذا مما قد يؤكد احتمال فتح « قورية » بعد دخول القادر الى طليطلة ، فى أواخر عام 473 او بعيده بقليل ، لا فى اثناء لجوئه «بقونقة»، حسبما يتبادر من افادة بروفنسال عن « بيدال » المذكورة سابقا .

وعلى كل حال، فان تقدم الاحتلال او تأخره، لا يقدم ولا يؤخر فيما يهم الآن ، وانما الذي يعنى ، هو ان انتزاع « قورية » من يد ابن الافطس ، قد كان فى هذه الظروف ، وحوالى هذا التاريخ ، لا بعده بأعوام ، كما ذهب اليه بعض المؤرخين المحدثين (45) الذين انساقوا مع طريق ثانية فى الرواية

45) انظر « بنو عباد باشبيلية » للمرحوم عبد السلام احمد الطرد ، ط : تطوان ، ص 141 .

النصرانية ، فسجلوا انتزاع « قورية » من يد ابن الافطس ، بعد استيلاء « ادفنش » على طليطلة عام 478 ، وأعنى عندما كلب « ادفنش » على الجزيرة ، وشمر لخطوته النهائية ، للقضاء على الممالك الاسلامية ، وعندها — على ما جاء فى هذه الرواية — اتجهت جيوشه بالتحالف مع ملك « نبرة » ، وانتزعت يومئذ من ابن الافطس « قورية »، وزحف جيش آخر لتخريب بسائط اشبيلية الى آخر القصة .

وبالرغم عن نضوب مصادرنا العربية بالنسبة الى ظروف ضياع « قورية » ، فاننا نقع فيها على كلمات معدودة لابن الخطيب (46) استوعبتها العبارة التالية : (وقد تملك العدو بها — اي بالاندلس — « قورية » ومدينة « طليطلة ») ولا ريب ان عطف « طليطلة » عليها ، يفيد قبلية وبعدية ، وترتيبا تاريخيا ، يتفق مع الطريق الاولى للرواية القشتالية ، التى سجلت ضياع « قورية » فى الظروف الحالية .

ويؤكد ضياعها فى ذلك الوقت المبكر من آخر سنة 473 ، أو بعيدها بقليل، سياق صاحب «الحلل الموشية»، الذي اورد فى حوادث سنة 474 ه(وفادة جماعة من أهل الاندلس) على أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، وشكوا ما حل بهم من أعدائهم ، فوعدهم بامدادهم) وبعد هذه الافادة التى اقتصر عليها مطبوع تونس ، ومطبوع الرباط ، من « الحلل

46) « اعمال الاعلام » ، القسم الثالث ، ص 237 ، تحقيق وتعليق ، الاستاذ ابراهيم الكتانى ، والاستاذ احمد مختار العبادي .

الموشية » (47) تختص مخطوطاتها بزيادة جاء فيها باثر ما ذكر: (وكان ممن كتب اليه حين ذاك ، المتوكل على الله ابن الافطس ، يستصرخه حين كلب العدو على بلاده ، ومن بعض مخاطباته ... ثم تورد النسخ المخطوطة ، نص الرسالة ، وهى التى يجد القاريء ، المصور التالى عنها (48)

47) مطبوع تونس ، ص : 20 ، مطبوع الرباط ، ص 22 .

48) انظر نسختي الخزانة الملكية رقم : 3674 ورقم : 4027 ، وقد جلب الاستاذ محمد عبد الله عنان فى كتابه : « دول الطوائف » لدى الحديث عن مملكة « بطليوس » ، نص هذه الرسالة ، ولا ريب انه أستقاها من احد المخطوطات ، ولكنه أحال فى الهامش على الرقم 20، الذي هو رقم مطبوع تونس من « الحلل الموشية » الذي لا يحتوي على هذه الرسالة وانما يسجل طالعتها فقط .

ونستجلي من هذا المصور ان الكتاب وصل الى أمير المسلمين عند تاريخ توجه الوفد الاندلسي اليه سنة 474 .

وثانيا : يفيدنا الكتاب أنه كان مسبوقا بكتاب قبله ، عند حلول الرزية باستيلاء العدو على « قورية » ، مما يردنا ــ بحكم هذا الترتيب ــ الى ما قبلسنة 474 .

وثالثا ، يفيدنا الكتاب ان مدينة «سرية» (من أعمال مملكة طليطلة) وذات القلعة الحصينة التى تجاوزت حد القلاع ، قد كان استيلاء « ادفنش » عليها بعد استيلائه على « قورية » ، ويعنى هذا ، ان المال الذي ارهق به القادر ابــن ذي النــون رعاياه لفك « سرية » المرهونة ، لم يف بما كان يطمع غيــه « ادفنش » ، فغلق الرهن ، وهذا مفاد قو لابن بسام ، حين تحدث عن ضياع الحصون : (فما راهنه منها عليه غلق) وذلك بالتأكيد هو ما خطط له « ادفنش » ونواه عندما شرط الارتهان.

وتتفحنا خاتمة الكتاب بافادة ذات أهمية ، وهى أن المتوكل ابن الافطس ، قد كان صاحب المبادرة الاولى (49) لانقــاذ الاندلس باستصراخ المرابطين ، وقد كان ظاهر العزم على هذا الاستصراخ ، حسبما يفصح عن ذلك صنيع الــكتــاب الذي تعددت فيه صيغ الاستنجاد ، فلم يكتف بالتلميح الى واجب الجهاد ، ولا بقوله : (ان لم تبادروا بجماعتــكــم عجــالا) بل

---

49) لقد اشار الى هذه المبادرة المتوكلية الاستاذ محمد عبد الله عنــان فى كتابه : « دول الطوائف » ، حينما جلب نص كتاب المتوكل الى امير المسلمين ، كما نوه بها الدكتور حسين مؤنس فى احد تعاليقه على « الحلة السيراء » ، ولكن بعض المؤرخين ما زالوا واقفين عند حد النصوص التى نسخها هذا الكتاب المبين .

اردفها بقوله : (وتتداركوها ركـبـانا ورجـالا) ثـم زاد : (وتنفروا نحوها خفافا وثقالا) ، وتلك ظاهرة تبصر ، واقتناع، فالحاح ، لا تخفى فى هذا المقام .

ولقد كان معروفا ان هذه المبادرة ، انما كانت فضيلـة مقصورة على المعتمد بن عباد ، وحسنة من حسناته التى كفرت عما قدمت يداه ، حسبما سجل ذلك ابن الابار (50) .

والان ، وقد سدت هذه المعلومات عن ضياع « قورية » ذلك الفراغ الذي يشعر به القاريء فى قصة ابن بسام ، فلنعد الى ذخيرته مرة اخرى ، لنصيخ الى بقية تفاصيله عن المأساة.

الربـــاط عبد الرحمن الفاسى

---

50) « الحلة السيراء » ، ج : 2 .

في مكتبة المناهل

قراءات في أدب الصباغ

الحجم : 16 × 22 سم (111 صفحة)
مطبعة : النجاح الجديدة
الناشر : دار الثقافة بالدار البيضاء
المغرب – 1977

تأليف : عبد العلي الوزغيري
عرض : حسن الطريبق

هذا كتاب جديد يدرس فيه مؤلفه ، أدب الاستاذ الاديب محمد الصباغ ، وقد فسر دراسته له ، بكون (الواجب يفرض علينا جميعا أن نقرأ الادب المغربى ، قديمه وحديثه ، وأن نعيه وندرسه لنعرف به) ، (1) وقد (جاءت هذه الدراسة المتواضعة، تلبية لذلك الواجب النبيل ، واعترافا بجهود كاتب مغربى معاصر شدتنى لادبه عوامل كثيرة ، منها تميز صوته بين اصوات اخوانه

وزملائه الكتاب المغاربة ، وغزارة انتاجه المتعدد الاشكال والاغراض ، وما يثيره أدبه وأدب جيله من قضايا نقدية وتاريخية لها صلة بالادب المغربى الحديث كله ... ومنها كون الصباغ رائدا من رواد ادبنا المغربى المعاصر ، بدأ طريقه قبيل فجر الاستقلال، وهو اليوم ، ما يزال يواصل العطاء (2) .

الكتاب يأخذ بمنهج سليم التدرج، لعله يستوفى العرض، ويطيق حمل ما تعكسه تجربة محمد الصباغ فى مسارب أوديتها، ويستغرق الالمام الكافى بها . وقد قسم المؤلف كتابه الى أقسام هـى : تقديم ـ تمهيد ـ أدب الصباغ ـ كلمة أخيرة .

فى التقديم ، يشرح الاستاذ عبد العلى الودغيري السبب الذي دفعه الى دراسة أدب الصباغ ، وفى التمهيد الذي يحتل تسع صفحات من الكتاب ، يتناول حياة هذا الاديب وما يحيط بها من عوامل أثرت فيها وطبعتها بعدة مظاهر وألوان ، وهكـذا تعرض المؤلف الى ظروف الاستعمار بتطوان (موطن النشأة) ، والى مراحل النضال ، وركز على ذكر النضال السياسى وما تميز به من ايجابيات نتج عنها وعى ملحوظ تمثـل فى فتـح مجموعة من المدارس الحرة ، وقد وقف عند (المعهد الحر) لان فيه (نشأ محمد الصباغ يعصر كروم العلم ويرشف رحيق المعرفة ، وفى رحابه يتذوق طعم اللغة التى أحبها وتوج بهـا رؤوس أقلامه ، وهناك خفق قلبه ، لأول مرة ، وهو يرنـو الى راية البلاد ، فيرتفع صوته فوق أصوات الزملاء ، وهو يردد النشيد : (يا لواء خافقا فوق النجود) (3) .

ويسترسل فى ذكر ما كانت تتميز به الدراســـة فى هــذه المدارس الحرة من تشجيع على الكتابة فى المجلات الحائطية ، مما كان يشكل عامل تشجيع وتربية للحاسة الادبيــة وللملكــة الجمالية ، ويسوق استشهادا من (فوارة الظمأ) يؤكد به ان الصباغ لم ينس فضل أساتذته ، ومربيه عليه . بعدئذ يذكــر المؤلف « المناخ العام » الذي كانت عليه تطوان، حيث كانت هى « مركز الثقل الاسبانــى » بالمغرب ، وكانت سياسة الاسبان تتغاضى ، نوعا ما ، عن الاتصال الثقافــى بين شمال المغرب ، وبين المشرق العربــى ، الشىء الذي هيأ تطوان ليكون لها منفذان على العالم الخارجــى :

1) الغرب، عن طريق اسبانيا. 2) الشـــرق ، الذي كـــان « يضطرم بالثورات ويشهد مرحلة غليان فكري وسياسى » ، وهنا يذكر البعثات الثقافية الى الشرق ، ويعدد أسماء بعــض أفرادها ، ثم يشير الى أن الصباغ لم يكن راضيا كل الرضى عن بعض هؤلاء ممن رجعوا بعد حصولهم على الشهادات العليا لينكمشوا ، لانهم كانوا قد « انزووا فى عقر بيوتهم ، لا يسمع لاقلامهم صرير، ولا لقوافيهم رنين ، ولا لتآليفهم صوت» (4) بعد هذا ، يوضح أن هناك من اختاروا سبلا اخرى للدراسة ، غير المشرق ، حيث ذهبوا الى اسبانيا ، وضمنهم كان الصباغ ، ويحدد طبيعة « المناخ الفكري » فى الشمال وقتئذ بكونه يقوم على تيارين :

1) ــ التيار الشرقى 2) ــ التيار الغربـــى ، ويضيف اليهما منبعا آخر ينحدر من عمق الثقافة الدينية والعربيــة القوميــة « فتتكون من ثلاثتهما روافد رئيسية لثقافة جيل الصباغ الذي أذكته الروح الوطنية وغذته بلبانها ونبيل مشاعرها » (5) ، ثم يسترسل فى توضيح التشكيل العام للمناخ الفكري بالاشارة الى دور الصحافة بتطوان خلال فترة الحماية الاسبانية ، وينتهـى به المطاف فى « تمهيده » الى حصر العوامل الاخرى التى كان لها تأثيرها فى ثقافة الصباغ ، ويحددها فى :

أ) ــ اتصاله ببعض الشخصيات المرمـوقة على مستـوى القيادة الوطنية والفكرية بالبلاد (محمد داود ، عبد الخالـق الطريـس ، علال الفاسى).

ب) اتصاله بالادب الاسبانــى على نطاق متصل وواسع .

ج) اتصاله بالادباء اللبنانيين .

بعد التمهيد ، ينتقل الى « أدب الصباغ » ، وبــعـد عرض توضيحى قصير ، يضع تقسيما له فى ثلاث مراحل :

1) ــ المرحلة الاولى ، وهى المرحلة المبكرة التى بدأ فيهـا الصباغ تجربته الادبية بكل ما تحمله مؤثرات وتعثرات، وتنقلات عبر المحاكاة والاعجاب بطائفة من شعراء وأدباء لبـنـان ، من مهجريين وغير مهجريين ، وبكل ما يصحبها من حماس ومعاناة وعشق ، ومحاولات انفلات نحو التميز والاستقلال ، حيـث ينتقل الصباغ بين دوافع ذاتية تتأرجح بين الاتباع والتقفى

لخطى جبران ولغيره فى تفاوت تعبير بين الجودة والضعف ، وبين البوح النفسى النابع من صميم ابتكاره ، وحيث يحاول المزج بين الذاتى الممعن فى الذاتية وبين الموضوعى الممزوج بدوافع هذه الذاتية ، وبالخصوص عندما تجذبه اليها الظروف السياسية الملتهبة بالبلاد اثناء مكافحة الاستعمار ، ليستخرج منها ، ما يستخرج (شلال الاسود مثلا) من عطاء ادبى مناسب لها .

لقد استند المؤلف فى الكشف عن طبيعة هذه المرحلة الى خمسة كتب ألفها الصباغ فى آخر فترات الحماية هى : « العبير الملتهب (1953 م) «شلال الاسود» (1956 م) ، «شجرة النار» (1955 م) ، « أنا والقمر » (1956 م) ، ثم «اللهاث الجريح » (1955 م) .

فى (المرحلة الثانية) التى يعتبرها المؤلف من أكثر المراحل خصوبة ونضجا وتطورا فى الاسلوب وفى التفكير الى حد ذهب معه الى اعتبار الصباغ اثناءها قد اصبح « صاحب مذهب فنى أصيل ومتفرد لا يكاد يشاركه فيه أحد من كتاب عصره » (6) يتناول كتبه الآتية « فوارة الظمأ » (1961) ، «عنقود ندى » (1964) « شموع على الطريق » (1968 م) ، «شجرة محار » (1972 ، « نقطة نظام » (1970) .

أما المرحلة الثالثة ، فقد استغرقت حوالى ست صفحات من الكتاب وتتعلق باهتمامات الصباغ الاخيرة التى اخذت تتجه الى الاطفال لانتاج ادب يهتم بهم ويتجه الى خدمتهم ، وذلك نظرا لافتقار ادبنا العربى الى « ادب الاطفال » وقد اشار

المؤلف الى هذه المرحلة اشارة لم تتعمق محتواها ربما لكونهـا تأخذ مرتكزها العميق فى حياة الكاتب الى الآن، بصورة متفردة، وهكذا اشار الى « عندلة » ومجموعة « بسمة » .

فى النهاية يثبت المؤلف « كلمة اخيرة » يستعرض فيها مجمل احكامه واستنتاجاته عن دراسة ادب محمد الصباغ .

— 2 —

الكتاب ، كما يظهر من هذا التلخيص الموجز ، يقوم على أساس من فحص للتجربة وانكباب على المادة لفهمهما ولاستقاء عناصر محتواها بصورة فيها من حسن التناول واتفاق التجاور بين المنهج وبين المادة ، وفيها من الاجتهاد المخلص والاستنتاج الصائب القائم على الاقتناع ، والمماحكة البعيدة عن الابتسار والتهافت ما يجب تقديره وتحبيذه .

لقد قدم المؤلف ومهد ، واعطى لعمله الدراسى تبويبا لا ريب فى أنه يساعد على بلورة « المقابل » الذي يعكس التجربة الا اننا مع ذلك نتساءل :

— هل اراد الاستاذ عبد العلى الودغيري فى تحديده لمراحل ادب الصباغ بثلاث مراحل ، ان يعتبرها نهائية يتوقف عند أكنافها هذا الاديب ، دون ان يتمكن من اقتحام دروب أخرى فى مرحلة رابعة او فى ما بعد الرابعة ؟

لقد تحدث في المرحلة الثالثة عن الصباغ باقتضاب ، ولم يتناول هذه المرحلة باستظهار وباستقراء عميقين ، لانه اكتفى بايراد ما قالته غادة السمان من تكسير الصباغ لثنائية الخير والشر فى الحياة لدى الطفولة ومن محاولة الخروج بادب الاطفال من الصبغة التعليمية الى الصبغة الابداعية ، دون ان يحاول الكشف عن ماهية هذا الابداع وحرارته وكثافة هذه الحرارة فى صورة تحديد للخصائص وللميزات ، حتى كأنه أراد أن يمر على هذه المرحلة مر الكرام وكأنها خاتمة مطاف ... (على أن ذلك لم يفقد كتابه عمق التناول ووجاهة الطرح الصائب) .

حقا فان الصباغ أخذ يغيب كثيرا عن الساحة ، وأخذ يكتفى بنشر النزر القليل من تحفه ، ولسنا ندري ما اذا كان قد اختار العزوف والاقتصار على استعمال « نظام الحمية » ، أم أنه ينتج ويبخل علينا بنشر ما ينتجه ؟

وحتى بالنظر الى ما ينشره الآن على صفحات «المناهل» — رغم قلته — فان المؤلف لم يلتفت اليه الا فى حدود خافتة ومحدودة جدا ، مع ان الواجب كان يقتضى تتبعا واستيغاء يعينان على ادراك النقطة التى يقف عندها مؤشر الابداع لدى الصباغ .

فى ظني ان الصباغ حاليا ، وبالنظر الى ما ينشره بالمناهل يود الرجوع الى حومة الشعر ، ولو عن طريق الاهتمام بأعلامه القدامى والمعاصرين ، ذلك لانه يتصيد بعض المناسبات لتنطلق عتاق مداركه معربة عن هذا المقصد . لقد كتب عن «ابن زيدون»

اثناء الاستعداد لمهرجانه الالفــي ، وكتب عن « فيثنــطــى الكسندري مرلو » بعد حصوله على جائزة نوبل للآداب ، وكتب عن ملتقى اشبيلية كتابة مجنحة تتخذ (خرالدة) منطلقا لتهويماتها وسبحاتها ... وأغلب الظن ، فانه هو الذي يترجم قصائد الشعراء الاسبان للمناهل ، وكتب عن الطفولة أيضا . انه الآن موزع الاهتمام بين ادب الطفولة ، وبين الشعر والشعراء ، ومعنـــى هذا ان فترته الحالية او « المرحلة الثالثة » كما أسماها الاخ الودغيري ، لا تختص بادب الطفولة وحده ، لهذا كان عليه ــ حسب رأيـــي ــ أن يركز اكثر على هذه المرحلة وعلى غيرهــا ويكشف عن شتيت العناصر فى :

1) طبيعة ادب الاطفال لديه ، مع التدقيق فى استخـــراج صورة واضحة عن خصائص ومميزات هذه الطبيعة ، وهل هى فى ملامحها الابداعية ، متفردة اللون ، أم أنها ذات اشتراك مع غيرها ، سيما واننا نعرف ان الاهتمام بأدب الاطفال قد حصل لدى بعض الادباء الغربيين من امثال الشاعر الانكليزي وليــم بليك ولدى العرب من امثال محمد سعيد العريان وغيره .

2) طبيعة اهتمام الصباغ بالشعر ومدى تطابق كتاباته عنه الآن ، مع الشعر فى لغته ورشاقته وسمو معانيه ، ومعنى هذا أنه ينبغي الربط مع اجزاء التجربة الشعرية لديه فى « شجرة النار » و « أنا والقمر » وفى ما يعطيه حاليا من عطاء لملاحظة الرســم البيانى بدقة حتى تتكشف طبيعة التطور الشعري لدى الرجل فى كل تكاثفاتها ومراحلها ، وهناك ما يمكن أن نستأنس بـــه فى

معرفة تطوره وادراك مصادر استيحائه ، فهو نفسه يقـول فى كتابة اخيرة عن (فيثنطى الكسندري) ، بعد حصوله على جائزة نوبل : « منذ وعيتك ــ واحساسى بك المسترسل فى خفقات المهجة ولفتات المقلة دفقات اصائل واصباح ، الى هذه الهنيهة التـى أظفر فيها فطنتك وألمعيتك اكليل غار ــ وأنا أترسم خوارقك قافية ... قافية » (7)

3) ــ طبيعة الرؤيا الفنية العامة لدى الصباغ ، وهل هى فى تمرحلها قد وصلت الى مشارف أخرى تهيأت فيها لتحمل قدرها من المشاركة فى الرصد والتحول بقناعة وصدق طويـة ام لا ؟ ويجب الاهتداء هنا ، بالمؤثرات الناتجة عن ارتباط الصباغ فكريا ببعض القادة فى مجال الفكر والوطنية ، وبخاصة المرحوم علال الفـاسـى .

ان هناك ما يؤشر بتأثره بالرجل ، وقد اشار المؤلف الى ذلك اشارة سريعة كان يجب أن يتوسع فى شرحها وتناولها .

4) أسلوب الصباغ ومميـزات قاموسـه اللغـوي ، واستعمالاته التركيبية ، لانه لا يكفى أن نقول فى تصوير تطور أسلوبه بأن بولس سلامة قال عنه فى كتابته الاولى بأنه كـان يهتم بالمعنـى أكثر من اهتمامه بالاسلوب ، او نقول عنه بأنـه كان فى المرحلة الثانية يهتم بالاسلوب أكثر من اهتمامه بالمعنى ، بل كان ينبغى ان نسبر الغور ونتقصى العمق ونضع التجربـة على المحك النقدي فى « تجزيئية كلية » كما يقال .

ان محمد الصباغ أديب أصيل أفصح عن عطاء ادبي ممتاز ، ومر على عدة مراحل مكنته من ان يغترف ضامينه وهو مفتون بالجمال يلتقط من سرحات خياله الفتنة بقلم سيال، وطبع نفاذ ، وقريحة متفتحة ، انه كاتب خيال ، له تخريجات خيالية متفردة لعلها بمراعاة البعد التعبيري ، تقوم مقام « الحكمة » وتعطى تميزا للرجل ، لا بد من ملاحظته جيدا فى نطاق البحث والنقد ، وانه عبر ساحة تجربته ، تراوح ما بين الاتباع والابداع وانشغل فى البداية بأدباء لبنان حقا ، ووقف عند تصويرهم للالم منبهرا ومأخوذا ، لا لكون الالم كان يجعله يحس بنفسه فى تلك المرحلة الاليمة والظروف الاليمة ، والاهتمامات الاليمة ،فحسب، وانما لكون بعض هؤلاء الادباء عرفوا الالم وعايشوه معايشة مستمرة فى أعماق الشجن والعجز فجاء افصاحهم عنه مدعاة للعشق ، فهذا بولس سلامة الذي شغل اهتمام الصباغ الى حد بعيد ، كان متسمرا فى فراشه لا يطيق مبارحته سنوات وسنوات حتى قال فى (عيد الغدير) :

ان حظى من الحياة سرير صرت منه، فلم يعد خشبيا!

هذا الشاعر « الالم » كان بصدق نبرته وبسحمة ليل حياته قادرا على اجتذاب شاب رهيف الاحساس ، مولع بالادب اليه ليهتم به الى درجة الدنف والعشق ، فضوع من زهور خميلته « عبير ملتهب » مثير فى فترة رومانسية جامحة وسائدة وفى حياة لا تجد السلوى الا فى هذه الرومانسية الجامحة ...

أديب من هذه الطينة ، يستحق الدراسة والتتبع والتعريف به لدى الآخرين . وان كتاب الاخ الاستاذ عبد العلى الودغيري، يعتبر اوفى دراسة الى الآن عنه، يمكن أن تتخذ كاطلالة مشرقة واضحة على رحاب ادب الصباغ تعين الباحث على الحقيقة ليراها ، وتعين الراغب فى المعرفة الى ادراك كنهها فيما يتعلق بأدب هذا الرجل .

وانى أهنئه على عمله وأتمنى له المزيد من الاعمال الادبية حتى يسد بابا نحس بالحاجة ، الى سدها وعلى الله التوفيق .

العرائش حسن الطريبق

الهوامش

1) — قراءات فى ادب الصباغ — ص 7

2) — نفس المرجع — ص 7

3) — نفس المرجع — ص 11

4) — نفس المرجع — ص 14

5) — نفس المرجع — ص 15 3

6) — نفس المرجع — ص 109

7) — المناهل — العدد العاشر — ص 161

الإعلام الثقافي

الأسبوع الثقافي المغربي بألمانيا الفدرالية

في اطار التعريف بثقافتنا في البلدان الاوربية ، وتمتينا للروابط القائمة بين المملكة المغربية والجمهورية الالمانية الفدرالية ، نظمت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، أسبوعا ثقافيا مغربيا بعاصمة الجمهورية الالمانية الفدرالية ، في الفترة المتراوحة ما بين 25 و 30 أبريل 1978 .

ولهذا الغرض ، أوفدت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، الى بون ، موظفا ساميا للوقوف في عين المكان ، على الترتيبات المتخذة لتنظيم هذه التظاهرة الثقافية ، كما حضر الى المغرب وفد من المانيا الفدرالية لنفس الغرض .

وبهذه المناسبة ، تم الاتصال مع سفارة المملكة المغربية ببـــون ، بشأن تنظيم حفلات موسيقية وفلكلورية ، وتقديم عروض سينمائيـــة فى عطلة آخر الاسبوع لفائدة الجالية المغربية بألمانيا الفيدرالية ، والتي تضم العمال القاطنين بمدن بون ، وفرانكفورت ، ودسلدرف .

واشتمل برنامج هذا الاسبوع على معارض فنية وحفلات موسيقية وفلكلورية ، وعروض سينمائية التي تبرز مظاهر الحضـــارة المغربيـــة العريقة ببلادنا فى مختلف مجالات الفنون الحديثة . وذلك على الشكـــل التالـــي :

1 ـ المعـــــــارض :

— معرض الفنون التشكيلية ، بمشاركة جمعية الفنانين التشكيلييـــن المغاربة بالدار البيضاء والجمعية المغربية للفنون التشكيلية بالرباط .

— معرض الصور الملونة للمعالم التاريخية وتماثيل البرونز القديـــم وزخرفة المخطوطات .

— معرض الصناعة التقليدية والتحف الاثنوغرافية .

— عـــرض القفطـــان المغربـــي .

2 ـ الفنون الشعبية (الفلكلور) :

— فرقة ايمي نتانوت ـ فرقة امكونة ـ فرقة هوارة ـ فرقة الرايسات

— فرقـــة الاخويـــن بوجمعـــة ـ فرقـــة المشاهـــب

3 ـ العـــروض السينمائيـــة :

— شريـــط المسيـــرة الخضـــراء

— شريـــط مغـــرب 1970

— شريـــط وادي زيـــــز

4 ـ حفـــلات موسيقيـــة :

ونظرا للنجاح الكبير الذي حققته بلادنا بموسيقى الآلة في الاسبوع الثقافي العربي بتبنكن بألمانيا الفدرالية سنة 1974 ، وبلنـــدن أثنـــاء المهرجان العالمي للفنون الاسلامية سنة 1976 ولاقبال الجمهور الالماني والانجليزي على هذه الموسيقى ، فقد أحيى جوق المعهد الوطني للموسيقى بتطوان ، حفلات موسيقية من هذا النوع من الطرب .

وقد رافق هذه البعثة الثقافية المكونة من 95 فردا ، مسؤولون من وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية للسهر على ضمان نجاح هذا الاسبوع الى جانب فرقة من وزارة الاعلام لتغطية هذه التظاهرة الثقافية .

وقد حضر حفلة افتتاح هذه التظاهرة الثقافية السيد سفير صاحب الجلالة ببون ، والسيد وزير خارجية جمهورية المانيا الفدرالية ، وكبار المسؤولين فيها ، وأعضاء السلك الدبلوماســـي العربـــي والاجنبـــي ، وشخصيات بارزة في الميدان الثقافي ، كما شرف المعـــرض الثقافـــي بزيارته فخامة رئيس جمهورية ألمانيا الفدرالية ، وأهديت له باسم معالي وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية لوحة فنية للرسام ابن سفـــاج. وأقيمت بهذه المناسبة ، حفلات استقبال على الطريقة المغربية .

هذا ، وقد أحيت البعثة الثقافية المغربية ببون ، في مساء يـــوم السبت 29 أبريل 1978 ، حفلة فنية كبرى للجالية المغربية ، حضرتها جماهير غفيرة . وخلال هذه الحفلة كانت هذه الجماهير تـــردد شعارات وطنية ، وتدعو الله بالنصر المبين ، والتأييد المكين ، لحضرة صاحـــب الجلالة الملك المعظم الحسن الثاني نصره الله ، معبرة في نفس الوقت عن اغتباطها الكبير بهذا الحدث الثقافي .

كما أن وسائل الاعلام الالمانية من صحافة واذاعة وتلفزة نوهـــت بمعروضات المغرب ، وبالحفلات الفنية التي أحياهـــا ، كمـــا أشادت بالاصالة العريقة الذي يتميز بها الفن المغربي ، وبما تزخر به بلادنا مـــن تـــراث أثيـــل .

الأسبوع الثقافي العماني بالمغرب

توطيدا للعلاقات الاخوية والثقافية المتينة ، التي تربط بين المملكة المغربية وسلطنة عمان ، نظم بالمغرب أسبوع ثقافي عماني افتتحه بمسرح محمد الخامس بالرباط ، صاحب السمو الملكي ولي العهد الامير الجليل سيدي محمد ، الذي كان مصحوبا بالاستاذ السيد الحاج محمد أبا حنيني ، وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية ، والوزير المشرف على تربية أصحاب السمو الملكي الامراء والاميرات السيد محمد عواد ، وسفير سلطنة عمان بالمغرب السيد شبيب ابن تيمور آل سعيد ، ورئيس الوفد العماني السيد سالم سعيد السيادي ، وذلك في مساء يوم الثلاثاء 8 جمادى الثانية 1398 هـ الموافق 16 ماي 1978 .

حضر هذا الحفل بعض اعضاء حكومة صاحب الجلالة ، ورجال السلك الدبلوماسي ، الى جانب مجموعة كبيرة من الشخصيات الثقافية والصحافية والعلمية . وقد بذلت وزارة الثقافة والاعلام العمانية ، مجهودات مشكورة لتقديم هذه التظاهرة الثقافية الى الشعب المغربي ، وعينت للاشراف عليها نخبة من ذوي الكفاءات في ميادين الآثار والاتنغرافيا والموسيقى ، والسينما ، والفنون الشعبية .

وأثناء حفل الافتتاح ، اقيمت على شرف صاحب السمو الملكي الامير الجليل سيدي محمد ، حفلة شاي ، قدم خلالها سفير سلطنة عمان بالمغرب لسموه هدية رمزية .

كما أن وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، بذلت مجهودات لانجاح هذه التظاهرة الثقافية في أهم المدن المغربية . وفيما يلي البرنامج العام الذي اشتمل عليه الاسبوع الثقافي العماني :

الجمعـــة 12 مايـــو 1978 م

وصول الوفد الرسمي العماني وفرقة الفنون الشعبية العمانية الى مطار الرباط ــ سلا .

الثلاثـــاء 16 مايـــو 1978 م
بالـــربـــاط

تحت رئاسة صاحب السمو الملكي ولي العهد الامير الجليل سيدي محمد ، افتتاح الاسبوع الثقافي العماني فى الساعة السادسة والنصف مساء ، وتدشين المعرض الاتنوغرافي بمسرح محمد الخامس .

الاربعـــاء 17 مايـــو 1978 م
بـــالربـــاط

سهرة فنية كبرى تحييها فرقـــة الفنـــون الشعبيـــة العمانيـــة بمسرح محمد الخامس ، الساعة التاسعـــة مســـاء .

الخميس 18 مايـــو 1978 م
بـــالربـــاط

نبذة عن سلطنة عمان ثم عرض افلام وثائقية بقاعـــة المحاضـــرات بوزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، شارع غاندي .

بفـــاس

سهرة فنية كبرى تحييها فرقـــة الفنـــون الشعبيـــة العمانيـــة بسينمـــا امبيـــر ، الساعـــة التاسعـــة مســـاء .

الجمعــة 19 مايــو 1978 م
بافــــران

مادبــة غــداء على شــرف الوفــود بنزل مشليفــن .

بــالربــاط

حفلة عشاء بفندق حسان يقيمها معالي وزيــر الدولــة المكلــف بالشؤون الثقافية الحاج محمد ابا حنيني على شرف الوفــد العمانــي وفرقــة الفنــون الشعبيــة .

السبــت 20 مايــو 1978 م
بالدار البيضاء

سهرة فنية كبرى تحييها فرقــة الفنــون الشعبيــة العمانيــة بالمسرح البلــدي ، الساعــة التاسعــة مســاء .

الثلاثــاء 23 مايــو 1978 م
بــالربــاط

سهرة فنية كبرى تحييها فرقــة الفنــون الشعبيــة العمانيــة بمسرح محمد الخــامس ، الســاعــة التاسعــة مســاء .

مأدبة عشاء على شرف الوفد العماني

اقام السيد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية مساء الجمعة 11 جمادى الثانية 1398 هـ الموافق 19 ماي 1978 مأدبة عشاء تكريمــا لاعضاء الوفد العماني بمناسبة الاسبوع الثقافي العماني بالمغرب ، حضرها بعض الوزراء المغاربة وسفير سلطنة عمان بالمغرب واعضاء مــن وزارة

الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، وصفوة من الشخصيات العلمية والثقافية .

وفى نهاية الحفلة القى الشاعر العماني سليمان خلف الخروصي قصيدة بعنوان تحية « من عمان الى المغرب الشقيق » ، كما القى الشاعر المغربي الاستاذ علي الصقلي قصيدة أخرى بالمناسبة ، وقد قوبلت القصيدتان بالتصفيقات الحارة ، ونثبت فيما يلي نص القصيدتين :

تحية من عمان إلى المغرب الشقيق

تحية من ((عمان)) المجد والكرم ... ارض البطولات والامجاد والشمم
ارض الحضارة والآثار ناطقة ... بانها فى العلى كالمفرد العلم
ارض المفاخر والتاريخ من شهدت ... له البرية من عرب ومن عجم
ارض الثقافة والعلم الذي طلعت ... منه بدور أزالوا غيهب الظلم

* * *

تحية من ((عمان)) نحو مغربنا ... تحية الود والاجلال والعظم
تحية من صميم القلب نبعثها ... الى الشقيق بلاد العلم والحكم
للمغرب العربي الحر من خرست ... عنه القوافي لما ابدى من الكرم
لله من بلد عز النظير له ... كانه فى العلى نار على علم
من لي كمثل ((رباط الفتح)) من بلد ... فى الحسن واللطف نالت ابدع القسم
وانت يا فاس دار العلم من سلف ... وفى مراكش قل ما شئت واحتكم

وكم بمكناس من ريم شغفت بـــه ... كانه قمر فى حنـــدس الظلـــــم
يا اهل مغربنـــا بالله حسبكـــــم ... فقد رقوتم ذرى العليـــاء بالهمـــم
وقد نبعتم وحدتم كل مكرمـــــة ... فلا يرى قط الا بـــارع وكمـــي

* * *

اني احيى وزيرا طاب محتـــــده ... فى قمة المجد والآداب والشيم
أبا حنيني الذكي القرم حسبك من ... مفوه لسن بالفضـــل متســـم
عرفت منه اخاء صادقا فلـــــذا ... ازجي الثناء له بالدر منتظـــم

* * *

يا أهل مغربنا انـــا نبادلكـــم ... هذا الصفاء بقلب طاهر وفـــم
باسم وفد ((عمان)) قد اشاطركـم ... هذا فعفوا من التقصير فى كلمـي
لقد حضرت وما دبجت قافيـــــة ... لكن بفندق حسان جـــرى قلمـــي
بمجلس انتم انـــوار بهجتـــــه ... فكان مرتجلا فى ثغر مبتســـم
فكلنا أمة نسعـــى الى هـــــدف ... للشمل يجتمع بالخير ملتئـــم
وكلنا إمة فى الديـــن واحـــدة ... فجر الوداد بدا من سالف القـــدم
واليوم زادت علاقات الاخاء وفضل ... يا طيب مبتداء منه ومحتتـــم
قابوس والحسن الثاني دعائمنـــا ... أبقاهما الله فى عز وفى نعـــم

سليمان خلف الخروصي

تحية

جاءت تسائلني على استحياء … وتقول : اين الغر من ابنائي ؟

اين الألى يزهو صباحي من بنا … آياتهم ، ويضيء وجه مسائي

ويرف حولي اليوم من آدابهم … وفنونهم ضاف من الأفياء

من كل خلاب القوافي لم ترم … تهفو اليه فطاحل الشعراء

غزل القصيد بنانه وبيانه … فجعلت من نسج القصيد كسائي

وكمثل طاووس توشت بردتي … من ألف لون ساحر وضاء

من كل شاد قد تصبى سحره … كل الورى دانيهم والنائي

يطوي اديم الارض طائر لحنه … كصدى حداء ذاب فى البيداء

بنشيده نحو السماوات العلى … أسريت حتى قمة الجوزاء

فاذا العوالم ارضها وسماؤها … لحن شجى رائع الاصداء

اين الألى فى فلكهم قد ابحرت … روحي لدنيا فتنة وصفاء

وعلى خطاهم سرت اختلب النهى … واعاقر الآنام خمر غنائي

جاءت تسائلني كذاك مشوقة … ولرب شوق سادر الغلواء

لبيك يا من عرش عبقر تحتها … و « عمان » عبقر صفوة النبغاء

يا من لها فى كل فن رائد … بيمينه للفن خير لواء

هاهم بنوك الغر فى الق الضحى … وشذى الربيع وروقة الانداء

نفحوا مغانينا بطيب فاغم … من فنهم ، صاف كقطرة ماء

فاذا الرباط عمان ، شعشع نـوره ... متوهجا مـن نورهـا الـلألاء

واذا العروبة هاهنا قلـب صحـا ... وأخ سعى لأخيـه سعـي ولاء

واذا المحيط الى الخليج هفا على ... شوق أشد لظى من الرمضـاء

فتعانق البحران وجدا ، شاكيـا ... كل لصاحبـه مـن البرحـاء

وتقاطف الاخوان زهر تواصـل ... من بعد طول تباعـد وتنائـي

رسل الثقافة من عمان ، تحيـة ... أسنى كوجه الكاعب الفيـداء

طابت كأنفاس الصبا ، وتعطـرت ... بمحبـة مكنونـة ووفـاء

فى يومكم هذا تبسم ضاحكـا ... عيد سيبقى مشرق الاضـواء

أو ليس يوما بالبشائر حافـلا ... سيماه فى الاعيـاد كالطغـراء

غنت به صحراؤنا ، أكرم بهـا ... أغنية ملأت فـم الصحـراء

ومن العيون الى حمى بوجدور لـم ... تفتأ تهـز مشاعـر الأدبـاء

فليبق عيدا للثقافـة يومكـم ... لا ، بل ليبق كذاك عيد اخـاء

قد باركتـه عنايـة أبويـة ... للجاحظ الثانـي اب البلغـاء

قطب الثقافة بيننا ووليهـا ... صبابـة الادبـاء دون مـراء

أحبابنا من دارنا الاخـرى لكـم ... فى كل قلب سـدة العليـاء

حل الربيع مؤقتا ، وحللتمـو ... ـ أنتم ـ ربيعا دائـم الـلألاء

الربـاط ... علـي الصقلي

برقية شكر من وزير الإعلام والثقافة العماني
السيد فهد آل سعيد
إلى
وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية
السيد الحاج محمد أباحنيني

يسعدني بمناسبة انتهاء الاسبوع الثقافي العماني فى المغرب الشقيق ، ان اعرب لكم عن شكري وتقديري لمجهوداتكم ومجهودات المشرفين بوزارتكم الموقرة ، والتي كان لها الفضل الكبير فى تحقيق الاهداف من الاسبوع ، الا وهو زيادة توثيق الروابط الاخوية القائمة بين بلدينا ، لما فيه صالح الشعبين الشقيقين فى ظل قيادة العاهلين جلالة السلطان قابوس المعظم وجلالة الملك الحسن الثاني المعظم ، ولا شك ان هذه الانشطة المتبادلة ستتلوها أنشطة أخرى على طريق التعاون البناء فى المستقبل ان شاء الله مع تمنياتنا لمعاليكم بموفور الصحة والتوفيق.

أخوكم فهد آل سعيد
وزير الاعلام والثقافة

حفلات ثقافية وفنية بمناسبة عيد العرش المجيد

تخليدا للذكرى السابعة عشرة لتربع صاحب الجلالة الملك المعظم الحسن الثاني نصره الله على عرش أسلافه المنعمين ، نظمت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية برنامجا ثقافيا وفنيا حافلا ، احتفاء بهذه المناسبة السعيدة استمر طوال شهر مارس وذلك حسب البرنامج التالي :

بمدينـــة الربـــاط :

يوم الجمعة 23 ربيـــع الاول 1398 الموافـــق 3 مـــارس 1978
فى الساعة التاسعة ليلا بمسرح محمد الخامس :

لوحات راقصة قدمها المعهد الوطني للموسيقى والرقص بالرباط
موطن الخالدين : قصيدة من شعر الاستاذ محمد بن الحسن اليوسفي
تلحين الاساتذة : عبد السلام عامر ، أحمد عواطف ، محمد الرايسي،
غناء : محمد الحياني ، اسماعيل أحمد ، كنزة الشريف .

المقدمـــة الموسيقيـــة للاستـــاذ محمد أبـــو درار .

الموسيقى الاندلسية : جوق معهدي فاس وتطوان برئاسة الحـــاج
عبد الكريـــم الـــرايس ومحمد العربـــي التمسمانـــي .

شعر الملحون : جوق معهدي فاس ومكناس برئاسة الحـــاج محمد
بوزوبـــع وحسين التولالـــي .

بمدينـــة فـــاس :

الجمعـــة 24 ربيع الاول 1398 الموافق 4 مارس 1978
فى التاسعة ليلا بقاعـــة سينما أمبيـــر

لوحات راقصة قدمها المعهد الوطني للموسيقى والرقص بالرباط :
موطن الخالدين : قصيدة من شعر الاستاذ محمد بن الحسن اليوسفي
تلحين الاساتذة : عبد السلام عامر ، أحمد عواطف ، محمد الرايسي،
غناء : محمد الحياني ، اسماعيل أحمد ، كنزة الشريف .

المقدمـــة الموسيقيـــة للاستـــاذ محمد أبـــو درار .

الموسيقى الاندلسية : جوق معهدي فاس وتطوان برئاسة الحـــاج
عبد الكريـــم الـــرايس ومحمد العربـــي التمسمانـــي .

شعر الملحون : جوق معهدي فاس ومكناس برئاسة الحـــاج محمد
بوزوبـــع وحسين التولالـــي .

بمدينة القنيطرة :

الجمعة 24 ربيع الاول 1398 الموافق 4 مارس 1978

في الساعة الثامنة والنصف ليلا بقاعة بلدية مدينة القنيطرة حفلة مسرحية قدم خلالها نادي البحث الفني مسرحية « التجربة »

بمدينة الرباط :

الجمعة 30 ربيع الاول 1398 الموافق 10 مارس 1978

في الساعة الثامنة والنصف ليلا بقاعة وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية حفلة مسرحية قدم خلالها مسرح الناس تحت اشراف الطيب الصديقي مسرحية « أبو كتف » .

السبت 1 ربيع الثاني 1398 الموافق 11 مارس 1978

في الساعة الرابعة بعد الزوال بقاعة كلية العلوم حفلة مسرحية قدم خلالها نادي البحث الفني مسرحية « التجربة »

الاحد 2 ربيع الثاني 1398 الموافق 12 مارس 1978

في الساعة العاشرة صباحا بقاعة وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية حفلة مسرحية الصغار قدم خلالها مسرح الكراكيز التابع لوزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية منوعات مسرحية من فن الكراكيز مع مسليات واناشيد .

الثلاثاء 4 ربيع الثاني 1398 الموافق 14 مارس 1978

في الساعة السابعة مساء بقاعة وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية عرض شريط سينمائي يحمل عنوان « ليمت الوحش » .

الجمعة 7 ربيع الثاني 1398 الموافق 17 مارس 1978

في الساعة السادسة والنصف مساء بقاعة وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية محاضرة القاها الدكتور عبد الله الطيب عميد كلية الآداب بجامعة الخرطوم ومدير جامعة جوبا سابقا والاستاذ بجامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس في موضوع : « مكانة أبي تمام بين شعراء العرب » .

الخميس 13 ربيع الثاني 1398 الموافق 23 مارس 1978

في الساعة السابعة مساء بقاعة وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية عرض شريط سينمائي يحمل عنوان : « فولبون » .

الجمعة 14 ربيع الثاني 1398 الموافق 24 مارس 1978

في الساعة التاسعة ليلا بقاعة وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية حفلة موسيقية من الطرب الغرناطي أحيتها الجمعية الوجدية الاندلسية للموسيقى والطرب .

الأيام الثقافية ببعض أقاليم المغرب الشرقي
من 27 مارس إلى 2 أبريل 1978.

تحت شعار « الثقافة للجميع » وفي اطار الايام الثقافية التي نظمتها وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية بمدن المغرب الشرقي قصد توعية المواطنين وتقريب الثقافة منهم . عرفت مدن تازة ، ووجدة ، وبركان ، والناضور ، والحسيمة مهرجانات حافلة بالانشطة الثقافية المتنوعة تضمنت :

— محاضرتين القاهما الدكتور عباس الجراري ، الاولى بمدينة تازة تحت عنوان : « قضايا الثقافة الوطنية » ، والثانية بمدينة وجدة تحمل عنوان : « آفاق الثقافة الشعبية » .

ـــ محاضرة القاها الاستاذ شبيهنا حمداتي في مــدن بركان ، والناضور والحسيمة في موضوع : ((دور العرش والشعب في استكمال الوحـــدة الوطنيـــة)) .

ـــ حفلات موسيقية احياها كل من جوق المرحوم البريهي وجوق الطرب الاندلسي لمدينة طنجة بقيادة الاستاذ محمد الرايسي .

ـــ عروضا مسرحية لعرائس الاطفال . ولفرقة البدوي التي قدمت مسرحية ((بين الطبيب والمحامي)) في كل من تازة ، ابركان ، الناضــور والحسيمة ووجـــدة .

ـــ معارض فنية ضمت نماذج من الكتاب المغربي والمخطوطات المغربية ولوحات من الفن التشكيلي والخط العربي وصوراً من المبانـــي الاثريـــة .

ودامت هذه التظاهرة الثقافية الكبـــرى من 27 مارس الى ثانـــي ابريـــل الماضي .

موسم 1977 ـ 1978 بمسرح محمد الخامس

تميز موسم 77 ــ 78 بمسرح محمد الخامس (من فاتح اكتوبر 77 الى غاية منتصف شهر ماي 78) بنشاط ملحوظ في جميـــع المجالات ، حيث شهدت بناية هذه المؤسسة الوطنية عدة مهرجانات وطنية ودولية لقيت نجاحا واقبالا من جمهور العاصمة ، زيادة عن الجولات الفنية التي عرفتها بعض المدن الاخرى كلما سمحت الظروف المادية بذلك .

وهكذا نظم مسرح محمد الخامس خلال المدة المذكورة ما يلي :

أ ـ فيما يخص العاصمـــة :

16 ــ عرضا مسرحيا قدمته فرقة المسرح الوطني ، وبعض الفـــرق المغربية الاخرى (مثل فرقة البدوي ــ المســـرح الطلائعـــي ، وجمعيات الهواة من الرباط ــ سلا ــ القنيطرة ومكناس) .

14 ـ مسرحية اجنبية (12 فرنسية و 2 ايطالية) .
10 ـ صبحيات خاصة بالاطفال ، (منها 8 باللغة العربية ، و 2 باللغة الفرنسية) .
12 ـ سهرة غنائية متنوعة عربية (موعد الاغنية الشهري ...) .
7 ـ سهرات راقصة : باليه مغربي وأجنبي فى اطار التبادل الثقافي .
2 ـ عرضين سينمائيين لفائدة العصبة المغربية لرعاية الطفولة والمنظمة العلوية للمكفوفين .
6 ـ سهرات غنائية متنوعة اجنبية .

ب ـ فيما يخص المدن الاخرى :

جرت العادة أن كل الفرق الاجنبية التي تزور المملكة تقدم عرضا خاصا بمدينة الدار البيضاء وعروضا فى المدن الاخرى اذا سمحت الظروف بذلك .

وفى هذا الصدد ، قدمت فرقة « باليه لينينفراد » ، عدة حفلات خاصة بموظفي وعمال المكتب الشريف للفوسفاط فى كل من خريبكة واليوسفية وآسفي والبيضاء والرباط ، كما قدمت فرقة « كركلا » اللبنانية للرقص عرضا خاصا لعمال هذا المكتب بمدينة اليوسفية .

وفى اطار التبادل الثقافي ، قامت فرقة مدينة « كلادنو » التشيكوسلوفاكية للكراكيز ، بجولة فنية لقيت نجاحا لا بأس به فى كل من مدن القنيطرة ومراكش وخريبكة والبيضاء .

كما زارت بلادنا فرقة الرقص الصينية « تشيكيانغ » التي كانت تود اعطاء عروض بمدن المملكة ، ولكنها لم تتمكن من ذلك ، لعدم توفر المسارح الصالحة لهذا الغرض .

ونظمت جمعية أصدقاء المسرح الفرنسي ، اربع جولات مسرحية ، قدمت خلالها أعمالا فنية لكتاب ومؤلفين مسرحيين فرنسيين ، فى كل من الرباط والبيضاء ومكناس وفاس ووجدة ومراكش وطنجة ، وفى عدة مؤسسات للتعليم العالي والثانوي بالعاصمة .

كما أشرفت وزارة الشبيبة والرياضة على جولة فنية للفرقة

التجريبية التابعة لها بمسرحية « العين والخلخال » فى جل مدن المملكة لقيت نجاحا لا بأس بــــه .

وفى اطار تشجيع فرق الهواة وبتعاون مع هذه الوزارة يقوم مسرح محمد الخامس بتنشيط « مسرح اكدال » الموجود بالمفتشية الاقليمية للشبيبة والرياضة ، لعرض المسرحيات الجادة ، أو التـــي فـــازت فى المهرجان الوطني لمسرح الهواة ، وذلك لقرب هذا المسرح من الاحيـــاء الجامعية والمؤسسات التعليمية العليا .

هذا وقد قامت فرقة المسرح الوطني ، التي تضم أجـــود العناصر باعداد مسرحية « الوارث » من اقتباس أحمد الطيب العلـــج والطيـــب الصديقي ، واخراج عبد الصمد دينية ، قدمت عدة مرات بالعاصمة وبعدة مــــدن أخـــرى .

وشهدت قاعة المسرح عدة تجمعات وطنية ودوليـــة بتعاون مـــع المنظمات الاجتماعية والهيئات السياسية .

أما بهو المعرض ، فقد شهد تنظيم المعرض الوطنـــي للصناعـــة التقليدية لمدة شهر كامل ، كما احتضن معرضا للفنان المغربـــي علـــي نخشى ، ومعرضا اتنوغرافيا لدولة عمان الشقيقة بمناسبة الاسبـــوع الثقافي لهذا البلد ، ومعرضا آخر للصور والمنتوجات اليدوية نظم تحت اشراف سفارة جمهورية هنغاريا بمناسبة عيدها الوطني .

توزيع الكتب على الخزانات وعـــلى المدارس الإبتدائية والـــثانويـــة

رغبة من وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية فى تيسير الثقافة واشاعتها بين المواطنين على حد سواء ، وتكميلا للدور الذي تقوم بـــه المدرسة والكلية من اجل بناء عالم الغد ، فان الوزارة لم تال جهدا فى الاعتناء بالمكتبات التابعة لها وذلك بتزويدها بما جد فى عالم الكتـــب فى شتى ميادين المعرفـــة .

كما أن الوزارة تقوم باقتناء المجلات والدوريات التي تصدر داخل الوطن وخارجه وتتولى توزيعها كذلك على مكتباتها ، وعلى المكتبات الخاصة، وعلى مختلف المدارس الابتدائية والثانوية ، تشجيعا منها للمتفوقين من تلامذتها فى آخر السنة الدراسية .

تمثيل المغرب في اللقاء العلمي الدولي للمآثر والتحف التاريخية

توصلت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية من الاتحاد السوفياتي بدعوة موجهة الى أحد الاخصائيين المغاربة لتمثيل بلادنا فى لقاء علمي دولي للمآثر والتحف التاريخية ، وقد أوفدت الوزارة السيدة نعمة الله الخطيب مندوبة وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية بالدار البيضاء للمشاركة فى هذه التظاهرة الثقافية المنظمة بموسكو وسوزدال ما بين 20 و 27 ماي 1978 .

دراسات حول الفنون والتقاليد الشعبية

فى اطار العلاقات الثقافية التي تربط المملكة المغربية بالجمهورية الفرنسية زار المغرب من 21 أبريل 1978 الى 30 منه السيد جان كويزنيي مدير البحث فى المركز الوطني للابحاث العلمية ومدير المركز الاثنولوجي الفرنسي ومحافظ متحف الفنون والتقاليد الشعبية بباريز ، وقد نظمت له وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية برنامج زيارته الى المغرب حيث عقد بالرباط ندوة مع محافظي المتاحف المغربية والمواقع التاريخية وتطرق فيها الى المواضيع التالية :

بحث حول الفنون والتقاليد الشعبية

المحافظة على القطع الفنية والتقاليد الشعبية

عرض المجموعات الفنية والتقاليد الشعبية

تكويــن الاساتــذة والبحـــث .

كما القى السيد كويزينيي فى قاعة الوزارة محاضرة تحت عنوان :

« الفنــون والتقاليــد الشعبيــة » .

الاحتفال بذكرى مرور أربعمائة ســنة على معركة وادي المخازن

اعتادت الامم والشعوب أن تقيم الاحتفالات والمهرجانات تخليــدا لكبريات انتصاراتها على مسار تاريخها ، معتزة بما سجلــه ابناؤها مــن بطولات عز نظيرها فى مجال الدفاع عن الوطن وحماية حوزته .

وخلال شهر غشت المقبل ستحل ذكرى مرور اربعمائة سنــة على الانتصار الباهر الذي حققه المغاربة الابطال فى معركة « وادي المخازن » المظفــــرة .

لذلك ، فقد اعتزمت حكومة صاحب الجلالة دام له النصر والتاييد الاحتفال بهذه الذكرى على المستوى الوطني . وستشرف وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية على تنسيق مختلف الانشطة التي ستسهم بها الوزارات التي عقدت النية على المشاركة في الاحتفال بالذكرى الخالدة.

وتستعد وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية باتصال مع مختلف الوزارات لاعداد مهرجانات ثقافية وفنية بالمناسبة ، تكون فى مستوى جلال الذكــرى وعظمتهــا .

اكتشاف موقعين أثريين جديدين لعصور ما قبل التاريخ بالمغرب

عرفت حفريات ما قبل التاريخ بالهرهورة ـ التي تقع على بعد 10 كلم من الرباط ، على الطريق الشاطئية المؤدية الى الدار البيضاء ـ حلقات متعددة من البحث والتنقيب لاكمال الكشف عن تطور الحياة البشرية بالمغرب ، أسفرت صدفة عن العثور على مركزين مهمين ، الاول بمغارة الزهرة فى نونبر 1976 ، والثاني بالهرهورة فى دجنبر 1977 .

لقد اظهرت التحليلات الاولى لطبقات الارض اهمية كبرى لقيمة الموقعين بالنسبة لدراسة العهد الجيولوجي الرابع للساحل المغربي .

ففي مغارة الزهرة ، اكتشفت ثلاثة مستويات للسكنى تمتد من العهد الاتيري (المستوى الادنى والمتوسط) وفترة التطور الفاصلة ما بين العهد الحجري القديم والعهد الحجري الحديث (المستوى العالـي) . وقد تم العثور فى هذه المستويات الثلاث على طبقتين تاريخيتين لمساكن قديمة وطبقة ثالثة تحتوي على ما يقرب من 15 جثة ومجموعة من الادوات الحجرية المتطورة .

اما موقع الهرهورة ، فيمثل العصور الحجرية الاثيرية والقديمة والحديثة ، وتتجلى اهميته التاريخية فى كونه يكمل الموقع الاول الذي لا يتوفر على مستوى من العهد الحجري الحديث ، حيث عثر فى هذا المستوى على هيكلين بشريين فى حالة جيدة .

ولاول مرة بالمغرب ، بادرت الهيئة العلمية التي أشرفت على هذه الاكتشافات ، الى الاعتماد على الاضاءة الحرارية (Thermoluminescence) فى التاريخ ، فتمكن الباحثون من تأريخ مغارة الزهرة بالفترة الممتدة ما بين سنة 25.000 ق.م. و 10.000 قبل ميلاد المسيح .

كما أشرفوا في عين المكان ، على وضع قوالب للهيكلين المذكورين ، وذلك باستخدام مادة السلستين (Silastenes) وهي مادة بلاستيكية تستعمل لاستخراج نماذج بقصد العرض في المتاحف الاثرية .

ونظرا لاهمية هذه المكتشفات التاريخية ، فقد أنجزت التلفزة المدرسية شريطا قصيرا بالالوان ، عن حفريات موقع الهرهورة ، وذلك في اطار برامجها حول التراث الوطني .

نتيجة جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق لسنة 1978

بناء على البلاغ الصادر عن وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية حول جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق ، تسلمت الوزارة كثيرا من المخطوطات والوثائق من مختلف أنحاء المملكة ، وعينت لها لجنة من المختصين .

وقد تفرغت هذه اللجنة لفحصها ، ودراستها ، وتقييمها . وبعد ما اتمت أعمالها انعقد اجتماع بين وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية وأعضاء اللجنة ، اطلع الوزير خلاله على نتائج فحص اللجنة ودراستها للمخطوطات والوثائق وتطبيق المقاييس المحددة ، وانتهى الاجتماع بالنتيجة التالية :

أولا : الاحتفاظ بالجائزتين الاولى والثانية .

ثانيا : منح الجائزة الثالثة للسيد محمد بن محمد السلاوي من فاس على مجموعة من الوثائق ترجع الى عصر المرينيين والسعديين والعلويين.

ثالثا : منح الجائزة الرابعة للسيد عبد السلام بن سودة من فاس على عدد كبير من الوثائق التي تمثل خطوط قضاة فاس ، مجموعة في كتاب الفه عنهم . وترجع الى عصور مختلفة بدءا من القرن التاسع الهجري .

رابعا : منح الجائزة الخامسة للسيد عبد الرحمن بوستة من الرباط على مجموعة كبيرة من الوثائق مختلفة الاهمية .

خامسا : منح خمس وسبعين مجموعة من الوثائق والمخطوطات مكافأة تشجيعية متدرجة فى قيمتها .

وبهذه المناسبة ، ستنظم وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية معرضا للمخطوطات والوثائق الفائزة فى هذه السنة ابتداء من الساعة السادسة والنصف من مساء يوم الاثنين 28 جمادى الثانية 1398 الموافق 5 يونيه 1978 وذلك بمقر الوزارة . وسيستمر هذا المعرض مدة عشرة أيام .

وتأمل وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية أن يرد عليها ـ بمناسبة المباراة المقبلة لنيل الجائزة ـ من الوثائق والمخطوطات العدد الكثير القيم الذي من شأنه أن يفيد الباحثين والدارسين لتراث المغرب وتاريخه .

المعرض العاشر للمخطوطات والوثائق الفائزة في هذه السنة بجائزة الحسن الثاني

نظم بوزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية فى مساء يوم الاثنين 28 جمادى الثانية 1398 الموافق 5 يونيه 1978 المعرض العاشر للمخطوطات والوثائق الفائزة بجائزة الحسن الثاني . وقد قام السيد الحاج محمد ابا حنيني ، وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية بتدشين هذا المعرض .

حضر حفلة التدشين ، بعض الوزراء وأعضاء السلك الديبلوماسي العربي ، وجمهور من المثقفين والباحثين .

قائمة المحاضرات التي نظمتها الوزارة
ابتداء من شهر يناير إلى غاية شهر مايو 1978

الرقم التسلسلي	المحاضر	عنوان المحاضرة	مكان القاء المحاضرة	تاريخ القاء المحاضرة	ملاحظات
1	الدكتور سهيل ادريس السيدة عايدة مطرجي	لقاء مع اتحاد كتاب المغرب (وضعية الادب العربي الراهنة)	قاعة الوزارة ـ الرباط	1978/1/ 9	نـدوة
2	الدكتور عباس الجراري	الفكر الوطني وقضية التراث	قاعة الوزارة ـ الرباط	1978/1/27	محاضرة
3	الاستاذ عبد الكريم غلاب	أزمة الفكر المغربي	قاعة الوزارة ـ الرباط	1978/2/10	محاضرة
4	الاستاذ مولاي علي الصقلي	قراءات شعرية	قاعة الوزارة ـ الرباط	1978/2/17	قراءات شعرية
5	الدكتور عبد الله الطيب	مكانة أبي تمام بين شعراء العرب	قاعة الوزارة ـ الرباط	1978/3/17	محاضرة
6	الدكتور عباس الجراري	قضايا الثقافة الوطنية	قاعة الشبيبة والرياضة ـ تازة	1978/3/27	محاضرة
7	الدكتور عباس الجراري	آفاق الثقافة الشعبية	قاعة الاجتماعات ببلدية وجدة	1978/3/28	محاضرة
8	الاستاذ شبيهنا حمداتي ماء العينين	جهود المغرب فى استكمال الوحدة الوطنية	مكتب الاستثمار الفلاحي ـ بركان	1978/3/29	محاضرة
9	الاستاذ شبيهنا حمداتي ماء العينين	جهود المغرب فى استكمال الوحدة الوطنية	قاعة الجمعية الخيرية ـ الناضور	1978/3/30	محاضرة
10	الاستاذ شبيهنا حمداتي ماء العينين	جهود المغرب فى استكمال الوحدة الوطنية	سينما الكبير ـ الحسيمة	1978/3/31	محاضرة

الرقم التسلسلي	المحاضر	عنوان المحاضرة	مكان القاء المحاضرة	تاريخ القاء المحاضرة	ملاحظات
11	الاستاذ محمد أبو طالب	ترجمات القرآن الى الانجليزية دراسة ونقد	قاعة الوزارة ـ الرباط	1978/4/17	محاضرة
12	Jean Cuisinier	La preservation des Arts et traditions populaires	قاعة الوزارة ـ الرباط	1978/4/27	محاضرة
13	الاستاذ عبد الرحمن الفاسي	ابو حيان التوحيدي	فندق اطلنتيد ـ آسفي	1978/5/ 5	محاضرة
14	الدكتور الحبيب الهيلة	بعثات الدعوة الاسلامية في عهد الفتح	كلية الشريعة ـ فاس	1978/5/17	محاضرة
15	الدكتور محمد الحبيب بلخوجة	بين الدين والعلم	المكتبة العامة ـ تطوان	1978/5/18	محاضرة
16	الدكتور عبد السلام الهراس	دور المغرب فى استمرار الحضارة	الشبيبة والرياضة ـ اكادير	1978/5/19	محاضرة
17	الدكتور عبد السلام الهراس	مفهوم التراث والمعاصرة	تيزنيت	1978/5/20	محاضرة
18	الدكتور محمد الحبيب بلخوجة	الادب فكر ونظم	قاعة البلدية ـ مراكش	1978/5/22	محاضرة
19	الدكتور رشدي فكار	الشباب وقضاياه المعاصرة	الشبيبة والرياضة ـ آسفي	1978/5/23	محاضرة
20	الدكتور الحبيب الهيلة	الرباطات الافريقية في عهد الاغالبة	قاعة البلدية ـ أكادير	1978/5/24	محاضرة
21	الدكتور محمد الحبيب بلخوجة	الدين فطرة والاسلام ضرورة عالمية	معهد محمد الخامس ـ تارودانت	1978/5/24	محاضرة
22	الدكتور عباس الجراري	المسرح عند العرب	الشبيبة والرياضة ـ أكادير	1978/5/26	محاضرة
23	الدكتور محمد الحبيب بلخوجة	أسس الدعوة الاسلامية	مسجد السنة ـ الرباط	1978/5/26	محاضرة
24	الدكتور الحبيب الهيلة	دور سبتة أواخر عهد الموحدين من خلال بعض الرسائل الديوانية	قاعة الوزارة ـ الرباط	1978/5/26	محاضرة
					محاضرة
25	الدكتور محمد الحبيب بلخوجة	درس ديني	سلا	1978/5/27	محاضرة
26	الدكتور عبد الله الطيب	شاعرية المتنبي	قاعة الوزارة ـ الرباط	1978/5/29	محاضرة
27	الدكتور محمد بنشريفة	الادب الاندلسي	الشبيبة والرياضة ـ آسفي	1978/5/31	محاضرة

لائحة الحفلات المسرحية التي نظمتها الوزارة من فاتح يناير إلى نهاية مايو 1978.

الرقم التسلسلي	المسرحية	الفرقة	التاريخ	القاعة	ملاحظات
1	الحلقة فيها وفيها	فرقة البدوي	1978/1/31	قاعة الوزارة	
2	المولد النبوي	هواة الفن	1978/2/21	قاعة الوزارة	
3	التجربة	نادي البحث الفني المسرحي	1978/3/4	مدينة القنيطرة	
4	أبو كتف	مسرح الناس	1978/3/10	قاعة الوزارة	
5	التجربة	نادي البحث الفني المسرحي	1978/3/11	كلية العلوم بالرباط	
6	بين الطبيب والمحامي	فرقة البدوي	1978/3/28	مدينة تازة	
7	بين الطبيب والمحامي	فرقة البدوي	1978/3/29	مدينة وجدة	حفلة أول
8	بين الطبيب والمحامي	فرقة البدوي	1978/3/29	مدينة وجدة	حفلة ثاني
9	بين الطبيب والمحامي	فرقة البدوي	1978/3/30	مدينة بركان	
10	بين الطبيب والمحامي	فرقة البدوي	1978/3/31	مدينة الناضور	
11	بين الطبيب والمحامي	فرقة البدوي	1978/3/1	مدينة الحسيمة	
12	ثورة صاحب الحمار	فرقة الكوميديا المسرحية	1978/4/22	قاعة الوزارة	
13	الخادمات	فرقة المركز الثقافي الفرنسي بفاس	1978/5/3	قاعة الوزارة	
14	التجربة	نادي البحث الفني المسرحي	1978/5/20	قاعة الوزارة	

لائحة الأشرطة السينمائية التي قدمتها الوزارة

مابين بداية يناير ومتم يونيو 1978.

الرقم التسلسلي	عنوان الشريط	تاريخ عرضه	مكان عرضه	ملاحظات
1	اكير أو غضب الاله لفارنر هيرزوك	12 يناير 1978	قاعة الوزارة	ناطق بالالمانية
2	نتالي اكرانج لمارجوريت دوراس	13 يناير 1978	قاعة الوزارة	ناطق بالفرنسية
3	معركة المحيط	2 فبراير 1978	قاعة الوزارة	ناطق بالفرنسية
4	شريط الرصيف وشريط عرض خاص	6 فبراير و 14 فبراير 1978	قاعة الوزارة	ناطق بالفرنسية
5	اكلير لامبارد	9 فبراير 1978	قاعة الوزارة	ناطق بالفرنسية
6	حفلة كيرميس	15 فبراير 1978	قاعة الوزارة	ناطق بالالمانية
7	معركة ستالينغراد	16 فبراير 1978	قاعة الوزارة	ناطق بالفرنسية
8	حياة خاشرة	12 فبراير 1978	قاعة الوزارة	ناطق بالالمانية
9	ثلاثة عشر شخصا حول طاولة	23 فبراير 1978	قاعة الوزارة	ناطق بالفرنسية
10	ليمت الوحش	14 مارس 1978	قاعة الوزارة	ناطق بالفرنسية
11	فوليون	23 مارس 1978	قاعة الوزارة	ناطق بالفرنسية
12	الجيكوندا ولوفا رسود	19 أبريل 1978	قاعة الوزارة	ناطقان بالفرنسية
13	حياة الحياة من اخراج جان لوك كودار	8 مايو 1978	قاعة الوزارة	ناطق بالفرنسية
14	أطفال الجنة من اخراج مارسيل كارني	9 مايو 1978	قاعة الوزارة	ناطق بالفرنسية
15	أفلام وثائقية عمانية	18 مايو 1978	قاعة الوزارة	ناطقة بالعربية
16	الانجليزيتان والعالم	6 يونيو 1978	قاعة الوزارة	ناطق بالفرنسية
17	الموت في البندقية	22 يونيو 1978	قاعة الوزارة	ناطق بالايطالية

برنامج المعارض الفنية خلال سنة 1978
بالقاعة الوطنية بباب الرواح

يناير	من 5 الى 30 يناير	السيد خلدوني نجيب الصحراوي
فبراير	من 6 الى 20 فبراير	معهد جوته
	من 20 الى 30 فبراير	السيد حسن الفروج والسيدة فاطمة حسن
مارس	من 5 الى 20 مارس	السيد سعيد الحساني
	من 20 الى 8 ابريل	السيدة الشعيبية طلال
أبريل	من 9 الى 20 أبريل	السيد عبد الرحمان الزناتي
	من 21 الى 30 أبريل	السيد حافظ مع مجموعة من البولونيين
ماي	من 16 الى 30 ماي	المرحوم بن علي الرباطي (مجموعة السيد علي الرزيني)
يونيو	من 1 الى 20 يونيو	السيد الشفشاوني محمد عزيز
	من23يونيو الى13يوليوز	المعرض السنوي لطلبة مدرسة الفنون الجميلة بتطوان
يوليوز	من 15 الى 30 يوليوز	السيد محمد قرماد (خطاط)
شتنبر	من 15 الى 30 شتنبر	السيد عبد السلام علي نور

اكتوبر	من 5 الى 30 اكتوبر	الرسام النمساوي السيد أوتريش
نوفمبر	من 1 الى 15 نوفمبر	السيد عمر بوركبة
	من 16 الى 30 نوفمبر	السادة : الجابري عبد الفتاح الاصمعي الطاهر قحطان محمد بلهيبة الحسين التريكي مصطفى
دجنبر	من 1 الى 15 دجنبر	معرض الزرابي
	من 16 الى 30 دجنبر	جمعية التشكيليين المغاربة (البيضاء)

برنامج المعارض الفنية خلال سنة 1978 ببهو الوزارة

يناير	من 9 الى 23 يناير	سفارة كندا
فبراير	من 1 الى 20 فبراير	السيد علي شرجان
مارس	من 7 الى 17 مارس	سفارة بلغاريا
	من 20 الى 30 مارس	سفارة كندا (معرض اعمال الهلال الاحمر)
أبريل	من 1 الى 15 ابريل	سفارة اسبانيا (معرض الكتب)
	من 17 الى 30 ابريل	السيد السباعي مصطفى

مـــاي	من 18 الى 30 مـــاي	السيـــد ميمـــون الفرخانـــي
يـــونيـــو	من 5 الى 15 يـــونيـــو	المعرض العاشر للمخطوطات والوثائق
	من 16 الى 30 يونيـــو	جمعية الفنون التشكيلية بالمغـــرب الشرقـــي
يـــوليـــوز	من 1 الى 19 يوليـــوز	معـــرض الرسائـــل الجامعيـــة
	من 20 الى 30 يوليـــوز	السيـــد الكحلونـــي يوســـف

برنامج المعارض الفنية خـــلال سـنة 1978 بمسرح محمد الخامس.

ابريـــل	من 6 الى 16 ابـريـــل	سفـــارة هنغاريـــا
مـــاي	مـن 4 الى 15 مـــاي	علـــي نخشـــى
يـــونيـــو	من 20 الى 26 يونيـــه	جمعية حماية الاســـرة المغربيـــة

برنامج المعـــارض الفنية خـــلال سـنة 1978 بمتحف الأوداية

مـــاي	من 8 الى 15 مـــاي	معرض الادوات الاركيولوجية للبعثة الاركيولوجية الامريكية بالمغـــرب « نظرة عن الحياة فى القرون الوسطى بالقصـــر الصغيـــر »
	من 18 الـى 30 مـــاي	معرض اللوحات «بس» الزاترنيريالم

لائحة الحفلات الموسيقية التي نظمتها الوزارة ما بين بداية يناير ومتم يونيه 1978

الرقم التسلسلي	الجوق الموسيقي	موضوع الحفلة	تاريخ الحفلة	مكان وتنظيم الحفلة	ملاحظات
1	الشباب الموسيقي	معزوفات عالمية	1978/1/20	قاعة الوزارة	
2	الجوق السانفوني للمعهد الوطني بالرباط	معزوفات كلاسيكية	1978/1/23	قاعة الوزارة	
3	جوق شتوتغارت الالماني	معزوفات عالمية	1978/2/ 6	قاعة الوزارة	
4	جوق معهد مراكش ومعهد أكادير	حفلة موسيقية متنوعة	1978/2/10	قاعة بلدية اكادير	
5	شباب النهضة الاسلامية	حفلة موسيقية متنوعة بمناسبة المولد النبوي	1978/2/24	قاعة الوزارة	
6	الثنائي كارزاريا ــ كارفانيا الايطالي	معزوفات كلاسيكية	1978/2/28	قاعة الوزارة	
7	الجوق السانفوني للوزارة، والجوق الاندلسي بفاس وتطوان، وجوق الملحون بفاس	حفلة موسيقية متنوعة بمناسبة عيد العرش السعيد	1978/3/ 3	مسرح محمد الخامس	
8	الجوق السانفوني للوزارة، والجوق الاندلسي بفاس وتطوان، وجوق الملحون بفاس	حفلة موسيقية متنوعة بمناسبة عيد العرش السعيد	1978/3/ 4	سينما لومبير بفاس	
9	الجمعية الوجدية للموسيقى الاندلسية	حفلة من الطرب الغرناطي والموشحات الاندلسية	1978/3/24	قاعة الوزارة	
10	جوق المرحوم البريهي للموسيقى الاندلسية، وجوق الملحون	حفلة من الموسيقى الاندلسية وطرب الملحون	1978/3/27	سينما كوليزي بتازة	الاسبوع الثقافي بمدن المغرب الشرقي
11	جوق المرحوم البريهي للموسيقى الاندلسية، وجوق الملحون	حفلة من الموسيقى الاندلسية وطرب الملحون	1978/3/28	سينما روايال بوجدة	الاسبوع الثقافي بمدن المغرب الشرقي
12	جوق المرحوم البريهي للموسيقى الاندلسية، وجوق الملحون	حفلة من الموسيقى الاندلسية وطرب الملحون	1978/3/29	سينما الاندلس ببركان	الاسبوع الثقافي بمدن المغرب الشرقي
13	جوق المرحوم البريهي للموسيقى الاندلسية، وجوق الملحون	حفلة من الموسيقى الاندلسية وطرب الملحون	1978/3/30	سينما الريف بالناضور	الاسبوع الثقافي بمدن المغرب الشرقي

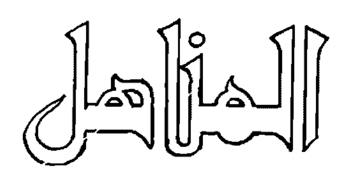
	الجوق الموسيقي	موضوع الحفلة	تاريخ الحفلة	مكان وتنظيم الحفلة	ملاحظات
14	جوق المعهد الموسيقي بطنجة	حفلة من الموسيقى الاندلسية وطرب الملحون	1978/3/31	سينما الكبير بالحسيمة	الاسبوع الثقافي بمدن المغرب الشرقي
15	الثلاثي الايطالي دي كومو	معزوفات كلاسيكية	1978/4/13	قاعة الوزارة	الاسبوع الثقافي بمدن المغرب الشرقي
16	الثنائي كوليس ومووردن	حفلة من الموسيقى والغناء الكلاسيكي	1978/5/ 6	قاعة الوزارة	
17	مجموعة السيدة ماري هوشيت	حفلة من الموسيقى والرقص الكلاسيكي	1978/5/17	قاعة الوزارة	
18	الفرقة العمانية للفنون الشعبية	حفلة من الموسيقى العمانية	1976/5/17	مسرح محمد الخامس	الاسبوع الثقافي العماني بالمغرب
19	الفرقة العمانية للفنون الشعبية	حفلة من الموسيقى العمانية	1978/5/18	سينما لومبيير بفاس	الاسبوع الثقافي العماني بالمغرب
20	الفرقة العمانية للفنون الشعبية	حفلة من الموسيقى العمانية	1978/5/20	المسرح البلدي بالدار البيضاء	الاسبوع الثقافي العماني بالمغرب
21	الشباب الموسيقي	معزوفات كلاسيكية	1978/6/15	قاعة الوزارة	

لائحة حفلات الرقص التعبيري التي نظمتها الوزارة
مابين بداية يناير ومتم يونيه 1978

الرقم التسلسلي	الجوق الموسيقي	موضوع الحفلة	تاريخ الحفلة	مكان تنظيم الحفلة	
1	نادي البحث الفني	حفلة من الرقص التعبيري	1978/2/18	قاعة الوزارة	
2	نادي البحث الفني	حفلة من الرقص التعبيري	1978/4/ 8	قاعة بلدية سلا	
3	لقاء الربيع للرقص التعبيري والكلاسيكي	حفلات متنوعة من الرقص الكلاسيكي والتعبيري	من 28 ابريل الى 1 مايو 1978	قاعة الوزارة	

لائحة حفلات الأطفال التي نظمتها الوزارة
خلال النصف الأول من السنة الجارية

الرقم التسلسلي	الفرقة	نوع الحفلات	تاريخ الحفلات	مكان الحفلات
1	فرقة الكراكيز التابعة للوزارة	صبيحة للاطفال	19 / 3 / 1978	قاعة الوزارة
2	فرقة الكراكيز التابعة للوزارة	أمسية للاطفال	28 / 3 / 1978	ثانوية ابن الياسمين بتازة
3	فرقة الكراكيز التابعة للوزارة	أمسية للاطفال	29 / 3 / 1978	ثانوية الجاحظ ـ وجدة
4	فرقة الكراكيز التابعة للوزارة	أمسية للاطفال	30 / 3 / 1978	مكتب الاستثمار الفلاحي ببركان
5	فرقة الكراكيز التابعة للوزارة	أمسية للاطفال	31 / 3 / 1978	قاعة الشبيبة والرياضة بالناضور
6	فرقة الكراكيز التابعة للوزارة	أمسية للاطفال	1 / 4 / 1978	سينما الكبير ـ الحسيمة
7	فرقة الكراكيز التابعة للوزارة	أمسية للاطفال	4 / 4 / 1978	سينما أستوريا بالقصر الكبير
8	[illegible]	أمسية للاطفال	7 / 4 / 1978	قاعة الجمعية الخيرية بالرباط
9	فرقة الكراكيز التابعة للوزارة والثنائي بيم وبوم	أمسية للاطفال	6 / 6 / 1978	مستشفى ابن سينا للاطفال بالرباط
10	فرقة الكراكيز التابعة للوزارة والثنائي بيم وبوم	أمسية للاطفال	7 / 6 / 1978	مستشفى العياشي سلا
11	فرقة الكراكيز التابعة للوزارة والثنائي بيم وبوم	أمسية للاطفال	8 / 6 / 1978	مستشفى مولاي يوسف بالرباط
12	فرقة الكراكيز التابعة للوزارة والثنائي بيم وبوم	صبيحة للاطفال	11 / 6 / 1978	قاعة الوزارة
13	فرقة الكراكيز التابعة للوزارة والثنائي بيم وبوم	صبيحة للاطفال	18 / 6 / 1978	قاعة الوزارة

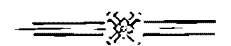


تصـدرهـــا :

وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافيـــة

زنقة غاندي ـ الرباط ـ المغـرب

التليفون : 318.91 / 92 / 93



AL - MANAHIL

Publication du
MINISTERE D'ETAT CHARGE DES AFFAIRES CULTURELLES

Rue Ghandi - Rabat (Maroc)
Tél. : 318-91/92/93

مطبعة فضالة ـــ المحمدية (المغرب)